مُختصر

كتاب تلبيس إبليس

للإمام أبي الفرج عبد الرحمن بن الجوزي القرشي البغدادي
المتوفى سنة ٥٩٦ هـ

إختصره وعلّق عليه
علي الشربجي

مؤسسة الرسالة

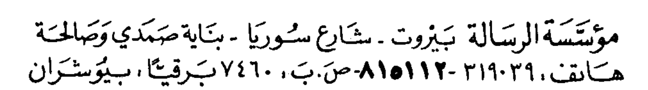



مختصر
كتاب تلبيس ابليس

الطبعة الأولى

١٤١٢هـ - ١٩٩٢م




مؤسسة الرسالة بيروت - شارع سوريا - بناية صمدي وصالحة
هاتف: ٣١٩٠٣٩ - ٨١٥١١٢ - ص.ب: ٧٤٦٠ برقيا: بيوشران

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة المختصر

اللهم لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك، وعظيم سلطانك، سبحانك لا نحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك، لا إلّه إلاَّ أنت نستغفرك ونتوب إليك، أهل الثناء والمجد. أفضل ما قال العبد وكلنا لك عبد: لا مانع لما أعطيت، ولا معطي لما منعت، ولا ينفع ذا الجد منك الجد.

اللهم صلِّ وسلِّم على عبدك ونبيك سيدنا محمد نبي الهدى والرحمة، الذي أرسلته بالحق بشيراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً، وارض اللهم عن أصحابه الطيبين الغر الميامين، الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه، وما بدلوا تبديلاً.

وارض اللهم عن أتباعهم، وأتباع أتباعهم والذين جاؤوا من بعدهم وساروا على دربهم وتأسوا بسيرتهم إلى يوم الدين، واجعلنا منهم يا رب العالمين.

وبعد، فإن خير الكلام كلام الله عزّ وجل، وخير الهدي هدي محمد رسول الله ﷺ، وشر الأمور محدثاتها.

هذا، وقد أوجب الله تعالى على الناس اتباع دينه، وألزمهم طاعته وطاعة رسوله، فقال عزّ وجل: ﴿يَا أَيُّها الَّذينَ آمنُوا أطيعوا اللَّهَ ورَسُولَهُ ولا تَوَلَّوا عنهُ وأَنتمْ تَسْمَعُونَ﴾[1].

---

(١) سورة الأنفال: الآية ٢٠.

وقال عزّ وجل: ﴿اتَّبِعُوا ما أُنزلَ إليكم منْ رَبكُمْ وَلا تتَّبِعُوا منْ دُونِهِ أَوْلياءَ﴾[1].

وقال ـ عزّ من قائل: ﴿وَما آتاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوه وما نَهاكُمْ عنهُ فَانتهُوا﴾[2].

وقد أمر الله تبارك وتعالى نبيه ﷺ أن يقول للناس: ﴿قُلْ إنْ كنتمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فاتَّبِعُوني يُحبِبْكُمُ اللَّهُ ويَغْفِرْ لكمْ ذُنُوبَكم واللَّهُ غفورٌ رحيمٌ. قُل أطيعُوا اللَّهَ والرَّسُولَ فإنْ تَولَّوا فإنَّ اللَّهَ لا يُحبُّ الْكافرين﴾[3].

الإسلام دين الحق:

إن الله عزّ وجلّ هو الحق ﴿ذلكَ بأنَّ اللَّهَ هُوَ الحقُّ﴾[4].

وأنزل دينه للناس بالحق ﴿وَبالْحقِّ أَنزلناهُ وبالْحقِّ نَزَلَ﴾[5].

و ﴿أَرسَلَ رَسُولَهُ بالْهُدى وَدِينِ الْحقِّ﴾[6]؛ ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحقُّ وزَهَقَ الباطلُ إنَّ الباطلَ كانَ زَهُوقاً﴾[7].

ولا يصلح حال الخلق إلا بالحق، ولا يستقيم أمرهم إلاَّ به. ﴿فَماذَا بَعدَ الْحقِّ إلاَّ الضَّلالُ فأنَّى تُصرَفُونَ﴾[8].

وكتاب الله عزَّ وجل هو الكتاب الحق الذي ﴿لَا يَأتيهِ الْباطِلُ مِنْ بَينِ يَديْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكيمٍ حَميدٍ﴾[9]، وهو عصمة الناس من

---

(١) سورة الأعراف: الآية ٣.
(٢) سورة الحشر: الآية ٧.
(٣) سورة آل عمران: الآيتان ٣١ ـ ٣٢.
(٤) سورة الحج: الآية ٦.
(٥) سورة الإسراء: الآية ١٠٥.
(٦) سورة التوبة: الآية ٣٣.
(٧) سورة الإسراء: الآية ٨١.
(٨) سورة يونس: الآية ٣٢.
(٩) سورة فصلت: الآية ٤٢.

الضلال، وهو القائد لهم إلى الخير، وسُبل السلام، لن يهلكوا ما تمسكوا به، ولن يذلوا ما أقاموا شرعه، واهتدوا بهداه. ﴿إِنَّ هذا الْقرآنَ يَهدِي لِلَّتي هِيَ أَقْومُ ويُبشِّرُ الْمؤمنينَ الَّذينَ يَعملُونَ الصَّالحاتِ أَنَّ لَهمْ أَجراً كبيراً﴾(١).

وسنَّة رسول الله ﷺ حق، وهي الكاشف لمعاني هذا القرآن، وهي البلاغ المبين لهديه الرصين، والفيصل البليغ لما أجمل فيه، تأتي بعده في المرتبة، وتليه في التشريع والتربية، ليس للناس ــ إن أرادوا السعادة ــ غنىً عنها، ولا يصلح حالهم إلاَّ بتطبيقها والعمل بها، فإن شذّوا عنها فعلى أنفسهم جنوا، وإلى أنفسهم أساؤوا.

«يا عِبادي إنما هِيَ أعمالُكمْ أحْصيها لكمْ ثُمَّ أوفيكمْ إيَّاها، فمنْ وجدَ خيراً فليحمَدِ اللَّهَ، ومنْ وجدَ غيرَ ذلِكَ فلا يلُومنَّ إلاَّ نفسَهُ»(٢).

وقال عليه الصلاة والسلام: «تركتُ فيكمْ أمرينِ لَنْ تَضلُّوا ما تمسكتُم بهما: كتابَ اللَّهِ وسنَّةَ رسولِهِ»(٣).

وقال ﷺ: «عليكم بسنَّتي وسنَّةِ الْخلفاء الرَّاشدينَ الْمهديينَ عضُّوا عليها بالنَّواجذ، وإيَّاكم ومُحدثَاتِ الأُمورِ، فإنَّ كلَّ بِدْعة ضلالَةٌ»(٤).

وقال أيضاً: «تركتكمْ على البَيضاءِ لَيلُهَا كَنهارِهَا، لا يَزيغُ عَنْها

(١) سورة الإسراء: الآية ٩.

(٢) حديث قدسي، أخرجه مسلم (٢٥٧٧) في كتاب البرّ: باب تحريم الظلم.

(٣) رواه مالك في الموطأ (١٦١٩) مرسلاً. قال الشيخ ناصر الدين الألباني في مشكاة المصابيح (١/٦٦) هو معضل، لكن له شاهد من حديث ابن عباس بسندٍ حسن أخرجه الحاكم، وقد ذكره الشيخ ناصر، في سلسلة الأحاديث الصحيحة (٤/٣٦١).

(٤) أخرجه الترمذي (٢٦٧٦) في العلم: باب ما جاء في الأخذ بالسنة، واجتناب البدع، وأبو داود (٤٦٠٧) في السنَّة، باب في لزوم السنة، وابن ماجه (٤٢) في المقدمة: باب اتباع سنة الخلفاء الراشدين.

بعدي إلَّا هَالِكٌ»[1]، فالقرآن والسنَّة هما عمود هذا الإسلام، وأُسُّ هذا الدِّين، وقبسه المنير.

لا يقبل الله من الناس غير الإسلام:

والإسلام دين الله الذي اصطفاه لعباده، واختاره لعموم خلقه: ﴿إنَّ اللَّهَ اصْطفى لكمُ الدِّينَ فَلا تَموتُنَّ إلَّا وأنتم مُسلمونَ﴾[2]، وقال عزّ وجل: ﴿ورَضيتُ لكمُ الْإسلامَ دِيناً﴾[3]، وهو سبحانه لا يقبل من الناس غيره، ولا يرضى منهم سواه.

ومالهم ــ إن أرادوا لأنفسهم خير الدنيا وسعادة الآخرة ــ إلَّا أن يعتصموا بهذا الإسلام، ويستمسكوا بعراه التي لا تنفصم.

قال عزّ وجل: ﴿وَاعتصمُوا بحبلِ اللَّهِ جميعاً﴾[4]، وقال: ﴿إنَّ الدِّينَ عندَ اللَّهِ الْإسلامُ﴾[5]، وقال: ﴿ومَنْ يَبتغِ غيرَ الْإسلامِ دِيناً فلنْ يُقبلَ منهُ وهُوَ في الْآخرةِ مِنَ الْخاسِرينَ﴾[6].

الإسلام دعوة إلى التوحيد:

وقد دعا هذا الدين الناس جميعاً إلى توحيد الله في ألوهيته وربوبيته، وفي ذاته وصفاته وأفعاله، كما دعاهم إلى عبادته وحده، فهو الإله الحق، لا شريك له، ولا رب سواه ﴿فَاعْلَمْ أنَّهُ لا إلَهَ إلَّا اللَّهُ﴾[7]، ﴿يا صَاحِبي السِّجنِ أأرْبابٌ مُتفرقُونَ خَيرٌ أمِ اللَّهُ الْواحدُ الْقهَّارُ. ما تعبدُون مِنْ دُونِهِ

(١) أخرجه ابن ماجه (٤٣) في المقدمة: باب اتباع سنَّة الخلفاء الراشدين.
(٢) سورة البقرة: الآية ١٣٢.
(٣) سورة المائدة: الآية ٣.
(٤) سورة آل عمران: الآية ١٠٣.
(٥) سورة آل عمران: الآية ١٩.
(٦) سورة آل عمران: الآية ٨٥.
(٧) سورة محمد: الآية ١٩.

إلَّا أسماءً سَمَّيتمُوها أنْتُمْ وآباؤُكمْ ما أنْزلَ اللَّهُ بها من سُلطانٍ إنِ الحكمُ إلَّا للَّهِ أمرَ ألَّا تَعبدُوا إلَّا إيَّاهُ ذلكَ الدِّينُ الْقيمُ ولكنَّ أكثر الناسِ لا يَعلمُون﴾[1].

وبهذا يكون هذا الإسلام قد وحَّد عقول الناس، وربطهم بمصدرٍ واحدٍ، بيده الخير، وهو على كل شيء قدير، فاستمدوا منه القوة، ودانوا له بالطاعة والعبادة.

الإسلام أوجب طلب العلم:

وهذا الدين الحق فرض على الناس طلب العلم، وأوجبه عليهم، وحثَّهم على التعلُّم، وحضهم عليه، ووعدهم الأجر والثواب، وحذرهم من الجهل، وبيَّن سوء عواقبه.

قال رسول الله ﷺ: «طَلَبُ الْعِلمِ فَريضةٌ عَلَى كلِّ مُسلمٍ»[2].

وقال: «إنَّ الملائكةَ لتضعُ أجنحتَها رضاً لطالبِ الْعِلمِ»[3].

وقال عزّ وجلّ: ﴿وَقُلْ رَبِّ زدني عِلماً﴾[4].

وقال: ﴿هَلْ يَستَوي الَّذين يَعْلمُونَ والَّذينَ لا يَعلمونَ، إنَّما يَتذكَّرُ أولو الألبَابِ﴾[5].

---

(١) سورة يوسف: الآيات ٣٩ ــ ٤٠.

(٢) أخرجه ابن عدي والبيهقي، وغيرهما، قال الشيخ ناصر الدين الألباني في صحيح الجامع الصغير: حديث صحيح.

(٣) أخرجه أبو داود (٣٦٤١) في العلم: باب الحث على طلب العلم، والترمذي (٢٦٨٢) في العلم: باب فضل الفقه على العبادة، وابن ماجه (٢٢٣) في المقدمة: باب فضل العلماء والحث على طلب العلم.

(٤) سورة طه: الآية ١١٤.

(٥) سورة الزمر: الآية ٩.

الإسلام أنكر الجهل وحذر منه :

وبناءً على ترغيب الإسلام بالعلم، فقد عاب الجهل، وأنكر على أصحابه، لأن الجهل إنما يعني أن يعيش الإنسان في ظلام، والله يقول:

﴿كتابٌ أنزلْناهُ إليكَ لتُخرجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلمات إلى النُّورِ بِإذنِ ربِّهِمْ﴾[1].

والجاهلُ أقرب ما يكون إلى الانحراف والضلال، وما أكثر ما يكون فريسة للهوى، وصريعاً بين يدي الغواية والضياع، يجهل سبل الخير، ولا يعرف طريق الحق والصواب، وربما سعى لحتفه بنفسه. قال تعالى: ﴿فَلا تكونَنَّ مِنَ الْجاهلينَ﴾[2].

ذم التقليد الأعمى :

والإسلام لم يرضَ للمسلم أن يستعير ما في رأس غيره من عقل، ويعيش هو مسلوب الرأي والتفكير، يجري حثيثاً وراء كل ناعق، لا يدري أبِالحق يتبع غيره، أم بالباطل، بل إن الله عزَّ وجل كرَّم هذا الإنسان بما حباه من الحواس السليمة، واللب القادر على التفكير، والوصول إلى الحقيقة، إن هو سلك مسالك طلَّاب العلم، واستخدم تلك المواهب فيما خلقها الله من أجله، فقد أخرج الله الإنسان من بطن أمه مزوداً بكل آلات العلم، وأدوات المعرفة، قال الله عزَّ وجل: ﴿واللَّهُ أخرَجكُمْ مِنْ بُطُونِ أمَّهاتكُمْ لا تَعلمُونَ شَيْئاً وجَعلَ لكُمُ السَّمعَ والأبصارَ والأفئدَةَ لعلَّكُمْ تَشكرُونَ﴾[3]، وقال ﷺ: «كلُّ مَولودٍ يُولدُ على الفُطْرةِ»[4].

والإنسان مسؤول عن هذه المواهب، إن هو قصَّر في رعايتها، أو استعملها في غير وظيفتها، أو أهملها، وسار بها في دياجير الجهل والظلام، قال تعالى: ﴿إنَّ السَّمعَ والْبصرَ والْفُؤادَ كلُّ أولئكَ كانَ عنهُ مَسؤولاً﴾[5].

---

(١) سورة إبراهيم: الآية ١. (٢) سورة الأنعام: الآية ٣٥. (٣) سورة النحل: الآية ٧٨.

(٤) أخرجه البخاري (١٣٨٥) في الجنائز: باب ما قيل في أولاد المشركين.

(٥) سورة الإسراء: الآية ٣٦.

هـذا وقد عـاب القرآن التقليـد في الضلال، وتحـدث عن فشل أولئـك الحمقى، وخيبة أمالهم، حين نفضـوا أيديهم ممن قلدوهم، وتـوسَّموا الخيـر فيهم. ﴿وَقالُوا رَبنا إنَّا أطعنَا سادَتنا وكبراءَنا فأضلُّونَا السَّبيل. ربَّنا آتِهِمْ ضِعْفَين من الْعَذابِ والْعَنْهُمْ لَعناً كبيراً﴾[1].

خير الناس العلماء:

ولا شـك أن خيـر النـاس وأفضلهم عنـد الله تعـالى، إنمـا هم العلمـاء العـاملون، الـذين علمـوا عن الله مـا يـريـد، وعملوا بمـا كلفهم بـه، وأوجبـه عليهم، فكـانوا المنـائر في الـظلمات، والهـداة للناس من الحيـرة والضيـاع، والـدعاة إلى الله بـالحكمة والمـوعظة الحسنـة، امتدحهم الله عـزَّ وجـل وأثنى عليهم بقوله: ﴿يَرفـع اللَّهُ الَّذينَ آمنُوا منكم والَّذينَ أُوتُـوا الْعِلمَ دَرجاتٍ﴾[2]، ولا شـك أن خير العلوم مـا صلحت بـه العقيدة، واستقـامت بـه الملة، وأخذ بيد الإنسان إلى فضائل الأخلاق والأعمال.

وهـذه العلوم هي علوم الدين من عقيـدة وحديث وتفسيـر، التي أمر الله الخلق بطلبها، ولم يقبل منهم عبادة لا تقوم على أساسها.

قال عليه الصلاة والسلام: «من يُردِ اللَّهُ بِـهِ خيراً يُفقِههُ في الدِّينِ»[3].

وقال: «خَيرُكم من تعلَّمَ الْقرآنَ وعلَّمهُ»[4].

وقال: «نَضَّرَ اللَّهُ امْرَءاً سَمِـعَ منَّا حديثاً فحفظهُ حتَّى يُبلغهُ»[5].

---

(١) سورة الأحزاب: الآيتان ٦٧ ـ ٦٨.
(٢) سورة المجادلة: الآية ١١.
(٣) أخرجه التـرمذي (٢٦٤٥) في العلم: بـاب إذا أراد الله بعبدٍ خيـراً فقَّهه في الـدين، وقال: حسن صحيـح.
(٤) أخرجه البخاري (٥٠٢٧) في فضائل القرآن: بـاب خيركم من تعلم القـرآن وعلمه، والترمذي (٢٩٠٩) في أبواب ثواب القرآن: باب ما جاء في تعليم القرآن.
(٥) أخـرجه التـرمـذي (٢٦٥٦) في العلم: بـاب الحث على تبليـغ السمـاع، وأبـو داود (٣٦٦٠) في العلم: باب فضل نشر العلم.

وقال ﷺ: «واللهِ لأنْ يَهديَ اللّهُ بكَ رَجلاً واحداً خَيرٌ لكَ من حُمْر النَّعَم»[1].

وفي ضوء هذه الدعوة إلى العِلم سار ركب علماء المسلمين، فوقفوا حياتهم على دراسة هذا الإسلام، ومعرفة أحكامه وشرائعه، وأهدافه ومراميه، ونبغوا في الغوص وراء درره، والكشف عن كنوزه وجواهره، فأسسوا قواعد العلوم، وقعَّدوا قواعدها، وكتبوا في كل صنف من أصنافه ونوع من أنواعه، فأقاموا صرح علوم الإسلام عالياً شامخاً، وحرسوه وصانوه بالقواعد والضوابط من كل آثمة وعادية، فغدا هذا الإسلام بفضلهم حصناً منيعاً، لا تطوله يد السوء بشرّ، ولا يطمع المغرضون أن يصيبوه بضرّ.

خير القرون:

ولا شك أن خير الناس أولئك الذين عايشوا الرسول ﷺ في حياته، وكانوا معه في دعوته، واستمعوا إلى هديه، وكرعوا من معين بلاغته، فكانوا تلامذته الأولين، وأصحابه الأقربين، تعلموا منه، وتفقهوا على يديه، واستنوا به في كل عمل، وتأسوا بسلوكه المعصوم من الخطل والخلل.. خاضوا معه المعارك، وحملوا معه راية الإسلام، فكانوا خير الدعاة، وصفوة العلماء، استحقوا بجدارة أن يقول الله عزَّ وجل فيهم: ﴿كُنتمْ خيرَ أُمَّةٍ أخرجتْ للنَّاسِ تأمرونَ بالْمعروفِ وتنهوْنَ عَنِ المنكرِ وتُؤْمنُونَ باللَّهِ﴾[2].

ثم جاء بعدهم تلامذتهم البررة، وطلابهم الذين تربُّوا على أيديهم في العلم والعمل، فكان جيل التابعين، فاستنوا سنة أصحاب رسول الله ﷺ، وساروا على دربهم في التمسك بهدي النبي ﷺ، والسير على نور الكتاب والسنَّة.

---

(١) أخرجه البخاري (٢٩٤٢) في الجهاد: باب دعاء النبي ﷺ إلى الإسلام.

(٢) سورة آل عمران: الآية ١١٠.

ثم خلف التابعين أتباع التابعين، فلم يشذوا عن جوهر ما نقلوه عمن سبقهم، ولم يقصروا في اللحاق بركب من أخذوا عنهم، بل زادوا في العلوم اتساعاً، وكانوا من أطول الناس في الحق باعاً، ففي عهدهم ألقى الإسلام بجرانه، وأضاء مشارق الأرض ومغاربها بأنواره، وعلا صوت الحق، واندحر الباطل، وفي هؤلاء وأولئك من الصحابة والتابعين وأتباعهم جاء الخبر في الثناء عليهم. قال رسول الله ﷺ: «خَيرُ النَّاسِ قَرْني، ثُم الَّذينَ يَلونَهُمْ، ثُم الَّذينَ يلونَهُمْ»(1). وهؤلاء هم الذين وُسِمُوا بسمة السلف الصالح والعلماء العاملين، رضي الله عنهم أجمعين.

ظهور البدع، والتحذير منها:

في تلك العصور الفاضلة، والقرون الخيرة اندحر الباطل، وانشمر أهله إلى جحورهم، ولكن قلوبهم كانت تغلي بالحقد على الإسلام، وتفور بالكراهية للمسلمين، فلجؤوا في الخفاء يحيكون الحبائل، ويرسمون في دياجير الظلم خيوط الدسائس، رغبةً في أن يكسروا عصا الإسلام، ويبعثروا وحدة المسلمين، وكان من سلاحهم الذي عملوا به، وعتادهم الذي أعدُّوه نشر البدع بين عوام المسلمين، وذلك بصياغة الأكاذيب على النبي ﷺ، ودسِّها في صدور الناس، ورأوا أن هذا الباب عريض، وهذا الميدان فسيح، وبإمكانهم أن يأخذوا فيه راحتهم من غير أن يلفتوا أنظار العوام من المسلمين إلى سوء صنيعهم، فكان لهم كثير مما أرادوه، ووصلوا إلى تحقيق كثير من الأغراض التي قصدوها.

---

(1) أخرجه البخاري (٢٦٥٢) في الشهادات: باب لا يشهد على شهادة جور إذا أشهد، ومسلم (٢٥٣٣) في فضائل الصحابة: باب فضل الصحابة، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، قال الإمام النووي: اتفق العلماء على أن خير القرون قرنه ﷺ، واختلف في المراد بالقرن، والصحيح أن قرنه الصحابة، والثاني التابعون، والثالث تابعوهم.

أضِف إلى ذلك أنه وجد إلى جانب هؤلاء الدسَّاسين، ناس صالحون حملتهم الغيرة على الدين، والرغبة في الإقبال على الخير على صياغة أساليب للتعبد، وطرائق للطاعة، لم يكن أولئك السلف الصالح يرتضونها ولا يأخذون أنفسهم ولا غيرهم بها، وشاعت على ألسنة هؤلاء القوم أحاديث كثيرة اخترعوها، وأقوال جمة ابتدعوها، ليحثوا الناس إلى الله، ويحملوهم على الزهد في الدنيا، والإقبال على الآخرة، لم يقلها رسول الله ﷺ، ولم يأذن بها هذا الدين، ولم يكن القوم على علم وفقه يكشف لهم خطر ما ابتدعوا، وضرر ما صنعوا، ولذلك دَخل عليهم إبليس من هذا الباب، وخلط عليهم الشر بالصواب.

لكن العلماء العامِلين لم يقفوا من هؤلاء وأولئك موقف المتفرجين، بل انبروا في تفنيد تلك الجهالات والضلالات، والأوهام والأخطاء وكشفوا زيف واضعيها، وخطأ صانعيها، وردوا الحق إلى نصابه، ووضعوا الناس على المحجة البيضاء، والحمد لله أن هؤلاء الجهابذة الأعلام، الذين هم جند الحق موجودون في كل زمان لم يخل منهم عصر من العصور. قال رسول الله ﷺ: «لا تَزالُ طائفةٌ من أمتي ظاهرينَ على الْحَقِّ لا يضُرُّهمْ من خذلَهمْ حتَّى يأتيَ أمرُ اللَّهِ، وهم كذلكَ»[1]. قال البخاري رحمه الله تعالى: هم العلماء.

ابن الجوزي وكتابه «تلبيس إبليس»:

وكان من أولئك الأعلام العامِلين، والنخبة الخيرة شيخنا الجليل ابن الجوزي، الذي نحن بصدد كتابه «تلبيس إبليس»، فقد كشف في هذا الكتاب كثيراً من وجوه اللبس. وأماط اللثام عن كثير من مظاهر الدس، وفند

---

(١) أخرجه البخاري (٧٣١١) في الاعتصام: باب قول النبي ﷺ: «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق» عن المغيرة، وأخرجه مسلم (١٩٢٠) في الإمارة: باب قوله ﷺ: «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق» عن ثوبان.

تلك الأخطاء التي خلَّفها الجهل بالدين، وشيَّعها نفر من الناس بحسن قصد، أو سوء قصد، فقد كان ناصحاً للأمة مناصراً للملة، غيُوراً على الإسلام والمسلمين، محباً أن يبقى جبين الإسلام ناصعاً، لا شية فيه ولا دخيل.

وابن الجوزي في كتابه «تلبيس إبليس»، حاول أن يكشف الانحرافات التي وقع فيها كثير من الناس على مر العصور لبعدهم عن هدي الأنبياء، وانحرافهم عن جادة الشرائع، واعتمادهم على ما عندهم من العقل والعلم، كما تتبع ما شاع في عصره من البدع المضلة، والأفكار الدخيلة، وأنواع السلوك الجانح، فكشف عنها ليحذر الناس منها، فساق في هذا الكتاب كثيراً مما هو ـ فعلاً ـ مخالفٌ لروح الإسلام، ومباين لأحكامه ومبادئه.

وقد عزا جُلَّ الأسباب لانتشار الضلال في الدنيا، وتسرُّب هذه الجهالات إلى نفوس البشر، إلى إبليس.

وإبليس ـ حقاً ـ خبيث، وهو لا يألو جهداً في التلبيس والتدليس، كيف لا وهو القائل فيما أخبر الله عنه: ﴿فَوعزَّتِكَ لأُغوينَّهمْ أجمعين﴾(١).

﴿وقال لأَتَّخِذنَّ من عِبَادِكَ نصيباً مفروضاً. ولَأُضلنَّهمْ ولأُمَنينَّهُمْ ولآمرنَّهمْ فَليبتِّكُنَّ آذانَ الأَنعامِ ولآمُرنَّهمْ فَليُغيرُنَّ خلق اللَّهِ ومنْ يتَّخذِ الشيطانَ وَلياً من دونِ اللَّهِ فقدْ خَسَر خُسرَاناً مُبيناً﴾(٢).

وقد حذَّر الله سبحانه وتعالى من مكره، وكشف اللثام عن كيده، فقال: ﴿إنَّ الشَّيطانَ لكم عَدُوٌّ فاتَّخذُوه عَدُوَّاً إنَّما يَدعُو حِزْبَهُ ليكُونُوا من أصحابِ السَّعيرِ﴾(٣).

---

(١) سورة صَ: الآية ٨٢.

(٢) سورة النساء: الآيتان ١١٨ ـ ١١٩.
نصيباً مفروضاً: حظاً مقطوعاً.
لأمنينهم: ألقي في قلوبهم الأماني الباطلة من طول الحياة، وأن لا بعث ولا حساب.
فليبتكن أذان الأنعام: يقطعنها، وقد فعلوا ذلك بالبحائر.
فليغيرون خلق الله: يغيرنّ دين الله بالكفر، وإحلال ما حرم الله وتحريم ما أحلّ.

(٣) سورة فاطر: الآية ٦.

وقد انخدع كثير من الناس بوساوس هذا الشيطان، وانساقوا وراء خداعه، ووقعوا في حبائله، وكانوا ضحايا صرعى بين يديه.

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عليهم إبليسُ ظَنَّهُ فاتبعُوهُ، إلَّا فريقاً مِنَ الْمُؤْمنينَ﴾[1].

غير أنَّ ابن الجوزي، رحمه الله تعالى، ربما أسرف في ذكر حكايات، قد يكون بعضها مدسوساً على أصحابها، وعوارها ظاهر، وعيبها لا يخفى، ساقها بالأسانيد التي قد لا تثبت عند النقد،ولا تستقيم عند البحث، كما أطنب في ذكر ضلالات بعض الفرق البائدة من الأمم السابقة التي لم يعد لذكرها كبير فائدة. وهذا ما دعانا لتهذيب هذا الكتاب واختصاره.

عملنا في هذا الكتاب:

ولقد عملنا في هذا الكتاب ما يلي:

١ ــ حذفنا الأسانيد التي قد ساقها، سواءً فيما ذكر من أحاديث، أو ساق من قصص.

٢ ــ حذفنا بعض القصص والحكايات واستبقينا بعضاً منها لتشابهها في المضمون، ولكونها مما قل وجود أمثالها في أزماننا، ولإبليس أساليبه في التضليل لكل زمان .

٣ ــ اختصرنا بعض ما جاء في الكتاب من التطويل في الحديث عن الطوائف البائدة التي سبقت الإسلام، لعدم وجود فائدة من الإطالة فيها.

٤ ــ حذفناأيضاً بعض الفقرات التي تناول بها بعض الفرق الإسلامية، وأبقينا منها ما تمس الحاجة لذكره، وفيه إشارة إلى ما عداه.

٥ ــ خرَّجنا الآيات القرآنية.

---

(١) سورة سبأ: الآية ٢٠.

٦ ـ خرَّجنا الأحاديث النبوية التي أبقيناها في هذا المختصر، علماً أننا لم نستوعب بالذكر جميع مراجع هذه الأحاديث خشية التطويل، وإخراجِ هذا الكتاب عن كونه مختصراً.

فإن كان الحديث في الصحيحين، أو في أحدهما، قنعنا بعزوه إليهما، أو إلى أحدهما غالباً.

وإن لم يكن فيهما، أو في أحدهما ذكرنا بعضاً من مصادره، ولم نستوعب، فلربما اقتصرنا على ذكر مرجع أو مرجعين، لنفس الغرض السابق. ومعلوم أنَّ المُحدثين قد يذكرون الحديث في أكثر من مكان في كتبهم، ونحن سنقتصر على تخريجه في مكان واحد، وإن كان في الحديث ضعف فلربما أشرنا إليه، أمَّا الآثار الموقوفة على الصحابة والتابعين ومن بعدهم، فلم نتعرض لها، ولم نخرِّجها.

٧ ـ شرحنا ما وجدناه غامضاً من الألفاظ، سواءً كان من كلام المؤلف، أو في النصوص التي ساقها. ولم نخل الكتاب من بعض التعليقات وهي قليلة. ففي الكتاب غنية.

٨ ـ لم نغيِّر في عبارة المؤلف، ولم نَزِد عليها، فلقد حافظنا على كلامه، اللَّهُمَّ إلاَّ إن كان هناك ما يدعو إلى زيادة حرف عطف ونحوه.

والله نسأل أن نكون قد وُفِّقنا لما أردناه من خير في عملنا هذا.

والله ولي التوفيق.



ترجمة ابن الجوزي

نَسَبه ومولده:

هو أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي القرشي البغدادي الفقيه الحنبلي الواعظ المفسِّر الأديب صاحب التصانيف، الملقَّب بجمال الدين.

وكان مولده ببغداد سنة تسع، أو عشر، وخمس مئة.

وقيل: سنة إحدى عشرة، أو اثنتي عشرة وخمس مئة.

نشأته:

توفي والد ابن الجوزي، وهو صغير، فنشأ في حجر أمه وعمته، وكان أهله تجاراً في النحاس.

فلما كبر وترعرع سارت به عمته إلى مسجد الحافظ الثقة أبي الفضل بن ناصر البغدادي، فاهتم به، وأسمعه الحديث، وحفظ القرآن وجوَّده على أئمة القراءة، ثم لما كبر، قرأ القرآن بالروايات بواسطة علي ابن الباقلاني، كما سمع الكتب الكبار «كمسند» أحمد، و«جامع» الترمذي، و«تاريخ» الخطيب البغدادي، و«صحيح» البخاري، وغيرها، على أبي الوقت.

كما قرأ الفقه والخلاف والجدل والأصول على أبي بكر الدينوري، والقاضي أبي يعلى، وتتبع كثيرين من مشايخ الفقه والحديث.

كما قرأ الأدب على أستاذ عصره أبي منصور الجواليقي.

وحدث عنه ولده الصاحب العلاَّمة محيي الدين يوسف أستاذ دار

المستعصم بـاللّهِ، وولده الكبيـر علي الناسـخ، وسبـطه الـواعظ شمس الـدين يـوسف بن قز أوعلي الحنفي، صـاحب «مرآة الـزمان»، والحـافظ عبد الغني، والشيـخ موفق الدين بن قدامة، وغيرهم كثير.

صِفَاته وأخلاقه:

نشأ ابن الجوزي في النعيم، وتربَّـى في الدلال، كما قال عن نفسه في كتـابه «صيـد الخاطـر» وكان يـرعى صحته، ويهتم بمـا يفيد عقله قـوَّة، وذهنه حدَّة، وكان معتداً بنفسه، كثيراً ما يتحدث عنها، حُبِّب إليه العلم منذ طفولته، ورغب في كل فن من فنونه، لم يذل لأحد، أعطي من قـوة العارضـة، وحسن التصرف في فنون القول، وشدة التأثير على الناس، ما لم يكن لغيـره من أهل عصره، وكان إلى جانب ذلك ورِعاً لم يتناول مالاً من جهة لا يتيقن حلها.

علمه ومصنَّفاته . . ومحاربته البدع:

كـان ابن الجوزي من أشـد النـاس على المبتـدعين، ومن أقسـاهم في محـاربة البـدع، واستنكارهـا، كما كـان ابن الجوزي من أعلم أهـل عصـره، ويظهر هـذا واضحاً في أنـواع العلوم التي تناولهـا، والفنون التي صنف فيهـا، فقـد انتهت إليه معـرفة الحـديث وعلومه، والـوقوف على صحيحـه وسقيمـه، وكتب في التفسير والفقه والوعظ، والرقـائق، والتاريـخ وغيـرهـا، شغـل وقته كله بالعلم، ولم يعرف أنه أهدر شيئاً من وقته في غير فائدة.

وكـان مـع ذلك من أحسن العلمـاء كلامـاً، وأتمهم نـظامـاً، وأجـودهم بياناً، وأكثرهم في الناس تأثيراً.

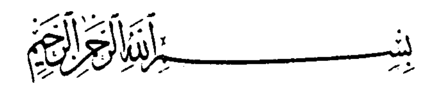
قيل كان يكتب في اليـوم أربعة كـراريس، وفي كل سنـة ما بين خمسين مجلداً إلى ستين، حتى غدت كتبـه أكثر من أن تعدّ.

ذكر له الأستاذ الشيـخ شعيب الأرناؤوط في مقـدمة تفسيـر «زاد المسير» (١٩٢) مصنفـاً في القرآن وعلومـه، وأصول الـدين، والحديث والـزهديـات، والتاريـخ، والفقه، والوعظ، وفنون أخرى كثيرة.

وفـاتـه:

تـوفي ابن الجـوزي رحمـه الله في بغـداد ليلة الجمعـة بين العشـاءين، الثـالث عشر من رمضـان سنة سبـع وتسعين وخمس مئـة للهجرة، وعمـره نحو التسعين، واجتمـع في جنـازته أهل بغـداد، وغلقت الأسواق، وحمِلت جنـازته على الأعنـاق، ودفن بباب حـرب بالقـرب من مدفن الإمـام أحمد بن حنبـل، وتـرك من الأولاد ثلاثـة من الذكـور، وثلاثـاً من الإناث، فـرحمـه الله وأحسن مثواه، وجعلنا وإيَّاه في أمان الله يوم نلقاه.

علي الرشربجي



مقدمة المؤلف

الحمد لله الذي سلَّم ميزان العدل إلى أكف ذوي الألباب، وأرسل الرسل مبشرين ومنذرين بالثواب والعقاب، وأنزل عليهم الكتب مبيِّنة للخطأ والصواب، وجعل الشرائع كاملة لا نقص فيها ولا عاب[١]، أحمده حمد من يعلم أنه مسبب الأسباب[٢]، وأشهد بوحدانيته شهادة مخلص في نيته غير مرتاب، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله أرسله وقد سدل[٣] الكفرُ على وجه الإيمان الحجاب، فنسخ[٤] الظلامَ بنور الهدى وكشف النقاب[٥]، وبيَّن للناس ما نزل إليهم، وأوضح مشكلات الكتاب[٦]، وتركهم على المحجة[٧] البيضاء لا سرب فيها ولا سراب[٨]، فصلى الله عليه وعلى جميع الآل وكل الأصحاب، وعلى التابعين لهم بإحسان إلى يوم الحشر والحساب، وسلم تسليماً كثيراً.

أما بعد، فإن أعظم النِّعَم على الإنسان العقل[٩]، لأنه الآلةُ في معرفة

(١) العاب: هو العيب.
(٢) الأسباب: جمع سبب، وهو كل ما يتوصل به إلى غيره.
(٣) سدل: أرخى.
(٤) نسخ: أزال.
(٥) النقاب: الغطاء.
(٦) المشكلات: جمع مشكلة، وهي الأمو المشتبهة التي تحتمل أكثر من معنىً واحد.
(٧) المحجة: الطريق.
(٨) السَرَب: الحفر تحت الأرض. والسراب: ما تراه نصف النهار كأنه ماء.
(٩) العقل: قوة بها يكون التمييز بين الحسن والقبح.

الإلَـه سبحانـه، والسببُ الذي يُتـوصل بـه إلى تصـديق الرسـل، إلا أنـه لمّـا لم ينهض بكـل المـراد من العبـد[١]، بُعثت الـرسـل وأُنـزلت الكتب، فمثـال الشرع الشمس، ومثال العقل العين، فإذا فُتحت وكانت سليمة رأت الشمس. ولمّا ثبت عند العقل أقوال الأنبياء الصادقـة، بدلائـل المعجزات[٢] الخـارقة، سلم إليهم، واعتمد فيما يخفى عنه عليهم.

ولمّا أنعم اللَّهُ على هذا العـالم الإنسي بالعقـل، افتتحه الله بنبـوّة أبيهم آدم عليه السلام، فكان يعلمهم عن وحي الله عز وجل، فكانوا على الصواب، إلى أن انفرد قابيل بهواه، فقتـل أخاه، ثم تشعَّبت الأهـواء بالنـاس، فشرَّدتهم في بيـداء الضلال[٣] حتى عبـدوا الأصنام، واختلفـوا في العقـائـد والأفـعـال اختـلافاً خـالفوا فيـه الرسـل والعقول اتبـاعاً لأهـوائهم، وميـلاً إلى عـاداتهم، وتقليداً لكبرائهم، فصَدَّق عليهم إبليسُ ظنَّه فاتبعوه إلاّ فريقاً من المؤمنين.

واعلم أن الأنبيـاء جـاؤوا بـالبيـان الكـافي، وقـابلوا الأمـراض بـالـدواء الشـافي، وتوافقـوا على منهاج[٤] لم يختلف، فـأقبل الشيـطان يخلط بـالبيـان شبهـاً، وبالـدواء سماً، وبـالسبيـل الـواضـح جـرداً[٥] مضـلاً. ومـا زال يلعب بالعقول إلى أن فرَّق الجاهلية في مذاهب سخيفة، وبدع قبيحة[٦]، فأصبحـوا يعبدون الأصنام في البيت الحرام، ويحرمـون السائبـة، والبحيرة، والـوصيلة، والحـامي[٧]، ويرون وأد البنـات[٨]، ويمنعونهن الميـراث، إلى غير ذلـك من

---

(١) أي لم يستطع العقل أن يعرف كل ما يريده الله من عبده.

(٢) المعجـزات: جمـع معجـزة، وهي أمـر خـارق للعـادة، تـظهـر على يـد الـرسـول تصديقاً له.

(٣) البيداء: المفازة الواسعة، والفـلاة المستوية من الأرض.

(٤) منهاجٍ: طريق في الدين.

(٥) جرداً: مكان جرد لا نبات فيه.

(٦) البدع: جمـع بدعة، وهي ما استحدث بعد النبـي ﷺ من الأعمال والأهواء المخالفة للدِّين.

(٧) سوف يأتي بيان هذه المسميات في صلب الكتاب انظر ص ٦٤.

(٨) وأد البنات: دفنهنّ وهنّ على قيد الحياة.

الضـلال الذي سـوله لهم إبليس، فـابتعث الله سبحانـه وتعـالى محمـداً ﷺ، فـرفـع المقابـح[1]، وشـرع المصالـح، فسـار أصحابـه معه وبعـده في ضـوء نوره، سالمين من العدوّ وغروره. فلمـا انسلـخ نهار وجـودهم، أقبلت أغباش الظلمات[2]، فعادت الأهواء تنشىء بدعاً، وتضيق سبيلاً ما زال متسعـاً، ففرق الأكثـرون دينهم وكـانـوا شيعـاً[3]، ونهض إبليس يلبس ويـزخـرف، ويفـرِّق ويؤلف، وإنمـا يصـح لـه التلصص[4] في ليـل الجهـل، فلو قـد طلـع عليـه صبـح العلم افتضـح.

فرأيت أن أحذِّر من مكايده[5]، وأدل على مصايده[6]، فـإن في تعريف الشـر تحذيـراً عن الوقـوع فيه. ففي «الصحيحين» من حـديث حذيفـة، قال: «كان النَّاسُ يسألونَ رسولَ الله ﷺ عن الْخيرِ، وكنتُ أسألُهُ عن الشَّـرِّ، مخافـةَ أن يُدركَني»[7].

وقد وضعت هذا الكتـاب محذِّراً من فِتَنـه، ومخوفـاً من مِحَنه، وكـاشفاً عن مستوره، وفاضحـاً لـه في خفي غروره. والله المعين بجـوده، كل صـادق في مقصوده.

وقـد قسمته ثـلاثة عشـر بابـاً ينكشف بجموعهـا تلبيسه، ويتبيَّن للفـطن بفهمها تدليسه، فمن انتهض عزمـه للعمل بهـا ضـج منه إبليسـه. والله موفِّقي فيما قصدت، وملهمي للصواب فيما أردت.

---

(١) المقابـح: ما يستقبـح من الأخلاق.
(٢) الأغباش: جمـع غَبَش، وهو ظلمة آخر الليل.
(٣) شيعاً: فرقاً وأحزاباً مختلفة. جمـع شيعة.
(٤) التلصص: السرقة.
(٥) مكايده: مكره وخبثه، جمـع مكيدة.
(٦) مصايدة: ما يصاد به، جمـع مصيدة.
(٧) أخرجه البخاري (٧٠٨٤) في الفتن: باب كيف الأمـر إذا لم تكن جماعـة.. ومسلم (١٨٤٧) في الإمارة: باب وجوب ملازمة المسلمين عند ظهور الفتن.

الباب الأوَّل

الأمر بلزوم السنّة والجماعة

عن ابن عمر: أن عمر بن الخطاب رضى الله عنهما، خطب بالجابية[1]، فقال: قام فينا رسول الله ﷺ، فقال: «من أرادَ منكم بُحبُوحَةَ الجنَّة[2] فيلزمِ الجماعَةَ، فإنَّ الشيطانَ مع الْواحدِ وهو من الاثنيْنِ أبعدُ»[3].

وقال رسول الله ﷺ: «من سَرَّه أنْ يسكنَ بُحبوحةَ الجنَّة فليلزم الجماعةَ، فإنَّ الشيطان مع الواحدِ، وهو من الاثنينِ أبعدُ»[4].

وقال رسول الله ﷺ: «يدُ اللَّهِ على الجماعةِ، فإذا شذَّ الشاذُّ منهمُ اختطفتْهُ الشياطينُ كما يختطفُ الذئبُ الشاةَ من الغنمِ»[5].

وعن عبد الله، قال: خط رسول الله ﷺ خطاً بيده، ثم قال: «هَذا سبيلُ اللَّهِ مُستقيماً»، قال: ثم خط عن يمينه وشماله ثم قال: «هَذهِ السُّبلُ ليسَ منها

---

(١) الجابية: قرية من أعمال دمشق، ويقال لها: جابية الجولان.

(٢) بحبوحة الدار: وسطها.

(٣) أخرجه الترمذي (٢١٦٥) في الفتن: باب ما جاء في لزوم الجماعة، وقال: حديث حسن صحيح غريب. وأخرجه أحمد (١/٢٦).

(٤) قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٥/٢٢٥: أخرجه الطبراني في الأوسط، وفيه عبد الله بن إبراهيم بن عبد الله بن خالد المصيصي، وهو متروك.

(٥) قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٥/٢١: أخرجه الطبراني، وفيه عبد الأعلى بن أبي المساور، وهو ضعيف.
وأخرج الترمذي (٢١٦٧) في الفتن: باب رقم (٧) عن ابن عباس أن رسول الله قال: «يد اللَّهِ مع الجماعة»، وهو حديث حسن بشواهده.

سبيلٌ إلّا عليه شيطانٌ يَدعُو إليهِ». ثم قرأ: ﴿وأَنَّ هذا صِراطي مُستقيماً فاتَّبعُوهُ ولا تَتَّبعُوا السُّبلَ﴾(١).

وقال رسولُ اللَّهِ ﷺ: «إنَّ الشَّيطانَ ذِئبُ الإنسانِ كذئبِ الْغنَمِ، يأخذُ الشَّاة القاصِيةَ(٢)، والنَّاحيةَ(٣)، فإياكم والشِّعابَ(٤)، وعليكُمْ بالْجماعةِ والْعامةِ والْمسجدِ»(٥).

وعن النبي ﷺ، أنه قال: «اثنانِ خيرٌ من واحدٍ، وثلاثةٌ خيرٌ من اثنينِ، وأربعةٌ خيرٌ من ثلاثةٍ، فعليكُمْ بالجمَاعة، فإن اللَّه عزَّ وجلَّ لم يجمع أمتي إلّا على الهُدى»(٦).

وقال رسول اللَّهِ ﷺ: «لَيأتينَّ على أُمتي كما أتى على بني إسرائيلَ، حَذوَ النَّعلِ (٧) بالنَّعلِ حتى إنْ كان منهم من أتى أمَّهُ عَلانيةً، لكان في أمتي مَنْ يَصنعُ ذلك، وإن بني إسرائيل تفرَّقتْ على ثِنتين وسَبعينَ ملَّةً وتفرَّقتْ أمتي على ثلاثٍ وسبعينَ ملّةً كلُّهمْ في النّارِ إلّا مِلّةً واحدةً». قالوا: من هي يا رسولَ اللَّهِ؟ قال: «ما أنا عليهِ وأصحابي». قال الترمذي هذا حديث حسن غريب لا يعرف إلّا من هذا الوجه(٨).

---

(١) أخرجه الحاكم (٢/٣١٨) وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي، والآية من سورة الأنعام ١٥٣.

(٢) القاصية: البعيدة عن أخواتها.

(٣) الناحية: المائلة والبعيدة عن أخواتها.

(٤) الشِعاب: جمع شِعب، وهو الطريق في الجبل، والانفراج بين جبلين.

(٥) أخرجه أحمد (٥/٢٤٣)، ورجاله ثقات إلّا إن العلاء بن زياد لم يسمع من معاذ.

(٦) أخرجه أحمد (٥/١٤٥)، وإسناده ضعيف بسبب أبي البختري.

(٧) حذو النعل: قدر النعل. والحذو: التقدير.

(٨) أخرجه الترمذي (٢٦٤١) في الإيمان: باب ما جاء في افتراق هذه الأمة. وهو حديث ضعيف، لكن قال أبو منصور البغدادي: للحديث الوارد في افتراق الأمة أسانيد كثيرة، وقد رواه عن النبي ﷺ جماعة من الصحابة؛ كأنس بن مالك، وأبي هريرة، وأبي الدرداء، وجابر، وأبي سعيد الخدري، وأبيّ بن كعب، وعبد الله بن عمرو بن العاص، وأبي أمامة، وغيرهم.

وعن عبد الله، قال: «الاقتصاد[1] في السنّة خير من الاجتهاد في البدعة».

وعن أبيّ بن كعب، قال: «عليكم بالسبيل[2] والسنّة، فإنه ليس من عبد على سبيلٍ وسنّة ذكر الرحمٰن ففاضت عيناه من خشية الله فتمسه النار. وإن اقتصاداً في سبيل وسنّة خير من اجتهاد في خلاف».

وعن أبي العالية، قال: «عليكم بالأمر الأول الذي كانوا عليه قبل أن يفترقوا».

وقال الأوزاعي: «اصبر نفسك على السنّة، وقف حيث وقف القوم، وقل بما قالوا، وكف عما كفّوا عنه، واسلك سبيل سلفك الصالح، فإنه يسعك ما وسعهم».

وقال سفيان: «لا يقبل قول إلاّ بعمل،ولا يستقيم قول وعمل إلاّ بنية، ولا يستقيم قول وعمل ونية إلا بموافقة السنّة».

وعن سفيان الثوري، قال: «استوصوا بأهل السنّة خيراً، فإنهم غرباء».

وقال الشافعي رحمه الله: «إذا رأيت رجلاً من أصحاب الحديث، فكأني رأيت رجلاً من أصحاب النبي ﷺ».

وقال الجنيد: الطرق كلها مسدودة على الخلق إلاّ من اقتفى أثر الرسول ﷺ واتّبع سنّته ولزم طريقته، فإن طرق الخيرات كلها مفتوحة عليه.

وقال: الطريق إلى الله عز وجل مسدودة على خلق الله تعالى، إلاّ على المقتفين آثار رسول الله ﷺ، والتابعين لسنّته. كما قال الله عز وجل: ﴿لَقَدْ كان لكمْ في رسولِ اللَّهِ أُسْوةٌ حَسنةٌ﴾[3].

* * *

(١) الاقتصاد: الاعتدال.

(٢) السبيل: الطريق المتبع في الدين.

(٣) سورة الأحزاب: الآية ٢١.

البـاب الثاني

في ذمّ البدع والمبتدعين

عن عـائشة رضي الله تعـالى عنهـا، قـالت: قـال رسـول الله ﷺ: «مَنْ أَحدثَ في أمرنا ما ليسَ فيه فهو رَدٌّ»(١).

وقـال: «مَنَ فعـل أمـراً ليسَ عليـهِ أمـرُنـا فهـو رَدٌّ» ـ أخـرجـاه في «الصحيحين»(٢).

وعن النبـي ﷺ، أنه قال: «مَنْ رَغبَ عن سُنَّتي فليسَ منّي»(٣).

وعن عبـد الـرحمـٰن بن عمـرو السلمي وحُجْـر بن حجـر، قـالا: أتينـا العربَاضَ بن سارية، وهو ممن نزل فيه ﴿وَلا على الذينَ إذا ما أَتوْكَ لتحملَهُم، قلتَ: لا أَجـدُ ما أحملُكمْ عَليْـهِ﴾(٤)، فسلَّمنا وقلنـا: أتينـاك زائـرين وعائـدين ومقتبسين، فقال عربـاض: صلى بنا رسـول الله ﷺ الصبـح ذات يوم ثم أقبـل علينا بوجهه، فوعظنا موعظة بليغـة ذرفت منها العيـون، ووجلت منها القلوب، فقال قائـل: يا رسـول الله كأن هـذه مـوعِـظـةُ مـودع فماذا تعهـد إلينا؟ فقـال: «أُوصيـكُمْ بتقْـوى اللَّهِ والسَّـمـعِ والطاعـةِ وإن عبداً حبشيـاً، فإنـهُ منْ يَعِـشْ بعدي فَسيرَى اختلافاً كثيراً، فعليكُمْ بسنتي وسنَّة الخلفاءِ الراشدينَ المهـديينَ

---

(١) أخرجه البخاري (٢٦٩٧) في الصلـح: باب إذا اصطلحوا على صلـح جور. ومسلم (١٧١٨) في الأقضية: باب نقض الأحكام الباطلة.

(٢) المصدر السابق.

(٣) أخـرجـه البخـاري (٥٠٦٣) في النكـاح: بـاب التـرغيب في النكـاح، وهـو قـطعـة من حديث.

(٤) سورة التوبة: الآية ٩٢.

من بعـدي، تَمسَّكُوا بهـا وعضُّوا عليهـا بالنـواجـذِ[1]، وإيـاكُمْ ومحـدثـاتِ[2] الأمور، فإنَّ كلَّ مُحدثةٍ بِدْعةٌ، وكلَّ بِدْعةٍ ضَلالةٌ». قال الترمـذي: هذا حـديث حسن صحيـح[3].

وعن ابن مسعــود، قــال: قــال رســول الله ﷺ: «أنــا فــرطُكُمْ على الحوْضِ[4] ولَيختلِجَنَّ رجالٌ دوني[5]، فأقولُ: يا رب أصحابـي، فيقالُ: إنكَ لا تدري ما أَحدثُوا بعدك» ـ أخرجاه في «الصحيحين»[6].

وعن عبد الله بن محرز، قال: «يذهب الدين سنّة سنّة كما يـذهب الحبل قوّة قوّة».

وقال معمر: كـان طاوس جـالساً وعنـده ابنه، فجـاء رجل من المعتـزلة فتكلم في شيء، فـأدخـل طـاوس أصبعيـه في أذنيـه، وقـال: «يـا بني أدخـل أصبعيك في أذنيـك حتى لا تسمـع من قوله شيئـاً فإن هـذا القلب ضعيف». ثم قال: «أي بني أسدد» ـ فما زال يقول: أسدد حتى قام الآخر.

وقـال عيسى بن علي الضبـي: كـان رجـل معنـا يختلف إلى إبـراهيم، فبلـغ إبراهيم أنه قد دخل في الإرجاء[7]، فقال له إبراهيم «إذا قمت من عندنا فلا تعد».

---

(١) النواجذ: جمـع ناجذ، وهي الأضراس أو أقصى الأضراس.
(٢) محدثات الأمور: وهي الأمور التي حدثت بعد النبي ﷺ مما يخالف سنته.
(٣) أخرجه الترمذي (٢٦٧٦) في العلم: باب ما جاء في الأخذ بالسنَّة واجتناب البـدع.
(٤) فرطكم على الحوض: سابقكم إليه، والفـرط: هو الذي يتقدم الواردين ليصلح لهم الحياض.
(٥) وليختلجن: يُقتطعن ويُنتزعن.
(٦) أخرجه البخـاري (١٣٤٤) في الجنائـز، ومسلم (٢٢٩٧) في الفضائـل: باب إثبـات حوض نبينا ﷺ.
(٧) الإرجاء: معناه التـأخير، ومنـه قولـه تعالـى: ﴿أرجِهْ وأخاهُ﴾، والمـرجئة جمـاعة، قـالوا: إن الإقـرار بالشهـادتين يجـزىء عن العمـل، وقـالـوا: لا تضـر مـع الإيمـان معصية، ولا تنفـع مـع الكفر طاعة.

وقال محمد بن داود لسفيان بن عيينة: إن هذا يتكلم في القدر[١] ــ يعني إبراهيم بن أبي يحيى ــ فقال سفيان: «عرفوا الناس أمره وسلوا الله لي العافية».

وقال صالح المري: دخل رجل على ابن سيرين وأنا شاهد، ففتح باباً من أبواب القدر فتكلم فيه. فقال ابن سيرين: «إما أن تقوم وإما أن نقوم».

عن سلام بن أبي مطيع، قال: قال رجل من أهل الأهواء[٢] لأيوب: أكلمك بكلمة؟ قال: «لا . . . ولا نصف كلمة».

وعن أيوب السختياني، قال: ما ازداد صاحب بدعة اجتهاداً إلاّ ازداد من الله عزَّ وجلَّ بُعداً.

وقال سفيان الثوري: البدعة أحبُّ إلى إبليس من المعصية، لأن المعصية يُثاب منها، والبدعة لا يُثاب منها[٣].

وقال سفيان الثوري: من سمع من مبتدع لم ينفعه الله بما سمع، ومَن صافحه فقد نقض الإسلام عروة عروة.

وقال فضيل بن عياض: «من جلس إلى صاحب بدعة فاحذروه».

وقال: «من أحب صاحب بدعة أحبط الله عمله، وأخرج نور الإسلام من قلبه».

وقال: «إذا رأيت مبتدعاً في طريق فَخُذ في طريق آخر، ولا يُرفع لصاحب البدعة إلى الله عز وجل عمل، ومن أعان صاحب بدعة فقد أعان على هدم الإسلام.

---

(١) القدر لغة: الحكم والقضاء، والقدرية قوم جحدوا القدر، وادعوا أن الإنسان يخلق أفعال نفسه، وأن الله لا يعلم الأشياء إلاّ بعد وقوعها.

(٢) أهل الأهواء: هم أهل البدع.

(٣) لا يثاب منها: لا يرجع عنها: ثاب يثوب إذا رجع.

وقال: «من زوَّج كريمته من مبتدع فقد قطع رحمها، ومن جلس مع صاحب بدعة لم يعط الحكمة، وإذا علم الله عز وجل من رجل أنه مبغض لصاحب بدعة رجوت أن يغفر الله له سيئاته».

وعن عائشة رضي الله عنها، قالت: قال رسول الله ﷺ: «من وقر صاحب بدعة فقد أعان على هدم الإسلام»[١].

وقال محمد بن النضر الحارثي: «من أصغى بسمعه إلى صاحب بدعة نزعت منه العصمة[٢] ووكل إلى نفسه».

وقال الليث بن سعد: «لو رأيت صاحب بدعة يمشي على الماء ما قبلته». فقال الشافعي: «لو رأيته يمشي على الهواء ما قبلته».

فإن قال قائل: قد مدحت السنّة وذممت البدعة، فما السنّة؟ وما البدعة؟ فإنا نرى أن كل مبتدع في زعمنا يزعم أنه من أهل السنّة.

فالجواب ــ أن السنّة في اللغة: الطريق، ولا ريب في أن أهل النقل والأثر المتبعين آثار رسول الله ﷺ، وآثار أصحابه هم أهل السنّة، لأنهم على تلك الطريق التي لم يحدث فيها حادث، وإنما وقعت الحوادث والبدع بعد رسول الله ﷺ وأصحابه.

والبدعة: عبارة عن فعل لم يكن فابتدع، والأغلب في المبتدعات أنها تصادم الشريعة بالمخالفة بزيادة أو نقصان. فإن ابتدع شيء لا يخالف الشريعة، فقد كان جمهور السلف يكرهونه، وكانوا ينفرون من كل مبتدع وإن كان جائزاً حفظاً للأصل، وهو الاتباع.

وقد قال زيد بن ثابت لأبي بكر وعمر رضي الله عنهما، حين قالا له: اجمع القرآن: كيف تفعلان شيئاً لم يفعله رسول الله ﷺ؟

---

(١) رواه ابن عدي (٢/٧٣٦) في «الكامل»، قال الحافظ العراقي: أسانيده كلها ضعيفة.

(٢) لعله يقصد عصمة الإيمان. أما العصمة من الذنوب والخطأ فليست من صفات البشر، فكل بني آدم خطاء وخير الخطائين التوابون.

وعن عبد الله بن أبي سلمة، أن سعد بن مالك سمع رجلاً يقول: «لبيك ذا المعارج»، فقال: «ما كنا نقول هذا على عهد رسول الله ﷺ».

وأخبر رجل عبد الله بن مسعود أن قوماً يجلسون في المسجد بعد المغرب فيهم رجل يقول: كبِّروا الله كذا وكذا، وسبِّحوا الله كذا وكذا، واحمدوا الله كذا وكذا، قال عبد الله: فإذا رأيتهم فعلوا ذلك فأتني فأخبرني بمجلسهم، فأتاهم فجلس، فلمّا سمع ما يقولون، قام فأتى ابن مسعود فجاء ــ وكان رجلاً حديداً[1]، فقال: أنا عبد الله بن مسعود، والله الذي لا إلّه غيره لقد جئتم ببدعة ظلماً، ولقد فضلتم أصحاب محمد ﷺ علماً. فقال عمرو بن عتبة: استغفر الله، فقال: عليكم بالطريق فالزموه، ولئن أخذتم يميناً وشمالاً لتضلن ضلالاً بعيداً[2].

قال محمد بن ريان: سمعت ذا النون ــ وجاءه أصحاب الحديث فسألوه عن الخطرات والوساوس، فقال: «أنا لا أتكلم في شيء من هذا فإن هذا محدث، سلوني عن شيء من الصلاة أو الحديث».

ورأى ذو النون عليّ خفاً أحمر، فقال: انزع هذا يا بني فإنه شهرة، ما لبسه رسول الله ﷺ وإنما لبس خفين أسودين ساذجين[3].

قال الشيخ أبو الفرج رحمه الله: قد بينًا أن القوم كانوا يتحذرون من كل بدعة، وإن لم يكن بها بأس، لئلا يحدثوا ما لم يكن. وقد جرت محدثات لا تصادم الشريعة، فلم يروا بفعلها بأساً، كما روي أن الناس كانوا يصلون في رمضان وحداناً، وكان الرجل يصلي فيصلي بصلاته الجماعة، فجمعهم عمر بن الخطاب على أبيّ بن كعب رضي الله عنهما،

---

(١) أي ذا حدة، والحدَّة: مايعتري الإنسان من الغضب والنزق.

(٢) ذكر هذه القصة الدارمي في «سننه» (١/٦٨).

(٣) ساذجين: غير قويين، أو غير شديدي السواد. قال في «القاموس»: ساذج: معرب، وقال في «لسان العرب»: حجة ساذجة: غير بالغة.

فلمّا خرج فرآهم، قال: نعمت البدعة هذه[1] ـ لأن صلاة الجماعة مشروعة.

ومتى أسند المحدَث إلى أصل مشروع لم يذم. فأما إذا كانت البدعة كالمتمم فقد اعتقد نقص الشريعة، وإن كانت مضادة فهي أعظم. فقد بان بما ذكرنا أن أهل السنّة هم المتبعون، وأن أهل البدعة هم المظهرون شيئاً لم يكن قبْل، ولا مستند له، ولهذا استتروا ببدعتهم. ولم يكتم أهل السنّة مذهبهم، فكلمتهم ظاهرة، ومذهبهم مشهور، والعاقبة لهم.

وقال رسول الله ﷺ: «لا يَزالُ ناسٌ من أُمتي ظَاهرينَ حتى يأتيَهُمْ أمرُ اللَّهِ وهمْ ظاهرونَ» ـ في «الصحيحين»[2].

وقال رسول الله ﷺ: «لا تَزالُ طائفةٌ من أمتي ظاهرينَ على الحقِّ لا يَضرُهم من خذلهُم حتى يَأتيَ أمرُ اللَّهِ وهمْ كذلكَ» ـ انفرد به مسلم[3].

قال علي بن المديني: هم أصحاب الحديث.

بيان انقسام أهل البِدَع

عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «تفرقتِ اليهودُ على إحدى وسبعينَ فِرْقةً أو ثنتين وسبعينَ، والنصارى مثلَ ذلك، وتَفترقُ أمتي على ثلاثٍ وسبعينَ فِرقةً». قَال الترمذي: هذا حديث صحيح[4].

---

(١) ذكر الحديث بتمامه البخاري (٢٠١٠) في كتاب صلاة التراويح: باب فضل من قام رمضان. وهذا القول من عمر رضي الله عنه هو تجوز لغوي فهو لم يحدث شيئاً وإنما أعادهم إلى ما فعله رسول الله ﷺ من قيام رمضان في جماعة، لكنه ﷺ انقطع عنهم في الليلة الثالثة خشية أن تفرض عليهم، فأعادهم عمر بن الخطاب إلى السنّة حين جمعهم على أبيّ بن كعب، لكن طول الانقطاع عن هذه السنّة ثم العودة إليها أظهرها وكأنها شيء جديد. فإن كانت البدعة هكذا فهي نعمت البدعة.

(٢) أخرجه البخاري (٧٣١١) في الاعتصام: باب قول النبي ﷺ: لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق، ومسلم (١٩٢١) في الإمارة: باب لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين.

(٣) أخرجه مسلم في المرجع السابق.

(٤) أخرجه الترمذي (٢٦٤٠) في الإيمان: باب ما جاء في افتراق هذه الأمة.

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ، قال: «إن بني إسرائيلَ تفرقتْ إحدى وسبعينَ فِرقةً فهلكتْ سبعونَ فرقةً، وخلصتْ فرقةٌ واحدةٌ، وإن أمتي ستفترقُ على اثنتينِ وسبعينَ فرقة يهلكُ إحدى وسبعونَ وتخلصُ فرقة». قالوا: يا رسول الله، ما تلكَ الفُرقةُ؟ قال: «الجماعة»[1].

قال الشيخ أبو الفرج رحمه الله: فإن قيل: وهل هذه الفرق معروفة؟ فالجواب أَنا نعرف الافتراق وأصول الفرق، وأن كل طائفة من الفرق قد انقسمت إلى فرق، وإن لم نُحط بأسماء تلك الفرق ومذاهبها، وقد ظهر لنا من أصول الفرق: الحرورية[2]، والقدرية، والجهمية، والمرجئة، والرافضة، والجبرية. وقد قال بعض أهل العلم: أصل الفرق الضالة هذه الفرق الست. وقد انقسمت كل فرقة منها على اثنتي عشرة فرقة، فصارت اثنتين وسبعين فرقة[3].

* * *

(١) أخرجه أحمد (٣/١٤٥).

(٢) وهم الذين انحازوا إلى حروراء حين خرجوا على أمير المؤمنين علي بن أبي طالب وهم فرقة من الخوارج. **والقدرية**: وهم الذين ينفون القدر، ويقولون: الإنسان يخلق أفعال نفسه. **والجهمية**: أتباع جهم بن صفوان، آمنوا بالجبرية، ونفوا صفات الباري عز وجل. **والمرجئة**: قالوا بإرجاء فاعل الكبيرة إلى يوم القيامة. وقالوا أيضاً: لا يضر مع الإيمان معصية، كما لا ينفع مع الكفر طاعة. والرافضة: فرقة من الشيعة. قيل سُمُّوا بذلك لأنهم اعتزلوا زيد بن علي بن الحسين ورفضوه لعدم تبرئه من أبي بكر وعمر. والجبرية: وهم الذين ينفون الفعل حقيقة عن العبد ويضيفونه إلى الله تعالى.

(٣) ومن أراد التوسع في معرفة هذه الفرق فعليه مراجعة كتاب «الاعتصام» للشاطبي، وكتاب «مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين» لأبي الحسن الأشعري، و«الملل والنحل» للشهرستاني، و«الفصل في الملل والأهواء والنحل» لابن حزم. وقد ذكر المصنف نبذاً في أصل الكتاب عنهم.

الباب الثالث

في التحذير من فتن إبليس ومكايده

قال الشيخ أبو الفرج رحمة الله عليه: اعلم أنَّ الآدمي لمَّا خلق ركب فيه الهوى والشهوة ليجتلب بذلك ما ينفعه، ووضع الغضب ليدفع به ما يؤذيه، وأعطي العقل كالمؤدب يأمره بالعدل فيما يجتلب ويجتنب، وخلق الشيطان محرضاً له على الإسراف في اجتلابه واجتنابه. فالواجب على العاقل أن يأخذ حذره من هذا العدو الذي قد أبان عداوته من زمن آدم عليه الصلاة والسلام، وقد بذل عمره ونفسه في فساد أحوال بني آدم. وقد أمر الله تعالى بالحذر منه، فقال سبحانه وتعالى: ﴿ولا تَتَّبِعُوا خُطواتِ الشَّيطانِ إنَّهُ لكُمْ عدوٌّ مبينٌ * إنما يأمُرُكُمْ بالسُّوءِ والفحشاءِ وأنْ تقُولُوا على اللَّهِ ما لا تَعلَمونَ﴾[1]. وقال تعالى: ﴿الشَّيطانُ يَعدكُم الفقرَ ويأمُرُكم بالْفحشاءِ﴾[2]. وقال تعالى: ﴿ويريدُ الشَّيطانُ أن يضلهم ضلالاً بعيداً﴾[3]. وقال تعالى: ﴿إنما يريدُ الشَّيطانُ أن يوقِعَ بينكُمُ العداوةَ والبغضاءَ في الخمرِ والميسرِ ويصدَّكُم عن ذكرِ اللَّهِ وعن الصَّلاةِ فهلْ أنتمْ مُنتهونَ﴾[4]. وقَال تعالى: ﴿إنهُ عدوٌّ مُضلٌّ مُبينٌ﴾[5]. وقال تعالى: ﴿إنَّ الشَّيطانَ لكمْ عدوٌّ

---

(١) سورة البقرة: الآيتان ١٦٨ ــ ١٦٩.

(٢) سورة البقرة: الآية ٢٦٨.

(٣) سورة النساء: الآية ٦٠.

(٤) سورة المائدة: الآية ٩١.

(٥) سورة القصص: الآية ١٥.

فاتخذوهُ عدواً إنما يدعُو حزبَهُ ليكونُوا من أصحابِ السعيرِ﴾[1]. وقال تعالى: ﴿ولا يَغرنَّكُمْ باللَّهِ الغرورُ﴾[2]. وقال تعالى: ﴿ألمْ أعهدْ إليكمْ يا بني آدمَ ألَّا تَعبدُوا الشيطانَ إنهُ لكمْ عدوٌّ مبينٌ﴾[3].. وفي القرآن من هذا كثير.

قال الشيخ أبو الفرج رحمه الله: وينبغي أن تعلم أنَّ إبليس الذي شغله التلبيس أول ما التبس عليه الأمر، فأعرض عن النص الصريح على السجود، فأخذ يفاضل بين الأصول، فقال: ﴿خلقتني من نار وخلقته من طين﴾. ثم أردف ذلك بالاعتراض على الملك الحكيم، فقال: ﴿أرأيتَكَ هذا الذي كرمْتَ عليَّ﴾[4]. والمعنى أخبرني لِمَ كرمته عَلَيَّ؟ غرض ذلك الاعتراض أن الذي فعلته ليس بحكمة. ثم أتبع ذلك بالكبر، فقال: ﴿أنا خيرٌ منهُ﴾[5]، ثم امتنع عن السجود، فأهان نفسه التي أراد تعظيمها باللعنة والعقاب.

فمتى سوّل للإنسان أمراً فينبغي أن يحذر منه أشد الحذر، وليقل له حين أمره إياه بالسوء: إنما تريد بما تأمر به نصحي ببلوغي شهوتي. وكيف يتضح صواب النصح للغير لمن لا ينصح نفسه. ثم كيف أثق بنصيحة عدو فانصرف، فما فيَّ لقولك منفذ، فلا يبقى إلَّا أنه يستعين بالنفس، لأنه يحث على هواها، فليستحضر العقل إلى بيت الفكر عن عواقب الذنب، لعل مدد توفيق يبعث جند عزيمته، فيهزم عسكر الهوى والنفس.

عن عياض بن حمار، قال: قال رسول الله ﷺ: «يا أيها الناسُ إن اللَّهَ تعالى أمرني أَنْ أعلمكم ما جهلتُم مما علمني في يومي هذا، إن كلّ مالٍ نَحلتُه عبدي فهو له حلالٌ. وإني خلقتُ عبادي حُنفاءَ كلَّهم، فأتتهمُ الشياطينُ فاجْتَالتهُمْ عن دينهم. وأمرتهم أَن يشركوا بي ما لم أنزل به

---

(١) سورة فاطر: الآية ٦.

(٢) سورة لقمان: الآية ٣٣.

(٣) سورة يٓس: الآية ٦٠.

(٤) سورة الإسراء: الآية ٦٢.

(٥) سورة الأعراف: الآية ١٢.

سُلطانــاً، وإن الله تعـالى نــظر إلى أهـل الأرضِ فمقتَهمْ عــربَهم وعجَمهم إلاّ بقايا من أهلِ الكتابِ»[١].

وقـال رسـول الله ﷺ: «إن إبليسَ يضـعُ عَـرشَـهُ على المـاءِ ثُمَّ يبعثُ سَراياهُ، فَأدناهمْ منـه منزلـةً أعظمُهمْ فتنـةً، يجيءُ أحدُهم فيقـولُ: فعلتُ كذا وكذا، فيقولُ: ما صنعتَ شيئاً، قال: ثم يجيءُ أحدُهم فيقولُ: ما تـركتُه حتى فرقتُ بينَه وبينَ امـرأتِهِ، قـال: فيدنيـهِ منه ــ أو قـال: فيلتزمُـهُ ــ ويقولُ: نعم أنتَ»[٢].

وعن جـابر رضي الله عنـه يرفعـه، قال: «إن إبليسَ قـد يئسَ أن يعبـدَهُ المصلُّون ولكنْ في التَّحريشِ بينهُمْ».

وفي لفظ: «قَدْ أيسَ أن يعبدَهُ المصلونَ في جزيرةِ العربِ»[٣].

وعن أنس بن مـالك رضي الله عنـه يرفعـه، قال: «إن الشَّيـطانَ واضـعٌ خِطمَهُ على قلبِ ابنِ آدمَ، فإنْ ذكرَ اللَّهَ خَنسَ، وإنْ نسيَ اللَّهَ التقمَ قلبَهُ»[٤].

وعن ابن مسعود رضي الله عنه، قال: «إن الشيطان طاف بأهـل مجلس

---

(١) أخرجه مسلم (٢٨٦٥) في الجنة: باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة.
نحلتـه: أعطيتـه. حنفاء: مسلمين مستقيمين. اجتـالتهم: أزالتهم عما كـانوا عليـه. مقتهم: أبغضهـم، والمقت: أشـد البغض. وهـذا المقت إنمـا كـان قبـل مبعث النبـي ﷺ. إلاّ بقايا من أهل الكتاب: هم الباقون على التمسك بالدين الحق.

(٢) أخـرجـه مسلم (٢٨١٣) في المنـافقين: بـاب تحـريش الشيـطان، وأخـرجـه أحمـد (٣/٣١٤). عـرشه: سـريره. يعني أن مـركزه البحـر. سـرايـاه: جنـوده وأعـوانـه. فيلتزمه: يضمه إلى نفسه ويعانقه.

(٣) أخرجه مسلم (٢٨١٢) في المنـافقين: باب تحـريش الشيطان. التحـريـش: الإغراء بين الناس بالخصومات والقتال.

(٤) قـال الهيثمي في الـزوائـد (٧/١٤٩): أخـرجـه أبـو يعلـى، وقـال: فيـه عـدي بن أبـي عمارة وهو ضعيف. خطمه: فمـه وأنفه، والخطم من الدابة مقدم أنفها وفمها. خنس: انقبض وتأخر. والتقم قلبه: أكله؛ أي استولى عليه.

الذكر ليفتنهم فلم يستطع أن يفرِّق بينهم، فأتى حلقة يذكرون الدنيا فأغرى بينهم حتى اقتتلوا، فقام أهل الذكر فحجزوا بينهم فتفرَّقوا».

وعن قتادة رضي الله عنه، قال: «إن لإبليس شيطاناً يقال له قبقب يجمه[1] أربعين سنة فإذا دخل الغلام في هذا الطريق قال له: دونك إنما كنت أجمك لمثل هذا، أجلب[2] عليه وأفتنه».

قال ثابت البناني: بلغنا أن إبليس ظهر ليحيى بن زكريا عليهما السلام فرأى عليه معاليق[3] من كل شيء، فقال يحيى: يا إبليس ما هذه المعاليق التي أرى عليك؟ قال: هذه الشهوات التي أصيد بهن ابن آدم، قال: فهل لي فيها من شيء؟ قال: ربما شبعت فثقلناك عن الصلاة وثقلناك عن الذكر، قال: فهل غير ذلك؟ قال: لا والله، قال: لله عليَّ أن لا أملأ بطني من طعام أبداً، قال إبليس: ولله عليَّ أن لا أنصح مسلماً أبداً.

وعن الحارث بن قيس رضي الله عنه، قال: «إذا أتاك الشيطان وأنت تصلي فقال: إنك ترائي فزدها طولاً».

وعن عروة بن عامر أنه سمع عبيد بن رفاعة يبلغ به النبي ﷺ يقول: «كان راهب في بني إسرائيل، فأخذ الشيطان جارية فخنقها، وألقى في قلوب أهلها أن دواءها عند الراهب. فأتي بها الراهب فأبى أن يقبلها، فما زالوا به حتى قبلها فكانت عنده، فأتاه الشيطان فسوَّل له إيقاع الفعل بها فأحبلها ــ ثم أتاه فقال له: الآن تفتضح يأتيك أهلها فاقتلها، فإن أتوك فقل: ماتت. فقتلها ودفنها. فأتى الشيطان أهلها فوسوس لهم، وألقى في قلوبهم أنه أحبلها، ثم قتلها ودفنها. فأتاه أهلها يسألونه عنها. فقال: ماتت. فأخذوه، فأتاه الشيطان، فقال: أنا الذي ضربتها وخنقتها، وأنا الذي ألقيت في قلوب أهلها،

---

(١) يجمه: يتركه حتى يستريح ويقوى.

(٢) أجلب عليه: صِحْ عليه وازجره.

(٣) معاليق: جمع معلاق، وهو الذي يعلق به الإناء وغيره.

وأنـا الذي أوقعتـك في هذا؛ فـأطعني تنجُ، اسجد لي سجـدتَين، فَسَجَدَ لـه سجدتين، فهو الـذي قال عًـز وجل: ﴿كمثـل الشيطان إذ قـال لـلإنسـانِ اكفـرْ فلما كفرَ قال إني بَريءٌ منكَ، إني أخافُ اللَّهَ رَبَّ العالَمينَ﴾[1].

وعن وهب بن منبـه رضي الله عنه، قـال: كان راهب في صـومعتـه في زمن المسيـح عليه السلام فأراده إبليس، فلم يقدر عليـه، فأتـاه بكل رائـدة[2] فلم يقـدر عليه، فـأتاه متشبهـاً بالمسيـح، فنـاداه: أيهـا الـراهب أشـرِف عليَّ أكلِّمك. قال: انطلق لشأنـك فلست أرد ما مضى من عمـري. فقال: أشـرِف عليَّ فأنا المسيـح، فقـال: إن كنت المسيـح فما لي إليـك حاجـة، ألست قد أمرتنا بالعبادة، ووعدتنا القيامة، انـطلق لشأنـك فلا حـاجة لي فيـك. فانـطلق اللعين عنه وتَـرَكه.

وعن سـالم بن عبد الله رضي الله عنـه، عن أبيه، قـال: لما ركب نـوح عليه السلام في السفينة رأى فيها شيخاً لم يعرفه، فقال لـه نـوح: ما أدخلك؟ قـال: دخلت لأصيب قلوب أصحابـك، فتكون قلوبهم معي وأبـدانهم معك، فقال لـه نوح عليه السلام: اخرج يا عدو الله، فقال إبليس: خمس أهلك بهن الناس، وسأحدثك منهن بثلاث ولا أحدثك باثنتين، فـأوحى الله تبارك وتعـالى إلى نوح عليه الصـلاة والسلام: أنـه لا حاجـة لك إلى الثـلاث. مُرْهُ يحـدثك بالاثنتين، فقال: بهما أهلك الناس وهما لا يكذبان: الحسد[3] والحـرص[4]، فبـالحسد لعنت وجعلت شيـطاناً رجيمـاً، وبـالحـرص أبيـح لآدم الجنـة كلها، فأصبحت حاجتي منه فأخرج من الجنة.

---

(١) سـورة الحشر: الآيـة ١٦. والحديث أخـرجه الحـاكم (٢/٤٨٥) مختصراً، وقـال: صحيـح الإسنـاد، ووافقه الـذهبـي. وهـو في «كنـز العمـال» (٤٦٥٤). وزاد نسبته إلى عبد الرزاق، وأحمد في «الزهد» وغيرهما.

(٢) أي نوَّع لـه الأساليب.

(٣) الحسد: أن يرى الرجل لأخيه نعمة فيتمنى أن تزول عنه وتكون له دونه.

(٤) الحرص: شدة الإرادة والشره إلى المطلوب.

قـال: ولقي إبليس موسى عليـه السلام، فقـال: يـا مـوسى أنت الـذي اصطفاك الله برسالته وكلَّمك تكليماً، وأنا من خلق الله تعـالى أذنبت وأريد أن أتـوب، فاشفـع لي إلى ربـي عـزَّ وجل أن يتـوب عليَّ. فـدعـا مـوسى ربـه، فقيل: يا موسى قد قضيت حاجتك، فلقي موسى إبليس، فقال لـه: قد أمرت أن تسجد لقبر آدم ويُتاب عليك، فاستكبر وغضب،وقال: لم أسجد لـه حيـاً، أأسجـد لـه ميتاً، ثم قـال إبليس: يامـوسى إن لك عليَّ حقـاً بمـا شفعت إلى ربك، فاذكرني عند ثـلاث، لا أهلك فيهن: اذكرني حين تغضب، فـأنا وحي في قلبـك وعيني في عينك، وأجـري منك مجـرى الدم. واذكـرني حين تلقى الزحف، فإني آتي ابن آدم حين يلقى الزحف فأذكره ولده وزوجتـه وأهله حتى يولي. وإياك أن تجالس امرأة ليست بذات محرم، فإني رسولها إليك ورسولك إليها.

وعن فضيل بن عياض، قـال: حدَّثني بعض أشيـاخنا أن إبليس ــ لعنـه الله ــ جاء إلى موسى عليه الصلاة والسلام، وهو يناجي ربـه تعالى، فقـال لـه الملك: ويلك ما ترجو منه، وهو على هذه الحالة يناجي ربـه؟قال: أرجـو منه ما رجوت من أبيه آدم وهو في الجنة.

وعن عبـد الـرحمن بن زيـاد رضي الله عنـه، قـال: بينمـا مـوسى عليـه السلام جالس في بعض مجالسه إذ أقبل إبليس وعليه بـرنس[1] لـه، يتلون فيه ألواناً، فلمَّـا دنا منـه خلـع البرنس فـوضعه، ثم أتـاه وقال لـه: السـلام عليك يـا موسى. فقـال لـه موسى عليـه السلام: من أنت؟ قـال: أنا إبليس. قـال: فلا حيَّاك الله، ما جاء بك؟ قال: جئت لأسلم عليك لمنزلتـك عند الله تعـالى ومكانك منه، قال: فما الذي رأيتـه عليك؟ قـال: بـه اختطف قلوب بني آدم، قال: فما الـذي إذا صنعه الإنسـان استحوذت عليـه؟ قال: إذا أعجبتـه نفسه، واستكثر عمله، ونسي ذنوبه، وأحذرك ثلاثاً:

---

(١) البرنس: هو كل ثوب رأسه منه ملتـزق به.

* لا تخلونَّ بامرأة لا تحل لك قط، فإنه ما خلا رجل بامرأة لا تحل لـه إلاَّ كنت صاحبه دون أصحابي حتى أفتنه بها.

* ولا تعاهد الله عهـداً إلاَّ وفيت بـه، فإنـه ما عـاهد الله أحـد إلاَّ كنت صاحبه دون أصحابي حتى أحول بينه وبين الوفاء بـه.

* ولاْ تخـرجن صدقـة إلاَّ أمضيتهـا، فـإنـه مـا أخـرج رجـل صـدقـة، فلم يمضها إلاَّ كنت صاحبه دون أصحابي حتى أحول بينه وبين إخراجها.

ثم ولَّى وهو يقول: يا ويله ثلاثاً: علم موسى ما يحذر بـه بني آدم.

وعن حسن بن صـالـح، قـال: سمعت أن الشيـطان قـال للمـرأة: أنتِ نصف جُندي وأنتِ سهمي الذي أرمي بـه فلا أخطىء، وأنتِ مـوضِـع سرِّي، وأنتِ رسولي في حاجتي.

وقـال وهب بن منبـه: قـال راهب للشيـطان وقـد بـدا لـه: أي أخـلاق بني آدم أعون لك عليهم؟ قال: الحدة[1]، إن العبد إذا كان حديداً قلبنـاه كما يَقلب الصبيان الكرة.

وعن ثابت رضي الله عنه، قال: لما بُعِثَ النبـي ﷺ جعل إبليس ــ لعنه الله ــ يـرسل شيـاطينه إلى أصحـاب النبـي ﷺ، فيجيئون إليـه بصحفهم ليس فيهـا شيء، فيقول لهم: مـالكم لا تصيبون منهم شيئـاً؟ فقـالـوا: مـا صحبنـا صبحنا قوماً مثل هؤلاء، فقال: رويداً بهم، فعسى أن تفتـح لهم الدنيا، هنالك تصيبون حاجتكم منهم.

وعن أبـي مـوسى، قـال: إذا أصبـح إبليس بث جنـوده في الأرض، فيقول: من أضل مسلماً ألبسته التاج. فيقول لـه القـائل: لم أزل بفـلان حتى طلَّق امرأته، قال: يوشك أن يتزوج. ويقول آخر: لم أزل بفلان حتى عق، قال: يـوشك أن يبـر. ويقول آخـر: لم أزل بفـلان حتى زنى، قـال: أنت. ويقـول

---

(١) الحدَّة: ما يعتري الإنسان من الغضب.

آخـر: لم أزل بفلان حتى شـرب الخمر، قـال: أنت. ويقـول آخـر: لم أزل بفلان حتى قتل، فيقول: أنت أنت.

وعن الحسن، قال: كانت شجرة تعبد من دون الله، فجـاء إليها رجـل، فقال: لأقطعن هذه الشجرة، فجاء ليقطعهـا غضباً لله، فلقيـه إبليس في صورة إنسان، فقال: ما تريد؟ قال: أريد أن أقطـع هـذه الشجرة التي تعبـد من دون الله، قال: إذا أنت لم تعبدها فما يضرك من عبدها؟ قال: لأقطعنها. فقـال لـه الشيـطان: هل لـك فيما هـو خير لك؟ لا تقـطعهـا ولـك ديناران كـل يـوم إذا أصبحت عنـد وسادتـك. قـال: فمن أين لي ذلـك؟ قـال: أنـا لـك. فـرجـع فأصبـح فوجد دينارين عند وسادته، ثم أصبـح بعد ذلك فلم يجد شيئـاً، فقام غضباً ليقطعهـا فتمثل لـه الشيـطان في صورتـه، وقال: مـا تريـد؟ قال: أريـد قطـع هذه الشجرة التي تعبد من دون الله تعالى. قال: كذبت مالـك إلى ذلك من سبيل، فذهب ليقطعها، فضـرب بـه الأرض وخنقه حتى كـاد يقتله، قال: أتـدري من أنـا؟ أنـا الشيـطان جئت أول مـرة غضبـاً لله، فلم يكن لي عليـك سبيـل، فخدعتـك بالـدينارين فتـركتهـا، فلمَّـا جئت غضبـاً للدينارين سلطت عليك.

قال الشيـخ أبو الفرج رحمه الله: وفِتَن الشيطان ومكايده كثيرة، ولكثـرة فتن الشيطان وتشبثها بـالقلوب عزت السـلامة. فـإذا رأت الملائكـة مـؤمناً قـد مات على الإيمان تعجَّبت من سلامته.

وإذا عرج بروح المـؤمن إلى السماء، قالت الملائكة: سبحان الله الذي نجَّى هذا العبد من الشيطان، يا ويحه كيف نجا.

ذكر الإعلام بأن مـع كل إنسان شيطاناً

عن عـروة بن الـزبيـر، أن عـائشـة زوج النبي ﷺ، حـدَّثـتْـه أن رسول الله ﷺ خرج من عندها ليلاً، قالتْ: فغرتُ عليهِ فجاء فرأى ما أصنـعُ، فقال: «مالكِ يا عائشةُ أغِرْتِ؟ فقلت: ومالي لا يغارُ مثلي على مثلك، فقال:

أوَقد جَاءكِ شيطانُكِ؟ قالت: يا رسولَ اللَّهِ أوَمعي شيطانٌ؟ قال: نعم، قلت: ومعَ كلِّ إنسان؟ قال: نعم، قلت: ومعك يا رسولَ اللَّهِ؟ قال: نعمْ، ولكنّ ربي عزَّ وجلَّ أعانني عليه حتى أَسلَم»[1].

وعن ابنِ مسعود، يرفعه، قال: «ما منكمُ منْ أحدٍ إلا وقدْ وُكلَ به قرينُهُ من الجنِّ وقرينُه من الملائكةِ، قالوا: وإيَّاكَ يا رسولَ اللَّهِ؟ قال: وإيَّايَ، ولكن اللَّهَ عزَّ وجلَّ أعانني عليه فلا يأمرني إلاَّ بحقٍ».

وفي رواية: «فلا يأمرني إلاَّ بخير»[2].

بيان أن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم

عن صفية بنت حيي، زوج النبي ﷺ، قالت: «كان رسول الله ﷺ معتكفاً فأتيته أزوره ليلاً فحدَّثته، ثم قمت لأنقلب، فقام معي ليقلبني ـ وكان مسكنها في دار أسامة بن زيد ـ، فمرَّ رجلان من الأنصار، فلمَّا رآيا رسول الله ﷺ أسرعا، فقال النبي ﷺ: «على رِسلِكُما إنها صفيةُ بنتُ حييٍّ، فقالا: سبحانَ اللَّهِ يا رسول الله!! قال: إنَّ الشَّيطانَ يَجري من ابن آدمَ مَجرى الدَّمِ، وإني خشيتُ أن يَقذفَ في قلوبِكُما شراً أو قال شيئاً»[3].

---

(١) أخرجه مسلم (٢٨١٥) في المنافقين: باب تحريش الشيطان.
فأسلم: قيل معناه: فأسلم أنا منه، و قيل هو أسلم واستسلم، فلا يأمرني إلاّ بخير.
قال القاضي عياض: واعلم أن الأمة مجمعة على عصمة النبي ﷺ من الشيطان في جسمه وخاطره ولسانه، وفي الحديث إشارة إلى التحذير من فتنة القرين ووسوسته وإغوائه، فأعلمنا بأنه معنا لنحترز منه بحسب الإمكان.

(٢) أخرجه مسلم (٢٨١٤) في المنافقين: باب تحريش الشيطان. وأخرجه أحمد (١/ ٣٨٥).

(٣) أخرجه البخاري (٣٢٨١) في بدء الخلق: باب صفة إبليس وجنوده. ومسلم (٢١٧٥) في السلام: باب بيان أنه يستحب لمن رؤي خالياً بامرأة وكانت زوجته أن يقول: هذه فلانة. ليقلبني: ليردني إلى منزلي. على رسلكما: إتئدا ولا تعجلا. والرِّسْل: الرفق والتؤدة.

قال الخطابي: وفي هذا الحديث من العلم استحباب أن يحذر الإنسان من كل أمر من المكروه مما تجري به الظنون ويخطر بالقلوب، وأن يطلب السلامة من الناس بإظهار البراءة من الريب. ويحكى في هذا عن الشافعي رضي الله عنه، أنه قال: خاف النبي ﷺ أن يقع في قلوبهما شيء من أمر فيكفرا، وإنما قاله ﷺ شفقة منه عليهما لا على نفسه.

ذكر التعوذ من الشيطان الرجيم

لقد أمر الله تعالى بالتعوذ من الشيطان الرجيم عند التلاوة، فقال تعالى: ﴿فإذا قَرأتَ القرآنَ فاستعِذْ باللَّهِ مِن الشَّيطانِ الرَّجيم﴾[1]. وعند السحر، فقال: ﴿قلْ أَعوذُ بربِّ الفَلقِ﴾[2]. فإذا أمر بالتحرز من شره في هذين الأمرين، فكيف في غيرهما.

قال أبو التياح: قلت لعبد الرحمن بن حنيش: أدركت النبي ﷺ؟ قال: نعم، قلت: كيف صنع رسول الله ﷺ ليلة كادته الشياطين؟ فقال: إن الشياطين تحدَّرت تلك الليلة على رسول الله ﷺ من الأودية والشعاب، وفيهم شيطان بيده شعلة نار يريد أن يحرق بها وجه رسول الله ﷺ. فهبط إليه جبريل عليه السلام، فقال: يا محمد، قل: قال: ما أقول؟ قال: قل: أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق وذرأ وبرأ، ومن شر ما ينزل من السماء، ومن شر ما يعرج فيها، ومن شر فتن الليل والنهار، ومن شر كل طارق إلَّا طارقاً يطرق بخير يا رحمٰن، قال: فطفئت نارهم وهزمهم الله تعالى[3].

وعن عائشة رضي الله عنها، أن النبي ﷺ، قال: «إنَّ الشيطانَ يأتي

---

(١) سورة النحل: الآية ٩٨.
والتعوذ: التحصن والاعتصام.

(٢) الفلق: الصبح ينشق من ظلمة الليل.

(٣) أخرجه أحمد (٣/٤١٩).
كادته: مكرت به، وأرادت أذاه. والكيد: المكر والخبث. تحدرت: نزلت. ذرأ: خلق. برأ: خلق على غير مثال. الطارق: هو ما أتاك ليلاً.

أَحَـدكُمْ فيقولُ: من خلَقَـكَ؟ فيقولُ: اللَّهُ تبـاركَ وتعالى، فيقـولُ: فمنْ خلقَ اللَّهَ؟ فإذا وَجدَ أحـدُكم ذلكَ فلْيقـلْ: آمنتُ باللَّهِ ورسـولِهِ، فـإنَّ ذلك يـذهبُ عنهُ»[1].

وعن ابن مسعود رضي الله عنه يرفعه، قال: «إن للشيطان لمـةً بابنِ آدم وللملكِ لمةً، فأما لمةُ الشَّيطانِ فإيعادٌ بالشرِّ وتكذيبٌ بـالحقِّ، وأمَّا لمـةُ الملكِ فـإيعادٌ بـالخَيرِ وتصـديقٌ بالحقِّ، فمن وَجَـدَ من ذلكَ شيئـاً فليعلمْ أنهُ من اللَّهِ فليحمدِ اللَّهَ، ومن وجدَ الأخرى فليتعوذْ من الشَّيـطـانِ»، ثم قرأ: ﴿الشَّيـطانُ يعدُكمُ الفقرَ ويأمرُكمْ بالفحشاءِ﴾[2] الآية (٣).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: كان رسول الله ﷺ يعوذ الحسن والحسين فيقول: أعيذُكما بكلماتِ اللَّهِ التَّـامةِ، من كـلِّ شيطانٍ وهـامَّةٍ، ومن كل عينٍ لامَّةٍ، ثم يقول: هكذا كـان أَبـي إبراهيمُ صلَّى اللَّهُ عليـه وآلـه وسلم يعوذُ إسمَاعيلَ وإسحاق»[4].

قال أبو بكر ابن الأنباري: الهامة واحـد الهوام، ويقـال: هي كل نسمـة تهم بسوء، واللامـة الملمة، وإنمـا قال: لامـة ليوافق لفظ هـامة فيكـون ذلك أخف على اللسان.

---

(١) قـال في «كنز العمـال» (١٢٣٨): أخرجـه ابن أبـي الدنيـا، في «مكايـد الشيـطان». وأخـرج مسلم (١٣٤) في الإيمـان: بـاب الـوسـوسـة في الإيمـان، نحـوه عن أبـي هريرة.

(٢) أخرجه الترمذي (٢٩٨٨) في التفسيـر: باب من سـورة البقرة، وقـال: حسن غريب لا نعلمـه مـرفـوعـاً إلاّ من حـديث أبـي الأحـوص. قلت: وفيـه عـطاء بن السـائب وهو صدوق اختلط، كما في «التقريب».
واللمة: الهمة والخـطرة تقـع في القلب، فما كـان من خطرات الخيـر فمن الملك، وما كان من خطرات الشر فهو من الشيطان.

(٣) سورة البقرة: الآية ٢٦٨.

(٤) أخـرجه البخـاري (٣٣٧١) في الأنبيـاء: بـاب رقم (١٠). والتـرمـذي (٢٠٦٠) في الطب: باب رقم (١٨). والعين اللامة: هي التي تصيب بسوء.

وقـال مطرف: نـظرت فـإذا ابن آدم ملقى بين يـدي الله عـزَّ وجـلَّ وبين إبليس، فإن شاء أن يعصمه عصمه، وإن تركه ذهب بـه إبليس.

وحكي عن بعض السلف أنه قال لتلميذه: ما تصنـع بالشيطان إذا سـوَّل لك الخطايا؟ قال: أجاهده. قـال: فإن عـاد. قال: أجـاهده. قـال: فإن عـاد قال: أجاهده. قال: هذا يطول، أرأيت إن مررت بغنم فنبحك كلبها أو منعك من العبـور ما تصنـع، قـال: أكابـده وأرده جهدي. قـال: هذا يـطول عليك، ولكن استعن بصاحب الغنم يكفه عنك.



الباب الرابع

في معنى التلبيس والغرور

التلبيس: إظهار الباطل في صورة الحق، والغرور نوع جهل يوجب اعتقاد الفاسد صحيحاً، والرديء جيداً، وسببه وجود شبهة أوجبت ذلك. وإنما يدخل إبليس على الناس بقدر ما يمكنه، ويزيد تمكنه منهم، ويقل على مقدار يقظتهم وغفلتهم وجهلهم وعلمهم. واعلم أن القلب كالحصن، وعلى ذلك الحصن سور، وللسور أبواب وفيه ثلم[1]، وساكنه العقل، والملائكة تتردد إلى ذلك الحصن، وإلى جانبه ربض[2] فيه الهوى، والشياطين تختلف إلى ذلك الربض من غير مانع. والحرب قائمة بين أهل الحصن وأهل الربض، والشياطين لا تزال تدور حول الحصن، تطلب غفلة الحارس، والعبور من بعض الثلم. فينبغي للحارس أن يعرف جميع أبواب الحصن الذي قد وكِّل بحفظه وجميع الثلم، وأن لا يفتر عن الحراسة لحظة، فإن العدو ما يفتر. قال رجل للحسن البصري: أينام إبليس؟ قال: لو نام لوجدنا راحة. وهذا الحصن مستنير بالذكر مشرق بالإيمان، وفيه مرآة صقيلة يترآى فيها صور كل ما يمر به، فأوَّل ما يفعل الشيطان في الربض إكثار الدخان، فتسود حيطان الحصن وتصدأ المرآة، وكمال الفكر يرد الدخان، وصقل الذكر يجلو المرآة، وللعدو حملات: فتارة يحمل فيدخل الحصن، فيكر عليه الحارس فيخرج، وربما دخل فعاث[4]، وربما أقام لغفلة الحارس، وربما

---

(١) الثلم: جمع ثلمة كغُرفة وغُرَف، وهي في الأصل موضع الكسر من القدح.

(٢) الربض بفتحتين: المكان الذي يؤوى إليه.

(٣) عاث يعيث عيثا: أفسد.

ركـدت الريـح الـطاردة للدخان فتسـودّ حيطان الحصن، وتصـدأ المـرآة فيمـر الشيطان ولا يُدرى بـه، وربما جرح الحارس لغفلته، وأسـر واستخدم، وأقيم يستنبط الحيل في موافقة الهوى ومساعدته، وربما صار كالفقيه في الشر.

قـال بعض السلف: رأيت الشيـطان، فقـال لي: قـد كنت ألقى النـاس فـأُعلِّمهم، فصرت ألقـاهم فأتعلَّم منهم، وربمـا هجم الشيـطان على الـذكي الفـطن، ومعه عـروس الهوى قـد جلاهـا، فيتشـاغـل الفـطن بـالنـظر إليهـا، فيستـأسره، وأقـوى القيد الـذي يوثق بـه الأسرى الجهـل، وأوسـطه في القـوة الهـوى، وأضعفه الغفلة. ومـا دام درع الإيمان على المؤمن، فـإن نبل العـدو لا يقـع في مقتل.

قـال الحسن بن صـالـح رحمـه الله: إن الشيـطان ليفتـح للعبـد تسعـة وتسعين باباً من الخير، يريد بـه باباً من الشر.

وعن الأعمش، قال: حدثنـا رجل كـان يكلِّم الجن، قالـوا: ليس علينا أشد ممن يتبـع السنّة، وأما أصحاب الأهواء فإنا نلعب بهم لعباً.



الباب الخامس

في ذكر تلبيسه في العقائد والديانات

تلبيسه على السوفسطائية[1]

قال الشيخ: هؤلاء قوم ينسبون إلى رجل يقال له سوفسطا، زعموا أن الأشياء لا حقيقة لها، وأن ما يستبعده يجوز أن يكون على ما نشاهده. ويجوز أن يكون على غير ما نشاهده. وقد ردَّ العلماء عليهم.

قال النوبختي في كتاب «الآراء والديانات»: رأيت كثيراً من المتكلمين قد غلطوا في أمر هؤلاء غلطاً بيِّناً، لأنهم ناظروهم وجادلوهم، وراموا بالحجاج والمناظرة الردَّ عليهم، وهم لم يثبتوا حقيقة ولا أقروا بمشاهدة، فكيف تكلم من يقول لا أدري أيكلمني أم لا؟ وكيف تناظر من يزعم أنه لا يدري أموجود هو أم معدوم، وكيف تخاطب من يدعي أن المخاطبة بمنزلة السكوت في الإبانة، وأن الصحيح بمنزلة الفاسد؟ قال: ثم إنه إنما يناظر من يقر بضرورة، أو يعترف بأمر، فيجعل ما يقر سبباً إلى تصحيح ما يجحده، فأما من لا يقر بذلك فمجادلته مطروحة.

قال أبو الوفاء: ولا ينبغي أن يؤيس من معالجة هؤلاء، فإن ما اعتراهم ليس بأكثر من الوسواس، ولا ينبغي أن يضيق عطننا عن

---

(١) اعلم أن السوفسطائية ثلاثة مذاهب: الأول ينكر حقائق الأشياء، ويزعم أنها أوهام، وهم العنادية، والثاني ينكر العلم بثبوت الشيء وبعدم ثبوته، ولا ينكر نفس الحقائق ولا يثبتها، ويزعم أنه شاك في أنه شاك، وهم اللاأدرية، والثالث يزعم أن الحقائق تابعة للاعتقادات مع كونه ينكر ثبوتها، وهم العندية.

معالجتهم، فإنهم قوم أخرجتهم عوارض انحراف مزاج، وما مثلنا ومثلهم إلّا كرجل رزق ولداً أحول، فلا يزال يرى القمر بصورة قمرين، حتى إنه لم يشك أن في السماء قمرين، فقال له أبوه: القمر واحد، وإنما السوء في عينيك، غض عينك الحولاء وانظر، فلمّا فعل، قال: أرى قمراً واحداً، لأني عصبت إحدى عيني، فغاب أحدهما، فجاء من هذا القول شبهة ثانية، فقال له أبوه: إن كان ذلك كما ذكرت فغض الصحيحة، ففعل فرأى قمرين. فعلم صحة ما قال أبوه.

قال النوبختي: قد زعمت فرقة من المتجاهلين أنه ليس للأشياء حقيقية واحدة في نفسها، بل حقيقتها عند كل قوم على حسب ما يعتقد فيها، فإن العسل يجده صاحب المِرَّة الصفراء مراً، ويجده غيره حلواً. قالوا: وكذلك العالم، هو قديم عند من اعتقد قدمه، مُحدث عند من اعتقد حدوثه. واللون جسم عند من اعتقده جسماً، وعرض عند من اعتقده عرضاً. قالوا: فلو توهمنا عدم المعتقِدَيْنِ وقف الأمر على وجود من يعتقد. وهؤلاء من جنس السوفسطائية، فيقال لهم: أقولكم صحيح؟ فسيقولون: هو صحيح عندنا، باطل عند خصمنا. قلنا: دعواكم صحة قولكم مردودة، وإقراركم بأن مذهبكم عند خصمكم باطل شاهد عليكم.

قال النوبختي: ومن هؤلاء من قال: إن العالم في ذوب وسيلان، قالوا: ولا يمكن الإنسان أن يتفكر في الشيء الواحد مرتين، لتغير الأشياء دائماً. فيقال لهم: كيف علم هذا، وقد أنكرتم ثبوت ما يوجب العلم، وربما كان أحدكم الذي يجيبه الآن غير الذي كلّمه.

تلبيسه على الدهرية

قال المصنف: قد أوهم إبليس خلقاً كثيراً: أنه لا إله ولا صانع. وأن هذه الأشياء كانت بلا مكون. وهؤلاء لما لم يدركوا الصانع بالحس، ولم يستعملوا في معرفته العقل جحدوه. وهل يشك ذو عقل في وجود صانع؟

فإن الإنسان لو مرَّ بقاع ليس فيه بنيان، ثم عاد فرأى حائطاً مبنياً عَلِمَ أنه لا بدَّ له من بانٍ بناه. فهذا المهاد[1] الموضوع، وهذا السقف المرفوع[2]، وهذه الأبنية العجيبة، والقوانين الجارية على وجه الحكمة، أَمَا تدل على صانع؟ وما أحسن ما قال بعض العرب: إن البعرة تدل على البعير. فهيكل علوي بهذه اللطافة، ومركز سفلي بهذه الكثافة، أَمَا يدلان على اللطيف الخبير؟ ثم لو تأمل الإنسان نفسه لكفت دليلاً، ولشفت غليلاً. فإن في هذا الجسد من الحكم ما لا يسع ذكره في كتاب. ومن تأمَّل تحديد[3] الأسنان لتقطع، وتفريض[4] الأضراس لتطحن، واللسان يقلب الممضوغ، وتسليط الكبد على الطعام ينضجه، ثم ينفذ إلى كلٍّ جارحة قدر ما تحتاج إليه من الغذاء. وهذه الأصابع التي هيئت فيها العقد لتطوى، وتنفتح، فيمكن العمل بها. ولم تجوف لكثرة عملها، إذا لو جوفت لصدمها الشيء القوي فكندها[5]. وجعل بعضها أطول من بعض لتستوي إذا ضمت. وأخفي في البدن ما فيه قوامه: وهي النفس التي إذا ذهبت فسد العقل الذي يرشد إلى المصالح. وكل شيء من هذه الأشياء، ينادي: أفي الله شك؟ وإنما يخبط الجاحد، لأنه طلبه من حيث الحس. ومن الناس من جحده، لأنه لما أثبت وجوده من حيث الجملة، لم يدركه من حيث التفصيل، فجحد أصل الوجود. ولو أعمل هذا فكره لعلم أن لنا أشياء لا تدرك إلاَّ جملة: كالنفس والعقل. ولم يمتنع أحد من إثبات وجودهما. وهل الغاية إلاَّ إثبات الخلق جملة؟ وكيف يقال: كيف هو أو ما هو، ولا كيفية له ولا ماهية. ومن الأدلة القطعية على وجوده، أن العالم حادث، بدليل أنه لا يخلو من الحوادث. وكل ما لا ينفك عن

(١) أي الأرض.
(٢) أي السماء.
(٣) حد السكين: إذا شحذها.
(٤) فرض الشيء: حزّه وقطعه.
(٥) كند الشيء: قطعه.

الحوادث حادث، ولا بدَّ لحدوث هذا الحادث من مسبب، وهو الخالق سبحانه.

تلبيسه على الطبائعيين[1]

قال المصنف: لما رأى إبليس قلَّة موافقته على جحد الصانع، لكون العقول شاهدة بأنه لا بدَّ للمصنوع من صانع، حسن لأقوام أن هذه المخلوقات فعل الطبيعة، وقال: ما من شيء يخلق إلَّا من اجتماع الطبائع الأربع فيه، فدل على أنها الفاعلة. وجواب هذا نقول: اجتماع الطبائع دليل على وجودها لا على فعلها. ثم قد ثبت أن الطبائع لا تفعل إلَّا باجتماعها وامتزاجها، وذلك يخالف طبيعتها، فدل على أنها مقهورة. وقد سلَّموا أنها ليست بحيَّة، ولا عالمة، ولا قادرة، ومعلوم أن الفعل المتسق المنتظم لا يكون إلَّا من عالم حكيم، فكيف يفعل من ليس عالماً وليس قادراً؟ فإن قالوا: ولو كان الفاعل حكيماً لم يقع في بنائه خلل، ولا وجدت هذه الحيوانات المضرة، فعلم أنه بالطبع، قلنا: ينقلب هذا عليكم، بما صدر منه من الأمور المنتظمة المحكمة التي لا يجوز أن يصدر مثلها عن طبع، فأمَّا الخلل المشار إليه، فيمكن أن يكون للابتلاء والردع والعقوبة، أو في طيه منافع لا نعلمها.
ثم أين فعل الطبيعة من شمس تطلع في نيسان على أنواع من الحبوب، فترطب الحصرم والخلالة[2]، وتنشف البرة[3] وتيبسها، ولو فعلت طبعاً لايبست الكل أو رطبته، فلم يبقَ إلَّا أن الفاعل المختار استعملها بالمشيئة في يبس هذه للادخار، والنضج في هذه للتناول، والعجب أن الذي أوصل إليها اليبس في أكنة[4]، لا يلقى جرمها، والذي رطبها يلقى جُرمها. ثم إنها تبيض

(١) الطبائعيين: نسبة إلى الطبائع الأربعة؛ وهي: التراب والماء والنار والهواء، ويعتقدون أنها أصول كل شيء.
(٢) الخُلالة: ما تخلل به الثوب والأسنان.
(٣) أي القمحة.
(٤) الأكنة: الأغطية، واحد الأكنان.

ورد الخشخاش، وتحمر الشقائق، وتحمض الرمان، وتحلي العنب، والماء واحد. وقد أشار المولى لهذا بقوله: ﴿يُسْقَىٰ بماءٍ واحدٍ ونُفَضِّلُ بعضَها على بعضٍ في ٱلأُكُلِ﴾[1].

تلبيسه على الثنوية

وهم قوم قالوا: صانع العالم اثنان. ففاعل الخير نور، وفاعل الشر ظلمة، وهما قديمان، لم يزالا قويين حساسين سميعين بصيرين. وهما مختلفان في النفس والصورة، متضادان في الفعل والتدبير. فجوهر النور فاضل حسن، نير صاف نقي طيب الريح حسن المنظر، ونفسه نفس خيرة كريمة حكيمة نفاعة، منها الخير واللذة والسرور والصلاح، وليس فيها شيء من الضرر ولا من الشر. وجوهر الظلمة على ضد ذلك من الكدر والنقص، ونتن الريح، وقبح المنظر، ونفسه نفس شريرة بخيلة، سفيهة منتنة ضرارة، منها الشر والفساد.

والذي حملهم على هذا أنهم رأوا في العالم شراً واختلافاً، فقالوا: لا يكون من أصل واحد شيئان مختلفان، كما لا يكون من النار التبريد والتسخين. وقد رد العلماء عليهم، ولا ينبغي مد النفس في الكلام مع هؤلاء، فإن مذاهبهم خرافات.

تلبيسه على الفلاسفة وتابعيهم

إنما تمكن إبليس من التلبيس على الفلاسفة من جهة أنهم انفردوا بآرائهم وعقولهم، وتكلموا بمقتضى ظنونهم من غير التفات إلى الأنبياء. فمنهم من قال بقول الدهرية: أن لا صانع للعالم، وأكثرهم أثبت علة قديمة للعالم، ثم قال: بقدم العالم، وأنه لم يزل موجوداً مع الله تعالى ومعلولاً له، ومساوياً غير متأخر عنه بالزمان مساواة المعلول للعلة، والنور للشمس،

---

(١) سورة الرعد: الآية ٤.

بالذات والرتبة لا بالزمان. فيقال لهم: لِمَ أنكرتم أن يكون العالم حادثاً بإرادة قديمة اقتضت وجوده في الوقت الذي وجد فيه؟ فإن قالوا: فهذا يوجب أن يكون بين وجود الباري وبين المخلوقات زمان، قلنا: الزمان مخلوق، وليس قبل الزمان زمان. ثم يقال لهم: كان الحق سبحانه قادراً على أن يجعل سمك الفلك الأعلى أكثر مما هو بذراع، أو أقل مما هو بذراع. فإن قالوا: لا يمكن، فهو تعجيز، ولأن ما لا يمكن أن يكون أكبر منه، ولا أصغر، فوجده على ما هو عليه واجب لا ممكن، والواجب يستغني عن علة. وقد ستروا مذهبهم بأن قالوا: الله عز وجل صانع العالم. وهذا تجوُّز عندهم لا حقيقة، لأن الفاعل مريد لما يفعله، وعندهم أن العالم ظهر ضرورياً، لا أن الله فعله. ومن مذاهبهم أن العالم باق أبداً، كما لا بداية لوجوده فلا نهاية. قالوا: لأنه معلول علة قديمة، وكان المعلول مع العلة، ومتى كان العالم ممكن الوجود لم يكن قديماً ولا معلولاً. وقد قال جالينوس: لو كانت الشمس مثلاً تقبل الانعدام، لظهر فيها ذبول[1] في هذه المدة الطويلة. فيقال له: قد يفسد الشيء بنفسه بغتة لا بالذبول، ثم من أين له أنها لا تذبل، فإنها عندهم بمقدار الأرض مئة وسبعين[2] مرة أو نحو ذلك، فلو نقص منها مقدار جبل لم يبن ذلك للحس. ثم نحن نعلم أن الذهب والياقوت يقبلان الفساد، وقد يبقيان سنين ولا يحس نقصانهما، وإنما الإيجاد والإعدام بإرادة القادر، والقادر لا يتغير في نفسه، ولا تحدث له صفة، وإنما يتغير الفعل بإرادة قديمة.

فانظر إلى ما زينه إبليس لهؤلاء الحمقى مع ادعائهم كمال العقل. فالحمد لله الذي جعلنا ممن ينفي عن الله الجهل والنقص، ونؤمن بقوله: ﴿أَلا يَعلمُ مَنْ خَلقَ﴾[3]. وقوله: ﴿ويعلمُ ما في الْبَرِّ والْبحرِ وما تَسقطُ مِنْ

---

(١) يقال: ذبل الشيء: ضعف وذهبت نضارته.

(٢) هكذا كانوا يظنون.

(٣) سورة الملك: الآية ١٤.

وَرَقةٍ إلا يعلمُها﴾[1]. وذهبوا إلى أَن علم الله وقدرَته هو ذاته فراراً من أَن يثبتوا قديمين. وجوابهم أن يقال: إنما هو قديم موجود، واحد موصوف بصفات الكمال.

وقد أنكرت الفلاسفة بعث الأجساد، ورد الأرواح إلى الأبدان، ووجود جنة ونار جسمانيين. وزعموا أن تلك أمثلة ضُربت لعوامّ الناس، ليفهموا الثواب والعقاب الروحانيين. وزعموا أن النفس تبقى بعد الموت بقاء سرمديّاً أبداً، إمّا في لذة لا توصف، وهي الأنفس الكاملة؛ أو ألم لا يوصف، وهي النفوس المتلوثة. وقد تتفاوت درجات الألم على مقادير الناس، وقد ينمحي عن بعضها الألم ويزول؛ فيقال لهم: نحن لا ننكر وجود النفس بعد الموت، ولذلك سمي عَوْدها إعادة، ولا أنَّ لها نعيماً وشقاءً، ولكن ما المانع من حشر الأجساد؟ ولم ننكر اللذّات والآلام الجسمانية في الجنة والنار، وقد جاء الشرع بذلك، فنحن نؤمن بالجمع بين السعادتين، وبين الشقاوتين: الروحانية والجسمانية، وأما إقامتكم الحقائق في مقام الأمثال، فتحكم بلا دليل. فإن قالوا: الأبدان تنحل وتؤكل وتستحيل. قلنا: القدرة لا يقف بين يديها شيء.

على أن الإنسان إنسان بنفسه، فلو صنع له البدن من تراب غير التراب الذي خلق منه؛ لم يخرج عن كونه هو هو، كما أنه تتبدل أجزاؤه من الصغر إلى الكبر، وبالهزال والسمن. فإن قالوا: لم يكن البدن بدناً حتى يرقى من حالة إلى حالة، إلى أن صار لحماً وعروقاً. قلنا: قدرة الله سبحانه وتعالى لا تقف على المفهوم المشاهد. ثم قد أخبرنا نبينا ﷺ أن الأجسام تنبت في القبور قبل البعث. عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «ما بَينَ النَّفختين أَربعونَ»، قالوا: يا أبا هريرة أربعون يوماً، قال: أبيتُ، قالوا: أَربعونَ شهراً، قال: أبيتُ، قالوا: أربعون سنة، قال: أبيتُ. «قال: ثم يُنزِلُ اللَّه ماءً من السماء فينبتونَ كما يَنبتُ البقلُ، قال: وليس من الإنسانِ شيءُ إلّا يبلي، إلّا عظماً واحداً:

---

(١) سورة الأنعام: الآية ٥٩.

وهو عَجْبُ الذنب، منه خلق، ومنه يركب الخلق يوم القيامة»[1]. أخرجاه في «الصحيحين».

وقد لبس إبليس على أقوام من أهل ملّتنا، فدخل عليهم من باب قوة ذكائهم وفطنتهم، فأراهم أن الصواب اتباع الفلاسفة، لكونهم حكماء قد صدرت منهم أفعال وأقوال دلّت على نهاية الذكاء، وكمال الفطنة، كما ينقل من حكمة سقراط وأبقراط وأفلاطون وأرسطاطاليس وجالينوس. وهؤلاء قد كانت لهم علوم هندسية ومنطقية وطبيعية، واستخرجوا بفطنهم أموراً خفية، إلّا أنهم لمّا تكلموا في الإلهيات خلطوا، ولذلك اختلفوا فيها، ولم يختلفوا في الحسيات والهندسيات. وقد ذكرنا جنس تخليطهم في معتقداتهم. وقد رأينا من المتفلسفة من أمتنا جماعة لم يكسبهم التفلسف إلّا الحيرة، فلا هم يعملون بمقتضاه، ولا بمقتضى الإسلام، فنسأل الله ثباتاً على ملتنا. وسلامة من عدونا، إنه وليُّ الإجابة.

تلبيسه على عبّاد الأصنام

قال المصنف: كل محنة لبس بها إبليس على الناس، فسببها الميل إلى الحس، والإعراض عن مقتضى العقل. ولمّا كان الحس يأنس بالمثل، دعا إبليس ـ لعنه الله ـ خلقاً كثيراً إلى عبادة الصور، وأبطل عند هؤلاء عمل العقل بالمرة: فمنهم من حسن له أنها الآلهة وحدها، ومنهم من وجد فيه قليل فطنة، فعلم أنه لا يوافقه على هذا، فزين له أن عبادة هذه تقرب إلى الخالق. فقالوا: ﴿ما نَعبُدهُم إلّا لِيقرِّبُونا إلى اللَّهِ زُلْفَى﴾[2].

---

(١) أخرجه البخاري (٤٩٣٥) في التفسير: باب ﴿يوم ينفخ في الصور فتأتون أفواجاً﴾.
ومسلم (٢٩٥٥) في الفتن وأشراط الساعة: باب ما بين النفختين.
ومعنى أبيت: امتنعت عن الإخبار بما لا أعلم.
وعجب الذنب: هو العظم اللطيف الذي في أسفل الصلب، وهو رأس العصعص.

(٢) سورة الزمر: الآية ٣.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: كان بنو شيث بن آدم عليه الصلاة والسلام يأتون جسد آدم في المغارة، فيعظمونه ويترحمون عليه، فقال رجل من بني قابيل: يا بني قابيل، إن لبني شيث دواراً يدورون حوله، ويعظمونه، وليس لكم شيء، فنحت لهم صنماً، فكان أول من عملها.

وقيل: كان وَدّ وسُواعُ، ويَغوثُ، ويَعوقُ، ونسر، قوماً صالحين فماتوا في شهر، فجزع عليهم أقاربهم، فقال رجل من بني قابيل: يا قوم هل لكم أن أعمل لكم خمسة أصنام على صورهم، غير أنني لا أقدر أن أجعل فيها أرواحاً؟ فقالوا: نعم. فنحت لهم خمسة أصنام على صورهم، ونصبها لهم، فكان الرجل منهم يأتي أخاه وعمه وابن عمه فيعظمه ويسعى حوله، حتى ذهب ذلك القرن الأول. ثم جاء قرن آخر، فعظموهم أشد تعظيم من القرن الأول. ثم جاء من بعدهم القرن الثالث، فقالوا: ما عظم الأولون هؤلاء، إلّا وهم يرجون شفاعتهم عند الله عز وجل، فعبدوهم وعظموا أمرهم واشتد كفرهم.

قال الكلبي: وكان عمرو بن لحي كاهناً، وكان يكنى أبا ثمامة، له رئي[1] من الجن، فقال له: عجِّل المسير والظعن[2] من تهامة[3] بالسعد والسلامة، ائت صفا جدة، تجد فيها أصناماً معدة. فأوردها تهامة ولا تهب، ثم ادع العرب إلى عبادتها تجب. فأتى نهر جدة، فاستثارها[4] ثم حملها حتى ورد بها تهامة. وحضر الحج فدعا العرب إلى عبادتها.

عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: «رُفعتْ ليَ النَّارَ فرأيتُ عمروَ بنُ لُحيٍّ قصيراً أحمرَ أزرقَ يَجرُّ قُصبَهُ في النَّارِ. قُلتُ: من هذا؟ قيل: هذا عمرُو بنُ لُحيّ أولُ من بَحرَ البحيرةَ ووصَلَ الوصيلةَ وسيَّبَ

---

(١) أي: جني يُرى فيُحبُّ.

(٢) الظعن: السير.

(٣) تهامة: مكة، وأرض منخفضة بين ساحل البحر والجبال في الحجاز.

(٤) فاستثارها: بحث عنها.

السائبةَ وحمى الحام وغيَّرَ دينَ إسماعيلَ ودعا العرب إلى عبادةِ الأوثان»[1].

وكان أقدمها مناة، وكان منصوباً على ساحل البحر من ناحية المسلك بفديد بين مكة والمدينة،وكانت العرب جميعاً تعظمه.

وكانت مناة لهذيل وخزاعة، فبعث رسول الله ﷺ علياً رضي الله عنه، فهدمها عام الفتح.

ثم اتخذوا اللات بالطائف، وهي أحدث من مناة وكانت سدنتها من ثقيف، وكانت قريش وجميع العرب تعظمها، وكانت العرب تسمي زيد اللات وتيم اللات، وكانت في موضع منارة مسجد الطائف اليسرى اليوم، فلم يزالوا كذلك حتى أسلمت ثقيف، فبعث رسول الله ﷺ المغيرة بن شعبة فهدمها وحرقها بالنار.

ثم اتخذوا العزى، وهي أحدث من اللات، وكانت بوادي نخلة الشامية فوق ذات عرق، وبنوا عليها بيتاً.

فلما افتتح رسول الله ﷺ مكة بعث خالد بن الوليد رضي الله عنه، فهدمها ثم أتى النبي ﷺ فأخبره، فقال: «تلك العزى ولا عزى بعدها للعرب»[2].

وكان لقريش أصنام في جوف الكعبة وحولها، وأعظمها عندهم هبل. وهو الذي قال له أبو سفيان يوم أحد: أعل هبل: أي علا دينك. فقال رسول الله ﷺ لأصحابه: «ألا تُجيبونَهُ»؟ فقالوا: وما نقول؟ قال: «قولوا: الله أعلى وأجل»[3].

---

(١) أخرجه البخاري (٤٦٢٤) في التفسير: باب ﴿ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة...﴾ ،ومسلم (٢٨٥٦) في الجنة: باب النار يدخلها الجبارون.

(٢) قال الهيثمي في «مجمع الزوائد»: رواه الطبراني وفيه يحيى بن المنذر وهو ضعيف، وعن أبي عبد الرحمن السلمي أن خالد بن الوليد مرّ على اللات، فقال: كفرانك لا سبحانك إني رأيت الله قد أهانك. رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح إلاَّ أنه مرسل.

(٣) أخرجه البخاري (٣٠٣٩) في الجهاد: باب ما يكره من التنازع والاختلاف في الحرب.

وكان من تلك الأصنام ذو الْخَلَصَة وكان مروة[1] بيضَاء منقوشة عليها كهيئة التاج.

وكان لدوس صنم يقال له: ذو الكفين، فلمّا أسلموا بعث رسول الله ﷺ الطفيل بن عمرو فحرقه.

وكان لبني الحارث بن يشكر صنم يقال له: ذو الشرىٰ.

وكان لقضاعة ولخم وجذام وعاملة وغطفان صنم في مشارف الشام، يقال له: الأقيصر.

وكان لمزينة صنم يقال له: فهم وبه كانت تسمى عبد فهم.

وكان لعنزة صنم يقال له: سعير.

وكان لطيء صنم يقال له: الفلس.

وكان لأهل كل واد من مكّة صنم في دارهم يعبدونه، فإذا أراد أحدهم السفر كان آخر ما يصنع في منزله أن يتمسح به، وإذا قدم من سفره كان أول ما يصنع إذا دخل منزله أن يتمسح به.

قال الشيخ أبو الفرج رحمه الله: فانظر كيف تلاعب الشيطان بهؤلاء وذهب بعقولهم فنحتوا بأيديهم ما عبدوه، وما أحسن ما عاب الحق سبحانه وتعالى أصنامهم، فقال: ﴿أَلَهُمْ أرجُلٌ يَمشونَ بها أَمْ لهم أَيدٍ يَبطشُونَ بها أَمْ لهم أَعينٌ يُبصرُونَ بها أَمْ لهمْ آذانٌ يَسمعُونَ بها﴾[2].

وكانت الإشارة إلى العباد: أي أنتم تمشون وتبطشون وتبصرون وتسمعون، والأصنام عاجزة عن ذلك، وهي جماد، وهم حيوان، فكيف عبد التام الناقص؟ ولو تفكروا لعلموا أن الإلّه يصنع الأشياء ولا يُصنع، ويجمع وليس بمجموع، وتقوم الأشياء به ولا يقوم بها، وإنما ينبغي للإنسان أن يعبد

---

(١) مروة: حجر أبيض براق تقدح منه النار.
(٢) سورة الأعراف: الآية ١٩٥.

من صنعه لا ما صنعه. وما خيل إليهم أن الأصنام تشفع فخيال، ليس فيه شبهة يتعلق بها.

تلبيسه على عابدي النار والشمس والقمر

قال المصنف: قد لبس إبليس على جماعة فحسن لهم عبادة النار، وقالوا: هي الجوهر الذي لا يستغني العالم عنه، ومن ها هنا زين عبادة الشمس.

وذكر أبو جعفر بن جرير الطبري: أنه لمّا قتل قابيل هابيل، وهرب من أبيه آدم إلى اليمن، أتاه إبليس، فقال له: إن هابيل إنما قبل قربانه وأكلته النار، لأنه كان يخدم النار ويعبدها، فانصب أنت ناراً تكون لك ولعقبك. فبنى بيت نار، فهو أول من نصب النار وعبدها.

قال الجاحظ: وجاء زرادشت، فادعى أن الوحي ينزل إليه، وشرع لأصحابه التوضؤ بالأبوال وغشيان الأمهات، وتعظيم النيران، مع أمور سمجة.

وقد بنى عابدو النار لها بيوتاً كثيرة.

وقد حسن إبليس ـ لعنه الله ـ لأقوام عبادة القمر، ولأخرين عبادة النجوم. قال ابن قتيبة: وكان قوم في الجاهلية عبدوا الشعرى العبور وفتنوا بها. وكان أبو كبشة الذي كان المشركون ينسبون إليه رسول الله ﷺ أول من عبدها. وقال: قطعت السماء عرضاً ، ولم يقطع السماء عرضاً غيرها، وعبدها وخالف قريشاً.

وزين أبليس ـ لعنه الله ـ لأخرين عبادة الملائكة، وقالوا: هي بنات الله تعالى، تعالى الله عن ذلك. وزين لأخرين عبادة الخيل والبقر. وكان السامري من قوم يعبدون البقر، فلهذا صاغ عجلاً. وجاء في التعبير: أن فرعون كان يعبد تيساً، وليس في هؤلاء من أعمل فكره، ولا استعمل عقله في تدبير ما يفعل. نسأل الله السلامة في الدنيا والآخرة.

تلبيسه على الجاهلية

قال المصنف: ذكرنا كيف لبس عليهم في عبادة الأصنام. ومن أقبح تلبيسه عليهم في ذلك تقليد الآباء من غير نظر في دليل، كما قال الله عز وجل: ﴿وإذا قِيلَ لهمُ اتبِّعُوا ما أنزلَ اللَّهُ، قالوا: بلْ نتَّبعُ ما أَلفينا عليه آباءَنا أَو لَوْ كان آباؤُهم لا يَعقلونَ شيئاً ولا يَهتدُونَ﴾[1] المعنى: أتتبعونهم أيضاً.

وقد لبس إبليس على طائفة منهم، فقالوا بمذاهب الدهرية، وأنكروا الخالق وجحدوا البعث، وهؤلاء الذين قال الله سبحانه فيهم: ﴿ما هي إلاَّ حياتُنا الدُّنيا نَموتُ ونحيا وما يُهلكُنا إلاّ الدهرُ﴾[2]، وعلى آخرين منهم: فأقروا بالخالق لكنهم جحدوا الرسل والبعث. وعلى آخرين منهم: فزعموا أن الملائكة بنات الله. وأمال آخرين منهم إلى مذهب اليهود. وآخرين إلى مذهب المجوس.

وممن كان يقر بالخالق والابتداء، والإعادة والثواب والعقاب عبد المطَّلب بن هاشم، وزيد بن عمرو بن نفيل، وقس بن ساعدة، وعامر بن الظرب. وكان عبد المطَّلب إذا رأى ظالماً لم تصبه عقوبة قال: تالله إن وراء هذه الدار لداراً يجزى فيها المحسن والمسيء. ومنهم زهير بن أبي سلمى وهو القائل:

يؤخر فيوضع في كتاب فيدخر ليوم حساب أو يعجل فينقم

ومنهم زيد الفوارس بن حصن، ومنهم القَلَمَّس بن أمية الكناني، كان يخطب بفناء الكعبة، وكانت العرب لا تصدر عن مواسمها حتى يعظها، ويوصيها، فقال يوماً: يا معشر العرب، أطيعوني ترشدوا، قالوا: وما ذاك؟ قال: إنكم تفردتم بآلهة شتى إني لأعلم ما الله بكل هذا راض. وإن

---

(١) سورة البقرة: الآية ١٧٠.

(٢) سورة الجاثية: الآية ٢٤.

الله رب هذه الآلهة، وإنه ليحب أن يعبد وحده. فتفرقت عنه العرب لذلك، ولم يسمعوا مواعظه. وكان فيهم قوم يقولون: من مات فربطت على قبره دابته، وتركت حتى تموت، حشر عليها، ومن لم يفعل ذلك حشر ماشياً، وممن قاله عمرو بن زيد الكلبي.

قال المصنف: وأكثر هؤلاء لم يزُل عن الشرك، وإنما تمسَّك منهم بالتوحيد ورَفَض الأصنام القليل، كقس بن ساعدة، وزيد. وما زالت الجاهلية تبتدع البدع الكثيرة؛ فمنها النسيء: وهو تحريم الشهر الحلال، وتحليل الشهر الحرام، وذلك أن العرب كان قد تمسكت من ملة إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه بتحريم الأشهر الأربعة، فإذا احتاجوا إلى تحليل المحرم للحرب، أخروا تحريمه إلى صفر، ثم يحتاجون إلى صفر، ثم كذلك حتى تتدافع السنة. وإذا حجوا قالوا: لبيك لا شريك لك، إلاّ شريكاً هو لك، تملكه وما ملك. ومنها توريث الذكر دون الأنثى. ومنها أن أحدهم كان إذا مات ورث نكاح زوجته أقرب الناس إليه، ومنها البحيرة: وهي الناقة تلد خمسة أبطن، فإن كان الخامس أنثى شقوا أذنها، وحرمت على النساء. والسائبة من الأنعام: كانوا يسيبونها، ولا يركبون لها ظهراً، ولا يحلبون لها لبناً. والوصيلة: الشاة تلد سبعة أبطن، فإن كان السابع ذكراً أو أنثى، فقالوا: وصلت أخاها فلا تذبح، وتكون منافعها للرجال دون النساء، فإذا ماتت اشترك فيها الرجال والنساء. والحامي: الفحل ينتج من ظهره عشرة أبطن، فيقولون: قد حمي ظهره، فيسيبونه لأصنامهم، ولا يحمل عليه. ثم يقولون، إن الله عز وجل أمرنا بهذا فذلك معنى قوله تعالى: ﴿ما جَعلَ اللَّهُ من بَحِيرةٍ ولا سَائبةٍ ولا وَصيلةٍ ولا حَامٍ ولكنَّ الذينَ كَفرُوا يَفترون على اللَّهِ الكذبَ﴾[1]. ثم الله عز وجل ردَّ عليهم فيما حرموه من البحيرة والسائبة والوصيلة والحامي، وفيما أحلّوه بقولهم: ﴿خالِصةٌ لذكورِنَا ومحرمٌ على أزواجنا﴾[2]. قال الله تعالى: ﴿قلْ

(١) سورة المائدة: الآية ١٠٣.

(٢) سورة الأنعام: الآية ١٣٩.

آلذَّكرين حرَّمَ أمِ الأنثيينِ﴾[1]. المعنى إن كان الله حَرَّم الذكرين، فكل الذكور حرام، وإن كن حَرَّم الأنثيين، فكل الإناث حرام، وإن كان حَرَّم ما اشتملت عليه أرحام الأنثيين، فإنها تشتمل على الذكور والإناث، فيكون كل جنين حراماً.

وزيَّن لهم إبليس قتل أولادهم، فالإنسان منهم يقتل ابنته، ويغذو[2] كلبه. ومن جملة ما لبس عليهم إبليس أنهم قالوا: لو شاء الله ما أشركنا، أي لو لم يرض شركنا لحال بيننا وبينه، فتعلقوا بالمشيئة وتركوا الأمر، ومشيئة الله تعم الكائنات، وأمره لا يعم مراداته، فليس لأحد أن يتعلق بالمشيئة بعد ورود الأمر. ومذاهبهم السخيفة التي ابتدعوها كثيرة، لا يصلح تضييع الزمان بذكرها، ولا هي مما يحتاج إلى تكلف ردها.

تلبيس إبليس على جاحدي النبوات

قال المصنف: وقد لبس إبليس على البراهمة والهندوس وغيرهم، فزين لهم جحد النبوات، ليسد طريق ما يصل من الإلّه. وقد اختلف أهل الهند: فمنهم دهرية، ومنهم ثنوية، ومنهم على مذاهب البراهمة، ومنهم من يعتقد نبوة آدم وإبراهيم فقط.

وقد حكى أبو محمد النوبختي في كتاب «الآراء والديانات» أن قوماً من الهند من البراهمة أثبتوا الخالق والرسل والجنة والنار، وزعموا أن رسولهم ملك أتاهم في صورة البشر من غير كتاب، له أربعة أيد، واثنا عشر رأساً من ذلك رأس إنسان، ورأس أسد، ورأس فرس، ورأس فيل، ورأس خنزير، وغير ذلك من رؤوس الحيوانات، وأنه أمرهم بتعظيم النار، ونهاهم عن القتل والذبائح إلّا ما كان للنار، ونهاهم عن الكذب وشرب الخمر، وأباح لهم الزنى، وأمرهم أن يعبدوا البقر، ومن ارتد منهم ثم رجع حلقوا رأسه ولحيته وحاجبيه

(١) سورة الأنعام: الآية ١٤٣.

(٢) يغذو: يطعم.

واشفار[1] عينيه، ثم يذهب فيسجد للبقر في هذيانات يضيع الزمان بذكرها.

ومن الهند قوم قد حَسَّن لهم إبليس أن يتقربوا بإحراق نفوسهم: فيحفر للإنسان منهم أخدود، وتجتمع الناس، فيجيء مضمخاً[2] بالخلوق والطيب، وتضرب المعازف والطبول والصنوج، ويقولون: طوبى لهذه النفس التي تعلق إلى الجنة. ويقول هو: ليكن هذا القربان مقبولاً، ويكون ثوابي الجنّة. ثم يلقي نفسه في الأخدود[3] فيحترق، فإن هرب نابذوه ونفوه وتبرؤوا منه حتى يعود. ومنهم من يحمى له الصخر، فلا يزال يلزم[4] صخرة صخرة حتى يثقب جوفه، ويخرج معاه[5] فيموت. ومنهم من يقف قريباً من النار إلى أن يسيل ودكه[6] فيسقط. ومنهم من يقطع من ساقه وفخذه قطعاً، ويلقيها إلى النار، والناس يزكونه ويمدحونه، ويسألون مثل مرتبته حتى يموت. ومنهم من يقف في أخثاء[7] البقر إلى ساقه، ويشعل النار فيحترق. ومنهم من يعبد الماء، ويقول: هو حياة كل شيء فيسجد له.

ومنهم من يزهق نفسه بالجوع والعطش، فيسقط أولاً عن المشي، ثم عن الجلوس، ثم ينقطع كلامه، ثم تبطل حواسه، ثم تبطل حركته، ثم يخمد. ومنهم من يهيم في الأرض، حتى يموت. ومنهم من يغرق نفسه في النهر. ومنهم من لا يأتي النساء، ولا يواري إلّا العورة.

ولهم جبل شاهق تحته شجرة، وعندها رجل بيده كتاب، يقرأ فيه، يقول: طوبى لمن ارتقى هذا الجبل، وبعج بطنه، وأخرج أمعاءه بيده. في أفعال طويلة يضيع الزمان في كتابتها.

---

(١) الشفر: أصل منبت شعر الجفن.
(٢) ضمخ جسده بالطيب: لطخه به. والخلوق: نوع من الطيب.
(٣) الأخدود: شقّ مستطيل من الأرض.
(٤) لزم الصخرة: لم يفارقها.
(٥) مفرده معي: وهو مصران البطن.
(٦) الودك: الدسم من اللحم والشحم.
(٧) أخثاء البقر: أرواثها.

والعَجَب أن الهنود قوم تؤخذ عنهم دقائق الحكمة، وتلهم دقائق الأعمال، فسبحان من أعمى قلوبهم، حتى قادهم إبليس هذا المقاد.

تلبيسه على اليهود

قال المصنف: قد لبس عليهم في أشياء كثيرة، نذكر منها نبذة، ليستدل بها على تلك. فمن ذلك: تشبيههم الخالق بالخلق، ولو كان تشبيههم حقاً لجاز عليه ما يجوز عليهم. وحكى أبو عبد الله بن حامد من أصحابنا، أن اليهود تزعم أن الإلّه المعبود رجل من نور على كرسي من نور، على رأسه تاج من نور، وله أعضاء كما للآدميين. ومن ذلك قولهم: عزير ابن الله. ولو فهموا حقيقة البنوة لا تكون إلاَّ بالتبعيض، والخالق ليس بذي أبعاض، لأنه ليس بمؤلف، لم يثبتوا بنوة. ثم إن الولد في معنىٰ الوالد، وقد كان عزير لا يقوم إلاَّ بالطعام، والإلّه من قامت به الأشياء، لا من قام بها. والذي دعاهم إلى هذا مع جهلهم بالحَقائق، أنهم رأوه قد عاد بعد الموت، وقرأ التوراة من حفظه، فتكلموا بذلك من ظنونهم الفاسدة. ويدل على أن القوم كانوا في بعد من الذهن، أنهم لما رأوا أثر القدرة في فرق البحر لهم، ثم مروا على أصنام طلبوا مثلها، فقالوا: ﴿اجعلْ لنا إلٰهاً كما لهُمْ آلهةٌ﴾[1]، فلما زجرهم موسىٰ عن ذلك بقي في نفوسهم، فظهر المستور بعبادتهم العجل. والذي حملهم على هذا شيئان:

أحدهما: جهلهم بالخالق.

والثاني: أنهم أرادوا ما يسكن إليه الحس، لغلبة الحس عليهم، وبعد العقل عنهم، ولولا جهلهم بالمعبود ما اجترؤوا عليه بالكلمات القبيحة، كقولهم: ﴿إنَّ اللَّهَ فقيرٌ ونحنُ أغنياءُ﴾[2]، وقولهم: ﴿يَدُ اللَّهِ مغلُولةٌ﴾[3]،

---

(١) سورة الأعراف: الآية ١٣٨.

(٢) سورة آل عمران: الآية ١٨١.

(٣) سورة المائدة: الآية ٦٤.

تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

ومن تلبيسه عليهم أنهم قالوا: لا يجوز نسخ الشرائع. وقد علموا أن من دين آدم جواز نكاح الأخوات، وذوات المحارم، والعمل في يوم السبت، ثم نُسَخ ذلك بشريعة موسىٰ. وقد حظر عليكم العمل يوم السبت، وأطلق لكم العمل يوم الأحد، وهذا من جنس ما أنكرتم، وقد أمر الله عز وجل إبراهيم عليه السلام بذبح ابنه، ثم نهاه عن ذلك.

ومن تلبيسه عليهم أنهم قالوا: ﴿لنْ تَمسَّنا النَّارُ إلاَّ أيَّاماً مَعدُودةً﴾[1]. وهي الأيام التي عبد فيها العجل. وفضائحهم كثيرة. ثم حملهم إبليس على العناد المحض، فجحدوا ما كان في كتابهم من صفة نبينا ﷺ، وغيروا ذلك. وقد أمروا أن يؤمنوا به، ورضوا بعذاب الآخرة، فعلماؤهم عاندوا، وجهالهم قلدوا. ثم العجب أنهم غيَّروا ما أمروا به، وحرفوا ودانوا بما يريدون، فأين العبودية ممن يترك الأمر ويعمل بالهوى؟ ثم إنهم كانوا يخالفون موسىٰ ويعيبونه، حتى قالوا: إنه آدر[2]، واتهموه بقتل هٰارون، واتهموا داود بزوجة «أوريا».

عن سلمة بن سلامة بن وقش، قال: كان لنا جار من اليهود في بني عبد الأشهل، فخرج علينا يوماً من بيته قبل مبعث النبي ﷺ، حتى وقف على مجلس بني عبد الأشهل. قال سلمة: وأنا يومئذٍ أحدث من فيهم سنّاً علي بردة مضطجعاً فيها بفناء أهلي، فذكر البعث والقيامة والحساب والميزان والجنة والنار، فقال ذلك لقوم أهل شرك وأصحاب أوثان، لا يرون بعثاً كائناً بعد الموت. فقالوا له: ويحك يا فلان، أترى هذا كائناً: أن الناس يبعثون بعد موتهم إلى دار فيها جنة ونار، يجزون فيها بإعمالهم؟ قال: نعم. قالوا له: ويحك وما آية ذلك؟ قال: نبي مبعوث من نحو هذه البلاد، وأشار بيده نحو

---

(١) سورة البقرة: الآية ٨٠.

(٢) آدر: الآدر: من يصيبه فتق في إحدى خصيتيه. والأُدْرَة: الخصية المنتفخة.

مكة واليمن. قالوا: متى نراه؟ قال: فنظر إليَّ وأنا من أحدَثهم سنّاً، إن يستنفذ هذا الغلام عمره يدركه. قال سلمة: فوالله ما ذهب الليل والنهار حتى بعث الله رسوله ﷺ، وهو حي بين أظهرنا، فآمنا به وكفر به بغياً وحسداً. فقلنا له: ويلك يا فلان، ألست الذي قلت لنا فيه ما قلت؟ قال: بلىٰ، ولكن ليس به[1].

تلبيسه على النصارى

قال المصنف: تلبيسه عليهم كثير، فمن ذلك أن إبليس أوهمهم أن الخالق سبحانه جوهر، فقال اليعقوبية أصحاب يعقوب، والملكية أهل دين الملك، والنسطورية أصحاب نسطورس: إن الله جوهر واحد بأقانيم ثلاثة، فهو واحد في الجوهرية، ثلاثة في الأقنومية، فأحد الأقانيم عندهم: الأب، والآخر الابن، والآخر روح القدس، فبعضهم يقول: الأقانيم خواص. وبعضهم يقول: صفات. وبعضهم يقول: أشخاص، وهؤلاء قد نسوا أنه لو كان الإلٰه جوهراً، لجاز عليه ما يجوز على الجواهر من التحيز بمكان، والتحرك والسكون والأوان. ثم سول لبعضهم أن المسيح هو الله.

وزعمت الملكية واليعقوبية أن الذي ولدته مريم هو الإلٰه. وسول الشيطان لبعضهم أن المسيح هو ابن الله. وقال بعضهم: المسيح جوهران: أحدهما قديم، والآخر محدث. ومع قولهم هذا في المسيح يقرون بحاجته إلى طعام، ولا يختلفون في هذا، وفي أنه صلب ولم يقدر على الدفع عن نفسه. ويقولون: إنما فعل هذا بالناسوت، فهلا دفع عن الناسوت ما فيه من اللاهوت.

ثم لبس عليهم أمر نبينا محمد ﷺ، حتى جحدوه بعد ذكره في الإنجيل. ومن الكتابيين من يقول عن نبينا: إنه نبي إلاَّ أنه مبعوث إلى العرب خاصة. وهذا تلبيس من إبليس استغفلهم فيه، لأنه متىٰ ثبت أنه نبي،

---

(١) أي ليس هو الذي وصفت.

فالنبي لا يكذب، وقد قال: «بعثت إلى الناس كافة». وقد كتب إلى قيصر وكسرى وسائر ملوك الأعاجم.

ومن تلبيسه عليهم أنَّهم قالوا: ﴿نحنُ أَبناءُ اللَّهِ وأَحبَّاؤُهُ﴾(١). أي منا ابنه عزير وعيسى. وكشف هذا التلبيس: إن كان شخص مطالب بحق الله عليه، فلا يدفعه عنه ذو قرابته، ولو تعدت المحبة شخصاً إلى غيره لموضع القرابة لتعدى البعض. وقد قال نبينا ﷺ لابنته فاطمة: «لا أَغْنِي عَنكِ مِنَ اللَّهِ شَيئاً»(٢) وإنما فضل المحبوب بالتقوى، فمن عدمها عدم المحبة.

تلبيس إبليس على الصابئين

أصل هذه الكلمة من قولهم: صبأت: إذا خرجت من شيء إلى شيء، وصبأت النجوم: إذا ظهرت، والصابئون: الخارجون من دين إلى دين، وللعلماء فيهم أقوال.

أحدها: أنهم قوم بين اليهود والنصارى. رواه القاسم بن أبي بزة عن مجاهد.

والثاني: أنهم قوم من المشركين لا كتاب لهم.

والثالث: أنهم كالمجوس.

والرابع: أنهم طائفة من أهل الكتاب.

قال المصنف: هذه أقوال المفسرين، فأمَّا المتكلمون، فقالوا: مذهب الصابئين مختلف فيه، فمنهم من يقول: إن هناك هيولَى(٣) كان ولم يزل

---

(١) سورة المائدة: الآية ١٨.

(٢) أخرجه البخاري (٤٧٧١) في التفسير: باب ﴿وأنذر عشيرتك الأقربين﴾، ومسلم (٢٠٦) في الإيمان: باب قوله تعالى: ﴿وأنذر عشيرتك الأقربين﴾، والترمذي (٣١٨٤) في التفسير: باب ومن سورة الشعراء. والنسائي (٢٤٨/٦) في الوصايا: باب أوصى لعشيرته الأقربين.

(٣) الهَيُولَى: مادة الشيء التي يُصنع منها، وهو عند القدماء المادة التي خُلقت منها أجزاء العالم المادية، وهي مادة ليس لها شكل ولا صورة معينة، قابلة للتشكل في شتىٰ الصور.

يصنع العالم من ذلك الهيولى. وقال أكثرهم: العالم ليس بمحدث وسموا الكواكب ملائكة، وسماها قوم منهم آلهة وعبدوها، وبنوا لها بيوت عبادات.

مثل هذه المذاهب لا يحتاج إلى تكلف في ردها، إذ هي دعاوى بلا دليل. وقد حسن إبليس لأقوام من الصابئين أنهم رأوا الكمال في تحصيل مناسبة بينهم وبين الروحانيات العلوية باستعمال الطهارات وقوانين ودعوات، واشتغلوا بالتنجيم والتسخير، وقالوا: لا بدَّ من متوسط بين الله وبين خلقه في تعريف المعارف، والإرشاد للمصالح، إلَّا أن ذلك المتوسط ينبغي أن يكون روحانياً لا جسمانياً، قالوا: فنحن نحصل لأنفسنا مناسبة قدسية بيننا وبينه، فيكون ذلك وسيلة لنا إليه، وهؤلاء لا ينكرون بعث الأجساد.

تلبيس إبليس على المجوس

قال يحيٰى بن بشر بن عمير النهاوندي: كان أول ملوك المجوس كيومرث فجاءهم بدينهم، ثم تتابع مدعو النبوَّة فيهم، حتى اشتهر بها زرادشت. وكان مما سنَّه زرادشت عبادة النار، والصلاة إلى الشمس، يتأولون فيها أنها ملكة العالم، وهي التي تأتي بالنهار، وتذهب بالليل، وتحيي النبات والحيوانات، وترد الحرارات إلى أجسادها. وكانوا يغسلون وجوههم ببول البقر تبركاً به، وإذا كان عتيقاً كان أكثر بركة. ويستحلون فروج الأمهات، قالوا: الابن أحرى بتسكين شهوة أمه. وإذا مات الزوج فابنه أولى بالمرأة.

ومن أقوال المجوس: إن الأرض لا نهاية لها من أسفلها، وإن السماء جلد من جلود الشياطين، والرعد إنما هو حركة خرخرة العفاريت المحبوسة في الأفلاك المأسورة في حرب، والجبال من عظامهم والبحر من أبوالهم ودمائهم في هذيانات كثيرة يضيع الزمان بذكرها، ولولا التفرج فيما صنعه إبليس فيهم لما كان لذكرها فائدة.

تلبيس إبليس على جاحدي البعث

وقد لبس على خلق كثير، فجحدوا البعث، واستهولوا الإعادة بعد البلا. وأقام لهم شبهتين.

إحداهما: أنه أراهُم ضعف المادة.

والثانية: اختلاط الأجزاء المتفرقة في أعماق الأرض. قالوا: وقد يأكل الحيوان الحيوان، فكيف يتهيَّأ إعادته، وقد حكى القرآن شبهتهم.

فقال تعالى في الأولى: ﴿أَيعدُكُمْ أَنَّكُمْ إذا مِتُّمْ وكُنتمْ تُراباً وعِظاماً أَنَّكُمْ مُخرجُونَ. هَيْهاتَ هَيْهاتَ لِمَا تُوعدُونَ﴾(١).

وقال في الثانية: ﴿أَئِذا ضَلَلْنَا في الأَرضِ أَئِنا لَفي خَلْقٍ جَديدٍ﴾(٢).

والجواب عن شبهتهم الأولى: أن ضعف المادة في الثاني، وهو التراب يدفعه كون البداية من نطفه ومضغة وعلقة. ثم أصل الآدميين، وهو آدم من تراب. على أن الله سبحانه وتعالى لم يخلق شيئاً مستحسناً إلَّا من مادة سخيفة. فإنه أخرج هذا الآدمي من نطفة، والطاووس من البيضة المذْرة(٣)، والطرفة الخضراء من الحبة العفنة. فالنظر ينبغي أن يكون إلى قوَّة الفاعل وقدرته، لا إلى ضعف المواد.

وبالنظر إلى قدرته يحصل جوابُ الشبهة الثانية. ثم قد أرانا كالأنموذج في جمع المتمزق، فإن سحالة(٤) الذهب المتفرقة في التراب الكثير إذا ألقى عليها قليل من زئبق اجتمع الذهب مع تبدده، فكيف بالقدرة الإلٰهية التي من تأثيرها خلق كل شيء لا من شيء؟ ومن أعجب الأدلة على البعث أن الله عز وجل قد أظهر على يدي أنبيائه ما هو أعظم من البعث، وهو قلب العصا

---

(١) سورة المؤمنون: الآيتان ٣٥ ــ ٣٦.
وهيهات: اسم فعل ماضٍ بمعنى بَعُد.

(٢) سورة السجدة: الآية ١٠.

(٣) المذرة: الفاسدة، يقال: مذرت البيضة إذا فسدت.

(٤) السحالة: بالضم، كالبرادة: ما سقط من الذهب والفضة.

حية حيواناً، وأخرج نـاقة من صخـرة، وأظهر حقيقـة البعث على يدي عيسىٰ صلوات الله وسلامه عليه.

وقد لبس إبليس على أقوام شاهدوا قـدرة الخالق سبحـانه وتعـالىٰ، ثم تـرددوا في البعث، فقال قـائلهم: ﴿وَلَئِنْ رُددتُّ إلى ربِّـي لأَجـدنَّ خيـراً منهـا مُنْقلباً﴾[1]. وقال العاص بن وائل: ﴿لأُوتين مالاً وولداً﴾[2]. وإنَّما قالـوا هذا لمـوضـع شكهم. وقـد لبس إبليس عليهم في ذلـك. فقـالـوا: إن كـان بعث فنحن على خير، لأن من أنعم علينا في الدنيا بالمال، لا يمنعناه في الآخرة.

وهذا غلط منهم لأنه لم لا يجوز أن يكون الإعطاء استدراجاً أو عقوبـة، والإنسان قد يحمي ولده ويطلق في الشهوات عبده.

تلبيسه على القائلين بالتناسـخ

وقد لبس إبليس على أقوام، فقالوا بالتناسـخ، وأن أرواح أهل الخير إذا خـرجت دخلت في أبدان خيـرة فاستـراحت، وأرواح أهـل الشـر إذا خـرجت تدخل في أبدان شريرة فتحمـل عليها المشاق. وهـذا المذهب ظهـر في زمان فـرعون ومـوسى. وذكر أبـو القاسم البلخي: أن أربـاب التناسـخ لمـا رأوا ألم الأطفال والسباع والبهائم استحال عندهم أن يكون ألمهـا ليمتحن بـه غيرهـا، أو لا لمعنى أكثر من أنها مملوكة، فصـح عندهم أن ذلـك لذنـوب سلفت منها قبل تلك الحال.

فـانـظر إلى هـذه التلبيسـات التي رتبهـا لهم إبليس على مـا عنَّ لـه[3] لا تستند إلى شيء[4].

---

(١) سورة الكهف: الآية ٧٧.
(٢) سورة مريم: الآية ٧٧.
(٣) عنَّ لـه: ظهر لـه وعرض.
(٤) مما سبق، وذكره المؤلف من تلبيسات إبليس على تلك الطوائف من البشر وتسويـلاته لهم، نعلم حق العلم أن الإنسـان على مـرّ العصـور مهمـا تحصَّن بمـواهب عقله، =

تلبيس إبليس على أمتنا في العقائد والديانات

قال المصنف: دخل إبليس على هذه الأمة في عقائدها من طريقين: **أحدهما**: التقليد للآباء والأسلاف؛ **والثاني**: الخوض فيما لا يدرك غوره، ويعجز الخائض عن الوصول إلى عمقه، فأوقع أصحاب هذا القسم في فنون من التخليط.

فأما الطريق الأول فإن إبليس زين للمقلدين أن الأدلة قد تشتبه والصواب قد يخفى والتقليد سليم. وقد ضل في هذه الطريق خلق كثير، وبه هلاك عامة الناس، فإن اليهود والنصارى قلدوا آباءهم وعلماءهم فضلوا، وكذلك أهل الجاهلية.

واعلم أن العلة التي بها مدحوا التقليد بها يذم، لأنه إذا كانت الأدلة تشتبه والصواب يخفى، وجب هجر التقليد لئلا يوقع في ضلال. وقد ذم الله سبحانه وتعالى الواقفين مع تقليد آبائهم وأسلافهم، فقال عز وجل: ﴿إنا وجدْنَا آباءَنا على أُمةٍ وإنَّا على آثارِهِمْ مُقْتَدُونَ. قُلْ أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ بأهدى مما وجدتُّم عليهِ آباءَكُمْ﴾[1]. المعنى أتتبعوهم، وقد قال عزَّ جل: ﴿إنهمْ أَلْفَوْا آباءَهُمْ ضَالينَ. فَهُمْ على آثارِهِمْ يُهرعُونَ﴾[2].

قال المصنف: اعلم أن المقلد على غير ثقة فيما قلَّد فيه. وفي التقليد إبطال منفعة العقل، لأنه إنَّما خلق للتأمل والتدبر. وقبيح بمن أعطي شمعة يستضيء بها أن يطفئها ويمشي في الظلمة. واعلم أن عموم أصحاب المذاهب يعظم في قلوبهم الشخص، فيتبعون قوله من غير تدبر بما قال،

= واستضاء بنور علمه، لا يمكنه أن يضمن لنفسه العصمة من الخطأ، والوقوع في الخطر، وأن يكون فريسة للشيطان، وضحية بين يدي الهوى والشهوات، إلّا إذا آمن بالله، واهتدى بهديه. وسار على ضوء ما جاءت به رسله، عليهم الصلاة والسلام.

(١) سورة الزخرف: الآيتان ٢٣ ـ ٢٤.

(٢) سورة الصَّافَّات: الآيتان ٦٩ ـ ٧٠.

ألفوا: وجدوا. آثارهم: ما وجدوهم عليه. يهرعون: يسرعون.

وهـذا عين الضـلال. لأن النـظر ينبغي أن يكـون إلى القـول لا إلى القـائـل، كما قال علي رضي الله عنه للحارث بن حـوط، وقد قـال لـه: أتـظن أنـا نظن أن طلحة والزبير كانا على باطـل؟ فقال لـه: يا حـارث إنه ملبـوس عليـك إن الحق لا يعـرف بالـرجال، اعـرف الحق تعرف أهله. وكـان أحمـد ابن حنبـل يقـول: من ضيق علم الـرجـل أن يقلد في اعتقـاده رجـلاً. ولهـذا أخـذ أحمـد ابن حنبل بقـول زيد في الجد وتـرك قـول أبـي بكـر الصـدِّيـق رضي الله عنه.

فـإن قـال القـائـل: فـالعـوام لا يعـرفـون الـدليـل فـكيف لا يقلدون؟ فالجواب أن دليل الاعتقاد ظاهر على مـا أشرنـا إليه في ذكـر الدهـرية، ومثـل ذلك لا يخفى على عاقل، وأمَّا الفروع فإنها لما كثـرت حوادثهـا واعتاص على العامي عرفانها، وقرب لها أمر الخطأ فيهـا كان أصلـح مـا يفعله العامي التقليـد فيها لمن قـد سبر ونظر، إلَّا أنَّ اجتهاد العامي في اختيار من يقلده.

قـال المصنف: وأما الـطريق الثاني فـإن إبليس لمَّـا تمكَّن من الأغبيـاء فورطهم في التقليد وساقهم سوق البهائم. ثم رأى خلقاً فيهم نوع ذكاء وفـطنة فاستغواهم على قدر تمكُّنه منهم، فمنهم من قبـح عنـده الجمود على التقليـد وأمره بالنظر، ثم استغوى كـلًا من هؤلاء بفن، فمنهم من أراه أن الوقـوف مـع ظواهر الشـرائـع عجز، فسـاقهم إلى مذهب الفـلاسفة، ولم يـزل بهؤلاء حتى أخـرجهم عن الإسـلام. ومن هؤلاء من حسن لـه أن لا يعتقـد إلَّا مـا أدركتـه حـواسّه. فيقـال لهؤلاء: بالحـواس علمتـم صحة قولكم؟ فإن قـالـوا: نعم، كـابروا، لأن حـواسّنا لم تـدرك ما قـالوا: إذ مـا يُـدرَك بـالحـواس لا يقـع فيـه خلاف. وإن قالوا بغير الحواس، ناقضوا قولهم.

ومنهم من نفره إبليس عن التقليد، وحسن لـه الخـوض في علم الكلام والنـظر في أوضاع الفـلاسفة، ليخـرج بزعمـه عن غمار العـوام. وقد تنـوعت أحوال المتكلمين وأفضى الكلام بأكثرهم إلى الشكوك وببعضهم إلى الإلحاد.

ولم تسكت القدماء من فقهاء هذه الأمة عن الكلام عجـزاً، ولكنهم رأوا

أنه لا يشفي غليلاً ثم يرد الصحيح عليلاً، فأمسكوا عنه ونهوا عن الخوض فيه، حتى قال الشافعي رحمه الله: لأن يبتلى العبد بكل ما نهى الله عنه ما عدا الشرك خير له من أن ينظر في الكلام. قال: وإذا سمعت الرجل يقول: الاسم هو المسمَّى أو غير المسمَّى فاشهد أنه من أهل الكلام ولا دين له. قال: وحكمي في علماء الكلام أن يضربوا بالجريد ويطاف بهم في العشائر والقبائل، ويقال: هذا جزاء من ترك الكتاب والسنَّة وأخذ في الكلام. وقال أحمد ابن حنبل: لا يفلح صاحب كلام أبداً، علماء الكلام زنادقة.

قال المصنف: قلت: وكيف لا يذم الكلام وقد أفضى بالمعتزلة إلى أنهم قالوا: إن الله عز وجل يعلم جمل الأشياء ولا يعلم تفاصيلها. وقال جهم بن صفوان: علم الله وقدرته وحياته محدثة.

وقال أبو محمد النوبختي عن جهم أنه قال: إن الله عز وجل ليس بشيء.

وقال أبو علي الجبائي وأبو هاشم ومن تابعهما من البصريين: المعدوم شيء وذات ونفس وجوهر وبياض وصفرة وحمرة، وإن الباري سبحانه وتعالى لا يقدر على جعل الذات ذاتاً ولا العرض عرضاً ولا الجوهر جوهراً، وإنَّما هو قادر على إخراج الذات من العدم إلى الوجود.

وقال هشام القوطي: إن الله لا يوصف بأنه عالم لم يزل. وقال بعض المعتزلة: يجوز على الله سبحانه وتعالى الكذب إلَّا أنه لم يقع منه. وقالت المجبرة: لا قدرة للآدمي بل هو كالجماد مسلوب الاختيار والفعل. وقالت المرجئة: إنَّ من أقر بالشهادتين وأتى بكل المعاصي لم يدخل النار أصلاً، وخالفوا الأحاديث الصحاح في إخراج الموحدين من النار. قال ابن عقيل: ما أشبه أن يكون واضع الإرجاء زنديقاً، فإن صلاح العالم بإثبات الوعيد واعتقاد الجزاء.

قال المصنف أعوذ بالله من نظر وعلوم أوجبت هذه المذاهب القبيحة. وقد زعم أرباب الكلام أنه لا يتم الإيمان إلَّا بمعرفة ما رتبوه، وهؤلاء على

الخطأ، لأن الرسول ﷺ أمر بالإيمان ولم يأمر ببحث المتكلمين، ودرجت الصحابة الذين شهد لهم الشارع بأنهم خير الناس على ذلك. وقد نقل إلينا إقلاع منصفي المتكلمين عما كانوا عليه لمّا رأوا من قبح غوائله.

قال الوليد بن أبان الكرابيسي لمّا حضرته الوفاة لبنيه: تعلمون أحداً أعلم بالكلام مني؟ قالوا: لا، قال: فتتهمونني؟ قالوا: لا، قال: فإني أوصيكم أتقبلون؟ قالوا: نعم، قال: عليكم بما عليه أصحاب الحديث فإني رأيت الحق معهم.

وكان أبو المعالي الجويني يقول: لقد جلت[1] أهل الإسلام وركبت البحر الأعظم وغصت في الذي نهوا عنه، كل ذلك في طلب الحق وهرباً من التقليد، والآن فقد رجعت عن الكل إلى كلمة الحق، عليكم بدين العجائز، فإن لم يدركني الحق بلطيف بره فأموت على دين العجائز، ويختم عاقبة أمري عند الرحيل بكلمة الإخلاص، فالويل لابن الجويني. وكان يقول لأصحابه: يا أصحابنا لا تشتغلوا بالكلام فلو عرفت أن الكلام يبلغ بي ما بلغ ما تشاغلت به.

وقال أبو الوفاء ابن عقيل لبعض أصحابه: أنا أقطع أن الصحابة ماتوا وما عرفوا الجوهر والعرض، فإن رضيت أن تكون مثلهم فكن، وإن رأيت أن طريقة المتكلمين أولى من طريقة أبي بكر وعمر فبئس ما رأيت. قال: وقد أفضى الكلام بأهله إلى الشكوك، وكثير منهم إلى الإلحاد تشم روائح الإلحاد من فلتات كلام المتكلمين.

ومن الوافقين مع الحس أقوام قالوا: هو على العرش بذاته على وجه المماسة، فإذا نزل انتقل وتحرك، وجعلوا لذاته نهاية. وهؤلاء قد أوجبوا عليه المساحة والمقدار، واستدلوا على أنه على العرش بذاته بقول النبي ﷺ: «يَنزلُ اللَّهُ إلى سماءِ الدُّنيا»[2]، قالوا: ولا ينزل إلّا من هو فوق. وهؤلاء

---

(١) جال في المكان: طاف فيه، وجال أهل الإسلام: طاف عليهم.

(٢) أخرجه البخاري (٧٤٩٤) في التوحيد: باب يريدون أن يبدلوا كلام الله. =

حملوا نـزوله على الأمـر الحسي الذي يـوصف به الأجسـام. وهؤلاء المشبهة الـذين حملوا الصفات على مقتضى الحس. وقـد ذكرنـا جمهـور كـلامهم في كتـابنا المسمى بـ «منهـاج الوصـول إلى علم الأصـول»، وربمـا تخيَّـل بعض المشبهة في رؤية الحق يوم القيامة لما يراه في الأشخاص فيمثله شخصاً يزيـد حسنـه على كل حسن، فتـراه يتنفس من الشوق إليـه، ويمثل الـزيـادة فيـزداد توقه، ويتصور رفـع الحجاب فيقلق، ويتذكر الرؤية فيغشى عليه. ويسمـع في الحـديث أنه يـدنى عبده المؤمن إليـه فيتخـايـل القـرب الـذاتي كمـا يجـالس الجنس، هذا كله جهل بالموصوف.

ومن النـاس من يقـول لله وجـه هـو صفـة زائدة على صفـة ذاتـه لقـولـه عز وجل: ﴿ويَبقَى وجهُ ربِّكَ﴾[1]. وله يد وله أصبـع لقول رسول الله ﷺ: «يضعُ السمواتِ على إصْبَـعٍ»[2]، وله قدم إلى غير ذلك مما تضمنته الأخبار، وهـذا كله إنما استخرجوه من مفهوم الحس. وإنما الصواب قراءة الآيات والأحاديث من غير تفسير ولا كلام فيها وما يؤمن[3]، هؤلاء أن يكون المراد بالوجه الذات لا أنه صفة زائدة، وعلى هذا فسر الآية المحققون، فقالوا: ويبقى ربك. وقالوا في قـوله: ﴿يُـريدونَ وَجهَـهُ﴾[4] يريـدونه. ومـا يؤمنهم أن يكون أراد بقـوله: «قلوبُ العبـادِ بين إصبعينِ»[5] أن الإصبـع لـمّا كانت هي المقبلة للشيء، وأن

= ومسلم(٧٥٨) في صلاة المسافرين: باب الترغيب في الدعاء والذكر في آخر الليل. عن أبي هريرة ولفظ البخاري: «ينزل ربنا تبارك وتعالى: كـل ليلة إلى سماء الدنيـا حـين يبقى ثلث الليل الآخر، فيقول: من يدعوني فأستجيب لـه من يسألني فأعـطيه، من يستغفرني فأغفر لـه.

(١) سورة الرحمـٰن: الآية ٢٧.

(٢) أخرجه البخاري (٧٤١٤) في التوحيد: باب قـول الله تعالى: ﴿لمـا خلقت بيدي﴾، ومسلم (٢٧٨٦) في المنافقين: باب صفة القيامة والجنة والنار.

(٣) أي: وما يدريهم.

(٤) سورة الكهف: الآية ٢٨.

(٥) رواه مسلم (٢٦٥٤) في القدر: باب تصريف الله القلوب كيف شاء.

ما بين الإصبعين يتصرف فيه صاحبها كيف شاء ذكر ذلك لا أن ثم صفة زائدة.

قال المصنف: والذي أراه السكوت عن هذا التفسير أيضاً إلّا أنه يجوز أن يكون مراداً، ولا يجوز أن يكون ثمّ ذات تقبل التجزء والانقسام. ومن أعجب أحوال الظاهرية قوله السالمية: إن الميت يأكل في القبر ويشرب وينكح، لأنهم سمعوا بنعيم ولم يعرفوا من النعيم إلّا هذا، ولو قنعوا بما ورد في الآثار من أن «أرواح المؤمنين تجعل في حواصل طير تأكل من شجر الجنة»[1]، لسلموا، لكنهم أضافوا ذلك إلى الجسد.

قال المصنف: فإن قال قائل: قد عبت طريق المقلدين في الأصول وطريق المتكلمين فما الطريق السليم من تلبيس إبليس؟ فالجواب أنه ما كان عليه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه وتابعوهم بإحسان من إثبات الخالق سبحانه وإثبات صفاته على ما وردت به الآيات والأخبار من غير تفسير ولا بحث عما ليس في قوة البشر إدراكه، وأن القرآن كلام الله غير مخلوق.

قال علي كرَّم الله وجهه: والله ما حكَّمت مخلوقاً، إنما حكَّمت القرآن، وأنه المسموع لقوله عز وجل: ﴿حتَّى يسمع كلامَ اللَّهِ﴾[2]، وأنه في المصاحف لقوله عز وجل: ﴿في رَقٍّ مَنشُورٍ﴾[3]، ولا نتعدى مضمون الآيات ولا نتكلم في ذلك برأينا. وقد كان أحمد ابن حنبل ينهى أن يقول الرجل: لفظي بالقرآن مخلوق أو غير مخلوق، لئلا يخرج عن الاتباع للسلف إلى حدث.

---

(١) أخرجه الترمذي (١٦٤١) في فضائل الجهاد: باب ما جاء في ثواب الشهداء، عن كعب بن مالك ولفظه: «إن أرواح الشهداء في طير خضر تعلق من ثمر الجنة». وقال: هذا حديث حسن صحيح، ومعنى تعلق: أي تأكل.

(٢) سورة التوبة: الآية ٦.

(٣) سورة الطور: الآية ٣.

عن عمرو بن دينار، قال: أدركت تسعة من أصحاب رسول الله ﷺ يقولون: من قال القرآن مخلوق فهو كافر. وقال مالك بن أنس: من قال القرآن مخلوق فيستتاب فإن تاب وإلاّ ضربت عنقه.

قال عمر بن عبد العزيز: إذا رأيت قوماً يتناجون في دينهم بشيء دون العامة فاعلم أنهم على تأسيس ضلالة.

وكتب إلى بعض عماله: أوصيك بتقوى الله عز وجل، واتباع سنّة رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم. وترك ما أحدث المحدثون بعده بما قد كفوا مؤنته.

وفي رواية أخرى عن عمر: وأنهم كانوا على كشف الأمور أقوى، وما أحدث إلاّ من اتبع غير سبيلهم ورغب بنفسه عنهم.

تلبيس إبليس على الخوارج

قال المصنف: أول الخوارج وأقبحهم حالة ذو الخويصرة[١].

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، قال: بعث علي رضي الله عنه من اليمن إلى رسول الله ﷺ بذهَيْبَة في أديم مقروظ لم تخلص من ترابها، فقسمها رسول الله ﷺ بين أربعة بين: زيد الخيل والأقرع بن حابس وعيينة بن حصن وعلقمة بن عُلاثة أو عامر بن الطفيل شك عمارة، فوجد من ذلك بعض أصحابه والأنصار وغيرهم، فقال رسول الله ﷺ: «ألا تأمَنُوني وأنا أمينُ مَنْ في السَّماءِ يأتيني خبرُ السَّماءِ صباحاً ومساءً». ثم أتاه رجل غائر العينين، مشرف الوجنتين، ناتىء الجبهة، كث اللحية، مشمر الإزار، محلوق الرأس؛ فقال: اتق الله يا رسول الله. فرفع رأسه إليه، فقال: «ويْحكَ أليسَ أحقَّ النَّاسِ أن يتقيَ اللَّهُ أنا»، ثم أدبر، فقال خالد: يا رسول الله ألا أضرب عنقه؟ فقال رسول الله ﷺ: «فلعلَّهُ يكونُ يُصلِّي»، فقال: إنه ربَّ مصلٍ يقولُ بلسانه ما ليسَ في قلبهِ، فقال

---

(١) ذو الخُويْصرة: اسمه حُرْقُوصَ بن زهير السعدي، شهد صفين مع علي، ثم خرج عليه، وكان من أشدّ الخارجين عليه.

رسـول الله ﷺ : «إنّي لم أؤمـرْ أنْ أنقِّبَ عن قلوبِ النـاس ولا أشقَّ بـطونَهُمْ»، ثم نـظرَ إليه النبـيُّ صلى اللَّهُ عليـهِ وسلمَ وهـو مُقَفٍّ، فقـالَ: «أَمـا إنـه سَيخـرجُ من ضِئْضِيءِ هذا قومٌ يَقرؤنَ القرآنَ لا يجاوزُ حناجـرهُم يَمرقُـونَ من الدِّينِ كمـا يمرقُ السَّهمُ من الرَّميةِ»[1] .

فهذا أول خارجي خرج في الإسلام، وآفته أنه رضى برأي نفسه، ولـو وقف لعلم أنـه لا رأي فوق رأي رسـول الله ﷺ . وأتباع هـذا الـرجـل هم الـذين قـاتلوا علي بن أبـي طالب كرَّم الله وجهه. وذلك أنه لمّا طـالت الحرب بين معـاوية وعلي رضي الله عنهمـا، رفـع أصحاب معـاويـة المصـاحف ودعـوا أصحـاب علي إلى ما فيها، وقـال: تبعثون منكم رجـلاً ونبعث منا رجـلاً، ثم نأخـذ عليهما أن يعمـلا بما في كتاب الله عـز وجل. فقـال الناس: قـد رضينا، فبعثـوا عمرو بن العـاص، فقال أصحاب علي: ابعث أبـا موسى. فقـال عـلي: لا أرى أن أولي أبا مـوسى، هذا ابن عباس. قـالوا: لا نـريد رجـلاً منك، فبعث أبـا موسى وأخـر القضاء إلى رمضـان، فقال عـروة ابن أذينة: تحكّمـون في أمر الله الـرجال، لا حـكم إلاّ للـه. ورجـع علي من صفين فـدخـل الكـوفـة ولم تـدخـل معـه الخـوارج، فـأتـوا حـروراء[2] فنزل بهـا اثنـا عشـر ألفـاً، وقـالـوا: لا حكم إلاّ للـه. وكـان ذلـك أول ظهورهم. ونادى منـاديهم أن أمير القتـال شبيب بن ربعي التميمي، وأمير الصـلاة عبد الله بن الكوا اليشكري. وكانت الخـوارج تتعبد، إلاّ أن اعتقـادهم أنهم أعلم من علي بن أبـي طالب كرَّم الله وجهه، وهذا مرض صعب.

---

(١) أخرجه البخاري (٤٣٥١) في المغازي: باب بعث علي وخالد إلى اليمن... ذهيبة: تصغير ذهْبة: أي قطعة من ذهب. والأديم: الجلد. مقروظ: مدبوع بالقـرظ. وجد: حزن. مشرف الوجنتين: بارزهما. والوجنتان هما العـظمان المشـارفان على الخدين. نـاتيء الجبهـة: مرتفعهـا. أنقب: أفحص عمـا في قلوبهم. وإنمـا أمـرت أن آخـذ بـظواهر أحـوالهم. مُقفٍ: مول ظهـره. من ضِئْضِيءِ: من نسله وعقبه. يمـرقون من الدين: يخرجون منه، أو من طاعة الخليفة.

(٢) حروراء: قرية بالعراق قريبة من الكوفة.

قـال عبد الله بن عبـاس: لمّا اعتزلت الخوارج دخلوا داراً وهم ستـة آلاف، وأجمعوا على أن يخرجـواً على علي بن أبـي طالب، فكـان لا يزال يجيء إنسـان فيقول: يا أمير المؤمنين إن القوم خارجون عليك، فيقول: دعوهم فإني لا أقاتلهم حتى يقاتلوني وسوف يفعلون. فلمّـا كان ذات يـوم أتيته قبـل صلاة الـظهر، فقلت له: يا أمير المؤمنين أبرد بـالصلاة لعلّي أدخـل على هؤلاء القوم فـأكلمهم. فقال: إني أخـاف عليك، فقلت: كـلا. وكنت رجلاً حسن الخلق لا أوذي أحـداً، فأذن لي، فلبست حلة من أحسن مـا يكـون، وتـرجلت فـدخلت عليهم نصف النهـار، فـدخلت على قوم لـم أرَ قط أشـد منهم اجتهاداً: جبـاههم قرحـة[1] من السجود، وأيـاديهم كـأنهـا ثفن[2] الإبـل، وعليهم قمص مـرحضـة[3] مشمـرين مسهمـة[4] وجـوههم من السهر. فسلّمت عليهم، فقـالوا: مـرحباً يـاابن عباس ما جاء بك؟ فقلت: أتيتكم من عند المهاجرين والأنصار ومن عند صهر رسول الله ﷺ وعليهم نزل القرآن وهم أعلم بتأويله منكم، فقالت طائفة منهم: لا تخاصمـوا قريشـاً، فإن الله عز وجل يقـول: ﴿بلْ هُمْ قـومٌ خَصِمونَ﴾[5]، فقـال: اثنان أو ثـلاثة: لنكلمنـه. فقلت: هاتوا ما نقمتم على صهر رسول الله ﷺ والمهاجرين والأنصار وعليهم نزل القرآن وليس فيكم منهم أحد، وهم أعلم بتأويله. قالوا ثلاثاً. قلت: هاتوا. قالوا: أما إحداهن فـإنه حكم الـرجال في أمـر الله، وقد قـال الله عز وجـل: ﴿إن الحكْمُ إلاّ للّهِ﴾[6]، فما شأن الرجال والحكم بعد قول الله عز وجل؟ فقلت: هذه واحدة، وماذا؟ قالوا: وأما الثانية فإنه قاتلَ وَقَتَل ولم يسب ولـم يغنم، فلئن كانوا مؤمنين فَلِمَ

---

(١) القرح: الذي بـه قروح، أي: أثار جراح.
(٢) الثفن جمـع ثفنة: ركبة البعير وغيرهما مما يحصل فيه غلظ من أثر البروك.
(٣) رحض الثوب: غسله حتى بلي.
(٤) سهم: تغير لونه من هزال.
(٥) سورة الزخرف: الآية ٥٨.
وخصمون شديدو الخصومة، جمـع خَصِم.
(٦) سورة الأنعام: الآية ٥٧.

حَلَّ لنا قتالهم ولم يحل لنا سبيهم؟ قلت: وما الثالثة؟ قالوا: فإنه محا عن نفسه أمير المؤمنين فإنه إن لم يكن أمير المؤمنين فإنه لأمير الكافرين. قلت: هل عندكم غير هذا؟ قالوا: كفانا هذا. قلت لهم: أما قولكم حكم الرجال في أمر الله. أنا أقرأ عليكم في كتاب الله ما ينقض هذا. فإذا نقض قولكم أترجعون؟ قالوا: نعم. قلت: فإن الله قد صير من حكمه إلى الرجال في ربع درهم ثمن أرنب، وتلا هذه الآية: ﴿لا تَقتلُوا الصيدَ وأنتمْ حُرُمٌ. . . ﴾[1] إلى آخر الآية، وفي المرأة وزوجها: ﴿وإن خِفتُمْ شِقَاقَ بينهِمَا فابْعثُوا حَكَماً من أهلِهِ وحَكَماً من أهلِهَا. . . ﴾[2] إلى آخر الآية، فنشدتكم بالله هل تعلمون حكم الرجال في إصلاح ذات بينهم وفي حقن دمائهم أفضل، أم حكمهم في أرنب وبضع امرأة فأيهما ترون أفضل؟ قالوا: بل هذه. قلت: خرجت من هذه؟ قالوا: نعم. قلت: وأما قولكم قَاتَل ولم يسب ولم يغنم فتسبون أمكم عائشة رضي الله عنها؟ فوالله لئن قلتم ليست بأمنا لقد خرجتم من الإسلام. ووالله لئن قلتم لنسبينَّها ونستحل منها ما نستحل من غيرها لقد خرجتم من الإسلام. فأنتم بين ضلالتين لأن الله عز وجل قال: ﴿النَّبيُّ أولى بالمؤمنينَ من أنفسِهِمْ وأَزواجُهُ أمهاتُهم﴾[3]. أخرجت من هذه؟ قالوا: نعم. قلت: وأما قولكم محا عن نفسه أمير المؤمنين فأنا آتيكم بمن ترضون. إن النبي ﷺ يوم الحديبية صالح المشركين: أبا سفيان بن حرب وسهيل بن عمرو. فقال لعلي رضي الله عنه: اكتب لهم كتاباً، فكتب لهم علي: هذا ما اصطلح عليه محمد رسول الله. فقال المشركين: والله ما نعلم أنك رسول الله، لو نعلم أنك رسول الله ما قاتلناك، فقال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم: اللهم إنك تعلم أني رسول الله، امح يا علي، اكتب هذا ما اصطلح عليه

---

(١) سورة المائدة: الآية ٩٥.

وتمام الآية: ﴿ومن قتله منكم متعمداً فجزآء مثل ما قتل من النعم يحكم به ذوا عدل منكم هدياً بالغ الكعبة أو كفارة طعام مسكين أو عدل ذلك صياماً ليذوق وبال أمره عفا الله عما سلف ومن عاد فينتقم الله منه والله عزيز ذو انتقام﴾.

(٢) سورة النساء: الآية ٣٥،

(٣) سورة الأحزاب،: الآية ٦.

محمد بن عبد الله. فوالله لرسول الله خير من علي وقد محا نفسه[1]. قال فرجع منهم ألفان وخرج سائرهم فقتلوا[2].

قال المصنف: ولهم قصص تطول ومذاهب عجيبة لهم لم أرَ التطويل بذكرها، وإنما المقصود النظر في حيل إبليس وتلبيسه على هؤلاء الحمقى.

قال المصنف: ومن رأي الخوارج أنه لا تختص الإمامة بشخص إلاّ أن يجتمع فيه العلم والزهد، فإذا اجتمعا كان إماماً ولو كان نبطياً[3]. ومن رأي هؤلاء أحدث المعتزلة[قولهم]في التحسين والتقبيح إلى العقل وأن العدل ما يقتضيه، ثم القدرية في زمن الصحابة وصار معبد الجهني وغيلان الدمشقي والجعد بن درهم إلى القول بالقدر. ونسج على منوال معبد الجهني واصل بن عطاء وانضم إليه عمرو بن عبيد، وفي ذلك الزمان حدثت سنة المرجئة، حين قالوا: لا يضر مع الإيمان معصية كما لا ينفع مع الكفر طاعة. ثم طالعت المعتزلة مثل أبي الهذيل العلاف والنظام ومعمر والجاحظ ــ كتب الفلاسفة في زمان المأمون، واستخرجوا منها ما خلطوه بأوضاع الشرع مثل لفظ الجوهر والعرض والزمان والمكان والكون. وأول مسألة أظهرها القول بخلق القرآن، وحينئذ سمي هذا الفصل فصل علم الكلام.

وتلت هذه المسألة مسائل الصفات مثل العلم والقدرة والحياة والسمع والبصر. فقال قوم: هي معاني زائدة على الذات ونفتها المعتزلة، وقالوا: عالم

---

(١) قصة الحديبية، ومحو اسمه عليه الصلاة والسلام، أخرجها مسلم (١٧٨٣) في الجهاد والسير: باب صلح الحديبية. ولفظه: أن النبي ﷺ قال لعلي: «امحه»، فقال: ما أنا بالذي أمحاه. فمحاه النبي ﷺ بيده. وفي رواية قال لعلي: أرني مكانها، فأراه مكانها، فمحاها.

(٢) هذه الرواية كما ساقها المصنِّف عن ابن عباس فيها سماك بن حرب، وسماك لم يسمع من ابن عباس: فلعله سمعه عن عكرمة عن ابن عباس، وروايته عن عكرمة مضطربة، كما قال الحافظ في «التقريب»: وقد تغير بأخرة.

(٣) النبطي: نسبة إلى النبط بفتحتين أخلاط الناس وعوامهم.

لذاته. وكان أبو الحسن الأشعري على مذهب الجبائي ثم انفرد عنه إلى مثبتي الصفات. ثم أخذ بعض مثبتي الصفات في اعتقاد التشبيه واثبات الانتقال في النزول، والله الهادي لمّا يشاء.

تلبيسه على الرافضة

قال المصنف: وكما لبس إبليس على هؤلاء الخوارج حتى قاتلوا علي بن أبي طالب، حمل آخرين على الغلو في حبه، فزادوه على الحد. فمنهم من كان يقول: هو الإله. ومنهم من يقول: هو خير من الأنبياء. ومنهم من حمله على سب أبي بكر وعمر، حتى إن بعضهم كفر أبا بكر وعمر.. إلى غير ذلك من المذاهب السخيفة التي يرغب عن تضييع الزمان بذكرها.

وقد اعتقد جماعة من الرافضة أن أبا بكر وعمر كانا كافرين، وقال بعضهم: ارتدا بعد موت رسول الله ﷺ، ومنهم من يقول بالتبري من غير علي.

وطالبت الشيعة زيد بن علي بالتبري ممن خالف علياً في إمامته، فامتنع من ذلك، فرفضوه، فسموا الرافضة.

والظاهر أن مَنْ وَضَع مذهب الرافضة قَصَد الطعن في أصل الدين والنبوَّة.

وغلو الرافضة في حب علي رضي الله عنه، حَمَلَهم على أن وضعوا أحاديث كثيرة في فضائله أكثرها تشينه وتؤذيه. منها أن الشمس غابت، ففاتت علياً صلاة العصر، فَرُدَّت له الشمس. وهذا من حيث النقل موضوع، لم يروه ثقة، ومن حيث المعنى فإن الوقت قد فات وعودها طلوع متجدد فلا يرد الوقت.

ولهم مذاهب في الفقه ابتدعوها، وخرافات تخالف الإجماع. منها أنه لا يجوز السجود على ما ليس بأرض ولا من نبات الأرض. فأمَّا الصوف والجلود والوبر فلا. وحرموا الكتابيات، وأن الطلاق المعلَّق على شرط لا يقع

وإن وجد شرطه. وأن الطلاق لا يقع إلَّا بحضور شاهدين عدلين. وأن المرأة إذا جزَّت شعرها فعليها الكفارة مثل قتل الخطأ. وأن من شق ثوبه في موت ابن له أو زوجة فعليه كفارة يمين واشترطوا في الذبح استقبال القبلة. في مسائل كثيرة يطول ذكرها خرقوا فيها الإجماع، وسوَّل لهم إبليس وضعها على وجه لا يستندون فيه إلى أثر ولا قياس. ومقابح الرافضة أكثر من أن تحصى، وابتلُوا بسبِّ الصحابة.

وفي «الصحيحين»: عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، أنه قال: «لا تَسبُّوا أصحابي، فإنَّ أحدَكُم لو أنفقَ مِثْلَ أُحدِ ذهباً ما أدرَكَ مدَّ أحدِهمُ ولا نَصيفَهُ»(١).

تلبيس إبليس على الباطنية

قال المصنف: الباطنية قوم تستروا بالإسلام ومالوا إلى الرفض وعقائدهم وأعمالهم تباين الإسلام بالمرة، فمحصول قولهم تعطيل الصانع وإبطال النبوة والعبادات وإنكار البعث، ولكنهم لا يُظهرون هذا في أول أمرهم، بل يزعمون أنَّ الله حق، وأنَّ محمداً رسول الله والدين صحيح، لكنهم يقولون لذلك سر غير ظاهر، وقد تلاعب بهم إبليس فبالغ وحسن لهم مذاهب مختلفة، ولهم أسماء:

منها: **الباطنية** ــ سُمُّوا بذلك لأنهم يدَّعون أن لظواهر القرآن والأحاديث بواطن تجري من الظواهر مجرى اللب من القشر، وأنها بصورتها توهم

---

(١) أخرجه البخاري (٣٦٧٣) في فضائل الصحابة: باب قول النبي ﷺ: «لو كنت متخذاً خليلاً». ومسلم (٢٥٤٠) في فضائل الصحابة: باب تحريم سب الصحابة.
والنصيف: النصف.
ومعنى الحديث: لا ينال أحدكم بإنفاق مثل أحد ذهباً من الفضل، والأجر ما ينال أحدهم بإنفاق مد طعام أو نصفه. فسب الصحابة حرام وكبيرة من الكبائر. قال القاضي عياض: ذهب الجمهور إلى أنه يعزر، وعن بعض المالكية أنه يقتل، وخص بعض الشافعة ذلك بالشيخين والحسنين.

الجهال صوراً جلية، وهي عند العقلاء رموز وإشارات إلى حقائق خفيـة، وأن من تقـاعد عقله من الغـوص على الخفايـا والأسرار والبـواطن والأغوار، وقنـع بظواهرها كان تحت الأغـلال التي هي تكليفات الشـرع. ومن ارتقى إلى علم البـاطن انحط عنه التكليف واستـراح من أعبائـه، قالـوا: وهم المرادون بقـوله تعالى: ﴿ويضـعُ عنهم إصرَهُمْ والأغلالَ التي كانتْ عليهِمْ﴾[1]. ومرادهم أن ينزعوا من العقائد موجب الظواهر ليقدروا بالتحكم بدعـوى الباطن على إبطال الشرائـع.

ومنها: **البابكيـة** ـ وهو اسم لـطائفة منهم تبعـوا رجلاً يقـال لـه: بابـك الخـرَّمي، وكـان من البـاطنيـة، تبعـه خلق كثيـر واستفحـل أمـرهم واستبـاح المحظورات، بعث المعتصم أفشين فحاربه فجاء ببابك وأخيـه في سنة ثـلاث وعشرين ومئتيـن، فقتـلا، وقد بقي من البـابكية جمـاعة، يقـال إن لهم ليلة في السنة تجتمـع فيها رجالهـم ونساؤهم، ويـطفئون السـرج فيثب كل رجـل منهم إلى امرأة، ويزعمـون أن من احتوى[2] على امـرأة يستحلها بـالاصطيـاد، لأن الصيد مباح.

ومنها: **القرامطـة** ـ لقِّبوا بهذا نسبةً إلى رجل يقال لـه: حمدان قرمط، كان أحد دعاتهم في الابتداء، فاستجاب لـه جماعة فسموا قرامـطة وقرمـطية. وكـان أشدهم بـأساً رجـل يقال لـه: أبـو سعيد، ظهـر في سنـة ست وثمـانين ومئتيـن، وقوي أمـره، وقتل مـا لا يحصى من المسلمين، وخرَّب المسـاجد، وأحرق المصاحف. وفتك بالحاج، فلما مات بنوا على قبره قبَّة، وجعلوا على رأسها طائراً من جص. وقالوا: إذا طار هذا الطائـر خرج أبـو سعيد من قبـره. وقد سوَّل إبليس لهذه الجماعة أنه من مات وعلى قبره فرس حشر راكبـاً، وإن لم يكن لـه فـرس حشر مـاشياً. وكـان أصحـاب أبـي سعيـد يصلُّون عليـه إذا

(١) سورة الأعراف: الآية ١٥٧.

(٢) احتوى على الشيء: أحرزه.

ذكـــروه، ولا يصلون على رســـول الله ﷺ، فـــإذا سمعـــوا من يـصلي عــلى رسـول الله ﷺ يقولـون: أتـأكـل رزق أبـي سعيـد وتصلي على أبـي القـاسم؟ وخلف بعده ابنه أبو طاهـر ففعل مثـل فعله وهجم على الكعبة، فـأخذ مـا فيها من الـذخائـر، وقلـع الحجـر الأسـود فحمله إلى بلده، وأوهم النـاس أنـه الله عزَّ وجلَّ.

قـال المصنف: اعلم أن القـوم أرادوا الانسـلال من الـدين، فشـــاوروا جماعة من المجوس والمزدكية والثنويـة وملحدة الفـلاسفة في استنبـاط تدبيـر يخفف عنهم مـا نابهم من استيـلاء أهـل الـدين عليهم، حتى أخـرسـوهـم عن النطق بما يعتقدونه من إنكار الصانـع، وتكـذيب الرسـل وجحد البعث، ورأوا أمـر محمد ﷺ قـد استطار(١) في الأقـطار، وأنهم قـد عجـزوا عن مقـاومتـه، فقالوا: سبيلنا أن ننتحل عقيدة طائفة من فرقهم أزكاهم عقلاً، وأتحفهم رأيـاً، وأقبلهم للمحالات والتصديق بالأكاذيب، وهـم الـروافض فنتحصن بالانتسـاب إليهم، ونتودد إليهم بالحـزن على ما جـرى على آل محمد من الـظلم والذل، ليمكننـا شتم القدمـاء الذين نقلوا إليهم الشـريعـة، فـإذا هـان أولئـك عنـدهم لم يلتفتوا إلى ما نقلوه، فأمكن استدراجهم إلى الانخداع عن الدين، فإن بقي منهم معتصم بـظواهر القـرآن والأخبـار أوهمنـاه أن تلك الـظواهـر لهـا أسـرار وبواطن، وأن المنخدع بظواهرها أحمق، وإنما الفطنة في اعتقاد بواطنهـا، ثم نبث إليهم عقائدنا، ونزعم أنها المراد بظواهرها عندكم، فإذا تكثرنا(٢) بهـؤلاء سهـل علينا استـدراج باقي الفـرق. ثم قالـوا: وطريقنـا أن نختـار رجـلاً ممن يساعد على المذهب، ويزعم أنه من أهل البيت، وأنـه يجب على كل الخلق كافة متابعته، ويتعين عليهم طاعته لكونه خليفة رسول الله ﷺ، والمعصـوم من الخـطأ والزلـل. . وقصدهم بهـذا كله الملك والاستيلاء على أمـوال النـاس،

---

(١) أي انتشر.

(٢) تكثر من الشيء: اتخذ منه كثيراً.

والانتقام منهم لما عاملوهم به من سفك دمائهم، ونهب أموالهم قديماً، فهذا غاية مقصودهم، ومبدأ أمرهم.

وللقوم حيل في استذلال الناس، فهم يميزون من يجوز أن يطمع في استدراجه ممن لا يطمع فيه. فإذا طمعوا في شخص نظروا في طبعه، فإن كان مائلاً إلى الزهد دعوه إلى الأمانة والصدق وترك الشهوات. وإن كان مائلاً إلى الخلاعة قرروا في نفسه أن العبادة بله[1]، وأن الورع حماقة، وإنما الفطنة في اتباع اللذات من هذه الدنيا الفانية. ويثبتون عند كل ذي مذهب ما يليق بمذهبه، ثم يشكّكونه فيما يعتقده. فيستجيب لهم إما رجل أبله أو رجل من أبناء الأكاسرة، وأولاد المجوس ممن قد انقطعت دولة أسلافه بدولة الإسلام، أو رجل يميل إلى الاستيلاء ولا يساعده الزمان، فيعدونه بنَيل آماله. أو شخص يحب الترفع عن مقامات العوام، ويروم بزعمه الاطلاع على الحقائق. أو رافضي يتدين بسب الصحابة رضي الله عنهم. أو ملحد من الفلاسفة والثنوية والمتحيرين في الدين. أو من قد غلبت عليه حب اللذات، وثقل عليه التكليف.

والباطنية: قوم يدعون الإسلام ويميلون إلى الرفض، وعقائدهم وأعمالهم تباين الإسلام. ولمّا عجزوا عن صرف الناس عن القرآن والسنّة، صرفوهم عن المراد بهما إلى مخاريق زخرفوها، إذ لو صرحوا بالنفي المحض لقتلوا، فقالوا: معنى الجنابة: مبادرة المستجيب بإفشاء السر. ومعنى الغسل: تجديد العهد على من فعل ذلك . ومعنى الزنى : إلقاء نطفة العلم الباطن في نفس من لم يسبق معه عقد العهد. والصيام: الإمساك عن كشف السر. والكعبة: هي النبي. والباب: عليّ. والطوفان: طوفان العلم أغرق به المتمسكون بالشبهة. والسفينة: الحرز الذي يحصن به من استجاب لدعوته. ونار إبراهيم: عبارة عن غضب نمرود لا عن نار حقيقة. وذبح إسحاق: معناه أخذ العهد عليه. وعصى موسى: حجته. ويأجوج مأجوج: هم أهل الظاهر.

---

(١) بله بلهاً وبلاهة: ضعف عقله وعجز رأيه.

ويقولون: إن الله عز وجل لمّا أوجد الأرواح ظهر لهم فيما بينهم كَهُم[1]، فلم يشكّوا أنه واحد منهم فعرفوه، فأول من عرفه سلمان الفارسي والمقداد وأبو ذر، وأول المنكرين الذي يسمى إبليس: عمر بن الخطاب.. في خرافات ينبغي أن يصان الوقت العزيز عن التضييع بذكرها.

* * *

---

(١) أي مثلهم.

الباب السادس

في ذكر تلبيس إبليس على العلماء في فنون العلم

اعلم أن إبليس يدخل على النـاس في التلبيس من طرق، منهـا ظاهـر، ومنها غامض وهو الذي يخفى على كثير من العلماء، ونحن نشير إلى فنون من تلبيسـه، يستـدل بـمـذكـورهـا على مغفلهـا، إذ حصـر الـطرق يـطول، والله العاصم.

تلبيسه على القراء

فمن ذلك أن أحدهم يشتغـل بالقـراءات الشاذة وتحصيلهـا، فيفني أكثر عمـره في جمعها وتصنيفهـا والإقراء بهـا، ويشغله ذلك عن معـرفـة الفـرائض والـواجبات. فـربما رأيت إمـام مسجد يتصـدى للإقـراء، ولا يعرف مـا يفسـد الصلاة. ولو تفكروا لعلموا أن المراد حفظ القرآن وتقويم ألفاظـه، ثم فهمه، ثم العمل به، ثم الإقبال على ما يصلـح النفس ويـطهر أخـلاقها، ثم التشاغل بالمهم من علوم الشرع. ومن الغبن الفاحش تضييـع الزمان فيما غيره الأهم.

قال الحسن البصري: أنزل القرآن ليعمل به، فاتخذ الناس تلاوته عملاً، يعني أنهم اقتصروا على التلاوة وتركوا العمـل به، ومن ذلـك أن أحدهم يقـرأ في محرابه بالشاذ ويترك المتواتر المشهور، والصحيـح عند العلماء أن الصلاة لا تصـح بهـذا الشاذ، وإنمـا مقصود هـذا إظهار الغـريب، لاستجـلاب مـدح النـاس وإقبـالهم عليـه، وعنـده أنـه متشـاغـل بـالقــرآن. ومنهم من يجمـع القراءات، فيقول: ملك[1] مـالك مـلاك، وهذا لا يجـوز، لأنه إخـراج للقرآن

(١) أي مالك يوم الدين.

عن نظمه. ومنهم من يجمع السجدات والتهليلات والتكبيرات وذلك مكروه، وقد صاروا يوقدون النيران الكثيرة للختمة، فيجمعون بين تضييع المال والتشبه بالمجوس، والتسبب إلى اجتماع النساء والرجال بالليل للفساد، ويريهم إبليس أن في هذا إعزازاً للإسلام، وهذا تلبيس عظيم، لأن إعزاز الشرع باستعمال المشروع.

ومن ذلك: أن منهم من يتسامح بادعاء القراءة على من لم يقرأ عليه، وربما كانت له إجازة منه، فقال: أخبرنا تدليساً وهو يرى أن الأمر في ذلك قريب، لكونه يروي القراءات ويراها فعل خير، وينسى أن هذا كذب يلزمه إثم الكذابين.

ومن ذلك أن المقرىء المجيد يأخذ على اثنين وثلاثة ويتحدث مع من يدخل عليه، والقلب لا يطيق جمع هذه الأشياء ثم يكتب خطه بأنه قد قرأ على فلان بقراءة فلان. وقد كان بعض المحققين يقول: ينبغي أن يجتمع اثنان أو ثلاثة ويأخذوا على واحد.

ومن ذلك أن أقواماً من القراء يتبارون بكثرة القراءة، وقد رأيت من مشايخهم من يجمع الناس، ويقيم شخصاً ويقرأ في النهار الطويل ثلاث ختمات، فإن قصر عيب، وإن أتم مدح، وتجتمع العوام لذلك ويحسنونه كما يفعلون في حق السعاة، ويريهم إبليس أن في كثرة التلاوة ثواباً، وهذا من تلبيسه، لأن القراءة تنبغي أن تكون لله تعالى لا للتحسين بها، وتنبغي أن تكون على تمهل، وقال عز وجل: ﴿لتقرَأَهُ على النَّاس على مُكْثٍ﴾(١)، وقال عز وجل: ﴿ورتلِ الْقرآنَ تَرتيلاً﴾(٢)، ومن ذلك أن جماعة من القراء أحدثوا

---

(١) سورة الإسراء: الآية ١٠٦.
على مكث: على تمهل ودون عجلة.

(٢) سورة المزمل: الآية ٤.
رتّل القرآن: أحسن أداءه، وتَمهل فيه.

قـراءة الألحان، وقـد كانت إلى حـد قريب، وعلى ذلـك فقـد كـرهها أحمـد ابن حنبل وغيره، ولم يكرهها الشافعي.

قـال الشافعي: أمـا استماع الحـداء ونشيـد الأعـراب، فـلا بـأس بـه، ولا بأس بقراءة الألحان وتحسين الصوت.

قـال المصنف: إنمـا أشـار الشـافعي إلى مـا كـان في زمـانـه وكـانـوا يلحنون يسيراً، فأما اليوم فقد صيـروا ذلك على قـانون الأغـاني، وكلما قـرب ذلك من مشابهة الغناء زادت كراهته. فـإن أخرج القـرآن عن حد وضعـه حرم ذلك. ومن ذلك: أن قوماً من القـراء يتسامحـون بشيء من الخطايـا: كالغيبـة للنـظراء، وربما أتـوا أكبر من ذلـك الذنب، واعتقـدوا أن حفظ القرآن يـرفـع عنهم العـذاب، واحتجوا بقـوله عليـه الصلاة والسـلام: «لو جعـلَ القـرآن في إهاب ما احترق»[١]، وذلك من تلبيس إبليس عليهم، لأن عذاب من يعلم أكثر من عذاب من لا يعلم، إذ زيادة العلم تقـوي الحجة وكـون القارىء لم يحتـرم ما يحفظ ذنب آخر. قال الله عز وجل: ﴿أَفمنْ يعلمُ أنَّ ما أُنزل إليك من ربِّكَ الحقُّ كمنْ هـو أَعمى﴾[٢]، وقال في أزواج رسـول الله ﷺ: ﴿منْ يـأتِ مِنكُنَّ بفاحشةٍ مبينةٍ يُضاعفْ لها العذابُ ضِعفين﴾[٣].

تلبيس إبليس على أصحاب الحديث

من ذلـك أن قومـا استغرقـوا أعمارهم في سمـاع الحديث، والرحلة فيه، وجمـع الطرق الكثيرة وطلب الأسانيد[٤] العالية والمتون الغريبة، وهؤلاء على قسمين:

* قسم قصدوا حفظ الشرع بمعرفة صحيـح الحديث من سقيمه، وهم

---

(١) رواه الطبراني في «الكبير» (١٨/ ١٨٦) رقم (٤٩٨)، قال العراقي: وسنده ضعيف.

(٢) سورة الرعد: الآية ١٩.

(٣) سورة الأحزاب: الآية ٣٠.

(٤) الإسناد العالي: هو القريب من رسول الله ﷺ من حيث العدد أو القريب من إمام من أئمة الحديث.

مشكورون على هذا القصد، إلاَّ أن إبليس يلبس عليهم بأن يشغلهم بهذا عما هو فرض عين من معرفة ما يجب عليهم، والاجتهاد في أداء اللازم والتفقه في الحديث. فإن قال قائل: فقد فعل هذا خلق كثير من السلف: كيحيى بن معين وابن المديني والبخاري ومسلم، فالجواب: أن أولئك جمعوا بين معرفة المهم من أمور الدين والفقه فيه، وبين ما طلبوا من الحديث، وأعانهم على ذلك قصر الإسناد وقلة الحديث فاتسع زمانهم للأمرين، فأما في هذا الزمان، فإن طرق الحديث طالت والتصانيف فيه اتسعت، وما في هذا الكتاب في تلك الكتب، وإنما الطرق تختلف، فقلَّ أن يمكن أحد من أن يجمع بين الأمرين، فترى المحدث يكتب ويسمع خمسين سنة، ويجمع الكتب ولا يدري ما فيها، ولو وقعت له حادثة في صلاته لافتقر إلى بعض أحداث المتفقهة الذين يترددون إليه لسماع الحديث منه، وبهؤلاء تمكن الطاعنون على المحدثين، فقالوا: زوامل[1] أسفار، لا يدرون ما معهم. فإن أفلح أحدهم ونظر في حديثه فربما عمل بحديث منسوخ، وربما فهم من الحديث ما يفهم العامي الجاهل وعمل بذلك، وليس بالمراد من الحديث، كما روينا أن بعض المحدثين روى عن رسول الله ﷺ: أنه «نهى أن يسقي الرجل ماءه زرع غيره[2]». فقال جماعة ممن حضر: قد كنا إذا فضل عنا ماء في بساتيننا سرحناه إلى جيراننا، ونحن نستغفر الله. فما فهم القارىء ولا السامع ولا شعروا أن المراد النهي عن وطء الحبالى من السبايا.

قال الخطابي: وكان بعض مشايخنا يروي الحديث أن النبي ﷺ نهى عن الْحِلق قبل الصلاة يوم الجمعة[3] بإسكان اللام. قال: وأخبرني: أنه بقي

---

(١) الزوامل: جمع زاملة، وهي بعير يستظهر به الرجل يحمل متاعه وطعامه عليه.

(٢) رواه أبو داود في سننه (٢١٥٨) ولفظه: «لا يَحلُّ لامرىءٍ يؤمن باللّهِ واليومِ الآخرِ أَن يَسقيَ ماءَه زرعَ غيرِه»، ورواه الترمذي (١١٣١) في النكاح مختصراً، وقال: حديث حسن.

(٣) أخرجه أبو داود (١٠٧٩) في الصلاة، والترمذي (٣٢٢) في الصلاة، والنسائي (٢/٤٧ و٤٨) في المساجد. والْحِلَق: جمع حلْقَة: والمراد: الجماعة من الناس.

أربعين سنة لا يحلق رأسه قبل الصلاة، قال: فقلت له: إنما هو الْحِلق جمع حَلْقة، وإنما كره الاجتماع قبل الصلاة للعلم والمذاكرة، وأمر أن يشتغل بالصلاة وينصت للخطبة. فقال: قد فرَّجت عليّ وكان من الصالحين. وكان ابن صاعد كبير القدر في المحدثين، لكنه لمّا قلَّت مخالطته للفقهاء كان لا يفهم جواب فتوى.

قال أبوبكر الأبهري الفقيه: كنت عند يحيىٰ بن محمد بن صاعد فجاءته امرأة، فقالت: أيها الشيخ، ما تقول في بئر سقطت فيها دجاجة فماتت؛ فهل الماء طاهر أو نجس؟ فقال يحيىٰ: ويحك، كيف سقطت الدجاجة في البئر؟ قالت: لم تكن البئر مغطاة، فقال يحيىٰ: ألا غطيتيها حتى لا يقع فيها شيء، قال الأبهري: فقلت: يا هذه إن كان الماء تغير فهو نجس وإلّا فهو طاهر.

قال المصنف: وكان ابن شاهين قد صنف في الحديث مصنفات كثيرة، أقلها جزء، وأكثرها التفسير، وهو ألف جزء، وما كان يعرف من الفقه شيئاً.

وقد كان فيهم من يقدم على الفتوى بالخطأ، لئلا يرى بعين الجهل. وسئل بعضهم عن مسألة من الفرائض فكتب في الفتوى تقسم على فرائض الله سبحانه وتعالى.

قال إبراهيم الحربي: بلغني أن امرأة جاءت إلى علي بن داود وهو يحدث، وبين يديه مقدار ألف نفس، فقالت له: حلفت بصدقة إزاري[1]، فقال لها: بكم اشتريتينه؟ قالت: باثنين وعشرين درهماً، قال: اذهبي فصومي اثنين وعشرين يوماً، فلمّا مرت جعل يقول: آه آه غلطنا والله، أمرناها بكفارة الظهار.

قال المصنف: فانظروا إلى هاتين الفضيحتين: فضيحة الجهل، وفضيحة الإقدام على الفتوى بمثل هذا التخليط.

---

(١) الإزار: كساء يغطي النصف الأسفل من البدن.

* القسم الثاني قوم أكثروا سماع الحديث ولم يكن مقصودهم صحيحاً، ولا أرادوا معرفة الصحيح من غيره بجمع الطرق، وإنما كان مرادهم العوالي[1] والغرائب[2]، فطافوا البلدان ليقول أحدهم: لقيت فلاناً، ولي من الأسانيد ما ليس لغيري، وعندي أحاديث ليست عند غيري. وقد دخل إلينا بعض طلبة الحديث، وكان يأخذ الشيخ فيقعده في الرقة، وهي البستان الذي على شاطىء دجلة، فيقرأ عليه، ويقول في مجموعاته: حدثني فلان وفلان بالرقة، ويوهم الناس أنها البلدة التي بناحية الشام، ليظنوا أنه قد تعب في الأسفار لطلب الحديث. وكان يقعد الشيخ بين نهر عيسى والفرات ويقول: حدثني فلان من وراء النهر، يوهم أنه قد عبر خراسان في طلب الحديث. وكان يقول: حدثني فلان في رحلتي الثانية والثالثة ليعلم الناس قدر تعبه في طلب الحديث فما بورك له ومات في زمان الطلب.

قال المصنف: وهذا كله من الإخلاص بمعزل[3]، وإنما مقصودهم الرياسة والمباهاة.

ومن تلبيس إبليس على أصحاب الحديث: قدح بعضهم في بعض طلباً للتشفي، ويخرجون ذلك مخرج الجرح والتعديل الذي استعمله قدماء هذه الأمة للذب عن الشرع، والله أعلم بالمقاصد.

قال يوسف بن الحسين: سألت حارثاً المحاسبي عن الغيبة، فقال: إحذرها فإنها شر مكتسب، وما ظنك بشيء يسلبك حسناتك، فيرضي به خصماءك، ومن تبغضه في الدنيا كيف ترضى به خصمك يوم القيامة، يأخذ من حسناتك أو تأخذ من سيئاته، إذ ليس هناك درهم ولا دينار، فاحذرها وتعرف منبعها، فإن منبع غيبة الجهال من إشفاء الغيظ، والحمية والحسد وسوء الظن، وتلك مكشوفة غير خفية.

---

(١) أي الأحاديث ذات الإسناد العالي.

(٢) أي الأحاديث الغريبة.

(٣) أي هو بعيد عنه. يقال: هو بمعزل عن كذا، أي: مجانب له.

وأما غيبة العلماء فمنبعها من خدعة النفس على إبداء النصيحة، وتأويل ما لا يصح من الخبر، ولو صح ما كان عوناً على الغيبة، وهو قوله: «أترعون[1] عن ذكر الفاجر اذكروه بما فيه ليحذره الناس[2]» ولو كان الخبر محفوظاً صحيحاً لم يكن فيه إبداء شناعة على أخيك المسلم من غير أن تسأل عنه، وإنما إذا جاءك مسترشد، فقال: أريد أن أزوج كريمتي من فلان فعرفت منه بدعة أو أنه غير مأمون على حرم المسلمين، صرفته عنه بأحسن صرف، أو يجيئك رجل آخر فيقول لك: أريد أن أودع مالي فلاناً وليس ذلك الرجل موضعاً للأمانة، فتصرفه عنه بأحسن الوجوه، أو يقول لك رجل: أريد أن أصلي خلف فلان أو أجعله إمامي في علم، فتصرفه عنه بأحسن الوجوه، ولا تشف غيظك من غيبته.

وأما منبع الغيبة من القراء والنساك فمن طريق التعجب، يبدي عوار الأخ. ثم يتزين بالدعاء له ليتمكن من أكل لحمه.

وأما منبع الغيبة من الرؤساء والأساتذة، فمن طريق إبداء الرحمة والشفقة حتى يقول: مسكين فلان، ابتلي بكذا، وامتحن بكذا، نعوذ بالله من الخذلان. فيتصنع بإبداء الرحمة والشفقة على أخيه. ثم يتصنع بالدعاء له عند إخوانه. ويقول: إنما أبديت لكم ذاك لتكثروا دعاءكم له، ونعوذ بالله من الغيبة تعريضاً أو تصريحاً. فاتق الغيبة، فقد نطق القرآن بكراهتها، قال عز وجل: ﴿أيحبُّ أَحدُكُم أنْ يأكلَ لحْمَ أخيهِ مَيْتاً فكرِهتُموه﴾[3]، وقد روي عن النبي ﷺ في ذلك أخبار كثيرة.

ومن تلبيس إبليس على علماء المحدثين: رواية الحديث الموضوع من

---

(١) أي تتورعون.

(٢) أخرجه الطبراني وغيره، كما في «الجامع الصغير». وفيه الجارود بن يزيد، وهو متروك. انظر: «الكامل» لابن عدي ٢/٥٩٥.

(٣) سورة الحجرات: الآية ١٢.

غير أن يبينوا أنه موضوع، وهذه جناية منهم على الشرع، ومقصودهم ترويج أحاديثهم وكثرة رواياتهم. وقد قال النبي ﷺ: «من حدَّث عني بحديث يرى أنهُ كذبٌ فهو أحدُ الكاذبينَ»[1]. ومن هذا الفن تدليسهم في الرواية، فتارة يقول أحدهم: فلان عن فلان، أو قال فلان عن فلان، يوهم أنه سمع منه ولم يسمع. وهذا قبيح لأنه يجعل المنقطع في مرتبة المتصل. ومنهم من يروي عن الضعيف والكذاب فينفي اسمه، فربما سماه بغير اسمه، وربما كناه، وربما نسبه إلى جده لئلا يُعرف، وهذه جناية على الشرع لأنه يثبت حكماً بما لا يثبت به.

تلبيس إبليس على الفقهاء

قال المصنف: كان الفقهاء في قديم الزمان هم أهل القرآن والحديث، فما زال الأمر يتناقص حتى قال المتأخرون: يكفينا أن نعرف آيات الأحكام من القرآن، وأن نعتمد على الكتب المشهورة في الحديث: كـ«سنن أبي داود» ونحوها، ثم استهانوا بهذا الأمر أيضاً، وصار أحدهم يحتج بآية لا يعرف معناها، وبحديث لا يدري أصحيح هو أم لا.

ومن القبيح تعليق حكم على حديث لا يدري أصحيح هو أم لا، ولقد كانت معرفة هذا تصعب، ويحتاج الإنسان إلى السفر الطويل والتعب الكثير حتى يعرف ذلك، فصنفت الكتب وتقررت السنن وعرف الصحيح من السقيم. ولكن غلب على المتأخرين الكسل بالمرة عن أن يطالعوا علم الحديث، حتى إني رأيت بعض الأكابر من الفقهاء يقول في تصنيفه عن ألفاظ في الصحاح: لا يجوز أن يكون رسول الله ﷺ قال هذا، ورأيته يحتج في مسألة فيقول: دليلنا ما روى بعضهم أن رسول الله قال: كذا، ويجعل الجواب عن حديث صحيح قد احتج به خصمه أن يقول: هذا الحديث لا يعرف، وهذا كله جناية على الإسلام.

---

(١) أخرجه مسلم في المقدمة (١/ ٩).
وأخرجه الترمذي (٢٦٦٢) في العلم.

ومن تلبيس إبليس على الفقهاء أن جلَّ اعتمادهم على تحصيل علم الجدل، يطلبون بزعمهم تصحيح الدليل على الحكم، والاستنباط لدقائق الشرع وعلل المذاهب، ولو صحت هذه الدعوى منهم لتشاغلوا بجميع المسائل، وإنما يتشاغلون بالمسائل الكبار ليتسع فيها الكلام، طلباً للمفاخرات والمباهاة، وربما لم يعرف الحكم في مسألة صغيرة تعم بها البلوى.

تلبيسه عليهم بإدخالهم في الجدل كلام الفلاسفة واعتمادهم على تلك الأوضاع

ومن ذلك إيثارهم للقياس على الحديث المستدل به في المسألة ليتسع لهم المجال في النظر، وجعلوا النظر جل اشتغالهم، ولم يمزجوه بما يرقق القلوب من قراءة القرآن وسماع الحديث وسيرة الرسول ﷺ وأصحابه. ومعلوم أن القلوب لا تخشع بتكرار إزالة النجاسة والماء المتغير، وهي محتاجة إلى التذكار والمواعظ لتنهض لطلب الآخرة. ومسائل الخلاف وإن كانت من علم الشرع، إلاّ أنها لا تنهض بكل المطلوب.

وقد كان بعض السلف يقول: حديث يرق له قلبي أحب إليَّ من مئة قضية من قضايا شريح[1]. وإنما قال هذا، لأن رقة القلب مقصودة، ولها أسباب. ومن ذلك: أنهم اقتصروا على المناظرة وأعرضوا عن حفظ المذهب وباقي علوم الشرع، فترى الفقيه المفتي يسأل عن آية أو حديث فلا يدري، وهذا غبن، فأين الأنفة من التقصير. ومن ذلك: أن المجادلة إنما وضعت ليستبين الصواب. وقد كان مقصود السلف المناصحة بإظهار الحق. وقد كانوا ينتقلون من دليل إلى دليل، وإذا خفي على أحدهم شيء نبهه الآخر، لأن المقصود كان إظهار الحق.

قال الشافعي رحمه الله: ما ناظرت أحداً فأنكر الحجة إلاّ سقط من

---

(١) هو شريح بن الحارث، القاضي الشهير، وُلِّي قضاء الكوفة، وحكم سبعين سنة. وتوفي سنة ٧٨هـ.

عيني، ولا قبلها إلاّ هبته، وما ناظرت أحداً فباليت مع من كانت الحجة إن كانت معه صرت إليه.

ومن ذلك أن طلبهم للرياسة بالمناظرة تثير الكامن في النفس من حب الرياسة، فإذا رأى أحدهم في كلامه ضعفاً يوجب قهر خصمه له خرج إلى المكابرة، فإن رأى خصمه قد استطال عليه بلفظ أخذته حمية الكبر فقابل ذلك بالسب، فصارت المجادلة مخاذلة. ومن ذلك: ترخصهم في الغيبة بحجة الحكاية عن المناظرة، فيقول أحدهم: تكلمت مع فلان فما قال شيئاً، ويتكلم بما يوجب التشفي من عرض خصمه بتلك الحجة. ومن ذلك: أن إبليس لبس عليهم بأن الفقه وحده علم الشرع ليس ثَمَّ غيره، فإن ذكر لهم محدث قالوا ذاك لا يفهم شيئاً، وينسون أن الحديث هو الأصل، فإن ذكر لهم كلام يلين به القلب قالوا: هذا كلام الوعاظ، ومن ذلك إقدامهم على الفتوى وما بلغوا مرتبتها. وربما أفتوا بواقعاتهم المخالفة للنصوص ولو توقفوا في المشكلات كان أولى.

قال عبد الرحمن بن أبي ليلى: أدركت مئة وعشرين من أصحاب رسول الله ﷺ يسأل أحدهم عن المسألة فيردها هذا إلى هذا وهذا إلى هذا، حتى ترجع إلى الأول.

وقال: أدركت في هذا المسجد عشرين ومئة من الأنصار من أصحاب رسول الله ﷺ، ما منهم من يحدِّث حديثاً إلاّ ودَّ أن أخاه كفاه الحديث، ولا يسأل عن فتيا إلاّ ودّ أن أخاه كفاه الفتيا.

وعن إبراهيم النخعي: أن رجلاً سأله عن مسألة، فقال: ما وجدت من تسأله غيري؟

وعن مالك بن أنس رضي الله عنه، قال: ما أفتيت حتى سألت سبعين شيخاً هل ترون لي أن أفتي؟ فقالوا: نعم. فقيل له: فلو نهوك؟ قال: لو نهوني انتهيت.

وقال رجل لأحمد بن حنبل: إني حلفت ولا أدري كيف حلفت، قال: ليتك إذ دريت كيف حلفت دريت أنا كيف أفتيك.

وإنما كانت هذه سجية السلف لخشيتهم الله عز وجل وخوفهم منه، ومن نظر في سيرتهم تأدَّب.

ومن تلبيس إبليس على الفقهاء: مخالطتهم الأمراء والسلاطين ومداهنتهم، وترك الإنكار عليهم مع القدرة على ذلك. وربما رخصوا لهم فيما لا رخصة لهم فيه، لينالوا من دنياهم عرضاً، فيقع بذلك الفساد لثلاثة أوجه:

الأول ــ الأمير يقول: لولا أني على صواب لأنكر عليَّ الفقيه، وكيف لا أكون مصيباً وهو يأكل من مالي.

والثاني ــ العامي أنه يقول: لا بأس بهذا الأمير ولا بماله ولا بأفعاله، فإن فلاناً الفقيه لا يبرح عنده.

والثالث ــ الفقيه فإنه يفسد دينه بذلك.

وقد لبس إبليس عليهم في الدخول على السلطان، فيقول: إنما ندخل لنشفع في مسلم، وينكشف هذا التلبيس بأنه: لو دخل غيره يشفع لمّا أعجبه ذلك، وربما قدح في ذلك الشخص لتفرده بالسطان.

ومن تلبيس إبليس عليه في أخذ أموالهم، فيقول: لك فيها حق. ومعلوم أنها إن كانت من حرام لم يحل له منها شيء، وإن كانت من شبهة فتركها أولى، وإن كانت من مباح جاز له الأخذ بمقدار مكانه من الدين لا على وجه اتفاقه في إقامة الرعونة، وربما اقتدى العوام بظاهر فعله واستباحوا ما لا يستباح.

وقد لبس إبليس على قوم من العلماء ينقطعون عن السلطان إقبالاً على التعبد والدين، فيزين لهم غيبة من يدخل على السلطان من العلماء، فيجمع لهم آفتين: غيبة الناس، ومدح النفس.

وفي الجملة: فالدخول على السلاطين خطر عظيم، لأن النية قد تحسن في أول الدخول، ثم تتغير بإكرامهم وإنعامهم أو بالطمع فيهم، ولا يتماسك عن مداهنتهم وترك الإنكار عليهم. وقد كان سفيان الثوري رضي الله عنه، يقول: ما أخاف من إهانتهم لي، إنما أخاف من إكرامهم، فيميل قلبي إليهم.

وقد كان علماء السلف يبعدون عن الأمراء لما يظهر من جورهم، فتطلبهم الأمراء لحاجتهم إليهم في الفتاوى والولايات، فنشأ أقوام قويت رغبتهم في الدنيا فتعلموا العلوم التي تصلح للأمراء، وحملوها إليهم لينالوا من دنياهم. ويدلك على أنهم قصدوا بالعلوم الأمراء أن الأمراء كانوا قديماً يميلون إلى سماع الحجج في الأصول، فأظهر الناس علم الكلام. ثم مال بعض الأمراء إلى المناظرة في الفقه، فمال الناس إلى الجدل. ثم مال بعض الأمراء إلى المواعظ، فمال خلق كثير من المتعلمين إليها، ولمّا كان جمهور العوام يميلون إلى القصص كثر القصاص وقل الفقهاء.

ومن ذلك ما يحكى عن بعض الأحداث المتفقهة من الانبساط في المنهيات، فبعضهم يلبس الحرير ويتحلى بالذهب، إلى غير ذلك من المعاصي. وسبب انبساط هؤلاء مختلف. فمنهم من يكون فاسد العقيدة في أصل الدين، وهو يتفقه ليستر نفسه أو ليأخذ من الوقف أو ليرأس أو ليناظر. ومنهم من عقيدته صحيحة لكن يغلبه الهوى وحب الشهوات، وليس عنده صارف عن ذلك، وإنما يتقوم الإنسان بالرياضة ومطالعة سير السلف، وأكثر القوم في بعد عن هذا، وليس عندهم إلاّ ما يعين الطبع على شموخه، فحينئذ يسرح الهوى بلا زاد. ومنهم من يلبس عليه إبليس بأنك عالم وفقيه ومفت، والعلم يدفع عن أربابه، وهيهات فإن العلم أولى أن يحاجّه ويضاعف عذابه، كما ذكرنا في حق القراء. وقد قال الحسن البصري: إنما الفقيه من يخشى الله عز وجل.

ومن تلبيسه عليهم: أن يحسن لهم ازدراء الوعاظ، ويمنعهم من الحضور

عندهم، فيقولون: من هؤلاء؟ هؤلاء قصاص. ومراد الشيطان أن لا يحضروا في موضع يلين فيه القلب ويخشع. والقصاص لا يذمون من حيث هذا الاسم لأن الله عز وجل، قال: ﴿نحنُ نقصُّ عليك أحسنَ الْقصص﴾[1]. وقال: ﴿فاقْصُصِ الْقَصَصَ﴾[2]. وإنما ذم القصاص لأن الغالب منهم الاتساع بذكر القصص دون ذكر العلم المفيد، ثم غالبهم يخلط فيما يورده. وربما اعتمد على ما أكثره محال، فأما إذا كان القصص صدقاً، ويوجب وعظاً فهو ممدوح. وقد كان أحمد بن حنبل يقول: ما أحوج الناس إلى قاصّ صدوق.

تلبيسه على الوعاظ والقصاص

كان الوعاظ في قديم الزمان علماء فقهاء. وقد حضر مجلس عبيد بن عمير عبد الله بن عمر رضي الله عنه. وكان عمر بن عبد العزيز يحضر مجلس القاص. ثم خست[3] هذه الصناعة فتعرض لها الجهال، فبعد عن الحضور عندهم المميزون من الناس، وتعلق بهم العوام والنساء، فلم يتشاغلوا بالعلم، وأقبلوا على القصص، وما يعجب الجهلة، وتنوعت البدع في هذا الفن.

فمن ذلك: أن قوماً منهم كانوا يضعون أحاديث الترغيب والترهيب، ولبس عليهم إبليس: بأننا نقصد حث الناس على الخير وكفّهم عن الشر، وهذا افتيات[4] منهم على الشريعة، لأنها عندهم على هذا الفعل ناقصة تحتاج إلى تتمة، ثم قد نسوا قوله ﷺ: «مَنْ كَذَبَ عليَّ مُتعمِّداً فلْيتبوأْ مَقعدَهُ من النَّارِ»[5].

---

(١) سورة يوسف: الآية ٣.

(٢) سورة الأعراف: الآية ١٧٦.

(٣) خست: خف وزنها في أنظار الناس، وتدنَّتْ مكانتها.

(٤) افتات برأيه: استبد به. واستفات على فلان في الأمر: حكم عليه.

(٥) أخرجه البخاري (١١٠) في العلم: باب إثم من كذب على النبي ﷺ، ومسلم في المقدمة رقم (٣): باب تغليظ الكذب على رسول الله ﷺ.

ومن ذلك: أنهم تلمحوا[1] ما يزعج النفوس ويطرب القلوب، فنوعوا فيه الكلام، فتراهم ينشدون الأشعار الرائقة الغزلية في العشق، ولبس عليهم إبليس بأننا نقصد الإشارة إلى محبة الله عزّ وجل، ومعلوم أن عامة من يحضرهم العوام الذين بواطنهم مشحونة بحب الهوى، فيضل القاص ويضل.

ومن ذلك: من يظهر من التواجد والتخاشع زيادة على ما في قلبه، فمن كان منهم كاذباً فقد خسر الآخرة، ومن كان صادقاً لم يسلم صدقه من رياء يخالطه.

ومنهم: من يتحرك الحركات التي يوقع[2] بها على قراءة الألحان، والألحان التي قد أخرجوها اليوم مشابهة للغناء، فهي إلى التحريم أقرب منها إلى الكراهة، والقارىء يطرب، والقاص ينشد الغزل مع تصفيق بيديه، وإيقاع برجليه فتشبه السكر، ويوجب ذلك تحريك الطباع وتهييج النفوس، وصياح الرجال والنساء وتمزيق الثياب لما في النفوس من دفائن الهوى، ثم يخرجون فيقولون: كان المجلس طيباً، ويشيرون بالطيبة إلى ما لا يجوز.

ومنهم: من يتكلم في دقائق الزهد، ومحبة الحق سبحانه، فلبس عليه إبليس: أنك من جملة الموصوفين بذلك، لأنك لم تقدر على الوصف حتى عرفت ما تصف وسلكت الطريق. وكشف هذا التلبيس: أن الوصف علم، والسلوك غير العلم.

ومنهم: من يتكلم بالطامات والشطح الخارج عن الشرع، ويستشهد بأشعار العشق، وغرضه أن يكثر في مجلسه الصياح ولو على كلام فاسد. وكم منهم من يُزوِّق عبارة لا معنى تحتها، وأكثر كلامهم اليوم في موسى والجبل، وزليخا ويوسف، ولا يكادون يذكرون الفرائض ولا ينهون عن ذنب، فمتى يرجع صاحب الزنا، ومستعمل الربا، وتعرف المرأة حق زوجها، وتحفظ

---

(١) لمح الشيء بالبصر: صوب بصره إليه.
(٢) من الإيقاع وهو إتفاق الأصوات وتوقيفها في الغناء.

صلاتها؟ هيهات. هؤلاء تركوا الشرع وراء ظهورهم، ولهذا نفقت[1] سلعهم، لأن الحق ثقيل والباطل خفيف.

ومنهم: من يحث على الزهد وقيام الليل، ولا يبين للعامة المقصود، فربما تاب الرجل منهم وانقطع إلى زاوية، أوخرج إلى جبل، فبقيت عائلته لا شيء لهم.

ومنهم: من يتكلم في الرجاء والطمع من غير أن يمزج ذلك بما يوجب الخوف والحذر، فيزيد الناس جرأة على المعاصي، ثم يقوي ما ذكر بميله إلى الدنيا من المراكب الفارهة[2]، والملابس الفاخرة، فيفسد القلوب بقوله وفعله.

ومن القصاص من يخلط في مجلسه الرجال والنساء، وترى النساء يكثرن الصياح وجداً على زعمهن، فلا ينكر ذلك عليهن جمعاً للقلوب عليه. ولقد ظهر في زماننا هذا من القصاص ما لا يدخل في التلبيس، لأنه أمر صريح من كونهم جعلوا القصص معاشاً يستمنحون به الأمراء والظلمة، والأخذ من أصحاب المكوس[3]، والتكسب به في البلدان، وفيهم من يحضر المقابر فيذكر البلى وفراق الأحبة، فيبكي النسوة، ولا يحث على الصبر.

وقد يلبس إبليس على الواعظ المحقق، فيقول له: مثلك لا يعظ، وإنما يعظ متيقظ[4]، فيحمله على السكوت والانقطاع، وذلك من دسائس إبليس، لأنه يمنع فعل الخير، ويقول: إنك تلتذ بما تورده وتجد لذلك راحة. فربما دخل الرياء في قولك وطريق الوحدة أسلم. ومقصوده بذلك: سد باب الخير.

---

(١) أي راجت.

(٢) فره فرها: نشط وبطر، فهو فره. والمراكب الفارهة: الجميلة.

(٣) الذين يأخذون المكس. والمكس دراهم تؤخذ من البائعين عند إدخال السلعة إلى البلد.

(٤) المتنبه للأمور.

تلبيسه على أهل اللغة والأدب

قال المصنف: قد لبس على جمهورهم، فشغلهم بعلوم النحو واللغة عن المهمات اللازمة التي هي فرض عين، وعن معرفة ما يلزمهم عرفانه من العبادات، وما هو أولى بهم من آداب النفوس وصلاح القلوب، وبما هو أفضل من علوم التفسير والحديث والفقه، فأذهبوا الزمان كله في علوم لا تُراد لنفسها بل لغيرها، فإن الإنسان إذا فهم الكلمة فينبغي أن يترقى إلى العمل بها، إذ هي مرادة لغيرها. فترى الإنسان منهم لا يكاد يعرف من آداب الشريعة إلاّ القليل، ولا من الفقه، ولا يلتفت إلى تزكية نفسه وصلاح قلبه. ومع هذا ففيهم كبر عظيم، وقد خيل لهم إبليس أنكم من علماء الإسلام، لأن النحو واللغة من علوم الإسلام وبهما يعرف معنى القرآن العزيز. ولعمري إن هذا لا ينكر، ولكن معرفة ما يلزم من النحو لإصلاح اللسان، وما يحتاج إليه من اللغة في تفسير القرآن والحديث أمر قريب، وهو أمر لازم، وما عدا ذلك فضل لا يحتاج إليه، وإنفاق الزمان في تحصيل هذا الفاضل، وليس بمهم مع ترك المهم غلط، وإيثاره على ما هو أنفع وأعلى رتبة كالفقه والحديث غبن[1]، ولو اتسع العمر لمعرفة الكل كان حسناً. ولكن العمر قصير، فينبغي إيثار الأهم والأفضل.

ولمّا كان عموم اشتغالهم بأشعار الجاهلية، سالت بهم الطباع إلى هوة الهوى، فَقَلَّ أن ترى منهم متشاغلاً بالتقوى، أو ناظراً في مطعم.

وقد يظنون جواز الشيء وهو غير جائز لقلة فقههم.

تلبيس إبليس على الشعراء

وقد لبسّ عليهم، فأراهم أنهم من أهل الأدب، وأنهم قد خصوا بفطنة تميزوا بها عن غيرهم. ومن خصكم بهذه الفطنة ربما عفا عن زللكم. فتراهم يهيمون في كل واد من الكذب والقذف والهجاء وهتك الأعراض والإقرار

---

(١) الغبن: ضعف الرأي والنسيان. والظلم، والنقص.

بالفواحش، وترى خلقاً من الشعراء وأهل الأدب لا يتحاشون من لبس الحرير، والكذب في المدح خارجاً عن الحد، ويحكون اجتماعهم على الفسق وشرب الخمر وغير ذلك. ويقول أحدهم: اجتمعت أنا وجماعة من الأدباء، ففعلنا كذا وكذا ـ هيهات هيهات ليس الأدب إلّا مع الله عزّ وجلّ باستعمال التقوى له. ولا قدر للفطن في أمور الدنيا. ولا تحسن العبارة عند الله إذا لم يتقه. وجمهور الأدباء والشعراء إذا ضاق بهم رزق تسخطوا، فكفروا وأخذوا في لوم الأقدار، كقول بعضهم:

لئنْ سمتْ همتي في الفضل عاليةً
فإن حظي ببطن الأرض ملتصق

كم يفعل الدهر بي ما لا أسر به
وكم يسيء زمان جائر حنق

وقد نسي هؤلاء أن معاصيهم تضيق أرزاقهم، فقد رأوا أنفسهم مستحقين للنعم، مستوجبين للسلامة من البلاء، ولم يتلمحوا ما يجب عليهم من امتثال أوامر الشرع، فقد ضلت فطنتهم في هذه الغفلة.

تلبيس إبليس على الكاملين من العلماء

إن أقواماً علت هممهم، فحصّلوا علوم الشرع من القرآن والحديث والفقه والأدب وغير ذلك، فأتاهم إبليس يخفي التلبيس، فأراهم أنفسهم بعين عظيمة لما نالوا وأفادوا غيرهم. فمنهم من يستفزه[1] لطول عنائه في الطلب، فحسن له اللذات، وقال له: إلى متى هذا التعب فأرح جوارحك من كُلف التكاليف، وافسح لنفسك في مشتهاها، فإن وقعت في زلّة فالعلم يدفع عنك العقوبة. وأورد عليه فضل العلماء، فإن خذل هذا العبد، وقبل هذا التلبيس يهلك، وإن وفق فينبغي له أن يقول: جوابك من ثلاثة أوجه:

أحدها ـ أنه إنما فضل العلماء بالعمل، ولولا العمل به ما كان له

(١) يستخفه ويدعوه ليغويه.

معنى. وإذا لم أعمل بـه كنت كمن لم يفهم المقصود بـه، ويصير مثلي كمثل رجل جمـع الطعام وأطعم الجياع ولم يأكل، فلم ينفعه ذلك من جوعه.

والثاني ـ أن يعارضه بما ورد في ذم من لم يعمل بالعلم، كحكـايته ﷺ «عن رجل يلقى في النار، فَتندَلقُ أقتابُه، فيقول: كنت آمر بالمعروف ولا آتيه، وأنهي عن المنكر وآتيه»[1]. وقول أبـي الدرداء رضي الله عنـه: ويل لمن يعلم مرة، وويل لمن علم ولم يعمل سبـع مرات.

والثـالث ـ أن يذكـر لـه عقـاب من هلك من العلمـاء التـاركين للعمـل بـالعلم: كإبليس وبَلْعَـام[2]. ويكفي في ذم العالم إذا لم يعمـل قولـه تعالى: ﴿كمَثلِ الحمارِ يَحملُ أسفاراً﴾[3].

وقـد لبس إبليس على أقوام من أهـل العلم والعمـل من جهـة أخـرى، فحسن لهم الكبر بالعلم، والحسد للنظير، والرياء لطلب الرياسة، فتارة يريهم أن هذا كالحق الـواجب لهم، وتارة يقـوي حب ذلك عنـدهم فلا يتـركونـه مع علمهم بـأنه خـطأ. وعلاج هـذا لمن وفق إدمان النـظر في إثم الكبر والحسـد والرياء، وإعلام النفس أن العلم لا يدفـع شر هذه المكتسبـات، بل يضـاعف عذابها لتضـاعف الحجة بهـا، ومن نظر في سيـر السلف من العلماء العـاملين استحقـر نفسه فلم يتكبـر، ومن عرف الله لم يـراء، ومن لاحظ جريـان أقداره على مقتضى إرادته لم يحسد.

وقد يدخل إبليس على هؤلاء بشبهة ظريفة، فيقول: طلبكم للرفعة ليس بتكبـر لأنكم نواب[4] الشـرع، فـإنكم تـطلبـون إعـزاز الـدين، ودحض أهـل البدع، وإطلاقكم اللسان في الحسّاد غضب للشرع، وما تظنونه رياء فليس برياء،

---

(١) أخـرجه البخـاري (٣٢٦٧) في بدء الخلق: بـاب صفة النـار وأنها مخلوقـة، ومسلم (٢٩٨٩) في الزهد: باب عقوبة من يأمر بالمعروف ولا يفعله.

(٢) بلعام بن باعور: رجل من بَني إسرائيل ضل على عِلْم.

(٣) سورة الجمعة: الآية ٥.

(٤) النائب: من قام مقام غيره في أمر أو عمل.

لأن من تخاشع منكم وتباكى، اقتدى به الناس، كما يقتدون بالطبيب إذا احتمى، أكثر من اقتدائهم بقوله إذا وصف.

وقد لبس إبليس على الكاملين في العلوم، فيسهرون ليلهم ويدأبون نهارهم في تصانيف العلوم، ويريهم إبليس أن المقصود نشر الدين، ويكون مقصودهم الباطن انتشار الذكر، وعلو الصيت والرياسة، وطلب الرحلة من الآفاق إلى المصنف.

وينكشف هذا التلبيس بأنه لو انتفع بمصنفاته الناس من غير تردد إليه، أو قرئت على نظيره في العلم فرح بذلك إن كان مراده نشر العلم. وقد قال بعض السلف: ما من علم علمته إلّا أحببت أن يستفيده الناس من غير أن ينسب إليَّ. ومنهم من يفرح بكثرة الأتباع، ويلبس عليه إبليس بأن هذا الفرح لكثرة طلاب العلم، وإنما مراده كثرة الأصحاب واستطارة الذكر، ومن ذلك العجب بكلماتهم وعلمهم.

وينكشف هذا التلبيس بأنه لو انقطع بعضهم إلى غيره ممن هو أعلم منه ثقل ذلك عليه. وما هذه صفة المخلص في التعليم، لأن مثل المخلص مثل الأطباء الذين يداوون المرضى لله سبحانه وتعالى، فإذا شفي بعض المرضى على يد طبيب منهم فرح الآخر.

وقد ذكرنا آنفاً حديث ابن أبي ليلى: أدركت عشرين ومئة من أصحاب النبي ﷺ من الأنصار، ما منهم رجل يسأل عن شيء إلّا ودّ أن أخاه كفاه، ولا يحدث بحديث إلّا ودّ أن أخاه كفاه.

قال المصنف: وقد يتخلص العلماء الكاملون من تلبيسات إبليس الظاهرة فيأتيهم بخفي من تلبيسه بأن يقول: ما لقيت مثلك، ما أعرفك بمداخلي ومخارجي، فإن سكن إلى هذا هلك بالعجب، وإن سلم من المسالمة له سلم.

وقد قال السري السقطي: لو أن رجلاً دخل بستاناً فيه من جميع

مـا خلق الله عزّ وجـلّ من الأشجار، عليهـا من جميـع مـا خلق الله تعـالى من الأطيار، فخاطبه كل طـائر بلغتـه، وقال: السـلام عليك يـا ولي الله، فسكنت نفسه إلى ذلك كان في أيديها أسيراً، والله الهادي لا إلـه إلاّ هو.



الباب السابع

في ذكر تلبيس إبليس على الولاة والسلاطين

قال المصنف: قد لبس عليهم إبليس من وجوه كثيرة، نذكر أمهاتها[1]:

فالوجه الأول ــ أنه يريهم أن الله عزّ وجلّ يحبهم، ولولا ذلك ما ولّاهم سلطانه، ولا جعلهم نواباً عنه في عباده. وينكشف هذا التلبيس بأنهم إن كانوا نواباً عنه في الحقيقة فليحكموا بشرعه، وليتبعوا مراضيه، فحينئذ يحبهم لطاعته. فأما صورة الملك والسلطنة فإنه قد أعطاها خلقاً ممن يبغضهم، وقد بسط الدنيا لكثير ممن لا ينظر إليهم. وسلّط جماعة من أولئك على الأولياء والصالحين، فقتلوهم وقهروهم، فكان ما أعطاهم عليهم لا لهم، ودخل ذلك في قوله تعالى: ﴿إنَّما نُملِي لهم لِيزدادُوا إثماً﴾[2].

والثاني ــ أنه يقول لهم: الولاية تفتقر إلى هيبة، فيتكبرون عن طلب العلم ومجالسة العلماء، فيعملون بآرائهم فيتلفون الدين، والمعلوم أن الطبع يسرق من خصال المخالطين، فإذا خالطوا مؤثري الدنيا الجهال بالشرع سرق الطبع من خصالهم مع ما عندهم منها، ولا يرى ما يقاومها ولا ما يزجره عنها، وذلك سبب الهلاك.

والثالث ــ أنه يخوفهم الأعداء، ويأمرهم بتشديد الحجاب، فلا يصل إليهم أهل المظالم، ويتوانى من جعل بصدد رفع المظالم. وقد روى أبو مريم الأسدي عن النبي ﷺ، قال: «من وَلّاه اللّهُ شيئاً مِنْ أمر المسلمينَ

---

(١) أي أهمها أو أصولها.

(٢) سورة آل عمران: الآية ١٧٨.

فـاحتجبَ دُونَ حاجتهم وخَلّتهمْ وفقـرهِمْ احتجبَ اللّهُ عزّ وجـلّ دُونَ حـاجتِـهِ وخَلَّتهِ وفقرِهِ»[١].

والرابـع ـ أنهم يستعملون من لا يصلـح ممن لا علم عنده ولا تقـوى، فيجتلب الدعاء عليهم بظلمه الناس. ويطعمهم الحرام بالبيوع الفاسدة، ويحدّ من لا يجب عليه الحد. ويظنون أنهم يتخلصـون من الله عزّ وجـلّ مما جعلوه في عنق الـوالي. هيهات إن العـامل على الـزكـاة إذا وكّـل الفسـاق بتفـرقتهـا فخانوا ضمن.

والخـامس ـ أنـه يحسن لهم العمـل بـرأيهم، فيقـطعـون من لا يجـوز قطعه، ويقتلون من لا يحـلّ قتله. ويوهمهم أن هـذه سياسـة، وتحت هذا من المعنى أن الشريعة ناقصة، تحتاج إلى إتمام، ونحن نتمها بآرائنا.

وهذا من أقبـح التلبيس، لأن الشريعة سياسة إلّهية، ومحال أن يقـع في سياسة الإلّـه خلل يحتاج إلى سياسة الخلق، قال الله عزّ وجلّ: ﴿ما فرطنَا في الْكتـاب مِنْ شَيءٍ﴾[٢]، وقـال: ﴿لا مُعقبَ لحكمـهِ﴾[٣]. فمدعـي السيـاسـة مدعي الخلل في الشريعة، وهذا يزاحم الكفر. وقد روينا عن عضد الدولة أنه كان يميل إلى جارية، فكانت تشغل قلبه، فأمر بتغريقهـا لئلا يشتغـل قلبه عن تـدبير الملك. وهـذا هو الجنـون المطبق، لأن قتـل مسلم بلا جـرم لا يحل. واعتقـاده أن هـذا جـائـز كفـر، وإن اعتقـده غيـر جـائـز لكنـه رآه مصلحـة، فلا مصلحة فيما يخالف الشرع.

والسادس ـ أنه يحسن لهم الانبسـاط في الأموال ظانين أنها بحكمهم.

---

(١) أخـرجه التـرمذي (١٣٣٢) في الأحكـام: باب مـا جاء في إمـام الـرعيـة، وأبـو داود (٢٩٤٨) في الخراج والإمارة: باب فيما يلزم الإمام من أمر الرعية.
والخلة: الحاجة والفقر.

(٢) سورة الأنعام: الآية ٣٨.

(٣) سورة الرعد: الآية ٤١.
لا معقب لحكمه: لا رادّ لأمره، أو لقضائه.

وهـذا تلبيس يكشفـه وجـوب الحجـر على المفـرط في مـال نفســه، فكيف بـالمستأجـر في حفظ مال غيـره، وإنمـا لـه من المـال بقـدر عمله، فـلا وجـه للانبساط. قال ابن عقيل: وقد روي عن حماد الراوية أنه أنشد الوليد بن يـزيد أبياتاً فأعطاه خمسين ألفاً وجاريتين، قال: هذا مما يروى على وجه المدح لهم وهو غاية القدح فيهم، لأنه تبذيـر في بيت مال المسلمين. وقـد يزين لبعضهم منـع المستحقين، وهو نظير التبذير.

والسـابـع ـ أنه يحسن لهم الانبسـاط في المعـاصي، ويلبس عليهم أن حفـظكم للسبيـل، وأمن البـلاد بكم يمنـع عنكم العقـاب. وجـواب هـذا أن يقــال: إنمـا وليتم لتحفــظوا البـلاد وتؤمنــوا السبـل. وهــذا واجب عليهم، وما انبسطوا فيه من المعاصي منهي عنه، فلا يرفـع هذا ذلك.

والثـامن ـ أنه يلبس على أكثـرهم بأنـه قد قـام بمـا يجب من جهـة أن ظواهر الأحوال مستقيمة، ولو حقق النظر لرأى اختلالاً كثيراً.

والتاسـع ـ أنه يحسن لهم استجـلاب الأموال، واستخـراجها بـالضرب العنيف، وأخذ كل ما يملكه الخائن واستحلافه، وإنما الطريق إقامة البينة على الخائن. وقد روينا عن عمر بن عبد العزيز أن غلاماً كتب لـه: أن قومـاً خانـوا في مال الله، ولا أقدر على استخـلاص ما في أيـديهم إلّا أن أنالهم بعـذاب، فكتب إليه: لأن يلقوا الله بخيانتهم أحب إليَّ من أن ألقاه بدمائهم.

والعاشر ـ أنه يحسن لهم التصدق بعـد الغصب، يريهم أن هـذا يمحو ذلك، ويقول: إن درهماً من الصدقة يمحو إثم عشرة من الغصب. وهذا محال، لأن إثم الغصب باق، ودرهم الصدقة إن كان من الغصب لم يقبل، وإن كانت الصـدقة من الحـلال لم تدفـع أيضـاً إثم الغصب، لأن إعطاء الفقيـر لا يمنـع تعلق الذمة بحق آخر.

والحـادي عشـر ـ أنـه يحسن لهم مـع الإصـرار على المعـاصي زيـارة الصالحين وسؤالهم الدعـاء، ويريهم أن هـذا يخفف ذلك الإثم، وهـذا الخير

لا يدفع ذلك الشر. وفي الحديث عن الحسين بن زياد، قال: سمعت منيعاً يقول: مرّ تاجر بعشار[1] فحبسوا عليه سفينته فجاء إلى مالك بن دينار، فذكر له ذلك، فقام مالك فمشى معه إلى العشار، فلما رأوه، قالوا: يا أبا يحيى ألا بعثت إلينا في حاجتك؟ قال: حاجتي أن تخلوا عن سفينة هذا الرجل، قالوا: قد فعلنا، قال: وكان عندهم كوز يجعلون ما يأخذون من الناس من الدراهم فيه، فقالوا: ادع لنا يا أبا يحيى، قال: قولوا للكوز يدعو لكم، كيف أدعو لكم وألف يدعون عليكم، أترى يستجاب لواحد ولا يستجاب لألف.

والثاني عشر ـ أن من الولاة من يعمل لمن فوقه، فيأمره بالظلم فيظلم، ويلبس عليهم إبليس بأن الإثم على الأمير لا عليك، وهذا باطل لأنه معين على الظلم، وكل معين على المعاصي عاص، فإن رسول الله ﷺ لعن في الخمر عشرة[2]، ولعن آكل الربا وموكله وكاتبه وشاهديه[3]. ومن هذا الفن: أن يجبي المال لمن هو فوقه، وقد علم أنه يبذر فيه ويخون، فهذا معين على الظلم أيضاً.

وفي الحديث بإسناد مرفوع إلى جعفر بن سليمان، قال: سمعت مالك بن دينار يقول: كفى بالمرء خيانة أن يكون أميناً للخونة، والله الهادي إلى الصواب.

* * *

(١) العشار: آخذ العشر، أو ملتزمه.

(٢) رواه أبو داود (٣٦٧٤) في الأشربة: باب العنب يُعصر للخمر، وابن ماجه (٣٣٨١) في الأشربة: باب لعنت الخمر على عشرة أوجه، ولفظه: «لعن الله الخمر وشاربها وساقيها وبائعها ومبتاعها وعاصرها ومعتصرها وحاملها والمحمولة إليه وآكل ثمنها». وهو حديث حسن.

(٣) أخرجه أبو داود (٣٣٣٣) في البيوع، والترمذي (١٢٠٦) في أبواب البيوع ولفظه: «لعن رسول الله ﷺ آكل الربا وموكله وشاهديه وكاتبه»، وقال الترمذي: حديث حسن صحيح.

الباب الثامن

تلبيس إبليس على العباد في العبادات

قال المصنف: اعلم أن الباب الأعظم الذي يدخل منه إبليس على الناس هو الجهل. فهو يدخل منه على الجهَّال بأمان. وأما العالم فلا يدخل عليه إلّا مسارقة[1]. وقد لبس إبليس على كثير من المتعبدين بقلة علمهم، لأن جمهورهم يشتغل بالتعبد، ولم يحكم العلم.

فأول تلبيسه عليهم: إيثارهم التعبد على العلم، والعلم أفضل من النوافل، فأراهم أن المقصود من العلم العمل، وما فهموا من العمل إلّا عمل الجوارح، وما علموا أن العمل عمل القلب، وعمل القلب أفضل من عمل الجوارح.

قال مطرف بن عبد الله: فضل العلم خير من فضل العبادة.

وقال يوسف بن أسباط: باب من العلم تتعلمه أفضل من سبعين غزاة.

وقال المعافى بن عمران: كتابة حديث واحد أحب إليَّ من صلاة ليلة.

قال المصنف: فلما مرّ عليهم هذا التلبيس، وآثروا التعبد بالجوارح على العلم، تمكن إبليس من التلبيس عليهم في فنون التعبد.

تلبيسه عليهم في الاستطابة والحدث

من ذلك أنه يأمرهم بطول المكث في الخلاء، وذلك يؤذي الكبد، وإنما ينبغي أن يكون بمقدار.

---

(١) سارق النظر إليه: ترقب غفلة منه لينظر إليه.

ومنهم من يقوم فيمشي ويتنحنح ويرفع قدماً ويحط أخرى، وعنده أنه يستنقي بهذا، وكلما زاد في هذا نزل البول ـ وبيان هذا أن الماء يرشح إلى المثانة ويجمع فيها، فإذا تهيأ الإنسان للبول خرج ما اجتمع، فإذا مشى وتنحنح وتوقف رشح شيء آخر، فالرشح لا ينقطع، وإنما يكفيه أن يجتلب ما في الذكر بين أصبعيه ثم يتبعه الماء.

ومنهم من يحسن له استعمال الماء الكثير، وإنما يجزيه بعد زوال العين سبع مرات على أشد المذاهب، فإن استعمل الأحجار فيما لم يتعد المخرج أجزأه ثلاثة أحجار إذا أنقى بهن. ومن لم يقنع بما قنع الشرع به فهو مبتدع شرعاً لا متبع، والله الموفق.

تلبيسه عليهم في الوضوء

منهم من يلبس عليه في النيَّة، فتراه يقول: أرفع الحدث. ثم يقول: أستبيح الصلاة، ثم يعيد فيقول: أرفع الحدث. وسبب هذا التلبيس الجهل بالشرع، لأن النية بالقلب لا باللفظ، فتكلف اللفظ أمر لا يحتاج إليه، ثم لا معنى لتكرار اللفظ.

ومنهم من يلبس عليه بالنظر في الماء المتوضأ به. فيقول: من أين لك أنه طاهر، ويقدر له فيه كل احتمال بعيد. وفتوى الشرع يكفيه بأن أصل الماء الطهارة، فلا يترك الأصل بالاحتمال.

ومنهم من يلبس عليه بكثرة استعمال الماء، وذلك يجمع أربعة أشياء مكروهة: الإسراف في الماء، وتضييع العمر القيِّم فيما ليس بواجب ولا مندوب، والتعاطي[1] على الشريعة، إذا لم يقنع بما قنعت به من استعمال الماء القليل. والدخول فيما نهت عنه من الزيادة على الثلاث، وربما

---

(١) تعاطى الأمر: خاض فيه. وتعاطينا فعطوته: تغالبنا في العطاء فغلبته.

أطال الوضوء ففات وقت الصلاة، أو فات أوله وهو الفضيلة، أو فاتته الجماعة.

وتلبيس إبليس على هذا: بأنك في عبادة ما لم تصح لا تصح الصلاة، ولو تدبر أمره لعلم أنه في مخالفة وتفريط، وقد رأينا من ينظر في هذه الوساوس ولا يبالي بمطعمه ومشربه، ولا يحفظ لسانه من غيبة، فليته قلب الأمر. وفي الحديث عن عبد الله بن عمرو بن العاص، أن النبي ﷺ مرّ بسعد وهو يتوضأ، فقال: «ما هذا السَّرفُ يا سعدُ»؟ قال: أفي الوضوء سرف؟ قال: «نعمْ وإن كنتَ على نهرٍ جارٍ»[1]. وفي الحديث عن أبيّ، عن النبي ﷺ، قال: «للوضوءِ شَيطانٌ يقال له: الْولهَانُ[2]، فاتقُوهُ، أو قال: فاحْذَرُوهُ»[3].

وعن الحسن رضي الله عنه، قال: شيطان الوضوء يدعى الولهان يضحك بالناس في الوضوء[4]. وبإسناد مرفوع إلى أبي نعامة، أن عبد الله بن مغفل سمع ابنه يقول: اللهم إني أسألك الفردوس وأسألك، فقال عبد الله: سل الجنة وتعوَّذ به من النار، فإني سمعت النبي ﷺ يقول: «سيكون في هذه الأمة قوم يعتدون في الدعاءِ والطهور»[5]. وعن ابن شوذب، قال: كان الحسن يعرض بابن سيرين، يقول: يتوضأ أحدهم بقربة، ويغتسل بمزادة صباً صباً ودلكاً دلكاً، تعذيباً لأنفسهم، وخلافاً لسنَّة نبيهم ﷺ. وكان أبو الوفاء بن

---

(١) أخرجه أحمد(٢/٢٢١)، وابن ماجه (٤٢٥) في الطهارة: باب ما جاء في القصد في الوضوء، وفي سنده ضعف.

(٢) الوَلَه: الحزن، والتحير. وسمى شيطان الوضوء بهذا الاسم لإلقائه الناس في الحيرة، بسبب الوسوسة.

(٣) رواه الترمذي (٥٧) في الطهارة، وهو حديث ضعيف.

(٤) روي موقوفاً على الحسن البصري.

(٥) رواه أبو داود (٩٦) في الطهارة: باب الإسراف في الماء. وابن ماجة (٣٨٦٤) في الدعاء: باب كراهية الاعتداء في الدعاء. قال الحافظ ابن حجر: وهو صحيح. ومعنى يعتدون في الدعاء: يتجاوزون حدّه.

عقيل يقول: أجلُّ محصول عند العقلاء الوقت، وأقل متعبد به الماء. وقد قال ﷺ: «صُبُّوا على بَولِ الأَعرابي ذَنُوباً من ماءٍ»(١). وقال في المنيِّ: «أمطهُ عنكَ بإذخرة»(٢)، قال: وفي الحذاء «طهوره بأن يدلك بالأرض»(٣)، وفي ذيل المرأة «يطهره ما بعده»(٤)، وقال: «يغسل بول الجارية وينضح بول الغلام»(٥). وكان يحمل بنت أبي العاص بن الربيع في الصلاة(٦)، ونهى الراعي عن إعلام السائل له عن الماء وما يرده(٧)، وقال: «ما أبقتْ لنا طَهورٌ»، وقال:

(١) أخرجه البخاري (٢٢٠) في الطهارة: باب صب الماء على البول في المسجد. عن أبي هريرة، ومسلم (٢٨٤) في الطهارة: باب وجوب غسل البول.. عن أنس ولفظه: «قام أعرابي فبال في المسجد، فقام إليه الناسُ ليقعوا به، فقال النبي ﷺ: «دعوه وأريقوا على بوله سجلاً من ماء أو ذنوباً من ماء، فإنما بعثتم ميسرين ولم تبعثوا معسرين». والذنوب: الدلو: المملوء ماءً، والسَّجْل مثله.

(٢) رواه الدارقطني والبيهقي والطحاوي عن ابن عباس. ووقد اختلف في رفعه ووقفه. والإذخر: نبات طيب الرائحة. وفي الترمذي (١/ ٢٠٢) في الطهارة: باب (٨٦) غسل المني من الثوب. قال: قال ابن عباس: (المني بمنزلة المخاط فأمطه عنك ولو بإذخرة).

(٣) يشير إلى ما رواه أحمد (٣/ ٢٠) «إذا جاء أحدكم المسجد فليقلب نعليه فلينظر فيهما، فإن رأى خبثاً فليمسحه بالأرض ثم ليصل فيهما»، ورواه أيضاً الحاكم وابن ماجه، وابن خزيمة وصححه.

(٤) رواه أبو داود (٣٨٣) في الطهارة: باب الأذىٰ يصيب الثوب، والترمذي، وابن ماجة، ومالك، والدارمي عن أم سلمة، أن امرأة سألتها فقالت: إني أمة أطيل ذيلي وأمشي في المكان القذر، فقالت أم سلمة: قال رسول الله ﷺ: «يطهره ما بعده».

(٥) أخرجه أبو داود (٣٧٧) في الطهارة: باب بول الصبي يصيب الثوب، وابن ماجه (٥٢٢) في الطهارة: باب ما جاء في بول الصبي. وحديث نضح بول الغلام الذي لم يأكل غير لبن أمه. أخرجه البخاري أيضاً في كتاب «الوضوء»: باب بول الصبيان، ومسلم (٢٨٧) في الطهارة: باب حكم بول الطفل الرضيع.

(٦) أخرجه البخاري (٥١٦) في كتاب الصلاة: باب إذا حمل جارية صغيرة على عنقه في الصلاة من حديث أبي قتادة أن رسول الله ﷺ كان يصلي وهو حامل أمامة بنت زينب بنت رسول الله ﷺ فإذا سجد وضعها، وإذا قام حملها، وأخرجه أبو داود والنسائي.

(٧) يشير إلى ما رواه الدارقطني عن ابن عمر (١ /٢٦)، قال: خرج رسول الله ﷺ في =

«يا صاحب الماء لا تخبره». وقد صافح رسول الله ﷺ الأعراب، وركب الحمار معروريأ[1]، وما عرف من خلقه التعبد بكثرة الماء، وتوضأ من سقاية[2] المسجد.

ومعلوم حال الأعراب الذين يأتي أحدهم من البادية كأنه بهيمة، أو ما سمعت أن أحدهم أقدم على البول في المسجد، كل ذلك لتعليمنا وإعلامنا أن الماء على أصل الطهارة، وتوضأ من غدير كأنَّ ماءه نقاعة الحناء[3]. فأمَّا قوله: «استنزهوا من البول[4]»، فإن للتنزه حداً معلوماً، وهو أن لا يغفل عن محل قد أصابه حتى يتبعه الماء.

تلبيسه عليهم في الأذان

ومن ذلك التلحين في الأذان، وقد كرهه مالك بن أنس وغيره من العلماء كراهية شديدة، لأنه يخرجه عن موضع التعظيم إلى مشابهة الغناء. ومنه أنهم يخلطون أذان الفجر بالتذكير والتسبيح والمواعظ، ويجعلون الأذان

= بعض أسفاره ليلاً، فمروا على رجل جالس عند مقراة له، فقال عمر: أولغت السباع عليك الليلة في مقراتك؟ فقال النبي ﷺ: «يا صاحب المقراة لا تخبره هذا متكلف، لها ما حملت في بطونها ولنا ما بقي شراب وطهور». والمقراة: الحوض الذي يجتمع فيه الماء. وفي الباب ما يقوي الحديث.

(١) اعرورى الفرس: ركبه عرياناً: أي دون سرج.

(٢) السقاية: الإناء يسقى به.

(٣) الغدير: القطعة من الماء يغادرها السيل. ونقاعة الحنّاء: الماء الذي يُنقع فيه الحنّاء. وقد ورد في الترمذي (٦٦) في الطهارة: باب الماء لا ينجسه شيء، وأن النبي ﷺ سئل: أنتوضأ من بئر بضاعة ــ وهي بئر يلقى فيها الحيض ولحوم الكلاب والنتن ــ فقال: «إن الماء طهور لا ينجسه شيء». وقد حسنه الترمذي. وبضاعة: دار بني سعد بالمدينة. والْحِيض: جمع حِيضة، وهي الخرقة التي تُستعمل في دم الحيض. والنّتن: الشيء المنتن.

(٤) يشير إلى ما رواه الدارقطني (١٢٧/١) من حديث قتادة عن أنس مرفوعاً: «تنزهوا من البول فإن عامَّة عذاب القبر منه». قال الدارقطني: مرسل. وقال الذهبي: سنده وسط.

وسطاً فيختلط. وقد كره العلماء كل ما يضاف إلى الأذان. وقد رأينا من يقوم بالليل كثيراً على المنارة فيعظ ويذكر. ومنهم من يقرأ سوراً من القرآن بصوت مرتفع فيمنع الناس من نومهم، ويخلط على المتهجدين قراءتهم، وكل ذلك من المنكرات.

تلبيسه عليهم في الصلاة

فمن ذلك تلبيسه عليهم في الثياب التي يستتر بها، فترى أحدهم يغسل الثوب مراراً. ومنهم من يغسل ثيابه في دجلة لا يرى غسلها في البيت يجزيء[1]، وما كانت الصحابة تعمل هذا، بل قد صلُّوا في ثياب فارس لمَّا فتحوها، واستعملوا أوطئتهم[2] وأكسيتهم.

ومن الموسوسين من يقطر عليه قطرة ماء فيغسل الثوب كله، وربما تأخر لذلك عن صلاة الجماعة. ومنهم من ترك الصلاة جماعة لأجل مطر يسير يخاف أن ينتضح[3] عليه. ولا يظن ظانّ أنني أمنع من النظافة والورع، ولكن المبالغة الخارجة عن حد الشرع المضيعة للزمان هي التي ننهى عنها.

ومن ذلك تلبيسه عليهم في نية الصلاة: فمنهم من يقول: أصلي صلاة كذا، ثم يعيد هذا ظناً منه أنه قد نقض النية، والنية لا تنقض. ومنهم من يكبِّر ثم ينقض، ثم يكبِّر ثم ينقض، فإذا ركع الإمام كبَّر الموسوس وركع معه. فليت شعري ما الذي أحضر النية حينئذٍ، وما ذاك إلَّا لأن إبليس أراد أن يفوته الفضيلة. والشريعة سمحة سهلة سليمة من هذه الآفات، وما جرى لرسول الله ﷺ، ولا لأصحابه شيء من هذا. وقد بلغنا عن أبي حازم أنه دخل المسجد فوسوس إليه إبليس أنك تصلي بغير وضوء، فقال: ما بلغ نصحك إلى هذا.

---

(١) أي يكفي.
(٢) الوطاء: ما تفترشه، وهو خلاف الغطاء.
(٣) انتضح الماء عليه: ترشش.

وكشف هذا التلبيس أن يقال للموسوس: إن كنت تريد إحضار النية، فالنية حاضرة، لأنك قمت لتؤدي الفريضة، وهذه هي النية، ومحلها القلب لا اللفظ، وإن كنت تريد تصحيح اللفظ فاللفظ لا يجب، ثم قد قلته صحيحاً، فما وجه الإعادة؟ افتراك تظن ـ وقد قلت ـ إنك ما قلت، هذا مرض.

قال المصنف: وقد حكى لي بعض الأشياخ عن ابن عقيل حكاية عجيبة أن رجلاً لقيه، فقال: إني أغسل العضو وأقول ما غسلته، وأكبر وأقول ما كبرت، فقال له ابن عقيل: دع الصلاة فإنها ما تجب عليك، فقال قوم لابن عقيل: كيف تقول هذا؟ فقال لهم: قال النبي ﷺ: «رفعَ القلمُ عن المجنون حتى يفيق»(١). ومن يكبِّر ويقول: ما كبَّرت فليس بعاقل، والمجنون لا تجب الصلاة عليه.

قال المصنف: واعلم أن الوسوسة في نية الصلاة سببها خبل في العقل وجهل بالشرع. ومعلوم أن من دخل عليه عالِم فقام له وقال: نويت أن أنتصب قائماً تعظيماً لدخول هذا العالِم لأجل علمه مقبلاً عليه بوجهي سفه في عقله، فإن هذا قد تصور في ذهنه منذ رأى العالِم. فقيام الإنسان إلى الصلاة ليؤدي الفرض أمر يتصور في النفس في حالة واحدة لا يطول زمانه، وإنما يطول زمان نظم الألفاظ، والألفاظ لا تلزم، والوسواس جهل محض. وإن الموسوس يكلِّف نفسه أن يحضر في قلبه الظهرية والأدائية والفرضية في حالة واحدة مفصلة بألفاظها، وهو يطالعها، وذلك محال. ولو كلف نفسه ذلك في القيام للعالم لتعذر عليه، فمن عرف هذا عرف النية. ثم إنه يجوز تقديمها

---

(١) رواه أبو داود (٤٤٠١) في الحدود: باب في المجنون يسرق أو يصيب حدّاً، والترمذي (١٤٢٣) في الحدود: باب ما جاء فيمن لا يجب عليه الحدّ. وذكره البخاري موقوفاً على علي في الحدود: باب رقم (٢٢) لا يرجم المجنون والمجنونة، ولفظ الترمذي: «رفع القلم عن ثلاثة: عن النائم حتى يستيقظ، وعن الصبي حتي يشبّ، وعن المعتوه حتى يعقل»، وهو حديث صحيح.

على التكبير بزمان يسير ما لم يفسخها. فما وجه هذا التعب في إلصاقها بالتكبير، على أنه إذا حصلها ولم يفسخها فقد التصقت بالتكبير.

وعن مسور، قال: اخرج إلي معن بن عبد الرحمن كتاباً وحلف بالله أنه خط أبيه، وإذا فيه قال عبد الله: والذي لا إله غيره ما رأيت أحداً كان أشد على المتنطعين من رسول الله ﷺ، ولا رأيت بعده أشد خوفاً عليهم من أبي بكر، وإني لأظن عمر كان أشد أهل الأرض خوفاً عليهم.

ومن الموسوسين مَنْ إذا صحت له النيَّة وكبَّر ذهل عن باقي صلاته، كأن المقصود من الصلاة التكبير فقط. وهذا تلبيس يكشفه أن التكبير يراد للدخول في العبادة. فكيف تهمل العبادة وهي كالدار، ويقتصر على التشاغل بحفظ الباب.

ومن الموسوسين من تصح له التكبيرة خلف الإمام، وقد بقي من الركعة يسير، فيستفتح ويستعيذ فيركع الإمام. وهذا تلبيس أيضاً لأن الذي شرع فيه من التعوذ والاستفتاح مسنون، والذي تركه من قراءة الفاتحة لازم للمأموم عند جماعة من العلماء، فلا ينبغي أن يقدم عليه سنَّة.

وقد لبس إبليس على قوم، فتركوا كثيراً من السنن لواقعات وقعت لهم: فمنهم من كان يتخلف عن الصف الأول، ويقول: إنَّما أراد قرب القلوب. ومنهم من لم يضع يداً على يد في الصلاة، وقال: أكره أن أظهر من الخشوع ما ليس في قلبي. وقد روينا هذين الفعلين عن بعض أكابر الصالحين، وهذا أمر أوجبه قلة العلم. ففي «الصحيحين» من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، أنه قال: «لو يَعلمُ النَّاسُ ما لهمْ في النِّداءِ والصَّفِ الأولِ ثُمَّ لمْ يَجِدُوا إلَّا أن يَستهمُوا عليه لاسْتهمُوا»(١). وفي أفراد مسلم من حديثه عن النبي ﷺ، أنه قال: «خيرُ صفوفِ الرِّجالِ أوَلُها وشرُّها آخرها»(٢).

---

(١) أخرجه البخاري (٦٥٣) في كتاب «الأذان»، ومسلم (٤٣٧) في الصلاة.

(٢) أخرجه مسلم (٤٤٠) في الصلاة، وأبو داود (٦٧٨) في الصلاة، والنسائي (٢/٩٣) في الإمامة.

وأما وضع اليد على اليد فسنَّة. روى أبو داود في «سننه» أن ابن الزبير قال: وضع اليد على اليد من السنَّة. وأن ابن مسعود كان يصلي فوضع يده اليسرى على اليمنى، فرآه النبي ﷺ، فوضع اليمنى على اليسرى[1].

قال المصنِّف: ولا يكبرن عليك إنكارنا على من قال: أراد قرب القلوب، ولا أضع يداً على يد، وإن كان من الأكابر، فإن الشرع هو المنكِر لا نحن. وقد قيل لأحمد بن حنبل رحمة الله عليه: إن ابن المبارك يقول: كذا وكذا، فقال: إن ابن المبارك لم ينزل من السماء. وقيل له: قال إبراهيم بن أدهم، فقال: جئتموني ببنيات[2] الطريق، عليكم بالأصل. فلا ينبغي أن يترك الشرع لقول معظم في النفس. فإن الشرع أعظم، والخطأ في التأويل على الناس يجري. ومن الجائز أن تكون الأحاديث لم تبلغه.

وقد لبس إبليس على بعض المصلِّين في مخارج الحروف، فتراه يقول: الحمد، الحمد. فيخرج بإعادة الكلمة عن قانون أدب الصلاة. وتارةً يلبس عليه في تحقيق التشديد. وتارةً في إخراج ضاد المغضوب. ولقد رأيت من يقول: المغضوب فيخرج بصاقه مع إخراج الضاد لقوة تشديده، وإنما المراد تحقيق الحرف فحسب. وإبليس يُخرج هؤلاء بالزيادة عن حد التحقيق، ويشغلهم بالمبالغة في الحروف عن فهم التلاوة، وكل هذه الوساوس من إبليس.

وفي أفراد مسلم من حديث عثمان بن أبي العاص، قال: قلت لرسول الله ﷺ: إن الشيطان قد حال بيني وبين صلاتي وقراءتي يلبسها عليّ. فقال رسول الله ﷺ: «ذَاكَ الشيطانُ يقال له: خِنْزَبُ، فإذا أحسستَهُ فتعوَّذْ باللَّهِ منه ثلاثاً واتفلْ عن يسارِكَ». ففعلتُ ذلك فأذهبه الله عني[3].

---

(١) وأخرجه النسائي (١/١٢٦) في الصلاة، وابن ماجه (٨١١) في كتاب إقامة الصلاة. قال ابن حجر في «الفتح»: إسناده حسن.

(٢) **وبُنَيَّات الطريق: هي الطرق الصغار المتشعِّبة من الجادة.**

(٣) أخرجه مسلم (٢٢٠٣) في السلام: باب التعوذ من شيطان الوسوسة في الصلاة.

وقد لبس إبليس على خلق كثير من جهلة المتعبدين، فرأوا أن العبادة هي القيام والقعود فحسب، وهم يدأبون في ذلك، ويخلون في بعض واجباتهم ولا يعلمون، وقد تأملت جماعة يسلِّمون إذا سلَّم الإمام، وقد بقي عليهم من التشهد الواجب شيء، وذلك لا يحمله الإمام عنهم. ولَبَّسَ على آخرين منهم، فهم يطيلون الصلاة، ويكثرون القراءة، ويتركون المسنون في الصلاة، ويرتكبون المكروه فيها. وقد دخلت على بعض المتعبدين، وهو يتنفل بالنهار، ويجهر بالقراءة، فقلت له: إن الجهر بالقراءة بالنهار مكروه، فقال لي: أنا أطرد النوم عني بالجهر، فقلت له: إن السنن لا تترك لأجل سهرك، ومتى غلبك النوم فنم، فإن للنفس عليك حقاً.

وقد لبس إبليس على جماعة من المتعبدين، فأكثروا من صلاة الليل، وفيهم من يسهره كله، ويفرح بقيام الليل وصلاة الضحى أكثر مما يفرح بأداء الفرائض، ثم يقع[1] قبيل الفجر فتفوته الفريضة، أو يقوم فيتهيأ لها فتفوته الجماعة، أو يصبح كسلان فلا يقدر على الكسب لعائلته. ولقد رأيت شيخاً من المتعبدين، يقال له حسين القزويني، يمشي كثيراً من النهار في جامع المنصور، فسألت عن سبب مشيه، فقيل لي: لئلا ينام. فقلت: هذا جهل بمقتضى الشرع والعقل.

أمَّا الشرع فإن النبي ﷺ قال: «إنَّ لنفسِكَ عليكَ حقاً فقمْ ونمْ»[2]، وكان يقول: «عليكمْ هدياً قصداً فإنهُ من يُشادِدْ هذا الدِّينَ يَغلبُهُ»[3]. وعن أنس بن

---

(١) يقصد أنه ينام.

(٢) أخرجه البخاري (١١٥٣) في كتاب «التهجد»، وأبو داود (١٣٦٩) في أبواب قيام الليل.

(٣) أخرجه البخاري (٦٤٦٣) في الرقاق، ومسلم (٢٨١٦) في المنافقين، والنسائي (١٢١/٨) واللفظ له عن أبي هريرة قال قال. رسول الله ﷺ «إنَّ هذا الدين يُسرٌ، ولنْ يشادَّ الدينَ أحدٌ إلَّا غلبة، فسددوا وقاربوا وأبشروا ويسروا واستعينوا بالغدوة والروحة وشيء من الدُّلجَةِ». لن يشاد الدين: لن يغالبه. الغدوة: ما بين طلوع الصبح وطلوع الشمس. الروحة: ما بين زوال الشمس إلى الليل. الدُّلجة: سير الليل والمراد به العمل في الليل.

مالك، قال: دخل رسول الله ﷺ المسجد وحبل ممدود بين ساريتين، فقال: «ما هذا؟ قالوا: لزينب تُصلي فإذا كَسِلتْ أو فترتْ أمسكَتْ بِهِ، فقال: حُلُّوهُ، ثم قال: لِيصَّلِ أحدُكُمْ نشاطَهُ، فإذا كَسِلَ أو فَتَرَ فليقعدْ»(١). وعن عائشة، قالت: قال رسول الله ﷺ: «إذا نَعَس أحدُكم فَلْيَرقدْ حتى يذهبَ عنه النومُ، فإنهُ إذا صلَّى وهو ينعسُ لعلهُ يذهبُ ليستغفرَ فيذهبُّ فيسبَّ نفسَهُ»(٢).

وأما العقل فإن النوم يجدد القوى التي قد كلَّت بالسهر، فمتى دفعه الإنسان وقت الحاجة إليه أثر في بدنه وعقله، فنعوذ بالله من الجهل.

فإن قال قائل: فقد رويت لنا أن جماعة من السلف كانوا يحيون الليل. فالجواب: أولئك تدرجوا حتى قدروا على ذلك، وكانوا على ثقة من حفظ صلاة الفجر في الجماعة، وكانوا يستعينون بالقائلة(٣) مع قلة المطعم، وصح لهم ذلك. ثم لم يبلغنا أن رسول الله ﷺ سهر ليلة لم ينم فيها، فسنَّته هي المتبوعة.

وقد لبس إبليس على جماعة من قوام الليل، فتحدثوا بذلك بالنهار. فربما قال أحدهم: فلان المؤذن أذن بوقت ليعلم الناس أنه كان منتبهاً. فأقل ما في هذا إن سلم من الرياء أن ينقل من ديوان السر إلى ديوان العلانية، فيقل الثواب.

---

(١) أخرجه البخارى (١١٥٠) فى كتاب «التهجد».

(٢) أخرجه البخاري (٢١٢) في الوضوء، ومسلم (٧٨٦) في صلاة المسافرين. وفي هذه الأحاديث الحث على الاقتصاد في العبادة. والنهي عن التعمق فيها، والأمر بالإقبال عليها بنشاط. وفيها إزاله المنكر باليد واللسان، وجواز تنفل النساء في المسجد. قال عليه الصلاة والسلام «عليكم من الأعمال ما تطيقون، فإن الله لا يمل حتى تملوا، وإن أحب الأعمال إلى الله ما دووِم عليه». أخرجه مسلم (٧٨٢) في صلاة المسافرين. قالت عائشة: وكان آل محمد ﷺ إذا عملوا عملاً أثبتوه. ومعنى لا يمل حتى تملوا: أي لا يقطع عنكم الثواب حتى تقطعوا العمل وتتركوه.

(٣) القائلة: النوم في الظهيرة، وقد تطلق على الاستراحة في الظهيرة وإن لم يكن معها نوم.

وقد لبس على آخرين انفردوا في المساجد للصلاة والتعبد، فعرفوا بذلك، واجتمع إليهم ناس فصلُّوا بصلاتهم، وشاع بين الناس حالهم، وذلك من دسائس إبليس، وبه تقوى النفس على التعبد، لعلمها أن ذلك يشيع ويوجب المدح. وعن زيد بن ثابت أن النبي ﷺ، قال: «إنَّ أفضلَ صلاةِ المرءِ في بيتِهِ إلاَّ الصلاةَ المكتوبةَ»[1].

وكان عامر بن عبد قيس يكره أن يروه يصلي، وكان لا يتنفل في المسجد، وكان يصلي كل يوم ألف ركعة. وكان ابن أبي ليلى إذا صلَّى ودخل عليه داخل اضطجع.

وقد لبس على قوم من المتعبدين، وكانوا يبكون والناس حولهم. وهذا قد يقع عليه فلا يمكن دفعه، فمن قدر على ستره فأظهره فقد تعرض للرياء.

وعن عاصم، قال: كان أبو وائل إذا صلَّى في بيته نشج[2] نشيجاً، ولو جعلت له الدنيا على أن يفعله وأحد يراه ما فعله. وقد كان أيوب السختياني إذا غلبه البكاء قام.

وقد لبس على جماعة من المتعبدين فتراهم يصلون الليل والنهار، ولا ينظرون في إصلاح عيب باطن، ولا في مطعم، والنظر في ذلك أولى بهم من كثرة التنفل.

تلبيسه عليهم في قراءة القرآن

وقد لبس على قوم بكثرة التلاوة، فهم يهزون[3] هزاً من غير ترتيل ولا تثبت، وهذه حالة ليست بمحمودة. وقد روي عن جماعة من السلف أنهم كانوا يقرأون القرآن في كل يوم، أو في كل ركعة. وهذا يكون نادراً منهم، ومن

---

(١) أخرجه البخاري (٧٣١) في كتاب الأذان، ومسلم (٧٨١) في كتاب صلاة المسافرين: باب استحباب صلاة النافلة في بيته.

(٢) نشج: غص بالبكاء من غير انتحاب.

(٣) هز به السير: أسرع به.

داوم عليه فإنه وإن كان جائزاً إلاَّ أن الترتيل والتثبت أحب إلى العلماء. وقد قال رسول الله ﷺ: «لا يفقَهُ من قرأ القرآنَ في أقلَ من ثلاثٍ»(١).

قال المصنف: وقد لبس إبليس على قوم من القرَّاء، فهم يقرأون القرآن في منارة المسجد بالليل بالأصوات المجتمعة المرتفعة الجزء والجزأين، فيجمعون بين أذى الناس في منعهم من النوم، وبين التعرض للرياء. ومنهم من يقرأ في مسجده وقت الأذان، لأنه حين اجتماع الناس في المسجد.

قال المصنِّف: ومن أعجب ما رأيت فيهم: أن رجلاً كان يصلي بالناس صلاة الصبح يوم الجمعة، ثم يلتفت فيقرأ المعوذتين، ويدعو دعاء الختمة، ليعلم الناس أنه قد ختمت الختمة. وما هذه طريقة السلف، فإن السلف كانوا يسترون عبادتهم، وكان عمل الربيع بن خُثَيْم كله سراً، فربما دخل عليه الداخل وقد نشر المصحف فيغطيه بثوبه. وكان أحمد بن حنبل يقرأ القرآن كثيراً، ولا يدرى متى يختم.

قال المصنِّف: قد سبق ذكر جملة من تلبيس إبليس على القرَّاء، والله أعلم بالصواب، وهو الموفق.

تلبيسه عليهم في الصوم

قال المصنِّف: وقد لبس على أقوام فحسن لهم الصوم الدائم. وذلك جائز إذا أفطر الإنسان الأيام المحرم صومها: إلاَّ أن الآفة فيه من وجهين:

أحدهما ـ أنه ربما عاد بضعف القوى، فأعجز الإنسان عن الكسب لعائلته، ومنعه من إعفاف زوجته. وفي «الصحيحين» عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن لزوجكَ عليكَ حقاً»(٢)، فكم من فرض يضيع بهذا النفل.

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٩٤٩) في كتاب «القراءات». وأبو داود (١٣٩٠) في كتاب «الصلاة».

(٢) أخرجه البخاري (١٩٧٧) في الصوم وغيره، ومسلم (١١٥٩) في الصيام.

والثاني ـ أنه يفوّت الفضيلَة فإنه قد صح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «أفضلُ الصِّيامِ صيامُ داودَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ، كان يصومُ يوماً ويفطرُ يوماً»(١).

وبالإسناد عن عبد الله بن عمرو، قال: لقيني رسول الله ﷺ، فقال: «ألمْ أحدَّثْ عنكَ أنكَ تقومُ اللَّيلَ، وأنتَ الذي تقول: لأقومنَّ الليلَ ولأصومنَّ النهار»، قال: أحسبه قال: نعم يا رسول اللّه قد قلت ذلك. فقال: «فقمْ ونمْ وصمْ وأفطرْ، وصمْ من كُلِّ شهرٍ ثلاثةَ أيامٍ، ولكَ مثلُ صيامِ الدّهرِ»، قال: قلتُ: يا رسولَ اللّهِ إني أطيقُ أكثرَ من ذلكَ، قالَ: «فصم يوماً وأفطر يومين»، قلت: إني أطيقُ أفضلَ من ذلك، قال: «فصم يوماً وأفطر يوماً وهو أعدل الصومِ وهو صيامُ داودَ عليه السلام»، قلتُ: إني أطيق أفضل من ذلك، فقال رسولُ اللّه ﷺ: «لا أفضلَ من ذلكَ». أخرجاه في «الصحيحين»(٢).

فإن قال قائل: فقد بلغنا عن جماعة من السلف أنهم كانوا يسردون الصوم، فالجواب: أنهم كانوا يقدرون على الجمع بين ذلك وبين القيام بحقوق العائلة، ولعل أكثرهم لم تكن له عائلة ولا حاجة إلى الكسب، ثم إن فيهم من فعل هذا في آخر عمره، على أن قول رسول الله ﷺ: «لا أفضلَ من ذلك»، قطعَ هذا الحديث. وقد داوم جماعة من القدماء على الصوم مع خشونة المطعم وقلته، ومنهم من ذهبت عينه، ومنهم من نشف دماغه، وهذا تفريط في حق النفس الواجب، وحمل عليها ما لا تطيق فلا يجوز.

وقد يشيع عن المتعبد أنه يصوم الدهر فيعلم بشياع ذلك فلا يفطر أصلاً، وإن أفطر أخفى إفطاره لئلا ينكسر جاهه، وهذا من خفيّ الرياء، ولو أراد الإخلاص وستر الحال لأفطر بين يدي من قد علم أنه يصوم، ثم عاد إلى الصوم ولم يعلم به. ومنهم من يخبر بما قد صام، فيقول: اليوم منذ

---

(١) أخرجه البخاري (١٩٧٦) في الصوم وغيره، ومسلم (١١٥٩) في الصيام.
(٢) أخرجه البخاري (١٩٧٥) في الصوم، ومسلم (١١٥٩) في الصيام.

عشرين سنة ما أفطرت، ويلبس عليه بأنك إنما تخبر ليقتدى بك، والله أعلم بالمقاصد. قال سفيان الثوري رضي الله عنه: إن العبد ليعمل العمل في السر، فلا يزال به الشيطان حتى يتحدث به، فينتقل من ديوان السر إلى ديوان العلانية.

وفيهم من عادته صوم الإثنين والخميس، فإذا دعي إلى طعام، قال: اليوم الخميس، ولو قال: أنا صائم كانت محنة، وإنما قوله: اليوم الخميس، معناه: أني أصوم كل خميس. وفي هؤلاء من يرى الناس بعين الاحتقار لكونه صائماً، وهم مفرطون. ومنهم من يلازم الصوم ولا يبالي على ماذا أفطر، ولا يتحاشى في صومه عن غيبة، ولا عن نظرة، ولا عن فضول كلمة، وقد خيل له إبليس أن صومك يدفع إثمك، وكل هذا من التلبيس.

تلبيسه عليهم في الحج

قال المصنِّف: قد يسقط الإنسان الفرض بالحج مرة، ثم يعود لا عن رضى الوالدين، وهذا خطأ. وربما خرج وعليه ديون أو مظالم، وربما خرج للنزهة، وربما حج بمال فيه شبهة. ومنهم من يحب أن يتلقى، ويقال: الحاج. وجمهورهم يضيِّع في الطريق فرائض من الطهارة والصلاة، ويجتمعون حول الكعبة بقلوب دنسة وبواطن غير نقية. وإبليس يريهم صورة الحج فيغرهم. وإنما المراد من الحج القرب بالقلوب لا بالأبدان، وإنما يكون ذلك مع القيام بالتقوى. وكم من قاصد إلى مكة همته عدد حجاته، فيقول: لي عشرون وقفة، وكم من مجاور قد طال مكثه، ولم يشرع في تنقية باطنه، وربما كانت همته متعلقة بفتوح يصل إليه ممن[1] كان، وربما قال: إن لي اليوم عشرين سنة مجاوراً، وكم قد رأيت في طريق مكة من قاصد إلى الحج يضرب رفقاءه[2] على الماء ويضايقهم في الطريق.

---

(١) أي: من أي شخص كان.

(٢) الرفيق: المرافق، وجمعه رفقاء.

وقد لبس إبليس على جماعة من القاصدين إلى مكة، فهم يضيعون الصلوات ويطففون إذا باعوا، ويظنون أن الحج يدفع عنهم. وقد لبس إبليس على قوم منهم فابتدعوا في المناسك ما ليس منها، فرأيت جماعة يتصنعون في إحرامهم فيكشفون عن كتف واحدة، ويبقون في الشمس أياماً فتكشط[1] جلودهم وتنتفخ رؤوسهم، ويتزينون بين الناس بذلك.

وفي أفراد البخاري من حديث ابن عباس رضي الله عنهما: «أن النبيَّ ﷺ رأى رجلاً يطوف بالكعبة بزِمامٍ فقطَعَهُ». وفي لفظ آخر: «رأى رجلاً يقودُ إنساناً بخزامة في أنفه فقطعها بيدِهِ ثُمَّ أمرهُ أنْ يقودَهُ بيدِهِ»[2].

قال المصنِّف: وهذا الحديث يتضمن النهي عن الابتداع في الدين وإن قصدت بذلك الطاعة.

وقد لبس على قوم يدعون التوكل فخرجوا بلا زاد، وظنوا أن هذا هو التوكل وهم على غاية الخطأ. قال رجل للإمام أحمد ابن حنبل رضي الله عنه: أريد أن أخرج إلى مكة على التوكل من غير زاد، فقال له أحمد: فاخرج في غير القافلة، قال: لا إلاَّ معهم، قال: فعلى جراب الناس توكلت، فنسأل الله أن يوفقنا.

تلبيس إبليس على الغزاة

قال المصنِّف: قد لبس إبليس على خلق كثير فخرجوا إلى الجهاد ونيتهم المباهاة والرياء ليقال: فلان غاز، وربما كان المقصود أن يقال: شجاع أو كان طلب الغنيمة، و«إنما الأعمال بالنيَّات».

---

(١) كشط الغضاء عن الشيء: كشفه ونزعه.

(٢) أخرجه البخاري (١٦٢١) في الحج: باب إذا رأى سيراً أو شيئاً يكره في الطواف قطعه. ولفظ البخاري: يطوف بالكعبة بزمام. والزمام: الرسن. والخزامة: حلقة من شعر تجعل في وترة أنف البعير بعد ثقبها يشد بها الزمام.
وإنما قطعه النبي ﷺ لأن القود بالأزمة، إنما يفعل بالبهائم.

وعن أبـي موسى، قال: جاء رجل إلى النبـي ﷺ، فقال: يا رسولَ اللَّهِ أرأيتَ الرجلَ يقاتلُ شجاعـة ويقاتل حميَّة ويقاتلُ رياءَ فأيُّ ذلك في سبيل اللَّهِ؟ فقـال رسول الله ﷺ: «مَنْ قـاتلَ لتكـونَ كلمةُ اللَّهِ هي العُليَـا فهـو في سبيـلِ اللَّهِ». أخرجاه في «الصحيحين»[1].

وعن ابن مسعود رضي الله عنه، قال: إيَّاكُمْ أنْ تَقولوا: مات فلانٌ شهيـداً أو قُتل فلانٌ شهيداً، فإن الرَّجل ليقاتِلُ ليغنَمَ، ويقاتلُ ليُذكَرَ ويُقاتلُ ليُرَى مكانُه.

وبـالإسناد إلى أبـي هـريرة رضي الله عنـه، عن النبـي ﷺ، أنـه قـال: «أولُ النَّاسِ يُقضى فيه يومَ القيامةِ ثلاثةٌ: رجلٌ استشهدَ فأُتيَ بـه فعـرَّفهُ نعمَـهُ فعرفهَا، فقـال: ما عملتَ فيهـا؟ قال: قـاتلتُ فيك حتى قتلتُ، قـال: كذبتَ ولكنك قاتلتَ ليُقال هو جريءٌ فقد قيـل، ثم أمر بـه فسحب على وجهِـهِ حتى أُلقيَ في النـارِ. ورجلٌ تعلَّم العلمَ وعلَّمهُ، وقرأ القرآنَ، فأُتيَ بـه فعـرفـه نعمَـهُ فعـرفها، فقـال: مـا عملتَ فيهـا؟ قـال: تعلمتُ فيـك العلمَ وعلمتُـه وقـرأتُ القرآنَ، فقال: كذبتَ ولكنك تعلمتَ ليقالَ: هو عالم فقد قيل، وقرأتَ القرآنَ ليقـالَ: هو قـارىء فقـد قيـل، ثم أمـر بـه فسحب على وجهِـهِ حتى أُلقيَ في النـارِ. ورجلٌ وسَّـع اللَّهُ عليـه فأعـطاه من أصناف المـالِ كلِّهِ فأُتيُ بـه فعـرفه نعمَه فعرفها، فقال: ما عملتَ فيها؟ فقـال: ما تـركتُ من سبيلٍ أنتَ تحبُّ أن ينفقَ فيها إلاَّ أنفقتُ فيها لك. قال: كذبتَ ولكنك فعلتَ ليقالَ: هو جوادٌ فقد قِيلَ: ثم أمرَ بـهِ فسحِبَ على وجهِهِ حتَّى أُلقيَ في النَّارِ». انفرد بإخراجه مسلم[2].

وعن أبـي حاتم الرازي، قال: سمعت عبدة بن سليمان يقول: كنـا في سـرية مـع عبـد الله بن المبارك في بـلاد الروم، فصـادفنا العـدو، فلمـا التقى الصفان خرج رجل من العدو فدعا إلى البراز، فخرج إليه رجل فـطارده ساعـة

---

(١) أخـرجه البخـاري (٢٨١٠) في الجهاد: بـاب من قاتـل لتكون كلمـة الله هي العليا، ومسلم (١٩٠٤) في الإمـارة: باب من قـاتل لتكـون كلمـة الله هي العليـا.
حميـة: أنفة.

(٢) أخرجه مسلم (١٩٠٥) في الإمارة: باب من قاتل للرياء والسمعة استحق النار.

فطعنه فقتله، ثم آخر فقتله، ثم آخر فقتله، ثم دعا إلى البراز فخرج إليه رجل فطارده ساعة فطعنه الرجل فقتله. فازدحم الناس عليه فكنت فيمن ازدحم عليه، فإذا هو ملثم[1] وجهه بكمه، فأخذت بطرف كمه فمددته فإذا هو عبد الله بن المبارك، فقال: وأنت يا أبا عمرو ممن يشنع[2] علينا.

قلت: فانظروا ــ رحمكم الله ــ إلى هذا السيد المخلص، كيف خاف على إخلاصه برؤية الناس له ومدحهم إياه فسَتَر نفسه، وقد كان إبراهيم بن أدهم يقاتل، فإذا غنموا لم يأخذ شيئاً من الغنيمة ليوفر له الأجر.

وقد لبس إبليس على المجاهد إذا غنم، فربما أخذ من الغنيمة ما ليس له أخذه، فإما أن يكون قليل العلم فيرى أن أموال الكفار مباحة لمن أخذها، ولا يدري أن الغلول من الغنائم مصيبة. وفي «الصحيحين» من حديث أبي هريرة، قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى خيبر ففتح الله علينا، فلم نغنم ذهباً ولا وَرِقاً[3]، غنمنا المتاع والطعام والثياب، ثم انطلقنا إلى الوادي، ومع رسول الله ﷺ عبد له، فلما نزلنا قام عبد رسول الله ﷺ يحل رَحْله[4]، فرمي بسهم، فكان فيه حتفه[5]. فلما قلنا له: هنيئاً له الشهادة يا رسول الله، فقال: «كلاَّ والذي نفسُ محمدٍ بيدِهِ إنَّ الشَّملة[6] لتلتهبُ عليه ناراً أخذَهَا من الْغنائِم يومَ خيبرَ لَمْ تُصبْها الْمقاسمُ»، قال: ففزع الناسُ، فجاء رجل بشراك أو بشراكين[7]، فقال: أصبته يوم خيبر، فقال رسول الله ﷺ:

---

(١) لثم وجهه: غطاه.
(٢) شنع عليه الأمر: قبحه.
(٣) الورق: الدراهم والفضة.
(٤) الرحل: هو مركب الرجل على البعير.
(٥) حتفه: موته.
(٦) الشملة: كساء صغير يؤتزر به.
(٧) الشراك: هو السير المعروف الذي يكون في النعل على ظهر القدم.

شِراكٌ مِنْ نارٍ أو شِراكانِ مِنْ نار»[1] .

وقد يكون الغازي عالِماً بالتحريم، إلَّا أنه يرى الشيء الكثير فلا يصبر عنه. وربما ظن أن جهاده يدفَع عنه ما فعل، وها هنا يتبين أثر الإيمان والعلم. عن أبي عبيدة العنبري، قال: لمَّا هبط المسلمون المدائن[2] وجمعوا الأقباض[3]، أقبل رجل بحق معه، فدفعه إلى صاحب الأقباض، فقال الذين معه: ما رأينا مثل هذا قط، ما يعدله ما عندنا ولا ما يقاربه، فقال له: هل أخذت منه شيئاً؟ فقال: أَمَا والله، لولا الله ما أتيتكم به. فعرفوا أن للرجل شأناً، فقالوا: من أنت؟ فقال: والله لا أخبركم لتحمدوني، ولا أغريكم لتقرظوني[4]، ولكني أحمد الله وأرضى بثوابه. فأتبعوه رجلاً حتى انتهى إلى أصحابه، فسأل عنه، فإذا هو عامر بن عبد قيس.

تلبيسه على الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر

وهم قسمان: عالم، وجاهل. فدخول إبليس على العالم من طريقين:

الطريق الأول ــ التزين بذلك وطلب الذكر والعجب بذلك الفعل.

روينا بإسناد عن أحمد بن أبي الحواري، قال: سمعت أباسليمان، يقول: سمعت أبا جعفر المنصور يبكي في خطبته يوم الجمعة، فاستقبلني الغضب وحضرتني نية أن أقوم فأعظه بما أعرف من فعله إذا نزل، قال: فكرهت أن أقوم إلى خليفة فَأَعِظه والناس جلوس يرمقونني بأبصارهم، فيأمر بي فأُقتلَ، فجلست وسكتّ.

والطريق الثاني ــ الغضب للنفس، وربما كان ابتداء، وربما عرض في حالة الأمر بالمعروف لأجل ما يلقى به المنكِر من الإهانة، فتصير خصومة

---

(١) أخرجه البخاري (٤٢٣٤) في المغازي: باب غزوة خيبر، ومسلم (١١٥) في الإيمان: باب غلظ تحريم الغلول.

(٢) المدائن: مدينة قرب بغداد، كان فيها إيوان كسرى.

(٣) الأقباض: الأموال التي استولوا عليها.

(٤) ولا أغريكم لتقرظوني: ولا أحضكم لتمدحوني.

لنفسه، كما قال عمر بن عبد العزيز لرجل: لولا أني غضبان لعاقبتك، وإنما أراد: أنك أغضبتني، فخفت أن تمتزج العقوبة من غضب لله ولي.

فأما إذا كان الآمر بالمعروف جاهلاً، فإن الشيطان يتلاعب به، وإنما كان إفساده في أمره أكثر من إصلاحه، لأنه ربما نهى عن شيء جائز بالإجماع، وربما أنكر ما تأول فيه صاحبه وتبع فيه بعض المذاهب، وربما كسر الباب وتسور الحيطان وضرب أهل المنكر وقذفهم، فإن أجابوه بكلمة تصعب عليه صار غضبه لنفسه، وربما كشف ما قد أمر الشرع بستره. وقد سئل أحمد بن حنبل عن القوم يكون معهم المنكر مغطى، مثل طنبور ومسكر، قال: إذا كان مغطى فلا تكسره. وقال في رواية أخرى: اكسره. وهذا محمول على أنه يكون مغطى بشيء خفيف يصفه فيتبين، والأولى على أنه لا يتبين.

وسئل عن الرجل يسمع صوت الطبل والمزمار ولا يعرف مكانه، فقال: ولا عليك ما غاب عنك، فلا تفتش. وربما رفع هذا المنكر أهل المنكر إلى من يظلمهم. وقد قال أحمد ابن حنبل: إن علمت أن السلطان يقيم الحدود فارفع إليه.

ومن تلبيس إبليس على المنكِر: أنه إذا أنكر جلس في مجمع يصف ما فعل ويتباهى به، ويسب أصحاب المنكر سبّ الحنق عليهم ويلعنهم. ولعل القوم قد تابوا، وربما كانوا خيراً منه، لندمهم وكبره، ويندرج في ضمن حديثه كشف عورات المسلمين، لأنه يُعلم من لا يَعلم، والستر على المسلم واجب مهما أمكن. وسمعت عن بعض الجهلة بالإنكار أنه يهجم على قوم ما[1] يتيقن ما عندهم، ويضربهم الضرب المبرح، ويكسر الأواني. وكل هذا يوجبه الجهل. فأمّا العالم إذا أنكر فأنت منه على أمان. وقد كان السلف يتلطفون في الإنكار. ورأى صلة بن أشيم رجلاً يكلم امرأة، فقال: إن الله يراكما،

(١) أي دون أن يتيقن ويتثبت.

سترنا الله وإياكما. وكان يمر بقوم يلعبون، فيقول: يا إخواني ما تقولون فيمن أراد سفراً فنام طول الليل ولعب طول النهار؛ متى يقطع سفره؟ فانتبه رجل منهم، فقال: يا قوم إنما يعنينا هذا، فتاب وصحبه.

وأولى الناس بالتطلف في الإنكار على الأمراء، فيصلح أن يقال لهم: إن الله قد رفعكم فاعرفوا قدر نعمته، فإن النعم تدوم بالشكر، فلا يحسن أن تقابَل بالمعاصي.

وقد لبس إبليس على بعض المتعبدين، فيرى منكراً فلا ينكره، ويقول: إنما يأمر وينهى من قد صلح، وأنا لست بصالح، فكيف آمر غيري، وهذا غلط، لأنه يجب عليه أن يأمر وينهى، ولو كانت تلك المعصية فيه. إلاَّ أنه متى أنكر متنزهاً عن المنكر أثر إنكاره، وإذا لم يكن متنزهاً لم يكد يعمل إنكاره، فينبغي للمنكر أن ينزه نفسه ليؤثر إنكاره.

قال ابن عقيل: رأينا في زماننا أبا بكر الإقفالي في أيام (القائم)[1] إذا نهض لإنكار منكر استتبع معه مشايخ لا يأكلون إلاَّ من صنعة أيديهم: كأبي بكر الخبَّاز، شيخ صالح أضر[2] من اطلاعه في التنور، وتبعه جماعة ما فيهم من يأخذ صدقة، ولا يدنس بقبول عطاء، صوام النهار قوام الليل أرباب بكاء، فإذا تبعه مخلط[3] ردَّه وقال: متى لقينا الجيش بمخلط انهزم الجيش.

* * *

(١) الخليفة أبو جعفر عبد الله بن القادر بالله. أحمد بن إسحاق بن المقتدر جعفر العباسي البغدادي، بُويِع له بالخلافة في ذي الحجة سنة اثنتين وعشرين وأربع مئة.

(٢) أي صار ضريراً.

(٣) خلط الشيء بالشيء: ضمه إليه ومزجه به، والمخلط: الذي يمزج عملاً صالحاً وآخر سيئاً.

الباب التاسع

في ذكر تلبيس إبليس على الزهاد والعباد

قد يسمع العامي ذمّ الدنيا في القرآن المجيد والأحاديث، فيرى أن النجاة تركها، ولا يدري ما الدنيا المذمومة، فيلبس عليه إبليس: بأنك لا تنجو في الآخرة إلّا بترك الدنيا. فيخرج على وجهه إلى الجبال، فيبعد عن الجمعة والجماعة والعلم، ويصير كالوحش، ويخيل إليه أن هذا هو الزهد الحقيقي. كيف لا، وقد سمع عن فلان أنه هام على وجهه، وعن فلان أنه تعبَّد في جبل. وربما كانت له عائلة فضاعت. أو والدة فبكت لفراقه، وربما لم يعرف أركان الصلاة كما ينبغي، وربما كانت عليه مظالم لم يخرج[1] منها، وإنما يتمكن إبليس من التلبيس على هذا لقلّة علمه، ومن جهله رضاه عن نفسه بما يعلم، ولو أنه وفق لصحبة فقيه يفهم الحقائق لعرَّفه أن الدنيا لا تذم لذاتها، وكيف يذم ما مَنَّ الله تعالى به، وما هو ضرورة في بقاء الآدمي، وسبب في إعانته على تحصيل العلم والعبادة من مطعم ومشرب ومَلبس ومسجد يصلي فيه، وإنما المذموم أخذ الشيء من غير حله، أو تناوله على وجه السرف[2] لا على مقدار الحاجة. وأن الخروج إلى الجبال المنفردة منهي عنه، فإن النبي ﷺ نهى أن يبيت الرجل وحده[3] وأن التعرض لتركه الجماعة والجمعة خسران لا ربح، والبعد عن العلم والعلماء يقوي سلطان الجهل،

(١) لم يقضها، ويخرج من مسؤوليتها.

(٢) السرف: تجاوز الحد والاعتدال.

(٣) رواه أحمد (٢/٩١) عن ابن عمر بلفظ «نهى عن الوحدة أن يبيت الرجل وحده». قال الهيثمي: رجاله رجال الصحيح.

وفراق الوالد والوالدة في مثل هذا عقوق، والعقوق من الكبائر. وأما من سمع عنه أنه خرج إلى جبل فأحوالهم تحتمل أنهم لم يكن لهم عيال ولا والد ولا والدة، فخرجوا إلى مكان يتعبدون فيه مجتمعين، ومن لم يحتمل حالهم وجهاً صحيحاً فهم على الخطأ من كانوا: وقد قال بعض السلف: خرجنا إلى جبل نتعبد فجاءنا سفيان الثوري فردّنا.

ومن تلبيسه على الزهاد: إعراضهم عن العلم شغلاً بالزهد، فقد استبدلوا الذي هو أدنى بالذي هو خير، وبيان ذلك أن الزاهد لا يتعدى نفعه عتبة بابه، والعالم نفعه متعد[1]. وكم قد ردّ إلى الصواب من متعبد.

ومن تلبيسه عليهم: أنه يوهمهم أن الزهد ترك المباحات، فمنهم من لا يزيد على خبز الشعير. ومنهم من لا يذوق الفاكهة. ومنهم من يقلل المطعم حتى ييبس[2] بدنه، ويعذب نفسه بلبس الصوف، ويمنعها الماء البارد. . وما هذه طريقة رسول الله ﷺ، ولا طريق أصحابه وأتباعهم؛ وإنما كانوا يجوعون إذا لم يجدوا شيئاً، فإذا وجدوا أكلوا. وقد كان رسول الله ﷺ يأكل اللحم ويحبه، ويأكل الدجاج، ويحب الحلوى، ويستعذب له الماء البارد، ويختار الماء البائت، فإن الماء الجاري يؤذي المعدة ولا يروي.

وقد كان رجل يقول: أنا لا آكل الخبيص لأني لا أقوم بشكره، فقال الحسن البصري: هذا رجل أحمق، وهل يقوم بشكر الماء البارد. وقد كان سفيان الثوري إذا سافر حمل في سفرته اللحم المشوي والفالوذج[4]. وينبغي للإنسان أن يعلم أن نفسه مطيته[5]، ولا بد من الرفق بها ليصل بها إلى

---

(١) أي يتعداه إلى غيره ويتجاوزه.
(٢) أي يجف وتذهب رطوبته.
(٣) الخبيص: حلواء تصنع بالتمر والسمن.
(٤) حلواء تصنع من الدقيق والماء والعسل. وقال في «مختار الصحاح»، الفالُوذ، والفالوذَق معربان، قال يعقوب: ولا تقل: فالوذج.
(٥) المطية: الدابة التي تركب ويستوي فيها المذكر والمؤنث، فالبعير مطية، والناقة مطية.

المقصود، فليأخذ ما يصلحها وليترك ما يؤذيها من الشبع والإفراط في تناول الشهوات، فإن ذلك يؤذي البدن والدين.

ثم إن الناس يختلفون في طباعهم، فإن الأعراب إذا لبسوا الصوف واقتصروا على شرب اللبن لم نلمهم، لأن مطايا أبدانهم تحمل ذلك. وأهل السواد[1] إذا لبسوا الصوف وأكلوا الكوامخ[2] لم نلمهم أيضاً، ولا نقول في هؤلاء من قد حمل على نفسه، لأن هذه عادة القوم. فأما إذا كان البدن مترفاً قد نشأ على التنعُّم، فإنا ننهى صاحبه أن يحمل عليه ما يؤذيه. فإن تزهَّد وآثر ترك الشهوات: إما لأن الحلال لا يحتمل السرف، أو لأن الطعام اللذيذ يوجب كثرة التناول فيُكثر النوم والكسل، فهذا يحتاج أن يعلم ما يضرّ تركه وما لا يضرّ، فيأخذ قدر القوام من غير أن يؤذي النفس. وقد ظن قوم أن الخبز القفار[3] يكفي في قوام البدن، ولو كفى؛ إلّا أن الاقتصار يؤذي من جهة أن أخلاط البدن تفتقر إلى الحامض والحلو والحار والبارد والممسك والمسهل. وقد جعل في الطبع ميل إلى الملائم، فتارة يميل إلى الحامض، وتارة يميل إلى الحلو. ولذلك أسباب: مثل أن يقل عندها البلغم الذي لا بد في قوامها منه فتشتاق إلى اللبن، ويكثر عندها الصفراء فتميل إلى الحموضة، فمن كفها عن التصرف على مقتضى ما قد وضع في طبعها مما يصلحها، فقد آذاها إلّا أن يكفها عن الشبع والشره وما يُخاف عاقبته، فإن ذلك **يصلحها**. **فأما** الكف المطلق فخطأ.. فافهم هذا.

ولا يلتفت إلى قول الحارث المحاسبي، وأبي طالب المكي فيما ذَكَرا من تقليل **المطعم**، **ومجاهدة** النفس بترك مباحاتها، فإن اتباع الشارع وصحابته أولى.

---

(١) أي أهل الأرياف.

(٢) مفردها كامخ، وهو الإدام. وهي من الكلمات الدخيلة. قال في «مختار الصحاح»: الكامخ: ما يؤتدم به، معرب.

(٣) الخبز القفار: غير المأدوم.

ومن تلبيسه عليهم: أنه يوهمهم أن الزهد هو القناعة بالدون[1] من المطعم والملبس فحسب، فهم يقنعون بذلك وقلوبهم راغبة في الرياسة وطلب الجاه، فتراهم يترصدون لزيارة الأمراء إياهم. ويكرمون الأغنياء دون الفقراء، ويتخاشعون عند لقاء الناس كأنهم قد خرجوا من مشاهدة[2]. وربما ردّ أحدهم المال لئلا يقال: قد بدا له من **الزهد**، وهم من تردد الناس إليهم وتقبيل أيديهم في أوسع باب من ولايات الدنيا، لأن غاية الدنيا الرياسة.

وأكثر ما يلبس به إبليس على العباد والزهاد خفيّ الرياء. وأما الظاهر من الرياء فلا يدخل في **التلبيس، مثل إظهار** النحول وصفار الوجه وشعث[3] الشعر ليستدل به على الزهد. وكذلك خفض الصوت لإظهار الخشوع. وكذلك الرياء بالصلاة والصدقة. ومثل هذه الظواهر لا تخفى، وإنما نشير إلى خفي الرياء، وقد قال النبي ﷺ: «إنما الأعمال بالنيات»[4]. ومتى لم يرد بالعمل وجه الله عز وجل لم يقبل. قال مالك بن دينار: قولوا لمن لم يكن صادقاً: لا تتعب.

واعلم أن المؤمن لا يريد بعمله إلاَّ الله سبحانه تعالى، وإنما يدخل عليه خفي الرياء، فيلبس الأمر، **فنجاته** منه صعبة. وعن يسار قال: قال لي يوسف بن أسباط: تعلَّموا صحة العمل من سقمه، فإني تعلمته في اثنتين وعشرين سنة.

ولخوف الرياء ستر الصالحون أعمالهم حذراً عليها وبهرجوها بضدها، فكان ابن سيرين يضحك بالنهار ويبكي بالليل، وكان في ذيل أيوب السختياني

---

(١) الحقير الخسيس.

(٢) المشاهدة: المعاينة.

(٣) التلبد، وصاحبه: أشعت.

(٤) أخرجه البخاري (١) في بدء الوحي وغيره، ومسلم (١٩٠٧) في الإمارة: باب قوله ﷺ: «إنما الأعمال بالنيَّات».

بعض الطول[1]، وكان ابن أدهم إذا مرض يرى عنده ما يأكله الاصحاء.

ومن الزهّاد من يستعمل الزهد ظاهراً وباطناً، لكنه قد علم أنه لا بد أن يتحدث بتركه للدنيا أصحابه أو زوجته، فيهون عليه الصبر. ولو أنه أراد الإخلاص في زهده لأكل مع أهله قدر ما ينمحي به جاه النفس، ويقطع الحديث عنه، فقد كان داود بن أبي هند[2]، صام عشرين سنة ولم يعلم به أهله، كان يأخذ غذاءه ويخرج إلى السوق فيتصدق به في الطريق، فأهل السوق يظنون أنه قد أكل في البيت، وأهل البيت يظنون أنه قد أكل في السوق، هكذا كان الناس.

ومن المتزهدين: من انقطع في مسجد أو رباط أو جبل، فلذته علم الناس بانفراده، وربما احتج لانقطاعه بأني أخاف أن أرى في خروجي المنكرات. وله في ذلك مقاصد: منها الكبر واحتقار الناس. ومنها أنه يخاف أن يقصروا في خدمته. ومنها حفظ ناموسه[3] ورياسته، فإن مخالطة الناس تذهب ذلك، وهو يريد أن يبقى اطراؤه وذكره، وربما كان مقصوده ستر عيوبه ومقابحه وجهله بالعلم فيرى هذا، ويجب أن يزار ولا يزور ويفرح بمجيء الأمراء إليه واجتماع العوام على بابه وتقبيلهم يده. فهو يترك عيادة المرضى وشهود الجنائز، ويقول أصحابه: اعذروا الشيخ فهذه عادته، لا كانت عادة تخالف الشريعة. ولو احتاج هذا الشخص إلى القوت ولم يكن عنده من يشتريه له صبر على الجوع، لئلا يخرج لشراء ذلك بنفسه، فيضيع جاهه

---

(١) لأن الشهرة في عصره كانت بتقصير الثوب، لكن بشرط ألا يزيد في طوله حتى يتجاوز الكعبين ففي الحديث الصحيح **الذي رواه أبو داود والنسائي** وابن ماجه عن أبي سعيد الخدري مرفوعاً: «إزرة المؤمن إلى نصف الساق ولا حرج أو ولا جناح فيما بينه وبين **الكعبين، وما** كان أسفل الكعبين فهو في النار. ومن جر ثوبه بطراً لم ينظر الله إليه».

(٢) نسب إلى أبي الحسن محمد النوري كما في شرح الرسالة القشيرية ١/ ١٥٠.

(٣) الناموس: بيت الراهب، أو الغرفة التي يكمن فيها الصائد للصيد، والناموس: صاحب السر المطلع على باطن أمرك، والناموس: المكر والخداع.

لمشيه بين العوام. ولو أنه خرج فاشترى حاجتـه، لانقطعت عنه الشهرة، ولكن في بـاطنه حفظ النـاموس، وكـان رسول الله ﷺ يخـرج إلى السـوق ويشتـري حاجته ويحملها بنفسه. وكان أبو بكـر رضي الله عنه يحمـل الثياب على كتفـه فيبيـع ويشتـري. والحديث بـإسنـاد عن محمـد بن القـاسم، قـال: روي عن عبد الله بن حنظلة، قال: مرَّ عبد الله بن سلام وعلى رأسه حزمة حطب، فقـال له ناس: ما يحملك على هذا وقد أغناك الله؟ قال: أردت أن أدفـع به الكبـر، وذلك أني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يدخـل الجنة عبـد في قلبه مثقـال ذرة من الكبر»[1].

قال المصنف: وهذا الذي ذكرته من الخروج لشراء الحاجة ونحوها من التبذل، كان عادة السلف القدماء، وقد تغيرت تلك العادة كما تغيرت الأحوال والملابس، فلا أرى للعـالم أن يخرج اليـوم لشراء حـاجته، لأن ذلـك يكشف نور العلم عند الجهلة، وتعظيمه عندهم مشروع، ومراعاة قلوبهم في مثل هذا لا يخرج إلى الـرياء، واستعمـال ما يـوجب الهيبة في القلوب لا يمنـع منـه. وليس كل ما كان في السلف مما لا يتغير به قلوب الناس يومئذ ينبغي أن يفعل اليوم.

قال الأوزاعي: كنا نضحك ونمزح، فإذا صرنا يقتدى بنـا فلا أرى ذلـك يسعنا[2]. وقد روينا عن إبراهيم بن أدهم أن أصحابه كانـوا يومـاً يتمازحـون، فدق رجل الباب فأمرهم بالسكوت والسكون، فقالوا له: تعلمنا الرياء؟ فقـال: إني أكره أن يعصى[3] الله فيكم.

ومن هؤلاء قـوم لو سئـل أحدهم أن يلبس اللين من ثـوبه مـا فعـل لئـلاّ يتوكس[4] جاهه في الزهد، ولو خرجت روحه لا يأكل والنـاس يرونـه، ويحفظ نفسه من التبسم فضلاً عن الضحـك، ويوهمـه إبليس أن هذا لإصـلاح الخلق

---

(١) أخـرجه مسلم (٩١) في الإيمـان: باب تحـريم الكبر، والتـرمذي (١٩٩٩) في البـر والصلة، باب ما جاء في الكبر.

(٢) أي لا يجوز لنـا أن نفعله.

(٣) وذلك بأن يغتابهم الداخل فيعصى الله بسببهم.

(٤) وكس الشيء: نقص. ووكس التاجر: خسر في تجارته.

وإنما هو رياء يحفظ به قانون الناموس، فتراه مطأطىء الرأس، عليه آثار الحزن، فإذا خلا رأيته ليث شرى[1].

ومن الزهاد من يلبس الثوب المخرق[2] ولا يخيطه، ويترك إصلاح عمامته وتسريح لحيته ليرى أنه ما عنده من الدنيا خير. وهذا من أبواب الرياء، فإن كان صادقاً في إعراضه عن أغراضه ـ كما قيل لداود الطائي: ألا تسرح لحيتك؟ فقال: إني عنها لمشغول ـ فليعلم أنه سلك غير الجادة. إذ ليست هذه طريقة الرسول ﷺ ولا أصحابه، فإنه كان يسرِّح شعره وينظر في المرآة ويدَّهِن ويتطيب. وكان أبو بكر وعمر رضي الله عنهما يخضبان بالحناء والكَتَم[3] وهما أخوف الصحابة وأزهدهم. فمن ادعى رتبة تزيد على السنة وأفعال الأكابر لم يلتفت إليه[4].

ومن الزهاد من يلزم الصمت الدائم، وينفرد عن مخالطة أهله فيؤذيهم بقبح أخلاقه وزيادة انقباضه، وينسى قول النبي ﷺ: «إنَّ لأهلكَ عليك حقاً»[5]. وقد كان رسول الله ﷺ يمزح ويلاعب الأطفال ويحدث أزواجه،

---

(١) الليث: الأسد. والشرى: موضع تنسب إليه الأسود، يقال: هم أسد الشرى: أي أشداء شجعان.
(٢) الممزق.
(٣) الكَتَم: نبات يخضب به الشعر.
(٤) في «شمائل» الترمذي (٣٢) عن أنس، قال: كان رسول الله ﷺ يكثر دهن رأسه، وتسريح لحيته. وعن رجل من أصحاب النبي ﷺ. أن النبي ﷺ كان يترجل غباً. «الشمائل» (٣٥) أي يسرح يوماً، ويتركه يوماً، وقال أنس: كان النبي ﷺ لا يردّ الطيب. «الشمائل» (٢١٩)، وقال أيضاً: كان لرسول الله ﷺ سُكَّة يتطيب منها. «الشمائل»(٢١٨). والسكة: طيب أسود يخلط بالمسك. وهذا كله يدل على اهتمام النبي ﷺ بحسن مظهره: روى جابر أن النبي ﷺ رأى رجلاً شعثاً قد تفرق شعره، فقال: «أما كان يجد هذا ما يسكن به شعره»، ورأى رجلاً آخر وعليه ثياب وسخة فقال: «أما كان يجد ماء يغسل ثوبه»، أخرجه أبو داود (٤٠٦٢) باب في غسل الثوب.
(٥) أخرجه البخاري (١٩٧٧) في الصوم وغيره. ومسلم (١١٥٩) في الصيام.

وسابق عائشة إلى غير ذلك من الأخلاق اللطيفة، فهذا المتزهد الجاعل زوجته كالأيم[1] وولده كاليتيم لانفراده عنهم وقبح أخلاقه، لأنه يرى أن ذلك يشغله عن الآخرة، ولا يدري لقلة علمه أن الانبساط إلى الأهل من العون على الآخرة، وفي «الصحيحين» أن النبي ﷺ قال لجابر: «هَلّا تَزوجْتَ بكْراً تُلاعبُها وتلاعبُكَ»[2].

ومن تلبيس أبليس على قوم من الزهاد: دخل عليهم فيه من قلة العلم أنهم يعملون بواقعاتهم[3]، ولا يلتفتون إلى قول الفقيه، قال ابن عقيل: كان أبو إسحاق الخراز صالحاً، وهو أول من لقنني كتاب الله، وكان من عادته الإمساك عن الكلام في شهر رمضان، فكان يخاطب بآي القرآن فيما يعرض له من الحوائج، فيقول في إذنه: ﴿أدخُلُوا عليهِمُ البابَ﴾[4]، ويقول لابنه في عشية الصوم: ﴿مِنْ بقلِهَا وقِثائِهَا﴾[5] آمراً له أن يشتري البقل، فقلت له: هذا الذي تعتقده عبادة هو معصية، فصعب عليه، فقلت: إن هذا القرآن العزيز أنزل في بيان أحكام شرعية، فلا يستعمل في أغراض دنيوية، وما هذا إلّا بمثابة صرك[6] السدر[7] والأشنان[8] في ورق المصحف أو توسدك[9] له. فهجرني ولم يصغ إلى الحجة.

ومن تلبيسه على الزهّاد احتقارهم العلماء وذمهم إياهم، فهم يقولون:

---

(١) الأيم: هي المرأة التي فقدت زوجها.
(٢) أخرجه البخاري (٥٠٧٩) في النكاح: باب تزويج الثيبات، ومسلم (٧١٥) في الرضاع: باب استحباب نكاح البكر.
(٣) أي باهوائهم.
(٤) سورة المائدة: الآية ٢٣.
(٥) سورة البقرة: الآية ٦١.
(٦) صر الصرة: ربطها.
(٧) السدر: شجرة النبق.
(٨) الأشنان: ما يغسل به.
(٩) توسد الشيء: نام عليه كالوسادة.

المقصود العمل، ولا يفهمون أن العلم نور القلب. ولو عرفوا مرتبة العلماء في حفظ الشريعة، وأنها مرتبة الأنبياء لعدوا أنفسهم كالبكم عند الفصحاء، والعمي عند البصراء، والعلماء أدله الطريق والخلق وراءهم، وسليم هؤلاء يمشي وحده. وفي «الصحيحين» من حديث سهل بن سعد: أن النبي ﷺ قال لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه: «واللَّهِ لأن يهدي اللَّهُ بك رجلاً واحداً خيرٌ لك من حُمْرِ النَّعم»[1].

ومما يعيبون به العلماء: تفسح العلماء في بعض المباحات التي يتقوون بها على دراسة العلم، وكذلك يعيبون جامع الأموال، ولو فهموا معنى المباح لعلموا أنه لا يذم فاعله، وغاية الأمر أن غيره أولى منه. أفيحسن لمن صلَّى الليل أن يعيب على من أدَّى الفرض ونام.

فالويل للعلماء من الزاهد الجاهل الذي يقتنع بعلمه فيرى النفل فرضاً. فإن الذي أنكره مباح، والمباح مأذون فيه والشرع لا يأذن في شيء ثم يعاتب عليه. فما أقبح الجهل، ولو أنه قال لهم: لو قصرتم فيما أنتم لاقتدى الناس بكم كان أقرب حالة، ولو سمع هذا بأن عبد الرحمٰن بن عوف، والزبير بن العوام، وعبدالله بن مسعود رضوان الله عليهم، وفلاناً وفلاناً من الصحابة خلفوا مالاً عظيماً، أتراه ماذا كان يقول. وقد اشترى تميم الداري حلة بألف درهم، وكان يقوم فيها بالليل، ففرض على الزاهد التعلُّم من العلماء، فإذا لم يتعلم فليسكت. وعن مالك بن دينار رضي الله عنه، قال: إن الشيطان ليلعب بالقراء كما يلعب الصبيان بالجوز. وعن حبيب الفارسي، يقول: والله إن الشيطان ليلعب بالقراء كما يلعب الصبيان بالجوز.

قال المصنف: المراد بالقراء الزهاد، وهذا اسم قديم لهم معروف، والله الموفق للصواب وإليه المراجع والمآب.

* * *

(١) أخرجه البخاري (٣٧٠١) في المناقب، باب مناقب علي بن أبي طالب، ومسلم (٢٤٠٦) في فضائل الصحابة: باب في فضل علي بن أبي طالب.

الباب العاشر

في ذكر تلبيسه على الصوفية من جملة الزهاد

قال المصنف: الصوفية من جملة الزهاد، وقد ذكرنا تلبيس إبليس على الزهاد، إلّا أن الصوفية انفردوا عن الزهاد بصفات وأحوال، وتوسموا بسمات فاحتجنا إلى إفرادهم بالذكر، والتصوف طريقة كان ابتداؤها الزهد الكلي، ثم ترخص المنتسبون إليها بالسماع والرقص، فمال إليهم طلاب الآخرة من العوام لما يظهرونه من التزهد، ومال إليهم طلاب الدنيا لما يرون عندهم من الراحة واللعب. فلا بد من كشف تلبيس إبليس عليهم في طريقة القوم، ولا ينكشف ذلك إلّا بكشف أصل هذه الطريقة وفروعها وشرح أمورها، والله الموفق للصواب.

كانت النسبة في زمن رسول الله ﷺ إلى الإيمان والإسلام، فيقال: مسلم ومؤمن. ثم حدث اسم زاهد وعابد. ثم نشأ أقوام تعلقوا بالزهد والتعبد، فتخلّوا عن الدنيا وانقطعوا إلى العبادة، واتخذوا في ذلك طريقة تفرّدوا بها وأخلاقاً تخلّقوا بها، ورأوا أن أول من انفرد به بخدمة الله سبحانه وتعالى عند بيته الحرام رجل كان يقال له: صُوفة، واسمه الغوث بن مر، فانتسبوا إليه لمشابهتهم إياه في الانقطاع إلى الله سبحانه وتعالى، فسمّوا بالصوفية.

قال عبد الغني بن سعيد الحافظ: سألت وليد بن القاسم إلى أي شيء ينسب الصوفي؟ فقال: كان قوم في الجاهلية يقال لهم: صوفة، انقطعوا إلى الله عز وجل وقطنوا الكعبة، فمن تشبَّه بهم فهم الصوفية.

قال عبد الغني: فهؤلاء المعروفون بصوفة ولد الغوث بن مر.

وقد ذهب قوم إلى أن التصوف منسوب إلى أهل الصفة. وإنما ذهبوا إلى هذا لأنهم رأوا أهل الصفة على ما ذكرنا من صفة صوفة في الانقطاع إلى الله عز وجل وملازمة الفقر، فإن أهل الصفة كانوا فقراء يقدمون على رسول الله ﷺ، وما لهم أهل ولا مال، فبنيت لهم صفة في مسجد رسول الله ﷺ وقيل: أهل الصفة.

قال المصنف: وهؤلاء القوم إنما قعدوا في المسجد ضرورة، وإنما أكلوا من الصدقة ضرورة، فلمّا فتح الله على المسلمين استغنوا عن تلك الحال وخرجوا. وقال آخرون: بل هو منسوب إلى الصوف، وهذا يحتمل. والصحيح الأول.

وهذا الاسم ظهر للقوم قبل سنة مئتين، ولمّا أظهره أوائلهم تكلّموا فيه وعبروا عن صفته بعبارات كثيرة، وحاصلها أن التصوف عندهم رياضة النفس، ومجاهدة الطبع برده عن الأخلاق الرذيلة، وحمله على الأخلاق الجميلة من الزهد والحلم والصبر والإخلاص والصدق إلى غير ذلك من الخصال الحسنة التي تكسب المدائح في الدنيا، والثواب في الآخرة.

وعن الطوسي، قال: سئل الجنيد بن محمد عن التصوف، فقال: الخروج عن كل خلق رديء، والدخول في كل خلق سَنيٍّ[1].

قال المصنف: وعلى هذا كان أوائل القوم، فلبس إبليس عليهم في أشياء ثم لبس على من بعدهم من تابعيهم، فكلما مضى قرن زاد طمعه في القرن الثاني، فزاد تلبيسه عليهم إلى أن تمكن من المتأخرين غاية التمكن.

وكان أصل تلبيسه عليهم أنه صدَّهم عن العلم وأراهم أن المقصود العمل، فلمّا أطفأ مصباح العلم عندهم تخبطوا في الظلمات:

فمنهم من أراه أن المقصود من ذلك ترك الدنيا في الجملة، فرفضوا

---

(١) السني: الرفيع.

ما يصلح أبدانهم، وشبهوا المال بالعقارب، ونسوا أنه خلق للمصالح، وبالغوا في الحمل على النفوس حتى أنه كان فيهم من لا يضطجع.. وهؤلاء كانت مقاصدهم حسنة، غير أنهم على غير الجادة. وفيهم من كان لقلة علمه يعمل بما يقع إليه من الأحاديث الموضوعة وهو لا يدري.

ثم جاء أقوام فتكلموا لهم في الجوع والفقر والوساوس والخطرات، وصنفوا في ذلك مثل الحارث المحاسبي. وجاء آخرون فهذبوا مذهب التصوف وأفردوه بصفات ميزوه بها من الاختصاص بالمراقعة والسماع[1]، والوجد والرقص والتصفيق، وتميزوا بزيادة النظافة والطهارة. ثم مازال الأمر ينمى،والأشياخ يضعون لهم أوضاعاً ويتكلون بواقعاتهم. ويتفق بعدهم عن العلماء، لا بل رؤيتهم ما هم فيه أوفى[2] العلوم، حتى سموه العلم الباطن، وجعلوا علم الشريعة العلم الظاهر.

ومنهم من خرج به الجوع إلى الخيالات الفاسدة فادعى عشق الحق، والهيمان فيه، فكأنهم تخايلوا شخصاً مستحسن الصورة فهاموا به، وهؤلاء بين الكفر والبدعة.

ثم تشعبت بأقوام منهم الطرق ففسدت عقائدهم.. فمن هؤلاء من قال بالحلول[3]، ومنهم من قال بالاتحاد[4]. ومازال إبليس يخبطهم بفنون البدع حتى جعلوا لأنفسهم سنناً. وجاء أبو عبد الرحمن السلمي فصنف لهم كتاب «السنن» وجمع لهم حقائق التفسير، فذكر عنهم، فيه العجب في تفسيرهم القرآن بما يقع لهم من غير إسناد ذلك إلى أصل من أصول العلم.

قال المصنف: وصنف لهم أبو نصر السراج كتابا سماه «لمع الصوفية»، ذكر فيه من الاعتقاد القبيح والكلام المرذول ما سنذكر منه جملة

---

(١) الذكر المبتدع على شكل غناء.

(٢) أي أتم العلوم.

(٣) أي حلول الخالق بالمخلوق.

(٤) أي اتحاد الخالق والمخلوق.

إن شاء الله تعالى. وصنف لهم أبو طالب المكي «قوت القلوب»، فذكر فيه الأحاديث الباطلة، وما لا يستند فيه إلى أصل من صلوات الإيام والليالي وغير ذلك من الموضوع، وذكر فيه الاعتقاد الفاسد.

قال المصنف: وجاء أبو نعيم الأصبهاني فصنف لهم كتاب «الحلية»، وذكر في حدود التصوف أشياء منكرة قبيحة، ولم تستحِ أن يذكر في الصوفية أبا بكر وعمر وعثمان وعلياً وسادات الصحابة رضي الله عنهم. فذكر عنهم ما فيه العجب، وذكر منهم شريحاً القاضي، والحسن البصري، وسفيان الثوري، وأحمد ابن حنبل. وكذلك ذكر السلمي في «طبقات الصوفية» الفضيل، وإبراهيم بن أدهم، ومعروفاً الكرخي، وجعلهم من الصوفية بأن أشار إلى أنهم من الزهاد.

فالتصوف مذهب معروف يزيد على الزهد، ويدل على الفرق بينهما أن الزهد لم يذمّه أحد، وقد ذموا التصوف على ما سيأتي ذكره. وصنّف لهم عبد الكريم بن هوازن القشيري كتاب «الرسالة»، فذكر فيها العجائب من الكلام في الفناء والبقاء، والقبض والبسط، والوقت والحال، والوجد والوجود والجمع والتفرقة، والصحو والسكر، والذوق والشرب، والمحو والإثبات، والتجلي، والمحاضرة والمكاشفة واللوائح والطوالع واللوامع والتكوين والتمكين والشريعة والحقيقة.. إلى غير ذلك من التخليط الذي ليس بشيء، و «تفسيره» أعجب منه.

وجاء محمد بن طاهر المقدسي فصنف لهم «صفوة التصوف»، فذكر فيه أشياء يستحي العاقل من ذكرها سنذكر منها ما يصلح ذكره في مواضعه، إن شاء الله تعالى.

وكان شيخنا أبو الفضل بن ناصر الحافظ يقول: كان ابن طاهر يذهب مذهب الإباحة، قال: وصنف كتاباً في جواز النظر إلى المرد أورد فيه حكاية عن يحيى بن معين، قال: رأيت جارية بمصر مليحة صلى الله عليها، فقيل له:

تصلي عليها، فقال: صلى الله عليها وعلى كل مليح. قال شيخنا ابن ناصر: وليس ابن طاهر بمن يحتج به.

وجاء أبو حامد الغزالي فصنف لهم كتاب «الإحياء» على طريقة القوم، وملأه بالأحاديث الباطلة وهو لا يعلم بطلانها، وتكلم في علم المكاشفة وخرج عن قانون الفقه، وقال: إن المراد بالكوكب والشمس والقمر اللواتي رآهن إبراهيم صلوات الله عليه، أنوار هي حجب الله عز وجل، ولم يرد هذه المعروفات، وهذا من جنس كلام الباطنية. وقال في كتابه «المفصح بالأحوال»: إن الصوفية في يقظتهم يشاهدون الملائكة وأرواح الأنبياء، ويسمعون منهم أصواتاً، ويقتبسون منهم فوائد، ثم يترقى الحال من مشاهدة الصور إلى درجات يضيق عنها نطاق النطق.

قال المصنف: وكان السبب في تصنيف هؤلاء مثل هذه الأشياء قلة علمهم بالسنن والإسلام والآثار، وإقبالهم على ما استحسنوه من طريقة القوم. وإنما استحسنوها لأنه قد ثبت في النفوس مدح الزهد، وما رأوا حالة أحسن من حالة هؤلاء القوم في الصورة، ولا كلاماً أرق من كلامهم. وفي سِيَرَ السلف نوع خشونة، ثم إن ميل الناس إلى هؤلاء القوم شديد، لما ذكرنا من أنها طريقة ظاهرها النظافة والتعبد، وفي ضمنها الراحة والسماع، والطباع تميل إليها. وقد كان أوائل الصوفية ينفرون من السلاطين والأمراء فصاروا أصدقاء.

وجمهور هذه التصانيف التي صنفت لهم لا تستند إلى أصل، وإنما هي واقعات تلقفها بعضهم عن بعض ودونوها، وقد سموها بالعلم الباطن. وعن أبي يعقوب إسحاق بن حية، قال: سمعت أحمد ابن حنبل وقد سئل عن الوساوس والخطرات، فقال: ما تكلم فيها الصحابة ولا التابعون.

قال المصنف: وروينا عن أحمد ابن حنبل أنه سمع كلام الحارث المحاسبي، فقال لصاحب له: لا أرى لك أن تجالسهم. وسئل أبو زرعة عن الحارث المحاسبي وكتبه، فقال للسائل: إياك وهذه الكتب، هذه الكتب

كتب بدع وضلالات، عليك بالأثر، فإنك تجد فيه ما يغنيك عن هذه الكتب، قيل له: في هذه الكتب عبرة، قال: من لم يكن له في كتاب الله عز وجل عبرة، فليس له في هذه الكتب عبرة، بلغكم أن مالك بن أنس، وسفيان الثوري، والأوزاعي، والأئمة المتقدمة، صنّفوا هذه الكتب في الخطرات والوساوس وهذه الأشياء. هؤلاء قوم خالفوا أهل العلم يأتوننا مرة بالحارث المحاسبي، ومرة بعبد الرحيم الدبيلي، ومرة بحاتم الأصم ومرة بشقيق، ثم قال: ما أسرع الناس إلى البدع.

عن أبي عبد الرحمٰن السلمي، قال: أول من تكلم في بلدته في ترتيب الأحوال ومقامات أهل الولاية ذو النون المصري، فأنكر عليه ذلك عبد الله بن عبد الحكم، وكان رئيس مصر، وكان يذهب مذهب مالك، وهجره لذلك علماء مصر لما شاع خبره أنه أحدث علماً لم يتكلم فيه السلف، حتى رموه بالزندقة. قال السلمي: وأُخرج أبو سليمان الداراني من دمشق، وقالوا: إنه يزعم أنه يرى الملائكة وأنهم يكلمونه، وشهد قوم على أحمد ابن أبي الحواري: أنه يفضل الأولياء على الأنبياء، فهرب من دمشق إلى مكة، وأنكر أهل بسطام على أبي يزيد البسطامي ما كان يقول. قال السلمي: وحكى رجل عن سهل بن عبد الله التستري أنه يقول: إن الملائكة والجن والشياطين يحضرونه، وإنه يتكلم معهم فانكر ذلك عليه العوام حتى نسبوه إلى القبائح، فخرج إلى البصرة فمات بها. قال السلمي: وتكلم الحارث المحاسبي في شيء من الكلام والصفات، فهجره أحمد بن حنبل فاختفى إلى أن مات.

قال المصنف: وقد كان أوائل الصوفية يقرون بأن التعويل على الكتاب والسنّة، وإنما لبس الشيطان عليهم لقلة علمهم.

قال الجنيد: قال أبو سليمان الداراني: ربما تقع في نفسي النكتة من نكت القوم أياماً، فلا أقبل منه إلّا بشاهدين عدلين الكتاب والسنّة. قال أبو يزيد: لو نظرتم إلى رجل أعطي من الكرامات حتى يرتفع في الهواء

فلا تغتروا به حتى تنظروا كيف تجدونه عند الأمر والنهي وحفظ الحدود[1].
وقال: من ترك قراءة القرآن والتقشف ولزوم الجماعة وحضور الجنائز وعيادة المرضى، وادعى بهذا الشأن فهو مبتدع.

وعن الجنيد، قال: مذهبنا هذا مقيد بالأصول: الكتاب والسنّة. وقال أيضاً: علمنا منوط بالكتاب والسنّة من لم يحفظ الكتاب، ويكتب الحديث ولم يتفقه لا يقتدي به، لأن التصوف من صفاء المعاملة مع الله سبحانه وتعالى.

وعن أبي جعفر، قال: من لم يَزِن أقواله وأفعاله وأحواله بالكتاب والسنّة، ولم يتهم خاطره، فلا تعده في ديوان الرجال.

قال المصنف: وإذ قد ثبت هذا من أقوال شيوخهم فإذا وقعت من بعض أشياخهم غلطات لبعدهم عن العلم، فإن كان ذلك صحيحاً عنهم توجه الرد عليهم، إذ لا محاباة في الحق، وإن لم يصح عنهم حذرنا من مثل هذا القول، وذلك المذهب من أي شخص صدر. فأما المشبهون بالقوم وليسوا منهم فأغلاطهم كثيرة. ونحن نذكر بعض ما بلغنا من أغلاط القوم، والله يعلم أننا لم نقصد ببيان غلط الغالط إلّا تنزيه الشريعة، والغيرة عليها من الدخل، وما علينا من القائل والفاعل، وإنما نؤدي بذلك أمانة العلم، ومازال العلماء يبين كل واحد منهم غلط صاحبه قصداً لبيان الحق، لا لإظهار عيب الغالط. ولا اعتبار بقول جاهل يقول: كيف يرد على فلان الزاهد المتبرك به. لأن الانقياد إنما يكون إلى ما جاءت به الشريعة، لا إلى الأشخاص. وقد يكون الرجل من الأولياء وأهل الجنة وله غلطات، فلا تمنع منزلته بيان زلله.

واعلم أن من نظر إلى تعظيم شخص، ولم ينظر بالدليل إلى ما صدر عنه كان كمن ينظر إلى ما جرى على يد المسيح، صلوات الله عليه، من

---

(١) أي حدود الله وأحكامه الشرعية.

الأمور الخارقة، ولم ينظر إليه فادعى فيه الإلهية. ولو نظر إليه أنه لا يقوم إلّا بالطعام لم يعطه ما لا يستحقه.

قال يحيى بن سعيد: سألت شعبة وسفيان بن سعيد وسفيان بن عيينة ومالك بن أنس عن الرجل لا يحفظ أو يتهم في الحديث، فقالوا جميعاً: يبين أمره. وقد كان الإمام أحمد ابن حنبل يمدح الرجل ويبالغ ثم يذكر غلطه في الشيء بعد الشيء، وقال: نعم الرجل فلان لولا أن خلة فيه.

ما يروى عن الجماعة من سوء الاعتقاد
ذكر تلبيس أبليس في السماع وغيره

عن أبي عبد الله الرملي، قال: تكلم أبو حمزة في جامع طرسوس، فبينما هو ذات يوم يتكلم إذا صاح غراب على سطح الجامع، فزعق أبو حمزة، وقال: لبيك لبيك. فنسبوه إلى الزندقة، وقالوا: حلولي زنديق، وبيع فرسه بالمناداة على باب الجامع: هذا فرس الزنديق. وكان أبو حمزة إذا سمع شيئاً يقول: لبيك لبيك، فأطلقوا عليه أنه حلولي. وكان إذا سمع صوتاً مثل هبوب الرياح، وخرير الماء، وصياح الطيور، كان يصيح ويقول: لبيك لبيك، فرموه بالحلول.

قال السراج: وبلغني عن أبي حمزة أنه دخل دار الحارث المحاسبي، فصاحت الشاة ماع، فشهق أبو حمزة شهقة. وقال: لبيك يا سيدي، فغضب الحارث المحاسبي، وعمد إلى سكين، وقال: إن لم تتب من هذا الذي أنت فيه أذبحك. قال أبو حمزة: إذا أنت لم تحسن تسمع هذا الذي أنا فيه، فلم تأكل النخالة بالرماد.

قال السراج: وبلغني أن جماعة من الحلوليين زعموا أن الحق عز وجل اصطفى أجساماً حل فيها بمعاني الربوبية وأزال عنها معاني البشرية. قال: وبلغني عن جماعة من أهل الشام أنهم يدعون الرؤية بالقلوب في الدنيا كالرؤية بالعيان في الآخرة. قال: وبلغني أن أبا الحسن النوري شهد عليه

غلام الخليل أنه سمعه يقول: أنا أعشق الله عز وجل وهو يعشقني، فقال النوري: سمعت الله يقول: ﴿يُحِبُّهُمْ ويُحِبُّونَهُ﴾[1]. وليس العشق بأكثر من المحبة. قال القاضي أبو يعلىٰ: وقد ذهبت الحلولية إلى أن الله عز وجل يعشق.

قال المصنف: وهذا جهل من ثلاثة أوجه:

أحدها: من حيث الاسم، فإن العشق عند أهل اللغة لا يكون إلّا لما يُنكح.

والثاني: أن صفات الله عز وجل منقولة فهو يحب، ولا يقال: يعشق كما يقال: يعلم، ولا يقال: يعرف.

والثالث: من أين له أن الله تعالى يحبه فهذه دعوى بلا دليل، وقد قال النبي ﷺ: «مَنْ قال إني في الجنةِ فهو في النَّارِ»[2].

وعن أبي عبد الرحمٰن السلمي، قال: حكي عن عمرو المكي أنه قال: كنت أماشي الحسين بن منصور في بعض أزقة مكة، وكنت أقرأ القرآن فسمع قراءتي، فقال: يمكنني أن أقول مثل هذا ففارقته. وعن محمد بن يحيىٰ الرازي، قال: سمعت عمرو بن عثمان يلعن الحلاج ويقول: لو قدرت عليه لقتلته بيدي، فقلت: بأي شيء وجد عليه[3] الشيخ؟ فقال: قرأت آية من كتاب الله عز وجل، فقال: يمكنني أن أقول أو أؤلف مثله وأتكلم به.

قال المصنف: اتفق علماء العصر على إباحة دم الحلاج، فأول من قال: إنه حلال الدم أبو عمرو القاضي ووافقه العلماء.

قال المصنف: وقد تعصَّب للحلاج جماعة من الصوفية جهلاً منهم، وقلّة مبالاة بإجماع الفقهاء.

---

(١) سورة المائدة: الآية ٥٤.

(٢) قال السخاوي في «المقاصد الحسنة» (١١٦٠): رواه الطبراني في «الصغير» من قول يحيىٰ بن أبي كثير، وسنده ضعيف.

(٣) وجد عليه: غضب.

قال إبراهيم بن محمد النصر أبادي: إن كان بعد النبيين والصديقين موحد فهو الحلاج، قلت: وعلى هذا أكثر قصاص زماننا وصوفية وقتنا جهلاً بالشرع وبعداً عن معرفة النقل. وقد جمعت في أخبار الحلاج كتاباً بينت فيه حيله ومخاريقه وما قال العلماء فيه، والله المعين على قمع الجهال.

تلبيس إبليس على الصوفية في الطهارة

قال المصنف: قد ذكرنا تلبيسه على العباد في الطهارة، إلاَّ أنه قد زاد في حق الصوفية على الحد، فقوَّى وساوسهم في استعمال الماء الكثير، حتى بلغني أن ابن عقيل: دخل رباطاً فتوضأ، فضحكوا لقلة استعماله الماء، وما علموا أن من أسبغ الوضوء برطل من الماء كفاه. وبلغنا عن الشيرازي أنه قال لفقير: من أين تتوضأ؟ فقال: من النهر، بي وسوسة في الطهارة، قال: كان عهدي بالصوفية يسخرون من الشيطان، والآن يسخر بهم الشيطان. ومنهم من يمشي بالمداس[1] على البواري، وهذا لا بأس به، إلاَّ أنه ربما نظر المبتدىء إلى من يقتدى به، فيظن ذلك شريعة، وما كان خيار السلف على هذا. والعجب ممن يبالغ في الاحتراز إلى هذا الحد متصفاً بتنظيف ظاهره، وباطنه محشو بالوسخ والكدر، والله الموفِّق.

تلبيس إبليس عليهم في الصلاة

قال المصنف: قد ذكرنا تلبيسه على العباد في الصلاة وهو بذلك يلبس على الصوفية ويزيد. وقدذكر محمد بن طاهر المقدسي أن من سننهم التي ينفردون بها، وينتسبون إليها صلاة ركعتين بعد لبس المرقعة والتوبة، واحتج عليه بحديث ثمامة بن أثال، أن النبي ﷺ أمره حين أسلم أن يغتسل[2].

قال المصنف: وما أقبح بالجاهل إذا تعاطى ما ليس من شغله، فإن

---

(١) المداس: الحذاء. والبواري جمع بوريّ، وهي الحصير المعمول من القصب.

(٢) أخرجه البخاري (٤٣٧٢) في المغازي وغيره: باب وفد بني حنيفة.

ثمامة كان كافراً فأسلم، وإذا أسلم الكافر وجب عليه الغسل في مذهب جماعة من الفقهاء: منهم أحمد ابن حنبل. وأمَّا صلاة ركعتين فما أمر بها أحد من العلماء لمن أسلمَ، وليس في حديث ثمامة ذكر صلاة فيقاس عليه، وهل هذا إلَّا ابتداع في الواقع سمّوه سنَّة. ثم من أقبح الأشياء قوله: إن الصوفية ينفردون بسنن، لأنها إن كانت منسوبة إلى الشرع، فالمسلمون كلهم فيها سواء، والفقهاء أعرف بها، فما وجه انفراد الصوفية بها. وإن كانت بآرائهم فإنما انفردوا بها لأنهم اخترعوها.

تلبيس إبليس على الصوفية في المساكن

قال المصنف: أما بناء الأربطة فإن قوماً من المتعبدين الماضين اتخذوها للانفراد بالتعبد، وهؤلاء إذا صح قصدهم فهم على الخطأ من ستة أوجه:

أحدها ــ أنهم ابتدعوا هذا البناء، وإنما بنيان أهل الإسلام المساجد.

الثاني ــ أنهم جعلوا للمساجد نظيراً يقلل جمعها.

الثالث ــ أنهم أفاتوا أنفسهم نقل الخطى إلى المساجد.

الرابع ــ أنهم تشبّهوا بالنصارى بانفرادهم في الأديرة.

الخامس ــ أنهم تعزبوا وهم شباب، وأكثرهم محتاج إلى النكاح.

السادس ــ أنهم جعلوا لأنفسهم علماً ينطق بأنهم زهَّاد، فيوجب ذلك زيارتهم والتبرك بهم. وإن كان قصدهم غير صحيح، فإنهم قد بنوا دكاكين للكوبة[1] ومناخاً **للبطالة**، وأعلاماً لإظهار الزهد.

وقد رأينا جمهور المتأخرين منهم مستريحين في الأربطة من كد المعاش، متشاغلين بالأكل والشرب والغناء والرقص، يطلبون الدنيا من كل ظالم، ولا يتورعون من عطاء ماكس[2]. وأكثر أربطتهم قد بناها الظَّلَمة،

(١) الكوبة: النرد، وقيل الطبل.

(٢) الماكس: من يأخذ المكس، وهي دراهم تؤخذ من الباعة عند إدخال أشياء إلى البلاد.

ووقفوا عليها الأموال الخبيثة. وقد لبس عليهم إبليس أن ما يصل إليكم رزقكم، فأسقطوا عن أنفسكم كلفة الورع. فهمتهم دوران المطبخ، والطعام والماء المبرَّد. فأين جوع بشر، وأين ورع سريّ، وأين جد الجنيد. وهؤلاء أكثر زمانهم ينقضي في التفكه بالحديث، أو زيارة أبناء الدنيا. ولقد بلغني أن رجلاً قرأ القرآن في رباط فمنعوه، وأن قوماً قرأوا الحديث في رباط، فقالوا لهم: ليس هذا موضعه، والله الموفق.

تلبيس إبليس على الصوفية في الخروج عن الأموال والتجرد عنها

كان إبليس يلبس على أوائل الصوفية لصدقهم في الزهد، فيريهم عيب المال ويخوفهم من شره، فيتجردون من الأموال، ويجلسون على بساط الفقر، وكانت مقاصدهم صالحة، وأفعالهم في ذلك خطأ لقلّة العلم. فأما الآن فقد كفي إبليس هذه المؤنة، فإن أحدهم إذا كان له مال أنفقه تبذيراً وضياعاً، قال أبو نصر الطوسي: سمعت جماعة من مشايخ الري يقولون: ورث أبو عبد الله المقري من أبيه خمسين ألف دينار سوى الضياع والعقار، فخرج عن ذلك كله وأنفقه على الفقراء.

وقد روي مثل هذا عن جماعة كثيرة، وهذا الفعل لا ألوم صاحبه إذا كان يرجع إلى كفاية قد ادّخرها لنفسه، أو إن كانت له صناعة يستغني بها عن الناس، أو كان المال عن شبهة فتصدق به، فأما إذا أخرج المال الحلال كله، ثم احتاج إلى ما في أيدي الناس وأفقر عياله، فهو إما أن يتعرض لمنن الإخوان أو لصدقاتهم، أو أن يأخذ من أرباب الظلم والشبهات، فهذا هو الفعل المذموم المنهي عنه. ولست أتعجب من المتزهدين الذين فعلوا هذا مع قلة علمهم، وإنما العجب من أقوام لهم عقل وعلم، كيف حثّوا على هذا، وأمروا به مع مصادمته للعقل والشرع، وقد ذكر الحارث المحاسبي في هذا كلاماً طويلاً، وشيَّده أبو حامد الغزالي ونصره، والحارث عندي أعذر

من أبـي حامد، لأن أبـا حامـد كان أفقـه، غير أن دخـوله في التصـوف أوجب عليه نصرة ما دخل فيه.

فمن كلام الحارث المحـاسبـي في هذا، أنـه قال: أيهـا المفتون، متى زعمت أن جمـع المـال الحـلال أعلى وأفضـل من تـركـه، فقـد أزريت بمحمـد ﷺ والمرسلين، وزعمت أن محمـداً ﷺ لم ينصـح الأمـة، إذ نهـاهم عن جمـع المال، وقد علم أن جمعه خير لهم، وزعمت أن الله لم ينظر لعباده حين نهاهم عن جمـع المال، وقد علم أن جمعه خير لهم.

فقد سئل بعض أهل العلم عن الرجل يجمـع المال لأعمال البر، فقال: تركه أبـرُّ منه. وبلغنـا أن بعض خيار التـابعين سئل عن رجلين أحـدهما طلب الدنيا حلالاً، فأصـابها فـوصل بهـا رحمه وقـدم منها لنفسـه، والآخر جـانبها، ولم يطلبها ولم يبذلها فأيهما أفضل؟ فقال: بعيد والله ما بينهما، الذي جـانبها أفضل كما بين مشارق الأرض ومغاربها.

قـال المصنف: فهـذا كـلام الحـارث المحـاسبـي، ذكـره أبـو حـامـد وشيده[1].

وقال أبو حامد: من راقب أحوال الأنبياء والأولياء وأقوالهم لم يشـكّ في أن فقـد المال أفضـل من وجوده، وإن صـرف إلى الخيـرات، إذ أقـل مـا فيـه اشتغالهم بإصلاحه عن ذكـر الله عزَّ وجـلَّ. فينبغي للمريـد أن يخرج من مـاله حتى لا يبقى لـه إلاَّ قـدر ضـرورتـه، فمـا بقي لـه درهم يلتفت إليـه قلبـه، فهو محجوب عن الله عزَّ وجلَّ.

قـال المصنف: وهـذا كله بخـلاف الشـرع والعقـل وسـوء فهم للمـراد بالمال.

---

(١) زخرفه وحسنه.

ردّ هذا الكلام

أمَّا شرف المال، فإن الله عزَّ وجلَّ عظَّم قدره وأمر بحفظه، إذ جعله قواماً للآدمي، وما جعل قواماً للآدمي الشريف فهو شريف، فقال تعالى: ﴿ولا تُؤتوا السفهاءَ أموالكُمْ التي جعل اللَّهُ لكم قِيَاماً﴾(١). ونهى عزَّ وجلَّ أن يسلم المال إلى غير رشيد، فقال: ﴿فإنْ آنستُمْ منهم رُشداً فادفعُوا إليهم أموالَهُمْ﴾(٢).

وقد صح عن رسول الله ﷺ أنه نهى عن إضاعة المال(٣). وقال لسعد: «لأن تترك ورثتك أغنياء خير لك من أن تتركهم عالة يتكففون الناس»(٤). وقال: «ما نفعني مال كمال أبي بكر»(٥). والحديث بإسناد مرفوع عن عمرو بن العاص. قال: بعث إليَّ رسول الله ﷺ، فقال: «خذ عليك ثيابك وسلاحك ثم ائتني، فأتيته، فقال: «إني أريد أن أبعثك على جيش فيسلمك الله ويغنمك، وأرغب لك من المال رغبة صالحة»، فقلت: يا رسول الله ما أسلمت من أجل المال ولكني أسلمت رغبة في الإسلام، فقال: «يا عمرو، نعم المال الصالح للرجل الصالح»(٦). والحديث بإسناد

---

(١) سورة النساء: الآية ٥.

(٢) سورة النساء: الآية ٦.

(٣) في الصحيحين أخرجه البخاري (١٤٧٧) في الزكاة، ومسلم (٥٣٩) في الأقضية. عن المغيرة بن شعبة مرفوعاً: «إن الله كره لكم ثلاثاً: قيل وقال، وإضاعة المال، وكثرة السؤال».

(٤) أخرجه البخاري (١٢٩٥) في الجنائز، ومسلم (١٦٢٨) في الوصية، ولفظه: «إنك أن تذرَ ورثتك أغنياء».

(٥) أخرجه أحمد (٢/٢٥٣)، وابن ماجه (٩٤) في المقدمة، وأخرجه الترمذي (٤٦٥٢) في السنة عن أبي هريرة، وصححه المناوي في «فيض القدير». وفي صحيح البخاري (٣٦٥٤) في فضائل الصحابة وغيره، ومسلم (٢٣٨) في فضائل الصحابة: «إن أمنّ الناس علي في ماله وصحبته أبو بكر».

(٦) رواه أحمد (٤/١٩٧)، وإسناده صحيح.

عن أنس بن مالك، أن رسول الله ﷺ دعا لـه بكل خير، وكـان في آخر دعـائه أن قال: «اللَّهمَّ أكثرْ مالَهُ وولدَهُ وباركْ لَـهُ»[1].

وقال كعب بن مالك: يا رسـول الله، إن من توبتي أن أنخلـع من مـالي صدقة إلى الله عزَّ وجلَّ وإلى رسوله ﷺ، فقال: «أمسكْ بعضَ مالِكَ فهـو خيرٌ لكَ»[2].

قال المصنف: فهذه الأحاديث مخرَّجة في الصحاح، وهي على خـلاف مـا تعتقده المتصـوفة من أن إكثـار المال حجـاب وعقوبـة. وأن حبسـه ينـافي التوكل. ولا ينكر أنه يخاف من فتنته وأن خلقاً كثيراً اجتنبوه لخوف ذلـك، وأن جمعـه من وجهه يعـز، وسلامـة القلب من الافتتان بـه يبعـد، وإشتغال القلب مـع وجوده بذكر الآخرة يندر، ولهذا خيف فتنته. فأما كسب المال فـإن اقتصر على كسب البلغـة[3] من حلها فـذلك أمـر لا بد منـه. وأمـا من قصـد جمعـه والاستكثـار منه من الحـلال نظرنـا في مقصـوده. فـإن قَصَـد نفس المفـاخـرة والمباهاة فبئس المقصـود، وإن قَصَد إعفـاف نفسه وعـائلته، وادَّخـر لحوادث زمانه وزمانهم، وقصد التوسعة على الإخوان وإغناء الفقراء، وفعل المصالـح، أثيب على قصده وكان جمعه بهذه النيَّة أفضل من كثير من الطاعات.

وقـد كـان نيـات خلق كثيـر من الصحـابـة رضي الله عنهم أجمعين في جمـع المال سليمة لحسن مقاصدهم لجمعه، فحرصوا عليه، وسألوا زيـادته. وعن ابن عمـر أن رسول الله ﷺ أقطـع الزبير حُضْرَ[4] فرسه بأرض يقال لهـا:

---

(١) في الصحيحين وغيـرهما عن أم سليم أنهـا قالت: «يـا رسول الله خـادمـك أنس ادع الله لـه»، فقال: «اللهم أكثر ماله وولـده وبارك لـه فيمـا أعطيتـه»، أخرجـه البخاري (٦٣٣٤) في الدعوات، ومسلم (٢٤٨٠) في فضائل الصحابة.

(٢) أخرجه البخاري (٤٦٧٦) في التفسير، ومسلم (٢٧٦٩) في التوبة.

(٣) البلغة: ما يكفي من العيش.

(٤) الحُضْر: ـ بضم المعجمة ـ عدو الفرس.

ثرثر. فأجرى فرسه حتى قام[1]، ثم رمى سوطه، فقال: أعطوه حيث بلغ السوط[2]، وكان سعد بن عبادة يدعو فيقول: اللهم وسِّع عليَّ.

قال المصنف: وأبلغ من هذا أن يعقوب عليه الصلاة والسلام، لمَّا قال له بنوه: ﴿ونزدادُ كيلَ بعيرٍ﴾[3]، مال إلى هذا، وأرسل ابنه بنيامين معهم. وأن شعيباً طمع في زيادة ما يناله، فقال: ﴿فإن أتممتَ عَشْراً فمنْ عندِكَ﴾[4].

وأما كلام المحاسبي فخطأ يدل على الجهل بالعلم، وقوله: إن الله عَّز وجلَّ نهى عباده عن جمع المال، وإن رسول الله ﷺ نهى أمته عن جمع المال، فهذا محال، إنما النهي عن سوء القصد بالجمع، أو عن جمعه من غير حلّه.

وقوله: ترك المال الحلال أفضل من جمعه. ليس كذلك، بل متى صح القصد فجمعه حلال بلا خلاف عند العلماء.

وقوله: هل تجد في دهرك حلالاً، فيقال له: وما الذي أصاب الحلال والنبي ﷺ يقول: «الحلالُ بَيِّنٌ والحرامُ بَيِّنٌ»[5]. وكيف يقول إن فقد المال أفضل من وجوده وإن صرف إلى الخيرات. ولو ادّعى الإجماع على خلاف هذا لصح. ولكن تصوفه غير فتواه. وعن المروزي، قال: سمعت رجلاً يقول لأبي عبد الله: إني في كفاية، فقال: الزم السوق تصل به الرحم وتعود المرضى.

---

(١) حتى وقف.

(٢) أخرجه أبو داود (٣٠٧٢) في الإمارة، وفي إسناده عبد الله بن عمر بن حفص بن عاصم بن عمر بن الخطاب، وفيه مقال.

(٣) سورة **يوسف**: الآية ٦٥.

(٤) سورة القصص: الآية ٢٧.

(٥) أخرجه البخاري (٥٢) في الإيمان: باب فضل من استبرأ لدينه. ومسلم (١٥٩٩) في المساقاة: باب أخذ الحلال وترك الشبهات.

وقوله: ينبغي للمريد أن يخرج من ماله، قد بيّنا أنه إن كان حراماً أو فيه شبهة أو أن يقنع هو باليسير أو بالكسب جاز له أن يخرج منه، وإلاَّ فلا وجه لذلك.

وأما الأنبياء، فقد كان لإبراهيم عليه الصلاة والسلام زرع ومال. وكان سعيد بن المسيب رضي الله عنه، يقول: لا خير فيمن لا يطلب المال يقضي به دَيْنه، ويصون به عرضه ويصل به رحمه، فإن مات تركه ميراثاً لمن بعده. وخلف ابن المسيب أربع مئة دينار، وقد ذكرنا ما خلَّفت الصحابة. وقد خلَّف سفيان الثوري رضي الله عنه مئتين، وكان يقول: المال في هذا الزمان سلاح. وما زال السلف يمدحون المال، ويجمعونه للنوائب وإعانة الفقراء. وإنما تجافاه قوم منهم إيثاراً للتشاغل بالعبادات وجمع الهمم، فقنعوا باليسير. ولو قال هذا القائل: إن التقلل منه أولى قرب الأمر، ولكنه زاحم به مرتبة الإثم.

واعلم أن الفقر مرض فمن ابتلى به فصبر أثيب على صبره. ولهذا يدخل الفقراء الجنة قبل الأغنياء بخمس مئة عام لمكان صبرهم على البلاء، والمال نعمة، والنعمة تحتاج إلى شكر. والغني وإن تعب وخاطر كالمفتي والمجاهد. والفقير كالمعتزل في زاوية. وقد ذكر أبو عبد الرحمن السلمي في كتاب «سنن الصوفية»: باب كراهية أن يخلف الفقير شيئاً؛ فذكر حديث الذي مات من أهل الصفة وخلف دينارين، فقال رسول الله ﷺ: «كيتان»[1].

قال المصنِّف: وهذا احتجاج من لا يفهم الحال، فإن ذلك الفقير كان يزاحم الفقراء في أخذ الصدقة وحبس ما معه، فلذلك قال: «كيتان». ولو كان المكروه نفس المال، لما قال رسول الله ﷺ لسعد: «إنك أن تَذرَ ورثَتَكَ أغنياءَ خيرٌ مِنْ أنْ تذرَهُمْ عالةً يَتَكفَّفون النَّاسَ»[2]. ولمَّا كان أحد من الصحابة يخلف شيئاً، وقد قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: حثَّ رسول الله ﷺ

---

(١) رواه أحمد (١/٤١٢). قال في مجمع الزوائد (١٠/٢٤٠): فيه عاصم ابن بهدلة، وقد وثقه غير واحد، وبقية رجاله رجال الصحيح.

(٢) أخرجه البخاري (١٢٩٥) في الجنائز، ومسلم (١٦٢٨) في الوصايا.

على الصدقة. فجئت بنصف مالي، فقال رسول الله ﷺ: «وما أبقيت لأهلك؟»، فقلت: مثله[1]، فلم ينكر عليه رسول الله ﷺ.

قال ابن جرير الطبري: وفي هذا الحديث دليل على بطلان ما يقوله جَهَلَة المتصوفة أن ليس للإنسان ادّخار شيء في يومه لغده، وأن فاعل ذلك قد أساء الظن بربه، ولم يتوكل عليه حق توكله. قال ابن جرير: وكذلك قوله عليه الصلاة والسلام: «اتَّخذوا الغنمَ فإنها بَرَكَةٌ»[2]. فيه دلالة على فساد قول مَن زعم من المتصوفة أنه لا يصح لعبدٍ التوكل على ربه إلَّا بأن يصبح ولا شيء عنده من عين، ولا عرض ويمسي كذلك. ألا ترى كيف ادّخر رسول الله ﷺ لأزواجه قوت سنة[3].

وقد خرج أقوام من أموالهم الطيبة ثم عادوا يتعرضون للأوساخ ويطلبون، وهذا لأن حاجة الإنسان لا تنقطع. والعاقل يعد للمستقبل.

وقد روى أبو داود في «سننه»[4]، من حديث محمود بن لبيد، عن جابر بن عبد الله، قال: كنا عند رسول الله ﷺ، إذ جاءه رجل بمثل البيضة من ذهب، فقال: يا رسول الله أصبت هذه من معدن فخذها فهي صدقة ما أملك غيرها، فأعرض عنه رسول الله ﷺ. ثم أتاه من قبل ركنه الأيمن، فقال مثل ذلك، فأعرض عنه. ثم أتاه من قبل ركنه الأيسر، فأعرض عنه رسول الله ﷺ،

---

(١) رواه الترمذي (٧٦٧٥) في المناقب: باب مناقب أبي بكر وعمر، وقال: حديث حسن صحيح.

(٢) رواه ابن ماجه (٢٣٠٤) في التجارات: باب اتخاذ الماشية. قال في «الزوائد»: إسناده صحيح ورجاله ثقات، ولفظه: «اتخذي غنماً فإن فيها بركة».

(٣) رواه مسلم (١٧٥٧) في الجهاد: باب حكم الفيء، عن عمر، قال: «كانت أموال بني النضير مما أفاء الله على رسوله مما لم يوجف عليه المسلمون بخيل ولا ركاب، فكانت للنبي ﷺ خاصة، فكان ينفق على أهله نفقة سنة، وما بقي يجعله في الكراع والسلاح عدة في سبيل الله».

(٤) (١٦٧٣) في الزكاة: باب الرجل يخرج من ماله.

ثم أتاه من خلفه فأخذها رسول الله ﷺ، فحذفه بها، فلو أصابته لأقصعته[1] أو لعقرته. فقال رسول الله ﷺ: «يأتي أحدُكُمْ بما يَملكُ فيقولُ: هذه صدقةٌ، ثم يقعدُ يتكفَّفُ النَّاسَ، خيرُ الصَّدقةِ ما كانَ عن ظَهْرِ غِنىً». وفي رواية أخرى: «خذْ عنَّامالَكَ، لا حاجةَ لنا بِهِ»[2].

قال المصنف: لو فهم هؤلاء معنى التوكُّل وأنه ثقة القلب بالله عزَّ وجلَّ، لا إخراج صور المال؛ ما قال هؤلاء هذا الكلام، ولكن قلَّ فهمهم، وقد كان سادات الصحابة والتابعين يتجرون ويجمعون الأموال، وما قال مثل هذا أحد منهم.

وقد روينا عن أبي بكر الصدِّيق رضي الله عنه. أنه قال حين أمر بترك الكسب لأجل شغله بالخلافة: فمن أين أطعم عيالي؟ وهذا القول منكر عند الصوفية يخرجون قائله من التوكل. وكذلك ينكرون على من قال: هذا الطعام يضرني.

قال المصنف واعلم أن من يقول هذا يضرني، لا يريد أن ذلك يفعل الضرر بنفسه، وإنما يريد أنه سبب الضرر، كما قال الخليل صلوات الله وسلامه عليه: ﴿ربِّ إنهنَّ أضْلَلْنَ كثيراً من النَّاسِ﴾[3]. وقد صح عن

---

(١) أقصعه: أجهزت عليه، قتله مكانه، وفي النسخة المطبوعة من «مسند أبي داود»: لأوجعته أو لعقرته.

(٢) أخرجه أبو داود (١٦٧٤) في الزكاة: باب الرجل يخرج من ماله. وحديث «خير الصدقة ما كان عن ظهرغنى ،وابدأ بمن تعول» رواه البخاري (١٤٢٦) في الزكاة: باب لا صدقة إلاّ عن ظهر غنى، ومسلم (١٠٣٤) في الزكاة: باب بيان أفضل الصدقة. وفي الحديث من الفقه أن الاختيار للمرء أن يستبقي لنفسه قوتاً، وأن لا ينخلع من ملكه أجمع، لما يخاف عليه من فتنة الفقر وشدة فراغ النفس إلى ما خرج من يده فندم، فيذهب ماله ويبطل أجره، ويصير كلاً على الناس. وأما أنه ﷺ لم ينكر على أبي بكر لما أنفق كل ماله عليه لما علمه من صحة نيته وقوة يقينه، ولم يخف عليه الفتنة.

(٣) سورة إبراهيم: الآيه ٣٦.

رسول الله ﷺ، أنه قال: «ما نفعني مال كمال أبي بكر»[1]. وقوله: ما نفعني، مقابل لقول القائل: ما ضرني. وصح عنه أنه قال: «ما زالتْ أكلةُ خَيْبرَ تُعاودُني فَهذا أوانُ قَطعَتْ أبهري»[2]. وقد ثبت أنه لا رتبة أَوْلى من رتبة النبوة، وقد نسب النفع إلى المال، والضرر إلى الطعام، فالتحاشي عن سلوك طريقه صلى الله عليه وسلّم تعاطٍ[3] على الشريعة، فلا يُلتفت إلى هذيان من هذى في مثل هذا.

قال المصنف: وقد بينّا أنه كان أوائل الصوفية يخرجون من أموالهم زهداً فيها. وذكرنا أنهم قصدوا بذلك الخير، إلّا أنهم غلطوا في هذا الفعل، كما ذكرناه من مخالفتهم بذلك الشرع والعقل. فأما متأخروهم فقد مالوا إلى الدنيا وجمع المال من أي وجه كان، إيثاراً للراحة وحباً للشهوات. فمنهم من يقدر على الكسب، ولا يعمل ويجلس في الرباط[4] أو المسجد ويعتمد على صدقات الناس. ومعلوم أن الصدقة لا تحل لغني ولا لذي مِرة[5] سوي[6]، ولا يبالون من بعث إليهم، فربما بعث الظالم فلم يردوه. وقد وضعوا في ذلك بينهم كلمات: منها تسمية ذلك بالفتوح. ومنها: أن رزقنا لا بد أن يصل إلينا. ومنها: أنه من الله فلا يرد عليه ولا نشكر سواه. وهذا كله خلاف الشريعة وجهل بها وعكس ما كان السلف الصالح عليه. فإن النبي ﷺ، قال: «الْحلالُ بيِّنٌ

---

(١) رواه أحمد (٢/٢٥٣)، وابن ماجه (٩٤) في المقدمة، عن أبي هريرة، قال الهيثمي: رجاله رجال الصحيح غير إسحاق بن أبي إسرائيل، وهو ثقة مأمون.

(٢) رواه البخاري (٤٤٢٨) في المغازي، باب مرض النبي ووفاته، بلفظ: «ما أزال أجد ألم الطعام الذي أكلت بخيبر فهذا أوان وجدت انقطاع أبهري من ذلك السم».
ومعنى تعاودني: أي تأتيني مرة بعد مرة. والأبهر عرق بباطن القلب تتشعب منه سائر الشرايين، إذا انقطع مات صاحبه.

(٣) تعاطى الأمر: خاض فيه، ويقصد هنا مجانبة الحق.

(٤) الرباط: واحد الرباطات، وهي المعاهد المبنية والموقوفة للفقراء.

(٥) المرة بكسر الميم: القوة.

(٦) السوي: المستوي الخلق الذي لا عيب فيه ولا داء.

والحرام بيِّنٌ وبينَهُما مُشْتبهاتٌ لا يَعلمهنَّ كثيرٌ من النَّاسِ ، فمن اتَّقى الشُّبهاتِ فقد اسْتبرَأَ لدِينِهِ وعِرْضِه»[1] . وقد قاء[2] أبو بكر الصَّديق رضي الله عنه من أكل الشبهة . وكان الصالحون لا يقبلون عطاء ظالم ولا ممن في ماله شبهة . وكثير من السلف لم يقبل صلة الإخوان عفافاً وتنزهاً . وعن أبي بكر المروزي، قال: ذكرت لأبي عبد الله رجلاً من المحدثين، فقال رحمه الله : أي رجل كان لولا خلة واحدة! ثم سكت، ثم قال: ليس كل الخلال يكملها الرجل، فقلت له: أليس كان صاحب سنّة؟! فقال: لعمري لقد كتبت عنه، ولكن خلة واحدة كان لا يبالي ممن أخذ .

قال المصنف: ولقد بلغنا أن بعض الصوفية دخل على بعض الأمراء الظَلَمة، فوعظه، فأعطاه شيئاً، فقبله، فقال الأمير: كلنا صيادون وإنما الشباك تختلف. ثم أين هؤلاء من الأنفة من الميل للدنيا. فإن النبي ﷺ، قال: «اليدُ العُلياء خَيرٌ من الْيدِ السُّفلَى»[3] ــ واليد العليا هي المعطية. هكذا فسَّره العلماء، وهو الحقيقة، وقد تأوله بعض القوم، فقال: العليا هي الآخذة. قال ابن قتيبة: ولا أرى هذا إلاّ تأويل قوم استطابوا السؤال[4] .

تلبيس إبليس على الصوفية في لباسهم

قال المصنف: لمّا سمع أوائل القوم أن النبي ﷺ، كان يرقع ثوبه[5]، وأن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان في ثوبه رقاع، وأن أويساً

---

(١) رواه البخاري (٥٢) في الإيمان: باب فضل من استبرأ لدينه. ومسلم (١٥٩٩) في المساقاة: باب أخذ الحلال وترك الشبهات، واستبرأ لدينه: طلب البراءة، وتخلص من الشبهة. وعرضه: أي تخلص مما يذم به. والعرض موضع الذم والمدح من الإنسان.

(٢) قاء ما أكله: ألقاه من فمه.

(٣) أخرجه البخاري (١٤٢٩) في الزكاة: باب لا صدقة إلا عن ظهر غني. ومسلم (١٠٣٤) في الزكاة: باب بيان أفضل الصدقة.

(٤) السؤال: الاستعطاء.

(٥) روى أحمد (١٢١/٦) عن عائشة، قالت: «كان رسول الله ﷺ يخيط ثوبه ويخصف =

القرني كان يلتقط الرقاع من المزابل فيغسلها في الفرات، ثم يخيطها فيلبسها. . اختاروا المرقعات. ولقد أبعدوا في القياس، فإن رسول الله ﷺ وأصحابه كانوا يؤثرون البذاذة[1] ويعرضون عن الدنيا زهداً، وكان أكثرهم يفعل هذا لأجل الفقر، كما روينا عن مسلمة بن عبد الملك أنه دخل على عمر بن عبد العزيز وعليه قميص وسخ، فقال لامرأته فاطمة: اغسلي قميص أمير المؤمنين، فقالت: والله ما له قميص غيره، فأما إذا لم يكن هذا لفقر وقصد البذاذة فما له من معنى.

فأما صوفية زماننا فإنهم يعمدون إلى ثوبين أو ثلاثة، كل واحد منها على لون فيجعلوها خرقاً ويلفقونها، فيجمع ذلك الثوب وصفين: الشهرة والشهوة، فإن لبس مثل هذه المرقعات أشهى عند خلق كثير من الديباج، وبها يشتهر صاحبها أنه من الزهاد. أفتراهم يصيرون بصورة الرقاع كالسلف، كذا قد ظنوا، وأن أبليس قد لبس عليهم وقال: أنتم صوفية، لأن الصوفية كانوا يلبسون المرقعات، وأنتم كذلك، أتراهم ما علموا أن التصوف معنى لا صورة، وهؤلاء قد فاتهم التشبيه في الصورة والمعنى، أما الصورة فإن القدماء كانوا يرقعون ضرورة، ولا يقصدون التحسن بالمرقع، ولا يأخذون أثواباً جدداً مختلفة الألوان، فيقطعون من كل ثوب قطعة ويلفقونها على أحسن التوقيع، ويخيطونها ويسمونها مرقعة. وأما عمر رضي الله عنه، لمّا قَدِمَ بيت المقدس حين سأل القسيسون والرهبان عن أمير المسلمين، فعرضوا عليهم أمراء العساكر مثل أبي عبيدة وخالد بن الوليد وغيرهما، فقالوا: ليس هذا المصور عندنا، ألكم أمير أو لا؟ فقالوا: لنا أمير غير هؤلاء، فقالوا: هو أمير هؤلاء، قالوا: نعم. هو عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فقالوا: ارسلوا إليه ننظره، فإن كان هو سلَّمنا إليكم من غير قتال، وإن لم يكن هو فلا،

= نعله ويعمل ما يعمل الرجال في بيوتهم». قال الزين العراقي: رجاله رجال الصحيح، ورواه أبو الشيخ بلفظ «ويرقع الثوب».

(١) البذاذة: من بذ: إذا رثت هيئته.

فلو حاصرتمونا ما تقدرون علينا. فأرسلوا إلى عمر رضي الله عنه وأعلموه بذلك، فقدم عليهم وعليه ثوب مرقع سبع عشرة رقعة، بينها رقعة من أديم[1]. فلمّا رآه الروحانية[2] والقسوس على هذه الصفة سلَّموا بيت المقدس إليه من غير قتال. فأين هذا مما يفعله جهال الصوفية في زماننا، فنسأل الله العفو والعافية، وأما المعنى فإن اولئك كانوا أصحاب رياضة وزهد.

قال المصنف: ومن هؤلاء المذمومين من يلبس الصوف تحت الثياب، ويلوح بكمه حتى يُرى لباسه، وهذا لص ليلي، ومنهم من يلبس الثياب اللينة على جسده ثم يلبس الصوف فوقها، وهذا لص نهاري مكشوف. وجاء آخرون فأرادوا التشبه بالصوفية، وصعب عليهم البذاذة، وأحبوا التنعم، ولم يروا الخروج من صورة التصوف، لئلا يتعطل المعاش، فلبسوا الفوط الرفيعة واعتموا[3] بالرومي الرفيع، إلّا أنه بغير طراز القميص، والعمامة على أحدهم بثمن خسمة أثواب من الحرير.

وقد لبس إبليس عليهم أنكم صوفية بنفيس النفس. وإنما أرادوا أن يجمعوا بين رسوم التصوف وتنعُّم أهل الدنيا. من علاماتهم مصادقة الأمراء ومفارقة الفقراء كبراً وتعظيماً. وقد كان عيسى ابن مريم صلوات الله وسلامه عليه يقول: يا بني إسرائيل: ما لكم تأتونني، وعليكم ثياب الرهبان، وقلوبكم قلوب الذئاب الضواري[4]، البسوا لباس الملوك وألينوا قلوبكم بالخشية.

قال مالك بن دينار: إن من الناس ناساً إذا لقوا القراء ضربوا معهم بسهم، وإذا لقوا الجبابرة وأبناء الدنيا أخذوا معهم بسهم، فكونوا من قراء الرحمٰن بارك الله فيكم.

---

(١) الأديم: الجلد المدبوغ.

(٢) نسبة إلى الروح، ويقصد رجال الدين النصارى.

(٣) الفوط: الأزر، جمع فوطة. واعتموا: لبسوا العمائم.

(٤) الضواري: جمع الضاري، وهي الجوارح المفترسة.

قال المصنف: وإنما أكره لبس الفوط المرقعات لأربعة أوجه:

أحدها: أنه ليس من لباس السلف، **وإنما** كان السلف يرقعون ضرورة.

الثاني: أنه يتضمن ادعاء الفقر، وقد أمر الإنسان أن يظهر نعمة الله عليه.

الثالث: أنه إظهار للزهد، وقد أمرنا بستره.

والرابع: أنه تشبه بهؤلاء المتزحزحين عن الشريعة، ومن تشبه بقوم فهو منهم.

قال عبد الخالق الدينوري لبعض أصحابه: لا يعجبنك ما ترى من هذه اللبسة الظاهرة عليهم، فما زينوا الظواهر إلّا بعد أن خربوا البواطن.

قال المصنف: ومن الصوفية من يلبس الصوف ويحتج بأن النبي ﷺ لبس الصوف. وبما روي في فضيلة لبس الصوف، فأما لبس رسول الله ﷺ الصوف فقد كان يلبسه في بعض الأوقات[1]، ولم يكن لبسه شهرة عند العرب. وأما ما يروى في فضل لبسه فمن الموضوعات التي لا يثبت منها شيء. ولا يخلو لابس الصوف من أحد أمرين: إما أن يكون متعوداً لبس الصوف وما يجانسه من غليظ الثياب، فلا يكره ذلك له، لأنه لا يشهر به.. وإما أن يكون مترفاً لم يتعوده، فلا ينبغي له لبسه من وجهين؛

أحدهما: أنه يحمل بذلك على نفسه ما لا تطيق ولا يجوز له ذلك.

والثاني: أنه يجمع بلبسه بين الشهرة وإظهار الزهد.

ذكر عند الحسن الذين يلبسون الصوف، فقال: أكنوا الكبر[2] في قلوبهم، وأظهروا التواضع في لباسهم.

وقال إن قوماً جعلوا كبرهم في صدورهم شنعوا[3]، والله دينهم بهذا الصوف. وقال أبو قلابة: إياكم وأصحاب الأكسية.

وقال أبو العالية: إنما هذه ثياب الرهبان..

---

(١) كما في الغزو، وقد روى البخاري (٥٧٩٩) في اللباس: باب «لبس جبة الصوف في الغزو» حديث المغيرة، وفيه «وعليه جبة من صوف».

(٢) أكنوا الكبر: أخفوه وستروه.

(٣) شنعوا دينهم: شوهوا ذكرهم.

وقال أحمد بن أبي الحواري: قال لي سليمان بن أبي سليمان: أي شيء أرادوا بلباس الصوف؟ قلت: التواضع، قال: ما يتكبر أحدهم إلاّ إذا لبس الصوف. وقال سفيان الثوري لرجل عليه صوف: لباسك هذا بدعة.

وقال أبو سليمان الداراني لرجل لبس الصوف: إنك قد أظهرت آلة الزاهدين، فماذا أورثك هذا الصوف؟ فسكت الرجل، فقال له: يكون ظاهرك قطنياً، وباطنك صوفياً.

قال المصنف: وقد كان السلف يلبسون الثياب **المتوسطة**، لا المرتفعة ولا الدون، ويتخيرون أجودها للجمعة والعيدين ولقاء الإخوان، ولم يكن غير الأجود عندهم قبيحاً. وقد أخرج مسلم في «صحيحه» من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه، أنه رأى حلة سيراء[1] تُباع عند باب المسجد، فقال لرسول الله ﷺ: لو اشتريتها ليوم الجمعة وللوفود إذا قدموا عليك، فقال رسول الله ﷺ: «إنَّما يَلبسُ هذهِ مَنْ لا خَلاَقَ له[2] في الآخرة»[3] فما أنكر عليه ذكر التجمل بها، وإنَّما أنكر عليه لكونها حريراً.

قال أبو العالية: كان المسلمون إذا تزاوروا تجمَّلوا، وكان ابن مسعود من أجود الناس ثوباً، وأطيبهم ريحاً، وكان الحسن البصري يلبس الثياب الجياد، وكان مالك بن أنس يلبس الثياب **العدنية الجياد**.

قال المصنف: واعلم أن اللباس الذي يزري بصاحبه يتضمن إظهار الزهد وإظهار الفقر. وكأنه لسان شكوى من الله عز وجل، ويوجب احتقار اللابس، وكل ذلك مكروه ومنهي عنه.

وعن أبي الأحوص، عن أبيه، قال: أتيت رسول الله ﷺ وأنا قَشِفُ[4] الهيئة، فقال: «هَلْ لكَ مالٌ؟» قلت: نعم، قال: «مِنْ أيِّ المَالِ؟» قلت: من

---

(١) حلة سيراء: ثوب يخالطه حرير.

(٢) لا خلاق له: لا نصيب له.

(٣) أخرجه مسلم (٢٠٦٨) في اللباس. باب تحريم استعمال إناء الذهب.

(٤) أي رث الهيئة.

كل المال قد آتاني الله عز وجل من الإبل والخيل والرقيق والغنم، قال: «فإذا آتاك اللَّهُ عزّ وجلّ مالاً فَلْيرَ عَلَيكَ»(١). وعن جابر، قال: أتانا رسول الله ﷺ زائراً في منزلي فرأى رجلاً شعثاً، فقال: «أمَا كان يَجدُ هذا ما يسكِّنُ به رأسَهُ»، ورأى رجلاً عليه ثِيابٌ وَسِخَةٌ، فقال: «أمَا كان يَجدُ هذا ما يَغسلُ به ثيابَهُ»(٢).

وعن معمر بن المثنى، قال: مضى علي بن أبي طالب إلى الربيع بن زيادة يعوده، فقال له: يا أمير المؤمنين أشكو إليك عاصماً أخي، قال: ما شأنه؟ قال: ترك الملاذَّ ولبس العباءة فغم أهله، وأحزن ولده، فقال: عليّ عاصماً، فلما حضر بش في وجهه، وقال: أترى الله أحلَّ لك الدنيا وهو يكره أخذك منها. أنت والله أهون على الله من ذلك، فوالله لابتذالك نعم الله بالفعال! أحب إليه من ابتذالك بالمقال. فقال: يا أمير المؤمنين إني أراك تؤثر لبس الخشن وأكل الشعير، فتنفس الصُّعَداء(٣)، ثم قال: ويحك يا عاصم، إن الله افترض على أئمة العدل أن يقدروا أنفسهم(٤) بالعوام، لئلا يتبيغ بالفقير فقره. قال أبو بكر الأنباري: المعنى لئلا يزيد ويغلو. يقال: ــ تبيغ به الدم ــ إذا زاد وجاوز الحد.

قال المصنف: فإن قال القائل: تجويد اللباس هوى للنفس. وقد أمرنا بمجاهدتها، وتزين للخلق وقد أمرنا أن تكون أفعالنا لله لا للخلق. فالجواب:

---

(١) رواه الحاكم (١/٢٥) وصحَّحه. قال العراقي في أماليه: حديث صحيح (كذا في «فيض القدير» للمناوي)، ولفظه: «**فليرَ أثر نعمة الله عليك وكرامته**».

(٢) رواه أبو داود (٤٠٦٢) في اللباس: باب في غسل الثوب والختان، وإسناده صحيح، وأخرجه الحاكم (٤/١٨٦) وقال: على شرط البخاري ومسلم، وأقرّه الذهبي.

(٣) الصُّعَداء: المشقة وتنفُّس الصعداء: التنفس الشاق الممدود بعمق من همّ أو توجُّع.

(٤) يقدروا أنفسهم بالعوام: يساووها بهم، ويقيسوها عليهم.

أنه ليس كل ما تهواه النفس يذم، ولا كل التزين للناس يكره. وإنما ينهى عن ذلك إذا كان الشرع قد نهى عنه، أو كان على وجه الرياء في باب الدين، فإن الإنسان يحب أن يرى جميلاً، وذلك حظ النفس ولا يلام فيه. ولهذا يسرح شعره، وينظر في المرآة، ويسوي عمامته، ويلبس بطانة الثوب الخشن إلى داخل، وظهارته الحسنة إلى خارج. وليس في شيء من هذا ما يُكره ولا يُذم.

قال المصنف رحمه الله: فإن قيل: فما وجه ما رويتم عن سري السقطي أنه قال: لو أحسست بإنسان يدخل علي، فقلت: كذا بلحيتي ـ وأمرَّ يده على لحيته، كأنه يريد أن يسويها من أجل دخول الداخل عليه ـ لخشيت أن يعذبني الله على ذلك بالنار. فالجواب: أن هذا محمول منه على أنه كان يقصد بذلك الرياء في باب الدين من إظهار التخشع وغيره. فأما إذا قصد تحسين صورته لئلا يرى منه ما لا يستحسن فإن ذلك غير مذموم. فمن اعتقده مذموماً فما عرف الرياء ولا فهم المذموم.

وعن ابن مسعود، عن النبي ﷺ، قال: «لا يدخلُ الجنَّةَ من كان في قلبِهِ مِثقالُ ذَرةٍ من كِبرٍ»، فقال رجل: إن أحدنا يحب أن يكون ثوبه حسناً، ونعلُه حسنة، قال: «إنَّ اللَّهَ جَميلٌ يُحبُّ الجمالَ، الْكِبْرُ بَطَرُ الْحقِّ وغَمْطُ النَّاس»[1]. انفرد به مسلم.

قال المصنف رحمه الله: وقد كان في الصوفية مَن إذا لبس ثوباً خرق بعضه. وربما أفسد الثوب الرفيع القدر.

قال أبو عبد الله أحمد بن عطاء: كان مذهب أبي علي الروزباري تخريق أكمامه وتفتيق قميصه، قال: فكان يخرق الثوب المثمن[2] فيرتدي بنصفه، ويأتزر بنصفه، حتى إنه دخل الحمام يوماً وعليه ثوب، ولم يكن مع

---

(١) أخرجه مسلم (٩١) في الإيمان: باب تحريم الكبر وبيانه. بطر الحق: دفعه وإنكاره ترفعاً وتجبراً.
غمط الناس: احتقارهم.

(٢) المثمن: الذي قدر ثمنه، ويقصد الثوب الثمين.

أصحابه ما يأتزرون به، فقطعه على عددهم فأتزروا به، وتقدم إليهم أن يدفعوا الخرق إذا خرجوا للحمامي. قال ابن عطاء: قال لي أبو سعيد الكازروني: كنت معه في هذا اليوم، وكان الرداء الذي قطعه يُقوِّم بنحو ثلاثين ديناراً.

قال المصنف رحمه الله: ونظير هذا التفريط ما قال عبد الله بن يوسف: سمعت أبا الحسن البوشنجي يقول: كانت لي قبجة[1] طلبت بمئة درهم، فحضرني ليلة غريبان، فقلت للوالدة: عندك شيء لضيفيّ؟ قالت: لا، إلّا الخبز. فذبحت القبجة وقدمتها إليهما.

قال المصنف رحمه الله: قد كان يمكنه أن يستقرض ثم يبيعها ويعطي، فلقد فرط.

قال أبو عبد الرحمٰن السلمي: سمعت جدي يقول: دخل أبو الحسين الدراج البغدادي الريَّ، وكان يحتاج إلى لفاف لرجله، فدفع إليه رجل منديلاً دبيقياً[2]، فشقه نصفين وتلفف به، فقيل له: لو بعته واشتريت منه لفافاً وأنفقت الباقي، فقال رحمه الله: أنا لا أخون المذهب.

قال المصنف رحمه الله: قلت: فانظر إلى هذا الجهل والتفريط والبعد من العلم، فإنه قد صح عن رسول الله ﷺ: أنه نهى عن إضاعة المال[3] ولو أن رجلاً قطع ديناراً صحيحاً، وأنفقه كان عند الفقهاء مفرطاً فكيف بهذا التبذير المحرم. ونظير هذا تمزيقهم الثياب المطروحة عند الوجد، على ما سيأتي ذكره إن شاء الله، ثم يدعون أن هذه حالة، ولا خير في حالة تنافي الشرع. أفتراهم عبيد نفوسهم أم أمروا أن يعملوا بأرائهم؟ فإن كانوا عرفوا

---

(١) القبجة: واحد القَبَج للذكر والأنثى، وهو الحَجَل: طائر معروف.

(٢) بلدة بمصر ينتسب إليها الثياب الدبيقية.

(٣) ولفظة: «إنَّ اللَّهَ كرِهَ لكم قيلَ وقال، وإضاعة المال، وكثرةَ السُّؤال»، أخرجه البخاري (١٤٧٧) في الزكاة. ومسلم (١٣٤١/٣) في الأقضية.

أنهم يخالفون الشرع بفعلهم هذا ثم فعلوه إنه لعناد. وإن كانوا لا يعرفون، فلعمري إنه لجهل شديد.

قال المصنف: وفي الصوفية من يبالغ في تقصير ثوبه، وذلك شهرة أيضاً.

وعن العلاء، عن أبيه، أنه سمع أبا سعيد: سئل عن الإزار، فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إزارُ المسلم إلى أنْصافِ السَّاقينِ. لا جناحَ أو لا حرجَ عليه ما بينَهُ وبينَ الكعبينِ، ما كان أسفلَ من ذلك فهو في النَّارِ»[1].

وقال معمر: كان في قميص أيوب بعض التذييل، فقيل له، فقال: الشهرة اليوم في التشمير. وقد روى إسحاق بن إبراهيم بن هانىء، قال: دخلت يوماً على أحمد بن حنبل وعليّ قميص أسفل من الركبة وفوق الساق. فقال: أي شيء هذا وأنكره، وقال: هذا بالمرة لا ينبغي[2].

قال المصنف: وقد كان في الصوفية من يجعل على رأسه خرقة مكان العمامة. وهذا أيضاً شهرة، لأنه على خلاف لباس أهل البلد، وكل ما فيه شهرة فهو مكروه.

وقال المصنف: قد كان في الصوفية من يستكثر من الثياب وسوسة، فيجعل للخلاء ثوباً، وللصلاة ثوباً. وهذا لا بأس به، إلاَّ أنه لا ينبغي خشيةَ أن يتخذ سنة.

وكان فيهم من لا يكون له سوى ثوب واحد زهداً في الدنيا، وهذا حسن، إلاّ أنه إذا أمكن اتخاذ ثوب للجمعة والعيد كان أصلح وأحسن.

---

(١) رواه أبو داود (٤٠٩٣) في اللباس، باب في قدر موضع الإزار، وابن ماجه (٣٥٧٣) في اللباس باب موضع الإزار أين هو. ولفظه «إزْرَةُ المؤمن إلى نصف الساق...»، قال النووي: وإسناده صحيح.
لا جناح أو لا حرج: لا إثم. وإطالة الثياب في هذه الأيام أصبحت سنّة الجميع، إلاّ من رحم ربك وقليل ما هم. ولا يخلو ذلك من حظ للنفس في كثير من الأحيان.

(٢) كما أنه يكره إطالة الثوب، كذلك يكره المبالغة في تقصيره، وخير الأمور الوسط.

عن عبد الله بن سلام، قال: خطَبَنا رسول الله ﷺ في يوم جمعة فقال: «ما على أحدكم لو اشترى ثَوبينِ ليَومِ جمعةٍ سِوى ثوبِ مِهنَتِهِ»[1].

تلبيس إبليس على الصوفية في مطاعمهم ومشاربهم

قال المصنف رحمه الله: قد بالغ إبليس في تلبيسه على قدماء الصوفية، فأمرهم بتقليل المطعم وخشونته، ومنعهم من شرب الماء البارد، فلما بلغ إلى المتأخرين استراح من التعب، واشتغل بالتعجب من كثرة أكلهم ورفاهية عيشهم.

ذكر طرف مما فعله قدماؤهم

قال المصنف رحمه الله: كان في القوم من يبقى الأيام لا يأكل إلاّ أن تضعف قوته. وفيهم من يتناول كل يوم الشيء اليسير الذي لا يقيم البدن.

فروي لنا عن سهل بن عبد الله أنه كان في بدايته يشتري بدرهم دبساً، وبدرهمين سمناً، وبدرهم **دقيق الأرز**، فيخلطه ويجعله ثلاث مئة وستين كرة، فيفطر كل ليلة على واحدة. وحكى عنه أبو حامد الطوسي، قال: كان سهل يقتات ورق النبق مدة، وأَكَل دقاق التبن مدة ثلاث سنين، واقتات بثلاث دراهم في ثلاث سنين.

وقال أبو عبد الله بن مفلح: أخبرني أبي قال: أخبرني أبو عبد الله بن زيد، قال لي: منذ أربعين سنة ما أطعمت نفسي طعاماً إلاّ في وقت ما أحل الله لها الميتة.

وقال عيسى بن آدم بن أخي أبي يزيد: جاء رجل إلى أبي يزيد، قال: أريد أن أجلس في مسجدك الذي أنت فيه، قال: لا تطيق ذلك، فقال: إن رأيت أن توسعَ لي في ذلك، فأذن له فجلس يوماً لا يطعم فصبر، فلما

---

(١) أخرجه ابن ماجة (١٠٩٥) في كتاب «الإقامة» باب ما جاء في الزينة يوم الجمعة. قال في الزوائد: إسناده صحيح ورجاله ثقات.

كان في اليوم الثاني، قال لـه: يا أستاذ، لا بدَّ مما لا بدَّ منه، فقـال: يا غـلام لا بدَّ من الله، قال: يا أستاذ نريد القوت، قال: يا غلام القـوت عندنـا إطاعـة الله، فقـال: يا أستـاذ أريد شيئـاً يقيم جسدي في طـاعتـه عـز وجـل، فقـال: يا غلام إن الأجسام لا تقوم إلَّا بالله عز وجل.

وقال إبراهيم الخـواص: حدثني أخ لي كـان يصحب أبا تـراب نظر إلى صوفي مدَّ يده إلى قشـر البطيـخ ـ وكان قـد طوىٰ ثلاثة أيام ـ فقال لـه: تمد يدك إلى قشر البطيـخ، أنت لا يصلـح لك التصوف، الزم السوق.

قال أبو علي الروزباري: إذا قال الصوفي بعد خمسة أيـام: أنا جـائـع، فألزموه السوق وأمروه بالكسب.

قال المصنف: وقد كان فيهم قوم لا يأكلون اللحم، حتى قال بعضهم: أكـل درهم من اللحم يقسي القلب أربعين صباحـاً. وكان فيهم من يمتنـع من الـطيبات كلهـا. وفيهم من كـان يمتنـع من شـرب المـاء الصـافي. وفيهم من يمتنـع من شرب الماء البارد فيشرب الحار. ومنهم من يعاقب نفسه بترك الماء مدة.

قال أبو يزيد: ما أكلت شيئاً مما يأكله بنو آدم أربعين سنة، قال: وأسهل مـا لاقت نفسي مني أني سألتهـا أمراً من الأمـور فأبت، فعـزمت أن لا أشـرب الماء سنة، فما شربت الماء سنة.

وحكى أبو حامد الغزالي عن أبـي يزيد، أنه قال: دعوت نفسي إلى الله عـز وجل، فجمحت، فعـزمت عليها أن لا أشـرب الماء سنـة، ولا أذوق النوم سنة، فوفت لي بذلك.

قال المصنف: وقد رتب أبو طالب المكي للقوم ترتيبـات في المطاعم، فقـال: استحب للمريـد ألَّا يزيـد على رغيفين في يـوم وليلة. ومنهم من كـان يعمل في الأوقات فيأكل كل يوم، ثم يتـدرج إلى يومين وثـلاثة، قـال: والجوع ينقص دم الفـؤاد فيبيضه، وفي بياضـه نوره، ويـذيب شحم الفؤاد وفي ذوبانـه رقته، وفي رقته مفتاح المكاشفة.

قال المصنف رحمه الله تعالىٰ: وقد صنف لهم أبو عبد الله محمد بن علي الترمذي[1] كتاباً سمّاه «رياضة النفوس»، قال فيه: فينبغي للمبتدىء في هذا الأمر أن يصوم شهرين متتابعين توبةً من الله، ثم يفطر فيطعم اليسير، ويأكل كسرة كسرة، ويقطع الإدام والفواكه واللذة، ومجالسة الإخوان، والنظر في الكتب، وهذه كلها أفراح للنفس فيمنع النفس لذتها حتى تمتلىء غماً.

قال المصنف: وقد أخرج لهم بعض المتأخرين الأربعينية. يبقى أحدهم أربعين يوماً لا يأكل الخبز ولكنه يشرب الزيوتات، ويأكل الفواكه الكثيرة اللذيذة، فهذه نبذة من ذكر أفعالهم في مطاعمهم يدل مذكورها على مغفلها[2].

تلبيس إبليس عليهم
في هذه الأفعال وإيضاح الخطأ فيها

قال المصنف رحمه الله: أما ما نقل عن سهل ففعل لا يجوز، لأنه حمل على النفس ما لا تطيق، ثم إن الله عز وجل أكرم الآدميين بالحنطة، وجعل قشورها لبهائمهم، فلا تصلح مزاحمة البهائم في أكل التبن، وأي غذاء في التبن، ومثل هذه الأشياء أشهر من أن تحتاج إلى ردّ. وقد حكى أبو حامد عن سهل أنه كان يرى أن صلاة الجائع الذي قد أضعفه الجوع قاعداً أفضل من صلاته قائماً إذا قواه الأكل.

قال المصنف رحمه الله: وهذا خطأ، بل إذا تقوى على القيام كان أكله عبادة، لأنه يعين على العبادة، وإذا تجوع إلى أن يصلي قاعداً فقد تسبب إلى ترك الفرائض فلم يجز له، ولو كان التناول ميتة ما جاز هذا، فكيف وهو حلال، ثم أي قربة في هذا الجوع المعطِّل أدوات العبادة. وأما قول الحداد: وأنا أنظر أن يغلب العلم أم اليقين، فإنه جهل محض، لأنه ليس

---

(١) وهو غير صاحب السنن، فذاك أبو عيسى محمد بن عيسى الحافظ المتوفى سنة ٢٧٩هـ.

(٢) أي ما لم يذكر.

بين العلم واليقين تضـاد، إنمـا اليقين أعلى مـراتب العلم، وأين من العلم واليقين ترك ما تحتـاج إليه النفس من المـطعم والمشرب، وإنمـا أشار بـالعلم إلى ما أمره الشرع، وأشار باليقين إلى قوة الصبر، وهذا تخليط قبيـح، وهؤلاء قوم شددوا فيما ابتدعوا، وكانوا كقريش في تشددهم حتى سموا بـالحمس[1]، فجحـدوا الأصل وشـددوا في الفرع. وقـول الآخـر: مـلـحك مـدقـوق لست تـفلـح، من أقبـح الأشيـاء، وكيف يقـال عمن استعمـل مـا أبيـح لـه لست تفلـح، وأمَّا سويق الشعير فإنـه يورث القـولنـج. وقول آخر: الـزبـد بالعسـل إسـراف، قول مرذول، لأن الإسراف ممنوع منه شرعاً، وهذا مأذون فيـه. وقد صـح عن رسول الله ﷺ أنه كان يأكل القثاء بالرطب[2]، وكـان يحب الحلوى والعسل[3].

وكذلك قول الذي قال: ما أكلت إلَّا وقت أن يباح لي أكل الميتة، فإنـه فعل برأيه المرذول، وحمل على النفس مـع وجود الحلال. وقول أبـي يـزيد: القوت عندنا الله، كلام ركيك، فإن البـدن قـد بني على الحاجـة إلى الطعـام حتى إن أهـل النار في النـار يحتـاجـون إلى الـطعـام. وأمـا التقبيـح على من أخـذ قشر البـطيـخ بعد الـجـوع الطويـل فلا وجـه لـه، والـذي طـوى ثـلاثـاً لم يسلم من لوم الشرع.

وأما كونهم لا يأكلون اللحم، فهذا مذهب البراهمة الذين لا يرون ذبـح الحيوان. والله عز وجل أعلم بمصالـح الأبـدان فأبـاح اللحم لتقويتهـا، فأكـل اللحم يقـوي القوة، وتـركه يضعفهـا ويسيء الخلق. وقد كـان رسـول الله ﷺ يأكل اللحم ويحب الذراع من الشاة[4]، ودخل يوماً فقدم إليه طعام من طعـام

---

(١) الحمس المتشددون في الدين، ومفرده الأحمس.

(٢) أخـرجه البخـاري (٥٤٤٠) في الأطعمة: بـاب القثاء بـالرطب. ومسلم (٢٠٤٣) في الأشربة: باب أكل القثاء بالرطب.

(٣) رواه البخـاري (٥٤٣١) في الأطعمة: بـاب الحلوى والعسـل. ومسلم (١٤٧٤) في الطلاق: باب وجوب الكفارة على من حرم امرأته.

(٤) في «الشمائل» للترمذي (١٦٩) ولفظه: كان النبـي ﷺ يعجبه الذراع.

البيت، فقال: «ألم أرَ لكم برمة تفور»[1]. وكان الحسن البصري يشتري كل يوم لحماً، وعلى هذا كان السلف.

وأما من منع نفسه الشهوات فإن هذا على الإطلاق لا يصلح، لأن الله عز وجل لما خلق بني آدم على الحرارة والبرودة واليبوسة والرطوبة، وجعل صحته موقوفة على تعادل الأخلاط: الدم والبلغم والمرة الصفراء، والمرة السوداء، فتارة يزيد بعض الأخلاط فتميل الطبيعة إلى ما ينقصه مثل أن تزيد الصفراء، فيميل الطبع إلى الحموضة، أو ينقص البلغم فتميل النفس إلى المرطبات، فقد ركب في الطبع الميل إلى ما تميل إليه النفس وتوافقه، فإذا مالت النفس إلى ما يصلحها فمنعت، فقد قوبلت حكمة الباري سبحانه وتعالى بردها، ثم يؤثر ذلك في البدن، فكان هذا الفعل مخالفاً للشرع والعقل، ومعلوم أن البدن مطية الآدمي، ومتى لم يرفق بالمطية لم تبلغ، وإنما قلّت علوم هؤلاء فتكلموا بآرائهم الفاسدة، فإن أسندوا فإلى حديث ضعيف أو موضوع أو يكون فهمهم منه رديئاً. ولقد عجبت لأبي حامد الغزالي الفقيه كيف نزل مع القوم من رتبة الفقه إلى مذاهبهم حتى إنه قال: لا ينبغي للمريد إذا تاقت نفسه إلى الجماع أن يأكل ويجامع، فيعطي نفسه شهوتين فتقوى عليه.

قال المصنف رحمه الله: وهذا قبيح في الغاية، فإن الإدام شهوة فوق الطعام، فينبغي أن لا يأكل إداماً، والماء شهوة أخرى. أوليس في الصحيح أن رسول الله ﷺ طاف على نسائه بغسل واحد[2]، فهلا اقتصر على شهوة واحدة، أَوَليس في «الصحيحين» أن رسول الله ﷺ كان يأكل القثاء بالرطب[3]

---

(١) أخرجه البخاري (٥٤٣٠) في الأطعمة: باب الأدْم، ولفظه: دخل رسول الله ﷺ يوماً بيت عائشة، وعلى النار بُرْمة تفور، فدعا بالغداء، فأتي بخبز وأُدْم من أُدْم البيت. فقال: أَلَمْ أرَ لحماً؟ قالوا: بلَى يا رسول الله، ولكنه لحم تصدق به على بريرة، فأهدته لنا. فقال: «هو صدقة عليها، وهدية لنا».

(٢) أخرجه البخاري (٥٢١٥) في النكاح: باب من طاف على نسائه في غسل واحد.

(٣) سبق تخريجه قريباً.

وهاتان شهوتان. أو ما أكل عند أبي الهيثم بن التيهان خبزاً وشواء وبسراً[1]، وشرب ماء بارداً. أو ما كان الثوري يأكل اللحم والعنب والفالوذج ثم يقوم فيصلي، أو ما تعلف الفرس الشعير والتبن والقت[2]، وتطعم الناقة الخَبْط[3] والحَمْضَ[4]، وهل البدن إلاّ ناقة.

وإنما نهى بعضْ القدماء عن الجمع بين إدامين على الدوام لئلا يتخذ ذلك عادة فيحوج إلى كلفة، وإنما تجتنب فضول الشهوات لئلا يكون سبباً لكثرة الأكل وجلب النوم. ولئلا تتعود فيقل الصبر عنها فيحتاج الإنسان إلى تضييع العمر في كسبها، وربما تناولها من غير وجهها. وهذا طريق السلف في ترك فضول الشهوات. والحديث الذي احتجوا به: احرموا أنفسكم طيب الطعام، حديث موضوع. وأما إذا اقتصر الإنسان على خبز الشعير والملح الجريش[5] فإنه ينحرف مزاجه، لأن خبز الشعير يابس مجفف، والملح يابس قابض يضر الدماغ والبصر، وتقليل المطعَم يوجب تنشيف المعدة وضيقها.

واعلم أن المذموم من الأكل إنما هو فرط الشبع، وأحسن الآداب في المطعم أدب الشارع ﷺ.

قال المقدام بن معدي كرب: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما ملأ ابنُ آدمَ وعاءً شرّاً مِنْ بَطنِهِ بحَسْبِ ابنِ آدَم لُقيماتٌ يُقمنَ صُلْبَهُ، فإنْ كان لا بُدَّ، فثلثٌ لطعامه، وثلث لشرابه، وثلث لنفسه»[6].

---

(١) البسر: الثمر إذا لوح ولم ينضج.

(٢) القت: حب برِّي يأكله أهل البادية بعد دقه وطبخه.

(٣) الخبط: ورق الشجر ينفض بالمخابط.

(٤) الحمض: كل نبت حامض، أو ملح يقوم على ساق، وهو للماشية كالفاكهة للإنسان.

(٥) الجريش: الخشن الذي لم ينعم دقه.

(٦) أخرجه الترمذي (٢٣٨١) في الزهد، باب ما جاء في كراهية كثرة الأكل، وقال الترمذي: حديث حسن صحيح.

فقد أمر الشرع بما يقيم النفس حفظاً لها وسعيـاً في مصلحتها.

عن عبـد الله بن إبـراهيم بن يعقـوب الجيلي، قـال: سمعت أحمـد ابن حنبـل قـال لـه عقبـة بن مكـرم: هؤلاء الـذين يـأكلون قليـلاً ويقللون من مطعمهم، فقال: مـا يعجبني، سمعت عبد الـرحمٰن بن مهدي، يقـول: فعل قوم هذا فقطعهم عن الفرض.

وقال المصنف: فإن قيل: كيف تمنعون من التقلل، وقد رويتم أن عمر رضي الله عنه كان يأكل كل يوم إحدى عشرة لقمة، وأن ابن الزبيـر كان يبقـى أسبوعاً لا يأكل، وأن إبراهيم التيمي بقي شهرين. قلنا: قد يجري للإنسان من هذا الفن في بعض الأوقات غير أنه لا يدوم عليه، ولا يقصد الترقي إليـه. وقد كان في السلف من يجوع عوزاً، وفيهم من كان الصبر له عـادة لا يضر بـدنه. وفي العرب من يبقى أياماً لا يزيـد على شرب اللبن، ونحن لا نـأمر بـالشبـع، إنما ننهى عن جوع يضعف القوة ويؤذي البدن، وإذا ضعف البدن قلت العبادة.

عن أنس رضي الله عنه، قال: كـان يطرح لعمـر بن الخطاب رضي الله عنه الصاع من التمر فيأكله حتى حشفـه(١). وقد روينـا عن إبراهيم بن أدهم، أنه اشترى زبداً وعسلاً وخبزاً حوارى(٢)، فقيل له: هذا كله تأكله؟ فقـال: إذا وجدنا أكلنا أكل الرجال، وإذا عدمنا صبرنا صبر الرجال.

قـال المصنف رحمه الله: وأمـا الشرب من المـاء الصافي، فقـد تخيَّـره رسول الله ﷺ.

عن جـابر بن عبـد الله، أن رسول الله ﷺ، أتى قـوماً من الأنصـار يعود مريضاً فاستسقى، وجدول قريب منه، فقال: «إنْ كانَ عنـدكُم ماءٌ بـات في شَنٍّ وإلّا كَرعنا». أخرجه البخاري(٣).

---

(١) الحشف: أردأ التمر.

(٢) الحوارى: الدقيق الأبيض.

(٣) (٥٦١٣) في الأشربة: بـاب شرب اللبن بـالماء. والشنُّ، والشنّـة: القربـة العتيقة. وكرعنا: شربنا من النهر بالفم من غير إناء.

وعن عائشة رضي الله عنها: «أن رسول الله ﷺ كان يستقى له الماء العذب من بئر السقيا»[1].

قال المصنف: وينبغي أن يعلم أن الماء الكدر يولد الحصا في الكلى والسدد في الكبد، وأما الماء البارد فإنه إذا كانت برودته معتدلة فإنه يشد المعدة، ويقوي الشهوة، ويحسن اللون، ويمنع عفن الدم وصعود البخارات إلى الدماغ، ويحفظ الصحة، وإذا كان الماء حاراً **أفسد الهضم**، وأحدث الترهل وأذبل البدن، وأدى إلى الاستسقاء، فإن سخِّن بالشمس خيف منه البرص. وقد كان بعض الزهاد يقول: إذا أكلت الطيب وشربت الماء البارد متى تحب الموت، وكذلك قال أبو حامد الغزالي: إذا أكل الإنسان ما يستلذه قسا قلبه وكره الموت، وإذا منع نفسه شهواتها وحرمها لذاتها اشتهت نفسه الإفلات من الدنيا بالموت.

قال المصنف رحمه الله: **واعجباً** كيف يصدر هذا الكلام من فقيه، أترى لو تقلبت النفس في أي فن كان من التعذيب ما أحبت الموت، ثم كيف يجوز لنا تعذيبها، وقد قال الله عز وجل: ﴿ولا تقتُلُوا أنفسَكُمْ﴾[2]، ورضي منا بالإفطار في السفر رفقاً بها، وقال: ﴿يريدُ اللَّهُ بكمُ اليسرَ ولا يريدُ بكمُ العسرَ﴾[3]، أَوَليست مطيتنا التي عليها وصولنا.

وكيف لا نأوي لها وهي التي ... بها قطعنا السهل والحزونا[4]

وأما معاقبة أبي يزيد نفسه بترك الماء سنَة فإنها حالة مذمومة لا يراها

---

(١) ورواه أبو داود (٣٧٣٥) في الأشربة: باب في إيكاء الآنية، وإسناده جيد. ولفظه: كان يستعذب له الماء من بيوت السقيا. وفي الحديث دلالة على أن استعذاب الماء لا ينافي الزهد، ولا يدخل في الترفه المذموم.

(٢) سورة النساء: الآية ٢٩.

(٣) سورة البقرة: الآية ١٨٥.

(٤) **الحُزون**: جمع **حَزْن**، وهو ما غلظ من الأرض.

مستحسنة إلّا الجهّال، ووجه ذمّها أن للنفس حقاً، ومنع الحق مستحقه ظلم، ولا يحل للإنسان أن يؤذي نفسه، ولا أن يقعد في الشمس في الصيف بقدر ما يتأذى، ولا في الثلج في الشتاء. والماء يحفظ الرطوبات الأصلية في البدن، وينفذ الأغذية، وقوام النفس بالأغذية، فإذا منعها أغذية الآدميين، ومنعها الماء فقد أعان عليها، وهذا من أفحش الخطأ. وكذلك منعه إياها النوم. قال ابن عقيل: وليس للناس إقامة العقوبات ولا استيفاؤها من أنفسهم، يدل عليه أن إقامة الإنسان الحد على نفسه لا يجزىء، فإن فعله أعاده الإمام. وهذه النفوس ودائع الله عز وجل حتى إن التصرف في الأموال لم يطلق لأربابها إلّا على وجوه مخصوصة.

قال المصنف رحمه الله: وقد روينا في حديث الهجرة[1] أن النبي ﷺ تزوّد طعاماً وشراباً. وأن أبا بكر فرش له في ظل صخرة وحلب له لبناً في قدح، ثم صب ماء على القدح حتى برد أسفله، وكل ذلك من الرفق بالنفس. وأما ما رتبه أبو طالب المكي فحمل على النفس بما يضعفها. وإنما يمدح الجوع إذا كان بمقدار، وذكر المكاشفة من الحديث الفارغ. وأما ما صنفه الترمذي فكان ابتداع شرع[2] برأيه الفاسد. وما وجه صيام شهرين متتابعين عند التوبة، وما فائدة قطع الفواكه المباحة، وإذا لم ينظر في الكتب فبأي سيرة يقتدي.

فنسأل اللَّهَ عزَّ وجلَّ العصمة من تخليط المريدين والأشياخ، واللَّه الموفق.

قال المصنف رحمه الله: وهذا الذي نهينا عنه من التقلل الزائد عن الحد قد انعكس في صوفية زماننا فصارت همتهم في المأكل كما كانت همة متقدميهم في الجوع، لهم الغداء والعشاء والحلوى، وكل ذلك أو أكثره حاصل من أموال وسخة، وقد تركوا كسب الدنيا، وأعرضوا عن التعبد وافترشوا

---

(١) رواه البخاري (٣٩٠٦) في المناقب: باب هجرة النبي ﷺ إلى المدينة. ومسلم (٢٠٠٩) في الزهد: باب في حديث الهجرة.

(٢) أي: إنشاء شرع جديد مبتدع.

فراش البطالة، فلا همة لأكثرهم إلّا الأكـل واللعب. فإن أحسن محسن منهم، قالوا: طرح شكراً. . وإن أسـاء مسيء، قالـوا: استغفر. ويسمـون ما يلزمـونه إياه واجباً. وتسمية ما لم يسمه الشرع واجباً جناية عليه.

قام أبو مرحوم القاضي بالبصرة يقصّ على الناس فأبكى. فلمّا فـرغ من قصصه، قال: من يـطعمنا أرزة[1] في الله؟ فقـام شاب من المجلس، فقـال: أنـا، فقال: إجلس يـرحمك الله فقـد عرفنـا موضعـك، ثم قـام الثـانيـة ذلـك الشـاب، فقال: إجلس فقـد عرفنـا موضعك، فقام الثـالثة فقـال أبـو مـرحـوم لأصحـابه: قـوموا بنـا إليه، فقـاموا معـه، فأتـوا منزلـه، قال: فـأتينا بقـدر من باقلاء[2] فأكلناه بلا ملـح، ثم قال أبـو مرحـوم: عليّ بخوان خمـاسي وخمس مكاكيك[3] أرز، وخمسة أمنان[4] سمن، وعشـرة أمنان سكـر، وخمسة أمنـان صنوبر، وخمسـة أمنان فستق. فجيء بهـا كلها، فقـال أبو مـرحوم لأصحـابه: يا إخواني، كيف أصبحت الدنيا؟ قالوا: مشرق لونهـا، مبيضة شمسهـا، قال: اخرقوا فيها أنهارها، قال: فأتى بذلك السمن فأجري فيها. ثم أقبل أبو مرحوم على أصحابه، فقـال: يا إخـواني كيف أصبحت الدنيـا قالـوا: مشرق لـونها، مبيضة شمسها، مجراة فيها أنهارها، فقال: يا إخواني اغرسوا فيها أشجـارها، قـال: فأتي بـذلك الفستق والصنـوبر. فـألقي فيها. ثم أقبـل أبو مـرحوم على أصحابه فقال: يا إخواني كيف أصبحت الدنيا؟ قالـوا: مشـرق لـونها، مبيضة شمسهـا، ومجرى فيهـا أنهارهـا، وقد غـرست فيها أشجارها، وقد تـدلّـت لنـا ثمارها، قال: يا إخواني ارموا الدنيا بحجارتها، قال: فأتي بذلك السكر فألقي فيهـا. ثم أقبل أبـو مرحـوم على أصحابـه، فقـال: يـا إخـواني كيف أصبحت الدنيا؟ قالوا: مشرق لونهـا مبيضة شمسهـا، وقد أجـريت فيها أنهـارها ، وقـد

---

(١) الأرز: حب معروف يطبخ.

(٢) الباقلاء: الفول.

(٣) المكول: مكيال يسع صاعاً ونصف صاع.

(٤) المَنَا: كيل يكـال بـه السمن وغيره، أو ميـزان يـوزن بـه. ومثناه: مَنَـوان، ويجمـع على: أَمْنَاء.

غرست فيها أشجارها، وقد تدلت لنا ثمارها، فقال: يا إخواني، ما لنا وللدنيا اضربوا فيها براحتها، قال: فجعل يضرب فيها براحته ويدفعه بالخمس(١).

قال أبو الفضل أحمد بن سلمة: ذكرته لأبي حاتم الرازي، فقال: أملِهِ(٢) عليَّ، فأمليته عليه، فقال: هذا شأن الصوفية.

قال المصنف رحمه الله: وقد رأيت منهم من إذا حضر دعوة بالغ في الأكل ثم اختار من الطعام، فربما ملأ كميه من غير إذن صاحب الدار، وذلك حرام بالإجماع، ولقد رأيت شيخاً منهم قد أخذ شيئاً من الطعام ليحمله معه، فوثب صاحب الدار فأخذه منه.

تلبيس إبليس على الصوفية في السماع والرقص والوجد

قال المصنف رحمه الله: اعلم إن سماع الغناء يجمع شيئين؛ **أحدهما**: أنه يلهي القلب عن التفكر في عظمة الله سبحانه والقيام بخدمته. **والثاني**: أنه يميله إلى اللذات العاجلة التي تدعو إلى استيفائها من جميع الشهوات الحسية ومعظمها النكاح، وليس تمام لذته إلّا في المتجددات، ولا سبيل إلى كثرة المتجددات من الحل، فلذلك يحث على الزنى، فبين الغناء والزنى تناسب من جهة أن الغناء لذة الروح، والزنى أكبر لذات النفس. وقد ذكر أبو جعفر الطبري أن الذي اتخذ الملاهي رجل من ولد قابيل يقال له: ثوبال، اتخذ في زمان مهلائيل بن قينان آلات اللهو من المزامير والطبول والعيدان، فانهمك ولد قابيل في اللهو وتناهى خبرهم إلى من بالجبل من نسل شيث، فنزل منهم قوم وفشت الفاحشة وشرب الخمور.

قال المصنف رحمه الله: وهذا لأن الالتذاذ بشيء يدعو إلى التذاذه بغيره خصوصاً ما يناسبه، ولمّا يئس إبليس أن يسمع من المتعبدين شيئاً من

---

(١) أي بأصابعه الخمس.

(٢) من الإملاء: أي قله لأكتبه.

الأصوات المحرمة كالعود، نظر إلى المعنى الحاصل بالعود فـدرجه في ضمن الغنـاء بغيـرالعـود وحسنـه لهم، وإنمـا مـراده التـدريـج من شيء إلى شيء، والفقيه من نظر في الأسباب والنتائـج وتأمل المقـاصد، فـإن النظر إلى الأمـرد مباح إن أمن ثوران الشهوة، فإن لم يؤمن لم يجز. وتقبيل الصبيـة التي لها من العمر ثلاث سنوات جائـز إذ لا شهوة تقـع هنـاك في الأغلب، فإن وجـد شهوة حرم ذلك. وكذالك الخلوة بذوات المحارم، فإن خيف من ذلك حرم، فتأمـل هذه القاعدة.

وقد تكلم الناس في الغناء فأطالوا، فمنهم من حرَّمـه، ومنهم من أباحـه من غيـر كراهـة، ومنهم من كرهـة مـع الإباحـة. وفصل الخـطاب أن نقـول: ينبغي أن ينـظر في ماهيـة الشيء ثم يطلق عليـه التحـريم أو الكـراهـة أو غيـر ذلك، والغناء اسم يـطلق على أشياء منهـا غناء الحجيـج في الـطرقات، فـإن أقواماً من الأعاجم يقدمون للحـج فينشدون في الطرقات أشعـاراً يصفون فيهـا الكعبة وزمزم والمقام. وربما ضربوا مـع إنشادهم بطبل، فسماع تلك الأشعار مباح، وليس إنشادهم إياها مما يطرب ويخرج عن الاعتدال. وفي معنى هؤلاء الغزاة، فإنهم ينشدون أشعاراً يحرضون بها على الغزو. وفي معنى هـذا إنشاد المبارزين للقتال للأشعار تفاخراً عند النزال، وفي معنى هذا أشعار الحداة في طريق مكة كقول قائلهم:

بـشـــرهـــا دلـيـــلُهـــا وقـــالا   غداً تَرَيْنَ الـطلـحَ والجبالا[1]

وهـذا يحرك الإبـل والآدمي، إلاّ أن ذلك التحـريـك لا يـوجب الـطرب المخرج عن حد الاعتدال.

قال المصنف رحمه الله: وقد كان لرسول الله ﷺ حادٍ يقال له: أنجشة، يحـدو فتعنق[2] الإبـل، فقـال رسـول الله ﷺ: «يـا أنجشـة رويـدك سـوقـاً

(١) الطلـح: شجـر شائك ضخم بالحجاز ترعاه الإبل. والطلـح: أيضاً: الموز.
(٢) العنق: نوع من السير سريـع.

بالقوارير»[1]. وفي حديث سلمة بن الأكوع، قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى خيبر فسرنا ليلاً فقال رجل من القوم لعامر بن الأكوع: ألا تسمعنا من هنياتك[2]؟ وكان عامر رجلاً شاعراً فنزل يحدو بالقوم يقول:

لا هم لولا أنت ما اهتدينا ولا تصدَّقنا ولا صلَّينا
فألقين سكينة علينا وثبت الأقدام إذ لاقينا

فقال رسول الله ﷺ: مَنْ هذا السائق؟ قالوا: عامر بن الأكوع، فقال: يرحمه الله[3].

قال المصنف رحمه الله: وقد روينا عن الشافعي رضي الله عنه، أنه قال: أما استماع الحداء ونشيد الأعراب فلا بأس به.

قال المصنف رحمه الله: ومن إنشاد العرب قول أهل المدينة عند قدوم رسول الله ﷺ عليهم:

طلع البدر علينا من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا ما دعا لله داع

ومن هذا الجنس كانوا ينشدون أشعارهم بالمدينة، وربما ضربوا عليه بالدف عند إنشاده.

عن عائشة رضي الله عنها: أن أبا بكر دخل عليها وعندها جاريتان في أيام منى تضربان بدفين ورسول الله ﷺ مسجى عليه بثوبه، فانتهرهما أبو بكر، فكشف رسول الله ﷺ عن وجهه، وقال: «دعهن يا أبا بكر فإنها أيام عيد».

---

(١) أخرجه البخاري (٦٢١٠) في الأدب، باب المعاريض مندوحة عن الكذب، ومسلم (٢٣٢٣) في الفضائل، باب رحمة النبي للنساء. رويداً: قليلاً: أي سق سوقاً قليلاً فيهن. ومعناه: الأمر بالرفق. والقارورة: وعاء من زجاج، وجمعه قوارير. ويقال للنساء: قوارير من باب التشبيه.

(٢) هُنَيَّات: جمع هُنَيَّة، وهي تصغير هَنَة. والهنة تقع على كل شيء.

(٣) أخرجه البخاري (٤١٩٦) في المغازي: باب غزوة خيبر، ومسلم (١٨٠٢) في الجهاد، باب غزوة خيبر.

أخرجاه في «الصحيحين»[1].

قال المنصف رحمه الله: والظاهر من هاتين الجاريتين صغر السن، لأن عائشة كانت صغيرة وكان رسول الله ﷺ يسرب[2] إليها الجواري فيلعبن معها.

وعن عائشة رضي الله عنها، قالت: كانت عندنا جارية يتيمة من الأنصار فزوجناها رجلاً من الأنصار فكنت فيمن أهداها إلى زوجها، فقال رسول الله ﷺ: «ياعائشة إن الأنصار أناس فيهم غزل: فماقلتم؟» قالت دعونا بالبركة، قال: «أفلا قلتم:

أتيناكم أتيناكم فحيونا نحييكم
ولولا الذهب الأحمـ ـر ما حلت بواديكم
ولولا الحبة السمرا ء لم تسمن عذاريكم»[4]

قال المصنف: فقد بان بما ذكرنا ما كانوا يغنون به وليس مما يطرب، ولا كانت دفوفهنّ على ما يُعرف اليوم. وهذا مباح وإلى مثله أشار أحمد في الإباحة.

قال عبدوس: سمعت أبا حامد الخلفاني يقول لأحمد بن حنبل: يا أبا عبد الله، هذه القصائد الرقاق التي في ذكر الجنة والنار أي شيء تقول فيها؟ فقال: مثل أي شيء؟ قلت: يقولون:

إذا ما قال لي ربي أما استحييت تعصيني

---

(١) أخرجه البخاري (٩٨٧) في العيدين: باب العيدين إذا فاته العيد يصلي ركعتين، ومسلم (٨٩٢) في العيدين: باب الرخصة في اللعب.

(٢) يسرب إليها: يرسل إليها.

(٣) قال في «الفتح»: أخرجه أبو الشيخ في كتاب «النكاح»، وأخرج البخاري (٥١٦٢) في النكاح: باب النسوة التي يهدين المرأة إلى زوجها. عن عائشة، أنها زفت امرأة إلى رجل من الأنصار، فقال النبي ﷺ: «يا عائشةُ ما كان معكم من لهو، فإنَّ الأنصارَ يعجبهم اللَّهوُ».

(٤) العذارى، والعذاري: جمع عذراء، وهي المرأة البكر. والأبيات ذكرها في «الفتح» (٢٢٦/٩) من رواية شريك.

وتخفي الذنب من خلقي وبالعصيان تأتيني

فقال: أعد علي، فأعدت عليه، فقام ودخل بيته ورد الباب، فسمعت نحيبه من داخل البيت، وهو يقول:

إذا ما قال لي ربي أما استحييت تعصيني
وتخفي الذنب من خلقي وبالعصيان تأتيني

فأما الأشعار التي ينشدها المغنون المتهيئون[1] للغناء، ويصفون فيها المستحسنات، والخمر وغير ذلك مما يحرك الطباع، ويخرجها عن الاعتدال ويثير كامنها من حب اللهو، وهو الغناء المعروف في هذا الزمان، مثل قول الشاعر:

ذهبي اللون من وجنتيه النار تقتدح
خوفوني من فضيحته ليته وافى[2] وأفتضح

وقد أخرجوا لهذه الأغاني ألحاناً مختلفة كلها تخرج سامعها عن حيز الاعتدال، وتثير حب الهوى، ولهم شيء يسمونه البسيط يزعج القلوب عن مهل، ثم يأتون بالنشيد بعده فيجعجع القلوب. وقد أضافوا إلى ذلك ضرب القضيب والايقاع به على وفق الإنشاد، والدف بالجلاجل، والشبابة النائبة عن الزمر، فهذا الغناء المعروف اليوم.

قال المصنف رحمه الله: وقبل أن نتكلم في إباحته أو تحريمه أو كراهته نقول: ينبغي للعاقل أن ينصح نفسه وإخوانه، ويحذر تلبيس إبليس في إجراء هذا الغناء مجرى الأقسام المتقدمة التي يطلق عليها اسم الغناء. فلا يحمل الكلّ محملاً واحداً، فيقول: قد أباحه فلان وكرهه فلان. فنبدأ بالكلام في النصيحة للنفس والإخوان، فنقول:

معلوم أن طباع الآدميين تتقارب، ولا تكاد تتفاوت، فإذا ادعى الشاب السليم البدن، والصحيح المزاج أن رؤية المستحسنات لا تزعجه، ولا تؤثر عنده ولا تضره

---

(١) المتهيئون: المتفرغون.
(٢) وافى: أتى.

في دينه، كذبناه، لما نعلم من استواء الطباع، فإن ثبت صدقه عرفنا أن به مرضاً خرج به عن حيز الاعتدال، فإن تعلل فقال: إنما أنظر إلى هذه المستحسنات معتبراً فأتعجب من حسن الصنعة في دعج[1] العينين، ورقّة الأنف، ونقاء البياض. قلنا له: في أنواع المباحات ما يكفي في العبرة، ها هنا ميل طبعك يشغلك عن الفكرة ولا يدع لبلوغ شهوتك وجود فكرة. فإن ميل الطبع شاغل عن ذلك، وكذا من قال: إن هذا الغناء المطرب المزعج للطباع المحرك لها إلى العشق، وحب الدنيا لا يؤثر عندي ولا يلفت قلبي إلى حب الدنيا الموصوفة فيه، فإنا نكذبه لموضع اشتراك الطباع. ثم إن كان الأمر كما زعم، فينبغي أن لا نبيحه إلّا لمن هذه صفته، والقوم قد أباحوه على الإطلاق للشاب المبتدىء والصبي الجاهل. حتى قال أبو حامد الغزالي: إن التشبيب بوصف الخدود، والأصداغ، وحسن القد، والقامة، وسائر أوصاف النساء. الصحيح أنه لا يحرم.

قال المصنف رحمه الله: فأما من قال: إني لا أسمع الغناء للدنيا، وإنما آخذ منه إشارات فهو يخطىء من وجهين:

أحدهما ــ أن الطبع يسبق إلى مقصوده قبل أخذ الإشارات فيكون، كمن قال: إني أنظر إلى هذه المرأة المستحسنة لأتفكّر في الصنعة.

الثاني ــ أنه يقل فيه وجود شيء يشار به إلى الخالق، وقد جل الخالق تبارك وتعالى أن يقال في حقه إنه يعشق، ويقع الهيمان به. وإنما نصيبنا من معرفته الهيبة والتعظيم، فقط.

وإذ قد انتهت النصيحة فنذكر ما قيل في الغناء.

أما مذهب أحمد رحمه الله، فإنه كان الغناء في زمانه إنشاد قصائد الزهد، إلّا أنهم لمّا كانوا يلحنونها اختلفت الرواية عنه. فروى عنه ابنه عبد الله، أنه قال: الغناء ينبت النفاق في القلب، لا يعجبني. وروى عنه إسماعيل بن إسحاق الثقفي: أنه سئل عن استماع القصائد، فقال: أكرهه، هو بدعة، ولا يجالسون. وروى عنه

(١) العين الدعجاء: الواسعة الشديدة السواد.

أبو الحارث، أنه قال: التغبير[1] بدعة، فقيل له: إنه يرقق القلب، فقال: هو بدعة. وروى عنه يعقوب الهاشمي: التغبير بدعة محدث. وروى عنه يعقوب بن غياث: كره التغبير، وأنه نهى عن استماعه.

قال المصنف: فهذه الروايات كلها دليل على كراهية الغناء، قال أبو بكر الخلال: كره أحمد القصائد لما قيل له إنهم يتماجنون، ثم روى عنه ما يدل على أنه لا بأس بها. قال المروزي: سألت أبا عبد الله عن القصائد، فقال: بدعة، فقلت له: إنهم يهجرون[2]، فقال: لا يبلغ بهم هذا كله.

قال المصنف: وقد روينا أن أحمد سمع قوالاً عند ابنه صالح فلم ينكر عليه، فقال له صالح: يا أبت أليس كنت تنكر هذا فقال: إنما قيل لي إنهم يستعملون المنكر فكرهته، فأما هذا فإني لا أكرهه.

قال المصنف رحمه الله: وقد ذكر أصحابنا عن أبي بكر الخلال وصاحبه عبد العزيز إباحة الغناء، وإنما أشار إلى ما كان في زمانهما من القصائد الزهديات، وعلى هذا يحمل ما لم يكرهه أحمد. ويدل على ما قلت أن أحمد بن حنبل سئل عن رجل مات وترك ولداً وجارية مغنية، فاحتاج الصبي إلى بيعها. فقال: لا تباع على أنها مغنية، فقيل له: إنها تساوي ثلاثين ألف درهم، ولعلها إذا بيعت ساذجة تساوي عشرين ديناراً، فقال: لا تباع إلّا على أنها ساذجة.

قال المصنف: وإنما قال هذا، لأن الجارية المغنية لا تغني بقصائد الزهديات، بل بالأشعار المطربة المثيرة للطبع إلى العشق، وهذا دليل على أن الغناء محظور، إذ لو لم يكن محظوراً ما أجاز تفويت المال على اليتيم. وصار هذا كقول أبي طلحة للنبي ﷺ: عندي خمر لأيتام. فقال: «أرقها»[3]. فلو جاز

---

(١) قال في القاموس: المغَبِّرَة: قوم يغبرون بذكر الله، أي يهللون ويرددون الصوت بالقراءة وغيرها، سمّوا بها لأنهم يرغبون الناس في الغابرة: أي الباقية.

(٢) يهجرون: أي يخلطون ويهذون.

(٣) رواه أحمد (١١٩/٣)، وأبو داود (٢٦٧٥) في الأشربة: باب ما جاء في الخمر تخلل.

استصلاحها لما أمره بتضييع أموال اليتامي . وروى المروزي عن أحمد ابن حنبل، أنه قال: كسب المخنث خبيث يكسبه بالغناء، وهذا لأن المخنث لا يغني بالقصائد الزهدية، إنما يغني بالغزل والنوح. فبان من هذه الجملة أن الروايتين عن أحمد في الكراهة وعدمها تتعلق بالزهديات الملحنة، فأما الغناء المعروف اليوم فمحظور عنده، كيف ولو علم ما أحدث الناس من الزيادات.

وأما مذهب مالك بن أنس رحمه الله تعالى، فقد نهى عن الغناء وعن استماعه، وقال: إنما يفعله الفساق، وقال: إذا اشترى جارية فوجدها مغنية كان له ردها بالعيب.

وأما مذهب أبي حنيفة رضي الله عنه، فكان يكره الغناء ويجعل سماع الغناء من الذنوب، وكذلك مذهب سائر أهل الكوفة: إبراهيم، والشعبي، وحماد، وسفيان الثوري وغيرهم، لا اختلاف بينهم في ذلك، ولا يعرف بين أهل البصرة خلاف في كراهة ذلك والمنع منة، إلّا ما روى عبيد الله بن الحسن العنبري أنه كان لا يرى به بأساً.

وأما الشافعي رحمة الله عليه، فإنه قال: خلفت بالعراق شيئاً أحدثته الزنادقة يسمونه التغبير يشغلون به الناس عن القرآن .

قال المصنف رحمه الله: وقد ذكر أبو منصور الأزهري المغبرة: قوم يغبرون بذكر الله بدعاء وتضرع، وقد سمّوا ما يطربون فيه من الشعر في ذكر الله عزوجل تغبيراً، كأنهم إذا تناشدوها بالألحان طربوا ورقصوا وأرهجوا فسموا مغبرة لهذا المعنى[1] . وقال الزجاج: سموا مغبرين لتزهيدهم الناس في الفاني من الدنيا، وترغيبهم في الآخرة.

قال أبو الطيب طاهر بن عبد الله الطبري: قال الشافعي: الغناء لهو مكروه يشبه الباطل، ومن استكثر منه فهو سفيه ترد شهادته، قال: وكان الشافعي يكره التغبير.

قال المصنف: وقد كان رؤساء أصحاب الشافعي رضي الله عنهم ينكرون

(١) تهذيب اللغة: ١٢٢/٨ .

السماع. وأما قدماؤهم فلا يعرف بينهم خلاف. وأما أكابر المتأخرين فعلى الإنكار. منهم أبو الطيب الطبري وله في ذم الغناء والمنع كتاب مصنف. قال: لا يجوز الغناء ولا سماعه ولا الضرب بالقضيب. وقد نص الشافعي في كتاب «أدب القضاء» على أن الرجل إذا دام على سماع الغناء ردت شهادته وبطلت عدالته.

قال المصنف رحمه الله: فهذا قول علماء الشافعية وأهل التدين منهم، وإنما رخص في ذلك من متأخريهم من قلَّ علمه وغلبه هواه. وقال الفقهاء من أصحابنا: لا تقبل شهادة المغني والرقاص، والله الموفق.

ذكر الأدلة على كراهية الغناء والنوح والمنع منهما

قال المصنف: وقد استدل أصحابنا بالقرآن والسنّة والمعنى.

فأما الاستدلال من القرآن فبثلاث آيات:

الآية الأولى قوله عز وجل: ﴿ومِنَ النَّاسِ مَنْ يَشتري لَهوَ الْحديثِ﴾[1]. قال: ابن مسعود عن قول الله عز وجل: ﴿ومِنَ النَّاسِ مَنْ يَشترِي لَهْوَ الْحديثِ﴾، قال: هو والله الغناء. وعن ابن عباس ﴿ومِنَ النَّاسِ مَنْ يَشترِي لَهْوَ الْحديثِ﴾، قال: هو الغناء وأشباهه، وعن مجاهد: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشترِي لهو الحديث﴾ قال: هو الغناء، وعن سعيد بن يسار، قال: سألت عكرمة عن لهو الحديث قال: هو الغناء، وكذلك قال الحسن وسعيد بن جبير وقتادة وإبراهيم النخعي.

الآية الثانية: قوله عز وجل: ﴿وأَنتُمْ سَامِدُونَ﴾[2]، عن ابن عباس: ﴿وأَنتُمْ سَامِدُونَ﴾، قال: هو الغناء بالحميرية. سمد لنا: غنى لنا. وقال مجاهد: هو الغناء. يقول أهل اليمن: سمد فلان: إذا غنَّى.

---

(١) سورة لقمان: الآية ٦.

(٢) سورة النجم: الآية ٦١.

وسامدون: لاهون غافلون عما يطلب منكم.

الآيـة الثالثـة: قولـه عز وجـل: ﴿واسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَـطعتَ منهُمْ بصوْتِـكَ وَأَجلِبْ عَليهِمْ بخَيْلِكَ﴾(١) عـن مجـاهـد: ﴿واسْتَفْـزِزْ مَنِ اسْتَـطعتَ منهُمْ بصوْتِكَ﴾، قال: هو الغناء والمزامير.

أمـا السنّة ــ فعن نـافـع عن ابن عمر رضي الله عنهما: أنـه سمـع صـوت زمارة راع فوضـع أصبعيـه في أذنيه، وعـدل راحلته عن الـطريق، وهو يقـول: يا نافع أتسمع فأقول: نعم فيمضي، حتى قلت: لا فوضـع يديه وأعاد راحلته إلى الطريق، وقال: رأيت رسول الله ﷺ سمـع زمارة راع فصنـع مثل هذا(٢).

قـال المصنف رحمه الله: إذا كـان هذا فعلهم في حق صـوت لا يخرج عن الاعتدال، فكيف بغناء أهل الزمان وزمورهم.

وعن أبـي أمامة، قال: «نهى رسول الله ﷺ عن شـراء المغنيات وبيعهن وتعليمهن، وقــال: ثمنهن حـرام». وقـرأ: ﴿ومِنَ النَّـاسِ مَنْ يَشتـرِي لَهْـوَ الْحـديثِ لِيُضلَ عَنْ سبيـلِ اللَّهِ بغيرِ عِلْمٍ ويَتَّخـذَهَا هُـزُواً أولئك لهم عذابٌ مُهين﴾(٣).

وروى عبد الرحمـٰن بن عـوف عن النبـي ﷺ أنه قـال: «إنما نهيت عن صوتين أحمقين فاجرين: صوت عند نغمة، وصوت عند مصيبة»(٤).

---

(١) سورة الإسراء: الآية ٦٤.
واستفزز: استخف واستمل. بصوتك: بدعائك. وأجلب: صح. بخيلك ورجلك: الركاب والمشاة.

(٢) رواه أبـو داود (٤٩٢٤) في الأدب: باب كراهية الغناء. قال أبو علي اللؤلؤي سمعت أبا داود يقول: هذا حديث منكر.

(٣) أخـرجه التـرمذي (١٢٨٢) في البيـوع: بـاب مـا جـاء في كـراهيـة بيـع المغنيات، وابن مـاجه (٢١٦٨) في التجـارة: بـاب مـا لا يحل بيعـه. وقال التـرمـذي: حـديث أبـي أمامة لا نعرفه إلاّ من هـٰذا الوجه، وقد تكلم بعض أهل العلم في علي بن زيـد وضعفه.

(٤) رواه الترمذي (١٠٠٥) في الجنائز: باب ما جاء في الرخصة في البكاء على الميت، عن جـابر بلفظ: أن النبـي ﷺ أخـذ بيـد عبـد الـرحمـٰن بن عـوف فـانـطلق بـه إلى =

وقال رسول الله ﷺ: «إذا فعلتْ أُمتي خمْسَ عشْرَةَ خصلةً حلَّ بها البلاءُ» فذكر منها: «إذا اتخذتِ القينات والمعازف»[1].

وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا اتُّخذَ الفيءُ دُوَلاً، والأمانةُ مَغْنَماً، والزكاةُ مَغْرَماً، وتُعلمَ لغيرِ الدينِ، وأطاع الرجلُ امرأتَهُ وعقَّ أُمَهُ، وأدنى صديقَهُ، وأقصَى أَباه، وظهرتِ الأصواتُ في المساجِدِ، وساد القبيلَةَ فاسقُهُمْ، وكان زعيمُ القومِ أرذلَهُمْ، وأُكرِمَ الرجلُ مخافَةَ شرِّه، وظهرت القيناتُ والمعازفُ، وشَربتِ الخمورُ ولعنَ آخرُ هذه الأمةِ أوّلَها، فَلْيرتَقبُوا عندَ ذلك ريحاً حمراء، وزلزلةً وخسفاً ومسخاًوقذفاً، وآياتٍ تتابعُ كنظامٍ بالٍ قُطعَ سِلكُهُ فتتابعَ»[2].

وعن النبي ﷺ، قال: «يكون في أمتي خسف وقذف ومسخ» قيل: يا رسول الله متى؟ قال: «إذا ظهرت المعازف والقينات واستحلت الخمر»[3].

وأما الآثار ــ فقال ابن مسعود: الغناء ينبت النفاق في القلب كما ينبت الماء البقل. ومر ابن عمر رضي الله عنه، بقوم محرمين وفيهم رجل يتغنى، قال: ألَا لا سمع الله لكم. ومر بجارية صغيرة تغني، فقال: لو ترك الشيطان أحداً لترك هذه. وسأل رجل القاسم بن محمد عن الغناء، فقال: أنهاك عنه وأكرهه لك.

= ابنه إبراهيم، فوجده يجود بنفسه فأخذه النبي ﷺ فوضعه في حجره فبكى، فقال له عبد الرحمٰن: أتبكي؟ أو لم تكن نهيت عن البكاء؟ فقال: «لا، ولكن نهيت عن صوتين أحمقين فاجرين: صوت عند مصيبة: خمش وجوه، وشق جيوب، ورنة شيطان» الحديث. قال الترمذي: هذا حديث حسن.

(1) أخرجه الترمذي (٢٢١٠) في الفتن: باب ما جاء في علامة حلول المسخ، وفي سنده ضعف عن علي رضي الله عنه.

(2) أخرجه الترمذي (٢٢١١) في الفتن: باب ما جاء في علامة المسخ والخسف. وإسناده ضعيف، وقال الترمذي: هذا حديث غريب.

(3) أخرجه الترمذي (٢٢١٢) في الفتن: باب ما جاء في علامة حلول المسخ والخسف وهو حديث حسن.

وعن الشعبي، قال: لعن الله المغني والمغنى له.

وكتب عمر بن عبد العزيز إلى مؤدب ولده: ليكن أول ما يعتقدون من أدبك بغض الملاهي التي بدؤها من الشيطان، وعاقبتها سخط الرحمان جلَّ وعزَّ، فإنه بلغني عن الثقات من حملة العلم أن حضور المعازف واستماع الأغاني واللهج بها ينبت النفاق في القلب كما ينبت الماء العشب. ولعمري لتوقي ذلك بترك حضور تلك المواطن أيسر على ذي الذهن من الثبوت علي النفاق في قلبه. وقال فضيل بن عياض: الغناء رقية الزنى. وقال الضحاك: الغناء مفسدة للقلب مسخطة للرب. وقال يزيد بن الوليد: يا بني أمية إياكم والغناء فإنه يزيد الشهوة ويهدم المروءة، وإنه لينوب عن الخمر، ويفعل ما يفعل السكر، فإن كنتم لا بد فاعلين فجنِّبوه النساء، فإن الغناء داعية الزنى.

قال المصنف رحمه الله: وكم قد فتنت الأصوات بالغناء من عابد وزاهد، وقد ذكرنا جملة من أخبارهم في كتابنا المسمى بـ «ذم الهوى».

قال المصنف رحمه الله: وأما المعنى فقد بيَّنا أن الغناء يخرج الإنسان عن الاعتدال ويغير العقل. وبيان هذا أن الإنسان إذا طرب فعل ما يستقبحه في حال صحته من غيره من تحريك رأسه، وتصفيقة يديه، ودق الأرض برجليه إلى غير ذلك مما يفعله أصحاب العقول السخيفة، والغناء يوجب ذلك بل يقارب فعله فعل الخمر في تغطية العقل، فينبغي أن يقع المنع منه.

قال أبو عبد الله بن بطة العكبري: سألني سائل عن استماع الغناء، فنهيته عن ذلك وأعلمته أنه مما أنكرته العلماء، واستحسنه السفهاء، وإنما تفعله طائفة سموا بالصوفية، أهل همم دنيئة يظهرون الزهد، ويدعون الشوق والمحبة، ويسمعونه من الأحداث والنساء، ويطربون ويصعقون ويتغاشون[1] ويتماوتون، ويزعمون أن ذلك من شدة حبهم لربهم وشوقهم إليه، تعالى الله عما يقوله الجاهلون علواً كبيراً.

---

(١) أي يظهرون أنهم مغشي عليهم فاقدو الحس والحركة.

ذكر الشبه التي تعلق بها من أجاز سماع الغناء

فمنها حديث عائشة رضي الله عنها أن الجاريتين كانتا تضربان عندها بدفين، وفي بعض ألفاظه: دخل عليَّ أبو بكر وعندي جاريتان من جواري الأنصار تغنيان بما تقاولت به الأنصار يوم بعاث[1]، فقال أبو بكر: أمزمور الشيطان في بيت رسول الله ﷺ؟ فقال رسول الله: «دعهما يا أبا بكر إن لكل قوم عيداً وهذا عيدنا»[2]. وقد سبق ذكر هذا الحديث.

ومنها حديث عائشة رضي الله عنها: أنها زفَّت امرأة إلى رجل من الأنصار، فقال النبي ﷺ: «يا عائشة ما كان معهم من اللهو، فإن الأنصار يعجبهم اللهو»[3].

ومنها حديث أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبيّ ﷺ، أنه قال: «ما أذن الله عزَّ وجلَّ لشيء ما أذن لنبي يتغنَّى بالقرآن»[4].

ومنها حديث ابن حاطب، عن النبي ﷺ، أنه قال: «فصل ما بين الحلال والحرام الضرب بالدف»[5].

والجواب ـ أما حديثا عائشة رضي الله عنها، فقد سبق الكلام عليهما وبيَّنا أنهم كانوا ينشدون الشعر، ومثل ذلك لا يخرج الطباع عن الاعتدال، وكيف يحتج بذلك الواقع في الزمان السليم عند قلوب صافية على هذه الأصوات المطربة الواقعة في زمان كدر، عند نفوسٍ قد تملكها الهوى،

---

(١) معركة. جرت بين الأوس والخزرج في مكان قرب المدينة.

(٢) أخرجه البخاري (٩٤٩) في العيدين: باب الحراب والدرق يوم العيد، ومسلم (٨٩٢) في العيد: باب الرخصة في اللعب.

(٣) أخرجه البخاري (٥١٦٢) في النكاح: باب النسوة اللاتي يهدين المرأة إلى زوجها.

(٤) أخرجه البخاري (٥٠٢٣) في فضائل القرآن: باب من لم يتغنّ بالقرآن، وغيره، ومسلم (٧٩٢) في صلاة المسافرين: باب استحباب تحسين الصوت بالقرآن. ومعنى أذن: أي استمع.

(٥) رواه الترمذي (١٠٨٨) في النكاح: باب ما جاء في إعلان النكاح، وإسناده حسن.

ما هذا إلاَّ مغالطة للفهم. أو ليس قد صح في الحديث عن عائشة رضي الله عنها، أنها قالت: لو رأى رسول الله ﷺ ما أحدث النساء لمنعهن المساجد[1].
وإنما ينبغي للمفتي أن يزن الأحوال كما ينبغي للطبيب أن يزن الزمان والسن والبلد، ثم يصف على مقدار ذلك، وأين الغناء بما تقاولت به الأنصار يوم بعاث من غناء أمرد مستحسن بآلات مستطابة، وصناعة تجذب إليها النفس، وغزليات يذكر فيها الغزال والغزالة، والخال والخد والقد والاعتدال، فهل يثبت هناك طبع هيهات، بل ينزعج شوقاً إلى المستلذ، ولا يدعي أنه لا يجد ذلك إلاَّ كاذب أو خارج عن حد الآدمية، ومن ادّعى أخذ الإشارة من ذلك إلى الخالق فقد استعمل في حقه ما لا يليق به، على أن الطبع يسبقه إلى ما يجد من الهوى.

وأما قوله يتغنى بالقرآن، فقد فسَّره سفيان بن عيينة، فقال: معناه يستغني به. وفسَّره الشافعي، فقال: معناه يتحزّن به ويترنّم. وقال غيرهما: يجعله مكان غناء الركبان إذا ساروا. وأما الضرب بالدف، فقد كان جماعة من التابعين يكسرون الدفوف وما كانت هكذا، فكيف لو رأوا هذه، وكان الحسن البصري يقول: ليس الدف من سنَّة المرسلين في شيء. وقال أبو عبيد القاسم بن سلام: من ذهب به إلى الصوفية فهو خطأ في التأويل على رسول الله ﷺ، وإنما معناه عندنا **إعلان النكاح**، واضطراب الصوت به والذكر في الناس.

قال المصنف رحمه الله: ولو حمل على الدف حقيقة، على أنه قد قال أحمد ابن حنبل: أرجو أن لا يكون بالدف بأس في العرس ونحوه، وأكره الطبل.

قال المصنف رحمه الله: وكل ما احتجوا به لا يجوز أن يستدل به على جواز هذا الغناء المعروف المؤثر في الطباع.

---

(١) أخرجه البخاري (٨٦٩) في كتاب «الأذان»: باب انتظار الناس قيام الإمام، ومسلم (٤٤٥) في الصلاة: باب خروج النساء إلى المساجد.

قال أبو الطيِّب الطبري: أما سماع الغناء من المرأة التي ليست بمحرم، فإن أصحاب الشافعي قالوا: لا يجوز سواء كانت حرّة أو مملوكة، قال: وقال الشافعي: وصاحب الجارية إذا جمع الناس لسماعها فهو سفيه ترد شهادته ثم **غلظ** القول فيه فقال: وهو دياثة[1].

قال المصنف رحمه الله: وإنما جعل صاحبها سفيهاً فاسقاً لأنه دعا الناس إلى الباطل، ومن دعا إلى الباطل كان سفيهاً فاسقاً.

وقد أخبرنا أبو القاسم الحريري، عن أبي طالب الطبري، قال: قال بعضهم: إنا لا نسمع الغناء بالطبع الذي يشترك فيه الخاص والعام، قال: وهذا تجاهل منه عظيم لأمرين:

أحدهما ــ أنه يلزمه على هذا أن يستبيح العود والطنبور وسائر الملاهي، لأنه يسمعه بالطبع الذي لا يشاركه فيه أحد من الناس، فإن لم يستبح ذلك فقد نقض قوله، وإن استباحه فقد فسق.

والثاني ــ أن هذا المدعي لا يخلو من أن يدعي أنه فارق طبع البشر وصار بمنزلة الملائكة، فإن قال هذا فقد تخرص على طبعه، وعلم كل عاقل كذبه إذا رجع إلى نفسه، ووجب أن لا يكون مجاهداً لنفسه، ولا مخالفاً لهواه، ولا يكون له ثواب على ترك اللذات والشهوات.

وهذا لا يقوله عاقل، وإن قال أنا على طبع البشر المجبول على الهوى والشهوة. قلنا له: فكيف تسمع الغناء المطرب بغير طبعك، أو تطرب لسماعه لغير ما غرس في نفسك.

قال أبو القاسم الدمشقي: سئل أبو علي الروذباري عمن سمع الملاهي ومن يقول: هي لي حلال، لأني قد وصلت إلى درجة لا تؤثر فيّ اختلاف الأحوال، فقال: نعم. قد وصل لعمري، ولكن إلى سقر.

قال المصنف رحمه الله: وقد احتج لهم أبو حامد الطوسي بأشياء ــ نزل

---

(١) فقد الغيرة.

فيها عن رتبة الفهم، مجموعها أنه قال: ما يدل على تحريم السماع نص ولا قياس. وجواب هذا ما قد أسلفناه. وقال: لا وجه لتحريم سماع صوت طيب، فإذا كان موزوناً فلا يحرّم أيضاً، وإذا لم يحرم الآحاد فلا يحرم المجموع. فإن إفراد المباحات إذا اجتمعت كان المجموع مباحاً. قال: ولكن ينظر فيما يفهم من ذلك، فإن كان فيه شيء محظور حرم نثره ونظمه، وحرم التصويت به.

قال المصنف رحمه الله: وإني لأتعجب من مثل هذا الكلام، فإن الوتر بمفرده، أو العود وحده من غير وتر لو ضرب لم يحرم ولم يطرب، فإذا اجتمعا وضرب بهما على وجه مخصوص حرم وأزعج. وكذلك ماء العنب جائز شربه، وإذا حدثت فيه شدة مطربة حرم. وكذلك هذا المجموع يوجب طرباً يخرج عن الاعتدال فيمنع منه لذلك.

وقال ابن عقيل: الأصوات على ثلاثة أضرب: محرم، ومكروه، ومباح. فالمحرم الزَّمر والناي والطنبور والمعزفة والرباب وما ماثلها. نص الإمام أحمد ابن حنبل على تحريم ذلك. لأن هذه تطرب فتُخرج عن حدّ الاعتدال، وتفعل في طباع الغالب من الناس ما يفعله المُسكر، وسواء استعمل على حزن يهيجه أو سرور، لأن النبي ﷺ نهى عن صوتين أحمقين: صوت عند نغمة وصوت عند مصيبة[1].

والمكروه: القضيب، لكنه ليس بمطرب في نفسه، وإنما يطرب بما يتبعه، وهو تابع للقول، والقول مكروه. ومن أصحابنا من يحرم القضيب كما يحرم آلات اللهو، فيكون فيه وجهان.

والمباح: الدف، وقد ذكرنا عن أحمد، أنه قال: أرجو أن لا يكون بالدف بأس في العرس ونحوه، وأكره الطبل. وقد قال أبو حامد: من أحب الله وعشقه واشتاق إلى لقائه فالسماع في حقه مؤكّد لعشقه.

---

(١) سبق تخريج هذا الحديث. ص : ١٩٥ حاشية (٤).

قال المصنف رحمه الله: وهـذا قبيح أن يقال عن الله عزَّ وجلَّ: يعشق، وقد بينا فيما تقدم خطأ هذا القول.

قال المصنف رحمه الله: وسمـع ابن عقيـل بعض الصوفيـة، يقول: إن مشايخ هذه الطائفة كلما وقفت طباعهم حـداها الحـادي إلى الله بالأنـاشيد، فقال ابن عقيل: لا كرامة لهذا القائل، إنما تحدى القلوب بوعد الله في القرآن ووعيده وسنَّة الـرسول ﷺ، لأن الله سبحـانه وتعـالى قال: ﴿وإذا تُليت عليهمْ آياتُهُ زادتْهُمْ إيماناً﴾(١). ومـا قال: وإذا أنشـدت عليه القصـائد طـربت. فأمـا تحـريكك الـطباع بـالألحان فقـاطـع عن الله، والشعر يتضمن صفـة المخلوق والمعشوق مما يتجدد عنه فتنة. ومن سوَّلت لـه نفسه التقاط العبـر من محاسن البشر وحسن الصوت فمفتون. بل ينبغي النظر إلى المحالِّ التي أحـالنا عليها: الإبل والخيل والرياح ونحو ذلك، فـإنها منـظورات لا تهيـج طَبعاً، بـل تورث استعـظاماً للفـاعل، وإنمـا خدعكم الشيـطان فصرتم عبيـد شهـواتكم، وأنتم زنادقة في زي عبَّاد، شرهين في زي زهَّـاد، مشبهة تعتقـدون أن الله عزَّ وجـلَّ يعشق ويهـام فيه، ويؤلف ويؤنس بـه، وبئس التوهم، لأنَّ الله عـزَّ وجلَّ خلق الذوات مشاكلة(٢)، لأن أصولها مشاكلة: فهي تتأنس وتتألم بأصـولها العنصـرية وتراكيبها المثلية في الأشكال الحديثة. فمن ها هنا جاء التلاوم والميـل وعشق بعضهم بعضاً.

وعلى قدر التقارب في الصورة يتأكد الأنس، والواحد منا يأنس بالمـاء، لأن فيه ماء، وهو بالنبات آنس لقربه من الحيوانية بالقوة النمائية، وهو بـالحيوان آنس لمشـاركته في أخص النـوع بـه أو أقربـه إليه، فـأين المشـاركـة للخـالق والمخلوق حتى يحصـل الميل إليـه والعشق والشـوق. ومـا الـذي بين الـطين والماء، وبين خالق السماء من المناسبة، وإنما هؤلاء يصـوِّرون الباري سبحـانه وتعـالى صـورة تثبت في القلوب. ومـا ذاك الله عـزَّ وجـلَّ، ذاك صنم شكله

(١) سورة الأنفال: الآية ٢.

(٢) متماثلة: يشبه بعضها بعضاً.

الطبع والشيطان، وليس لله وصف تميل إليه الطباع وتشتاق إليه الأنفس، وإنما مباينة الإلهية للمحدَث أوجبت في الأنفس هيبة وحشمة. فما يدعيه عشاق الصوفية لله في محبة الله، إنما هو وهَم اعترض، وصورة شكلت في نفوس فحجبت عن عبادة القديم، فتجدد بتلك الصورة أنس، فإذا غابت بحكم ما يقتضيه العقل، أقلقهم الشوق إليها فنالهم من الوجد وتحرك الطبع والهيمان ما ينال الهائم في العشق، فنعوذ بالله من الهواجس الرديئة، والعوارض الطبيعية التي يجب بحكم الشرع محوها عن القلوب، كما يجب كسر الأصنام.

قال المصنف رحمه الله: وقد كان جماعة من قدماء الصوفية ينكرون على المبتدىء السماع لعلمهم بما يثير من قلبه.

قال جنيد: إذا رأيت المريد يسمع السماع، فاعلم أن فيه بقايا من اللعب.

وقال أبو الحسين النوري لبعض أصحابه: إذا رأيت المريد يسمع القصائد ويميل إلى الرفاهية، فلا ترجُ خيره.

قال المصنف رحمه الله: هذا قول مشايخ القوم، وإنما ترخص المتأخرون حب اللهو، فتعدى شرهم من وجهين:

أحدهما ــ سوء ظن العوام بقدمائهم، لأنهم يظنون أن الكل كانوا هكذا.

والثاني ــ أنهم جرؤوا العوام على اللعب، فليس للعامي حجة في لعبه إلَّا أن يقول: فلان يفعل كذا ويفعل كذا.

قال المصنف رحمه الله: وقد نشب حب السماع بقلوب خلق منهم، فآثروه على قراءة القرآن، ورقَّت قلوبهم عنده بما لا ترق عند القرآن، وما ذاك إلَّا لتمكن هوى باطن تمكن منه وغلبة طبع، وهم يظنون غير هذا.

حكي عن أبي الحسين الدرّاج، قال: قصدت يوسف بن الحسين الرازي

من بغداد، فلمَّا دخلت الـري سألت عن منزله، وكـل من أسألـه عنه يقـول: أيش تفعل بذلك الزنديق، فضيقوا صدري حتى عزمت على الانصراف، فبت تلك الليلة في مسجـد، ثم قلت: جئت إلى هذه البلدة فـلا أقل من زيـارتـه، فلم أزل أسأل عنه حتى دفعت إلى مسجده وهو قـاعد في المحـراب بين يديـه رجل على يديه مصحف، وهو يقرأ، فدنـوت فسلَّمت فرد السـلام، وقال: من أين؟ قلت: من بغداد، قصدت زيـارة الشيـخ، فقال: تحسن أن تقـول شيئاً، فقلت: نعم، وقلت:

رأيتــك تبني دائمــاً في قــطيـعتـي ولو كنت ذا حزم لهدمت ما تبني

فأطبق المصحف ولم يزل يبكي حتى ابتلَّت لحيتـه، وثوبـه حتى رحمته من كثـرة بكائـه، ثم قال لي: يـا بني تلوم أهل الـري على قـولهم يـوسف بن الحسين زنديق، ومن وقت الصلاة هو ذا أقرأ القرآن لم تقطر من عيني قـطرة، وقد قامت عليّ القيامة بهذا البيت.

وقد اعتقد قوم من الصوفية أن هذا الغناء ــ الذي ذكرنا عن قـوم تحريمـه وعن آخر كراهته ــ مستحب في حق قوم.

قال أبو علي الـدقاق: السمـاع حرام على العـوام لبقاء نفـوسهم، مباح للزهَّاد لحصول مجاهداتهم، مستحب لأصحابنا لحياة قلوبهم.

قال المصنف رحمه الله: وهذا غلط من خمسة أوجه:

أحدها: أنا قد ذكرنا عن أبـي حامد الغزالي أنه يباح سماعه لكل أحد، وأبو حامد كان أعرف من هذا القائل.

والثاني: أن طباع النفـوس لا تتغير وإنمـا المجاهـدة تكف عملها، فمن ادعى تغير الطباع ادعى المحال، فـإذا جاء مـا يحرك الـطباع، وانـدفـع الذي كان يكفها عنه عادت العادة.

والثـالث: أن العلماء اختلفـوا في تحريمـه وإباحتـه وليس فيهم من نظر

في السامع لعلمهم أن الطباع تتساوى، فمن ادعى خروج طبعه عن طباع الآدميين ادعى المحال.

والرابع: أن الإجماع انعقد على أنه ليس بمستحب، وإنما غايته الإباحة، فادعاء الاستحباب خروج عن الإجماع.

والخامس: أنه يلزم من هذا أن يكون سماع العود مباحاً أو مستحباً عند من لا يغير طبعه، لأنه إنما حرم لأنه يؤثر في الطباع ويدعوها إلى الهوى. فإذا أمن ذلك فينبغي أن يباح، وقد ذكرنا هذا عن أبي الطيب الطبري.

قال المصنف رحمه الله: وقد ادعى قوم منهم أن هذا السماع قربة إلى الله عزَّ وجلَّ.

قال أبو طالب المكي: حدثني بعض أشياخنا عن الجنيد، أنه قال: تنزل الرحمة على هذه الطائفة في ثلاثة مواطن: عند الأكل، لأنهم لا يأكلون إلَّا عن فاقة. وعند المذاكرة، لأنهم يتحاورون في مقامات الصديقين وأحوال النبيين. وعند السماع، لأنهم يسمعون بوجد ويشهدون حقاً.

قال المصنف رحمه الله: وهذا إن صح عن الجنيد وأحسنا به الظن كان محمولاً على ما يسمعونه من القصائد الزهدية، فإنها توجب الرقة والبكاء، فأما أن تنزل الرحمة عند وصف سعدى وليلى، ويحمل ذلك على صفات الباري سبحانه وتعالى فلا يجوز اعتقاد هذا. ويدل على ما حملنا الأمر عليه أنه لم يكن ينشد في زمان الجنيد مثل ما ينشد اليوم، إلَّا أن بعض المتأخرين قد حمل كلام الجنيد على كل ما يقال.

وقال ابن عقيل: قد سمعنا منهم أن الدعاء عند حدو الحادي وعند حضور المخدة مجاب، وذلك أنهم يعتقدون أنه قربة يتقرب بها إلى الله تعالى، قال: وهذا كفر، لأن من اعتقد الحرام أو المكروه قربة كان بهذا الاعتقاد كافراً، قال: والناس بين تحريمه وكراهيته.

تلبيس إبليس على الصوفية في الوجد

قال المصنف رحمه الله: هذه الطائفة إذا سمعت الغناء تواجدت، وصفقت وصاحت، ومزقت الثياب. وقد لبس عليهم إبليس في ذلك وبالغ.

وقد احتجُّوا أنه لما نزلت ﴿وإنَّ جهنَّمَ لموعدُهُمْ أجمعينَ﴾[1]، صاح سلمان الفارسي صيحة، ووقع على رأسه ثم خرج هارباً ثلاثة أيام.

وعن أبي وائل، قال: خرجنا مع عبد الله، ومعنا الربيع بن خثيم فمررنا على حداد، فقام عبد الله ينظر إلى حديدة في النار، فنظر الربيع إليها فمال ليسقط، ثم أن عبد الله مضى حتى أتينا على أتون على شاطىء الفرات، فلما رآه عبد الله والنار تلتهب في جوفه، قرأ هذه الآية: ﴿إذا رأتهُمْ مِنْ مكانٍ بعيد سمعُوا لها تَغيُّظاً وزفيراً. . .﴾ إلى قوله: ﴿ثبوراً كثيراً﴾[2]، فصعق الربيع واحتملناه إلى أهله، ورابطه[3] عبد الله حتى يصلي الظهر، فلم يفق، ثم رابطه إلى العصر فلم يفق، ثم رابطه إلى المغرب فأفاق، فرجع عبد الله إلى أهله.

قالوا: وقد اشتهر عن خلق كثير من العباد أنهم كانوا إذا سمعوا القرآن، فمنهم من يموت، ومنهم من يصعق ويغشى عليه، ومنهم من يصيح. وهذا كثير في كتب الزهد.

والجواب: أما ما ذكره عن سلمان فمحال وكذب، ثم ليس له إسناد، والآية نزلت بمكة، وسلمان إنما أسلم بالمدينة، ولم ينقل عن أحد من الصحابة مثل هذا أصلاً. وأما حكاية الربيع بن خثيم فإن راويها عيسى بن سليم وفيه مغمز. قال أحمد بن حنبل: عيسى بن سليم. . . لا أعرفه.

---

(١) سورة الحجر: الآية ٤٣.

(٢) سورة الفرقان: الآيتان ١٢ ــ ١٤.
تغيظاً: غلياناً. زفيراً: صوتاً شديداً. ثبوراً: هلاكاً.

(٣) رابطه: لازمه.

قال المصنف رحمه الله: واعلم وفَّقك الله أن قلوب الصحابة كانت أصفى القلوب. وما كانوا يزيدون عند الوجد على البكاء والخشوع.

قال المصنف رحمه الله: وهذا حديث العرباض بن سارية: «وعظنا رسول الله ﷺ موعظة بليغة ذرفت منها العيون ووجلت منها القلوب»[1]. قال أبو بكر الآجري: ولم يقل: صرخنا ولا ضربنا صدورنا، كما يفعل كثير من الجهَّال الذين يتلاعب بهم الشيطان.

قال حصين بن عبد الرحمن: قلت لأسماء بنت أبي بكر: كيف كان أصحاب رسول الله ﷺ عند قراءة القرآن؟ قالت: كانوا كما ذكرهم الله أو كما وصفهم عزَّ وجلَّ، تدمع عيونهم وتقشعر جلودهم، فقلت لها: إن ها هنا رجالاً إذا قرىء على أحدهم القرآن غشي عليه، فقالت: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.

وعن عكرمة، قال: سألت أسماء بنت أبي بكر: هل كان أحد من السلف يغشى عليه من الخوف؟ قالت: لا، ولكنهم كانوا يبكون.

وعن أبي حازم، قال: مر ابن عمر رضي الله عنهما برجل ساقط من العراق. فقال: ما شأنه؟ فقالوا: إذا قرىء عليه القرآن يصيبه هذا، قال: إنا لنخشى الله عز وجلَّ وما نسقط.

وقيل لأنس بن مالك: إن ناساً إذا قرىء عليهم القرآن يصعقون، قال: ذاك فعل الخوارج.

وعن عامر بن عبد الله بن الزبير، قال: جئت إلى أبي، فقال لي: أين كنت؟ فقلت: وجدت أقواماً ما رأيت خيراً منهم، يذكرون الله عزَّ وجلَّ فيرعد أحدهم حتى يغشى عليه من خشية الله عزَّ وجلَّ فقعدت معهم، قال: لا تقعد معهم بعدها، فرآني كأني لم يأخذ[2] ذلك فيَّ، فقال: رأيت رسول الله ﷺ

(١) أخرجه الترمذي (٢٦٧٨) في العلم: باب ما جاء في الأخذ بالسنة واجتناب البدع، وأبو داود (٤٦٠٧) في السنة: باب لزوم السنة. وهو حديث صحيح.

(٢) أخذ فيه الشيء: أثر فيه.

يتلو القرآن ورأيت أبا بكر وعمر يتلوان القرآن ولا يصيبهم هذا، أفتراهم أخشع لله من أبي بكر وعمر، فرأيت أن ذلك كذلك فتركتهم.

وقال أبو عمر: أخبرنا جرير بن حازم، أنه شهد محمد بن سيرين، وقيل له: إن ها هنا رجالاً إذا قرىء على أحدهم القرآن غشي عليه، فقال محمد بن سيرين: يقعد أحدهم على جدار ثم يقرأ عليه القرآن من أوله إلى آخره فإن وقع فهو صادق. قال أبو عمرو: كان محمد بن سيرين يذهب إلى أن هذا تصنع وليس بحق من قلوبهم.

وعن الحسن أنه وعظ يوماً فتنفس رجل في مجلسه، فقال الحسن: إن كان لله تعالى فقد شهرت نفسك، وإن كان لغير الله فقد هلكت.

قال المصنف رحمه الله: فإن قال قائل: إنما يفرض الكلام في الصادقين لا في أهل الرياء، فما تقول فيمن أدركه الوجد ولم يقدر على دفعة؟ فالجواب أن أول الوجد انزعاج في الباطن، فإن كف الإنسان نفسه كيلا يطلع على حاله يئس الشيطان، فبعد عنه، كما كان أيوب السختياني إذا تحدث فرق قلبه مسح أنفه، وقال: ما أشد الزكام، وإن أهمل الإنسان نفسه ولم يبال بظهور وجده، أو أحب اطلاع الناس على نفسه نفخ فيه الشيطان، فانزعج على قدر نفخه.

قالت امرأة عبد الله بن مسعود: جاء عبد الله ذات يوم وعندي عجوز ترقيني من الحموة[1] فأدخلتها تحت السرير، قالت: فدخل فجلس إلى جنبي، فرأى في عنقي خيطاً، فقال ما هذا الخيط؟ قلت: خيط رقي لي فيه رقية، فأخذه وقطعه، ثم قال: إن آل عبد الله لأغنياء عن الشرك. سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنّ الرُّقى والتَّمائمَ والتّولَة شِرْك»، قالت: فقلت له: لِمَ تقول هذا؟ وقد كانت عيني تقذف وكنت اختلف إلى فلان اليهودي يرقيها فكان إذا رقاها سكنت، قال: إنما ذاك من عمل الشيطان، كان ينخسها بيده

---

(١) حموه الألم: شدته، والرقية: ما يقرأ على المريض ليشفى.

فإذا رقيتها كف عنها، إنما كان يكفيك أن تقولي كما قال رسول الله ﷺ: «أذهِبِ البأسَ ربَّ النَّاسِ، اشفِ أنتَ الشَّافي لا شفاءَ إلاَّ شفاؤُكَ، شِفاءً لا يُغادرُ سَقَماً»(١).

وقيل لعبد الله بن عمر: يا أبا عبد الرحمن إن قوماً عندنا إذا قرىء عليهم القرآن يركض(٢) أحدهم من خشية الله، وقال: إن الشيطان ليدخل جوف أحدهم، والله ما هكذا كان أصحاب محمد ﷺ.

فإن قال قائل: فنفرض أن الكلام فيمن اجتهد في دفع الوجد فلم يقدر عليه، وغلبه الأمر، فمن أين يدخل الشيطان. فالجواب: أنا لا ننكر ضعف بعض الطباع عن الدفع، إلاَّ أن علامة الصادق أنه لا يقدر على أن يدفع، ولا يدري ما يجري عليه، فهو من جنس قوله عزَّ وجلَّ: ﴿فَخَرَّ مُوسى صَعِقاً﴾(٣).

وقد قرىء على عبد الله بن وهب كتاب «أهوال القيامة» فخرَّ مغشياً عليه، فلم يتكلم بكلمة حتى مات بعد ذلك بأيام.

وقد مات خلق كثير من سماع الموعظة وغشي عليهم. وما هذا التواجد الذي يتضمن حركات المتواجدين وقوة صياحهم وتخبطهم، فظاهره أنه متعمل(٤) والشيطان معين عليه.

قال المصنف رحمه الله: فإن قيل: فهل في حق المخلص نقص بهذه

---

(١) أخرجه أبو داود (٣٨٨٣) في الطب: باب في تعليق التمائم. وابن ماجه (٣٥٣٠) في الطب: باب تعليق التمائم. والتمائم: جمع تميمة، أريد بها ما كان يعلق في الأعناق من الخرز وغيره ليحفظ الإنسان من العين وغيرها. والتولة: نوع من السحر يحبب المرأة إلى زوجها، والتمائم والتولة حرام. أما الرقية فما كان منها بكلام الله وغيره من الأدعية والأذكار فلا بأس بها.

(٢) يركض: يضرب الأرض برجله.

(٣) سورة الأعراف: الآية ١٤٣.
خرَّ: وقع صعقاً: مغشيا عليه.

(٤) متعمل: مصطنع ومتكلف.

الحالة الطارئة عليه؟ قيل: نعم، من جهتين: إحداهما أنه لو قوي العلم أمسك. والثاني أنه قد خولف به طريق الصحابة والتابعين، ويكفي هذا نقصاً.

وكان خوات يرعد عند الذكر، فقال له إبراهيم: إن كنت تملكه فما أبالي أن لا أعتد بك، وإن كنت لا تملكه فقد خالفت من كان قبلك. وفي رواية فقد خالفت من هو خير منك.

قال المصنف رحمه الله: إبراهيم هو النخعي الفقيه، وكان متمسكاً بالسنَّة شديد الاتباع للأثر. وقد كان خوات من الصالحين البعداء عن التصنع. وهذا خطاب إبراهيم له. فكيف بمن لا يخفى حاله في التصنع.

كان إذا طرب أهل التصوف لسماع الغناء صفّقوا.

كان ابن بنان يتواجد، وكان أبو سعيد الخراز يصفق له.

قال المصنف رحمه الله: والتصفيق منكر يطرب، ويخرج عن الاعتدال وتتنزه عن مثله العقلاء، ويتشبه فاعله بالمشركين فيما كانوا يفعلونه عند البيت من التصدية، وهي التي ذمهم الله عزَّ وجلَّ بها فقال: ﴿وما كانَ صَلاتُهُمْ عندَ الْبيتِ إلَّا مُكاءً وتَصْدِيَةً﴾[1]. فالمكاء: الصفير، والتصدية: التصفيق.

قال المصنف رحمه الله: وفيه أيضاً تشبه بالنساء، والعاقل يأنف من أن يخرج عن الوقار إلى أفعال الكفار والنسوة.

فإذا قوى طربهم رقصوا، وقد احتج بعضهم بقوله تعالى لأيوب: ﴿ارْكُضْ بِرِجْلِكَ﴾[2].

قال المصنف رحمه الله: وهذا احتجاج بارد، لأنه لو كان أمر بضرب الرجل فرحاً كان لهم فيه شبهه، وإنما أمر بضرب الرجل لينبع الماء.

---

(١) سورة الأنفال: الآية ٣٥.

(٢) سورة صٓ: الآية ٤٢.

قال ابن عقيل: أين الدلالة في مبتلى أمر عند كشف البلاء بأن يضرب برجله الأرض لينبع الماء إعجازاً من الرقص. ولئن جاز أن يكون تحريك رجل قد أنحلها تحكم الهوام[1] دلالة على جواز الرقص في الإسلام، جاز أن يجعل قوله تعالى لموسى: ﴿اضرِبْ بعصاك الْحَجَرَ﴾[2] دلالة على ضرب الجماد بالقضبان[3] نعوذ بالله من التلاعب بالشرع.

قال أبو الوفاء بن عقيل: قد نص القرآن على النهي عن الرقص. فقال عزَّ وجلَّ: ﴿لا تَمْشِ في الأرض مَرَحاً﴾[4]، وذم المختال فقال تعالى: ﴿إن الله لا يحبُّ كلَّ مُختالٍ فَخُورٍ﴾[5]. والرقص أشد المرح والبطر، أو لسنا الذين قسنا النبيذ على الخمر لاتفاقهما في الإطراب والسكر، فما بالنا لا نقيس القضيب وتلحين الشعر معه على الطنبور، والمزمار والطبل لاجتماعهما في الإطراب. وهل شيء يزري بالعقل والوقار، ويخرج عن سمت الحلم والأدب أقبح من ذي لحية يرقص، فكيف إذا كانت شيبة ترقص وتصفق على وقاع الألحان والقضبان، خصوصاً إذا كانت أصوات نسوان ومردان، وهل يحسن بمن بين يديه الموت والسؤال والحشر والصراط، ثم هو إلى إحدى الدارين صائر أن يَشمُس[6] بالرقص شَمْسَ البهائم، ويصفق تصفيق النسوة، والله لقد رأيت مشايخ في عصري ما بان لهم سن في تبسم فضلاً عن ضحك مع إدمان مخالطتي لهم، كالشيخ أبي القاسم بن زيدان، وعبد الملك بن بشران، وأبي طاهر بن العلاف، والجنيد والدينوري.

قال المصنف رحمه الله: فإذا تمكن الطرب من الصوفية في حال

---

(١) يعني المرض.
(٢) سورة البقرة: ٦٠.
(٣) يقصد آلات الطرب.
(٤) سورة الإسراء: الآية ٣٣.
(٥) سورة لقمان: الآية ١٨.
(٦) شمس الفرس: جمح ولم يمكِّن أحداً من ركوبه.

رقصهم جذب أحدهم بعض الجلوس ليقوم معه. ولا يجوز على مذهبهم للمجذوب أن يقعد، فإذا قام، قام الباقون تبعاً له، فإذا كشف أحدهم رأسه كشف الباقون رؤوسهم موافقة له. ولا يخفى على عاقل أن كشف الرأس مستقبح، وفيه إسقاط مروءة وترك أدب، وإنما يقع في المناسك تعبداً لله وذلاً له.

فإذا اشتد طربهم رموا ثيابهم على المغني، فمنهم من يرمي بها صحاحاً، ومنهم من يخرقها ثم يرمي بها . وقد احتج لهم بعض الجهال فقال: هؤلاء في غيبة فلا يلامون، فإن موسى عليه السلام لما غلب عليه الغمّ بعبادة قومه العجل رمي الألواح فكسرها ولم يدر ما صنع. والجواب: أن نقول: من يصحح عن موسى بأنه رماها رمي كاسر؟ والذي ذكر في القرآن إلقاؤها فحسب، فمن أين لنا أنها تكسرت.

ثم لو قيل: تكسرت فمن أين لنا أنه قصد كسرها، ثم لو صححنا ذلك عنه، قلنا: كان في غيبة حتى لو كان بين يديه حينئذٍ بحر من نار لخاضه. ومن يصحح لهؤلاء غيبتهم وهم يعرفون المغني من غيره، ويحذرون من بئر إن كانت عندهم. ثم كيف يقاس أحوال الأنبياء على أحوال هؤلاء السفهاء، ولقد رأيت شاباً من الصوفية يمشي في الأسواق ويصيح، والغلمان يمشون خلفه، وهو يبربر، ويخرج إلى الجمعة فيصيح صيحات وهو يصلي الجمعة، فسئلت عن صلاته، فقلت: إن كان وقت صياحه غائباً فقد بطل وضوؤه، وإن كان حاضراً فهو متصنع، وكان هذا الرجل جلداً لا يعمل شيأً، بل يدار له بزنبيل[(١)] في كل يوم فيجمع له ما يأكل هو وأصحابه، فهذه حالة المتأكلين لا المتوكلين.

ثم لو قدرنا أن القوم يصيحون عن غيبة، فإن تعرضهم لما يغطي على العقول من

(١) الزنبيل: القفة.

سماع ما يطرب منهي عنه، كالتعرض لكل **ما غالبه** الأذى. وقد سئل ابن عقيل عن تواجدهم وتخريق ثيابهم، فقال: خطأ وحرام، قد نهى رسول الله ﷺ عن إضاعة المال(١) وعن شق الجيوب(٢)، فقال له قائل: فإنهم لا يعقلون ما يفعلون، قال: إن حضروا هذه الأمكنة مع علمهم أن الطرب يغلب عليهم، فيزيل عقولهم أثموا بما يدخل عليهم من التخريق وغيره مما يفسد، ولا يسقط عنهم خطاب الشرع لأنهم مخاطبون قبل الحضور بتجنب هذه المواضع التي تفضي إلى ذلك، كما هم منهيون عن شرب المسكر، فإذا سكروا وجرى منهم إفساد الأموال، لم يسقط الخطاب لسكرهم. كذلك هذا الطرب الذي يسميه أهل التصوف وجداً إن صدقوا فيه فسكر طبع، وإن كذبوا فنبيذ، ومع الصحو فلا سلامة فيه مع الحالين، وتجنب مواضع الريب واجب.

وقد تكلم مشايخ الصوفية في الخرق المرمية، فقال محمد بن طاهر: الدليل على أن الخرقة إذا طرحت صارت ملكاً لمن طرحت بسببه حديث جرير، جاء قوم مجتابي النمار فحض رسول الله ﷺ على الصدقة، فجاء رجل من الأنصار بصرة، فتتابع الناس حتى رأيت كومين من ثياب **وطعام**(٣). قال: والدليل على أن الجماعة إذا قدموا عند تفريق الخرقة أسهم لهم

---

(١) ولفظه: إن الله كره لكم ثلاثاً: قيل وقال، وإضاعة المال، وكثرة السؤال. أخرجه البخاري(١٤٧٧) في الزكاة: باب قوله الله ﴿لا يسألون الناس إلحافاً﴾، ومسلم (١٧١٥) في الأقضية: باب النهي عن كثرة المسائل.

(٢) أخرجه البخاري (١٢٩٤) في الجنائز: باب ليس منا من شق الجيوب، ومسلم (١٠٣) في الإيمان، باب تحريم ضرب الخدود. ولفظه عندهما «ليس منا من ضرب الخدود أو شق الجيوب أو دعا بدعوى الجاهلية».

(٣) أخرجه مسلم (١٠١٧) في الزكاة: باب الحث علي الصدقة. مجتابي النمار: النمار جمع نَمِرَة، وهي ثياب من صوف، ومجتابي النمار خارقين أوسطها، لابسين لها. كومين: صبرتين، والكوم: العظيم من كل شيء.

حديث أبي موسى[1] قدم على رسول الله ﷺ بغنيمة وسلب فأسهم لنا.

قال المصنف رحمه الله: لقد تلاعب هذا الرجل بالشريعة، واستخرج بسوء فهمه ما يظنه يوافق مذهب المتأخرين من الصوفية. فإنا ما عرفنا هذا في أوائلهم، وبيان فساد استخراجه، أن هذا الذي خرق الثوب ورمى به إن كان حاضراً فما جاز له تخريقه، وإن كان غائباً فليس له تصرف جائز شرعاً لا هبة ولا تمليكاً. وكذلك يزعمون بأن ثوبه كان كالشيء الذي يقع من الإنسان ولا يدري به، فلا يجوز لأحد أن يمتلكه، وإن كان رماه في حال حضوره لا على أحد فلا وجه لتملكه، ولو رماه على المغني لم يتملكه، لأن التملك لا يكون إلّا بعقد شرعي، والرمي ليس بعقد، ثم نقدر أنه ملك للمغني فما وجه تصرف الباقين فيه، ثم إذا تصرفوا فيه خرقوه خرقاً، وذلك لا يجوز لوجهين: أحدهما أنه تصرف فيما لا يملكونه. والثاني أنه إضاعة للمال. ثم ما وجه إسهام من لم يحضر، فأما حديث أبي موسى، فقال العلماء منهم الخطابي: يحتمل أن يكون رسول الله ﷺ أجازه عن رضى ممن شهد الواقعة، أو من الخمس الذي هو حقه. وعلى مذهب الصوفية تعطى هذه الخرقة لمن جاء. وهذا مذهب خارج عن إجماع المسلمين، وما أشبَّهُ ما وضع هؤلاء بآرائهم الفاسدة إلّا بما وضعت الجاهلية من أحكام البحيرة والسائبة والوصيلة والحام. قال ابن طاهر: أجمع مشايخنا على أن الخرقة المخرقة، وما انبعث من الخرق الصحاح الموافقة لها أن ذلك كله يكون بحكم الجمع يفعلون فيه ما يراه المشايخ. وخالفهم شيخنا أبو إسماعيل الأنصاري، فجعل الخرقة على ضربين: ما كان مخروقاً قسم على الجميع. وما كان سليماً دفع إلى القوال. واحتج بحديث سلمة: «من قتل الرجل؟ قالوا: سلمة بن

---

(١) أخرجه مسلم (٢٥٠٢) في فضائل الصحابة: باب من فضائل جعفر، وأحمد (٤/٤٠٦).

أسهم لهم: جعل لهم فيه سهماً أي: نصيباً. والسلب: ما يغنمه المقاتل من خصمه في الحرب.

الأكوع. قال: له سلبه أجمع»[1]. فالقتل إنما وجد من جهة القوال فالسلب له.

قال المصنف رحمه الله: انظروا إخواني عصمنا الله وإياكم من تلبيس إبليس إلى تلاعب هؤلاء الجهلة بالشريعة، وإجماع مشايخهم الذي لا يساوي إجماعهم بعرة، فإن مشايخ الفقهاء أجمعوا على أن الموهوب لمن وهب له، سواء كان مخرقاً أو سليماً ولا يجوز لغيره التصرف فيه. ثم إن سلب القتيل كل ما عليه، فما بالهم جعلوه ما رمي به. ثم ينبغي أن يكون الأمر على عكس ما قاله الأنصاري، لأن المخروق من الثياب ما كان بسبب الوجد، فينبغي أن يكون المخروق للمغني دون الصحيح، وكل أقوالهم في هذا محال وهذيان.

وليس العجب من تلبيس إبليس على الجهال منهم، بل على الفقهاء الذين اختاروا بدع الصوفية على حكم أبي حنيفة والشافعي ومالك وأحمد رضوان الله عليهم أجمعين.

ولقد أغربوا فيما ابتدعوا، وأقام لهم الاعذار من إلى هواهم مال. ولقد ذكر محمد بن طاهر في كتابه: باب السنّة في أخذ شيء من المستغفر. واحتج بحديث كعب بن مالك[2] في توبته: «يجزئك الثلث»، ثم قال: باب الدليل على أن من وجبت عليه غرامة فلم يؤدها ألزموه أكثر منها. واستدل بحديث معاوية بن جعدة عن النبي ﷺ أنه قال في الزكاة «من منعها فإنا آخذوها وشطر ماله»[3].

---

(١) أخرجه البخاري (٣٠٥١) في الجهاد: باب الحربي إذا دخل دار الإسلام بغير أمان، ومسلم (١٧٥٤) في الجهاد: باب استحقاق القاتل سلب القتيل.

(٢) رواه البخاري (٦٦٩٠) في الإيمان وغيره، ومسلم (٢٧٦٩) في التوبة: باب حديث توبة كعب، وأبو داوود (٣٣١) و (٣٣) في الأيمان والنذور.

(٣) أخرجه أبو داود (١٥٧٥) في الزكاة: باب في زكاة السائمة، والنسائي (٥/٢٥) في الزكاة: باب سقوط الزكاة عن الإبل إذا كانت رسلاً لأهلها. وهو حديث حسن.

قال المصنف رحمه الله: فانظر إلى تلاعب **هؤلاء**، **وجهل** هذا المحتج لهم، وتسمية ما يلزم بعضهم بما لا يلزمه غرامة، وتسمية ذلك واجباً، وليس لنا غرامة ولا وجوب إلّا بالشرع. ومتى اعتقد الإنسان ما ليس بواجب واجباً كفر.

ومن مذهبهم كشف الرؤوس عند الاستغفار، وهذه بدعة تسقط المروءة وتنافى الوقار، ولولا ورود الشرع بكشفه في الإحرام ما كان له وجه.
وأما حديث كعب بن مالك فإنه قال: إن من توبتي أن أنخلع من مالي، فقال له رسول الله ﷺ: «يجزئك الثلث» لا على سبيل الإلزام له. وإنما تبرع بذلك فأخذه منه، وأين إلزام الشرع تارك الزكاة مما يزيد عليها عقوبة من إلزامهم المريد غرامة لا تجب عليه، فإذا امتنع ضاعفوها، وليس إليهم الإلزام، إنما ينفرد بالإلزام الشرع وحده. وهذا كله جهل وتلاعب بالشريعة، فهؤلاء الخوارج عليها حقاً.

تلبيس إبليس على كثير من الصوفية في صحبة الأحداث

قال المصنف رحمه الله: اعلم أن أكثر الصوفية المتصوفة قد سدوا على أنفسهم باب النظر إلى النساء الأجانب لبعدهم عن مصاحبتهن وامتناعهم عن مخالطتهن، واشتغلوا بالتعبد عن النكاح، واتفقت صحبة الأحداث لهم على وجه الإرادة وقصد الزهادة، فأمالهم إبليس إليهم. واعلم أن المتصوفة في صحبة الأحداث على سبعة أقسام:

القسم الأول ـ أخبث القوم وهم ناس تشبهوا بالصوفية ويقولون بالحلول.

وقالوا إنهم يرون الله عز وجل في الدنيا، وأجازوا أن يكون في صفة الآدمي، ولم يأبوا كونه حالاً في الصورة الحسنة حتى استشهدوه[1] في رؤيتهم الغلام الأسود.

---

(١) أي عاينوه.

القسم الثاني ـ قوم يتشبهون بالصوفية في ملبسهم ويقصدون الفسق.

القسم الثالث ـ قوم يستبيحون النظر إلى المستحسن. وقد صنف أبو عبد الرحمٰن السلمي كتاباً سماه «سنن الصوفية» فقال في أواخر الكتاب: باب في جوامع رخصهم، فذكر فيه الرقص والغناء والنظر إلى وجه الحسن.

وذكر فيه ما روي عن النبي عليه السلام أنه قال: «اطلبوا الخير عند حسان الوجوه»(١).

قال المصنف رحمه الله: وهذا الحديث لا أصل له عن رسول ﷺ.

والفقهاء يقولون من ثارت شهوته عند النظر إلى الأمرد حرم عليه أن ينظر إليه، ومتى ادعى الإنسان أنه لا تثور شهوته عند النظر إلى الأمرد المستحسن فهو كاذب، وإنما أبيح على الإطلاق لئلا يقع الحرج في كثرة المخالطة بالمنع، فإذا وقع الإلحاح في النظر دلّ على العمل بمقتضى ثوران الهوى.

قال سعيد بن المسيب: إذا رأيتم الرجل يلحّ النظر إلى غلام أمرد فاتهموه.

القسم الرابع ـ قوم يقولون: نحن لا ننظر نظر شهوة، وإنما ننظر نظر اعتبار فلا يضرنا النظر، وهذا محال منهم، فإن الطباع تتساوى، فمن ادعى تنزه نفسه عن أبناء جنسه في الطبع ادعى المحال، وقد كشفنا هذا في أول كلامنا في السماع.

قال أبو حمزة الصوفي، حدثني عبد الله بن الزبير الحنفي، قال: كنت جالساً مع أبي النضر الغنوي، وكان من المبرزين العابدين فنظر إلى غلام جميل، فلم تزل عيناه واقعتين عليه حتى دنا منه، فقال: سألتك بالله السميع وعزه الرفيع، وسلطانه المنيع إلّا وقفت عليَّ أروى من النظر إليك، فوقف قليلاً، ثم ذهب ليمضي، فقال له: سألتك بالحكيم المجيد الكريم المبدىء

---

(١) رواه البخاري في «التاريخ الكبير»(١/١٥٧)، ورواه غيره أيضاً وهو حديث ضعيف.

المعيد إلّا ما وقفت، فوقف ساعة نأقبل يصعد النظر ويصوبه، ثم ذهب ليمضي، فقال: سألتك بالواحد الأحد الجبار الصمد الذي لم يلد ولم يولد إلّا وقفت، فوقف ساعة فنظر إليه طويلاً، ثم ذهب ليمضي، فقال: سألتك باللطيف الخبير السميع البصير وبمن ليس له نظير إلاَّ وقفت، فوقف فأقبل ينظر إليه، ثم أطرق رأسه إلى الأرض، ومضى الغلام فرفع رأسه بعد طويل وهو يبكي، فقال: قد ذكرني هذا بنظري إليه وجهاً جلَّ عن التشبيه، وتقدس عن التمثيل، وتعاظم عن التحديد، والله لأجهدن نفسي في بلوغ رضاه، بمجاهدتي جميع أعدائه وموالاتي لأوليائه، حتى أصير إلى ما أردته من نظرى إلى وجهه الكريم وبهائه العظيم. ولوددت أنه قد أراني وجهه وحبسني في النار ما دامت السموات والأرض، ثم غشي عليه.

وحدثنا محمد بن عبد الله الفزاري، قال: سمعت خيراً النساج يقول: كنت مع محارب بن حسان الصوفي في مسجد الخيف، ونحن مُحرمون، فجلس إلينا غلام جميل من أهل المغرب، فرأيت محارباً ينظر إليه نظراً أنكرته، فقلت له بعد أن قام: إنك مُحرم في شهر حرام في بلد حرام في مشعر حرام، وقد رأيتك تنظر إلى هذا الغلام نظراً لا ينظره إلّا المفتونون، فقال لي: تقول هذا يا شهواني القلب والطرف؟ ألم تعلم أنه قد منعني من الوقوع في شَرَك إبليس ثلاث، فقلت: وما هي، قال: سر الإيمان، وعفة الإسلام، وأعظمها الحياء من الله تعالى أن يطلع علي وأنا جاثم على منكر نهاني عنه، ثم صعق حتى اجتمع الناس علينا.

قال المصنف رحمه الله: انظروا إلى جهل الأحمق الأول ورمزه إلى التشبيه، وإن تلفظ بالتنزيه، وإلى حماقة هذا الثاني الذي ظن أن المعصية هي الفاحشة فقط، وما علم أن نفس النظر بشهوة يحرم. ومحا عن نفسه أثر الطبع بدعواه التي تكذبها شهوة النظر.

وهذه النهاية في متابعة الهوى ومخادعة العقل ومخالفة العلم، قال الله

تعالى ﴿وفي أنفسِكُمْ أَفَلا تُبصـرُونَ﴾[1]. وقال: ﴿أفلا يَنظُرونَ إلى الإبلِ كيف خُلقتْ﴾[2]. وقال: ﴿أوَلَمْ يَنظُروا في مَلكوتِ السمٰواتِ والأرضِ﴾[3] فعدلوا عما أمرهم الله به من الاعتبار إلى مانهاهم عنه. وإنما تفعل هذه الطائفة ما ذكرناه بعد تناول الألوان الطيبة والمآكل الشهية، فإذا استوفت منها نفوسهم طالبتهم بما يتبعها من السماع والرقص والاستمتاع بالنظر إلى وجوه المرد، ولو أنهم تقللوا من الطعام لم يحنوا إلى سماع ونظر.

قال أبو الطيب: وقد أخبر بعضهم في شعره عن أحوال المستمعين للغناء وما يجدونه حال السماع فقال:

أتذكر وقتنا وقد اجتمعنا ... على طيب السماع إلى الصباح
ودارت بيننا كأس الأغاني ... فأسكرت النفوس بغير راح[4]
فلم تر فيهم إلّا نشاوى[5] ... سروراً والسرور هناك صاح
إذا لبى أخو اللذات فيه ... منادي اللهو حي على الفلاح
ولم نملك سوى المهجات شيئاً[6] ... أرقناها لألحاظ ملاح[7]

قال: فإذا كان السماع تأثيره في قلوبهم ما ذكره هذا القائل، فكيف يجدي السماع نفعاً أو يفيد فائدة.

قال ابن عقيل: قول من قال: لا أخاف من رؤية الصور المستحسنة ليس بشيء، فإن الشريعة جاءت عامة الخطاب لا تميز الأشخاص، وآيات القرآن تنكر هذه الدعاوي، قال الله تعالى: ﴿قُلْ للمؤمنينَ يَغضُّوا من

---

(١) سورة الذاريات: الآية ٢١.
(٢) سورة الغاشية: الآية ١٧.
(٣) سورة الأعراف: الآية ١٨٥.
(٤) الراح: الخمر.
(٥) النشاوي: جمع نشوان، وهو السكران.
(٦) **المهجات: جمع مُهجة:** وهي الروح والنفس، ودم القلب، ومن كل شيء خالصه.
(٧) لألحاظ ملاح: عيون حسان.

أبصارِهِمْ ويَحفظُوا فروجَهُمْ﴾(1)، فلم يحل النظر إلاّ على صور لا ميل للنفس إليها ولا يمازجها شهوة، ولا تعتريها لذة. فأما صور الشهوات فإنها تعبر عن العبرة بالشهوة، وكل **صورة ليست** بعبرة لا ينبغي أن ينظر إليها، لأنها قد تكون سبباً للفتنة ولذلك ما بعث الله تعالى امرأة بالرسالة، ولا جعلها قاضياً، ولا إماماً ولا مؤذناً، كل ذلك لأنها محل فتنة وشهوة، وربما قطعت عما قصدته الشريعة بالنظر، وكل من قال أنا أجد من الصور المستحسنة عبراً كذبناه، وكل من ميز نفسه بطبيعة تخرجه عن طباعنا بالدعوى كذبناه، وإنما هذه خدع الشيطان للمدعين.

القسم الخامس ــ قوم صحبوا المردان ومنعوا **أنفسهم** من الفواحش يعتقدون ذلك مجاهدة، وما يعلمون أن نفس صحبتهم والنظر إليهم بشهوة معصية، وهذه من خلال الصوفية المذمومات.

قال أبو الكميت الأندلسي، وكان جوالاً في أرض الله: من أعجب ما رأيت من الصوفية، أني صحبت رجلاً منهم يقال له مهرجان، وكان مجوسياً فأسلم وتصوف، فرأيت معه غلاماً جميلاً لا يفارقه، وكان إذا جاء الليل قام فصلى، ثم ينام إلى جانبه، ثم يقوم فزعاً فيصلي ما قدر له، ثم يعود فينام إلى جانبه حتى فعل ذلك مراراً، فإذا أسفر الصبح أو كاد يسفر أوتر، ثم رفع يديه وقال: اللهم إنك تعلم أن الليل قد مضى عليّ سليماً لم أقترف فيه فاحشة، ولا كتبت عليّ الحفظة فيه معصية، وإن الذي أضمره بقلبي لو حملته الجبال لتصدعت أو كان بالأرض لتدكدكت(2)، ثم يقول: يا ليل اشهد بما كان مني فيك، فقد منعني خوف الله عن طلب الحرام والتعرض للآثام، ثم يقول: سيدي أنت تجمع بيننا على تقى، فلا تفرق بيننا يوم تجمع فيه الأحباب. فأقمت معه مدة طويلة أراه يفعل ذلك في كل ليلة، وأسمع هذا القول منه، فلمّا هممت بالانصراف من عنده، قلت له: سمعتك تقول إذا انقضى الليل:

(1) سورة النور: الآية ٣٠.
(2) أي تهدمت.

كـذا وكذا ، فقـال: وسمعتني؟ قلت: نعم، قال فـوالله يا أخي إني لأداري[1] من قلبي مالو داراه سلطان من رعيتـه لكـان الله حقيقـاً بـالمغفـرة لـه، فقلت: وما الذي يدعوك إلى صحبة من تخاف على نفسك العـنت من قبله!

قـال المصنف رحمـه الله: هؤلاء قـوم رآهم إبليس لا ينجذبون معـه إلى الفواحش فحسن لهم بداياتها، فتعجلوا لذة النظر والصحبة والمحادثة وعزموا على مقاومة النفس في صدها عن الفـاحشة، فـإن صدقـوا وتم لهم ذلك، فقد اشتغل القلب الذي ينبغي أن يكون شغله بالله تعالى لا بغيره، وصرف الزمـان الذي ينبغي أن يخلو فيه القلب بما ينفـع به في الآخرة بمجاهدة الطبـع في كفه عن الفاحشة، وهذا كله جهل وخـروج عن آداب الشـرع، فـإن الله عز وجـل أمر بغض البصـر لأنـه طـريق إلى القلب، ليسلم القلب لله تعـالى من شـائب[2] تخاف منه، وما مثل هؤلاء إلّا كمثل من أقبل إلى سباع في غيضة متشاغلة عنه لا تراه، فأثارها وحاربها وقاومها، فيا بعد سلامته من جراحة إن لم يهلك.

وفي هؤلاء من قويت مجاهدته مدة، ثم ضعفت فدعته نفسه إلى الفاحشة فأمتنـع حينئذ من صحبة المرد.

قال أبو حمزة: قلت لمحمد بن العـلاء الدمشقي وكـان سيد الصـوفية، وقد رأيته يماشي غلاماً وضيئاً مدة، ثم فارقه، فقلت له: لم هجـرت ذلك الفتى الذي كنت أراه معك بعد أن كنت له مـواصلاً وإليـه مائـلاً؟! قـال: والله لقـد فـارقته عن غيـر قلى[3] ولا ملل، قلت: ولم فعلت ذلـك؟ قـال: رأيت قلبـي يـدعـوني إلى أمـر إذا خلوت بـه وقـرب مني، لـو أتيتـه سقـطت من عين الله عز وجل، فهجرته لذلك تنزيهاً لله تعالى، ولنفسي من مصارع الفتن.

ومنهم من تاب وأطال البكاء عن إطلاق نظره.

---

(١) داري: خاتل ولاطف.

(٢) الشوائب: العيوب.

(٣) القلى: البغض.

كان أمية بن الصامت الصوفي إذا نظر إلى غلام فقرأ: ﴿وهُوَ معكم إينما كنتُمْ واللَّهُ بمـا تعملونَ بَصير﴾[١]، ثم قـال: وأين الفـرار من سجن الله، وقـد حصنه بملائكة غلاظ شداد، تبارك الله فما أعظم ما امتحنني به من نظري إلى هذ الغلام، ما شبهت نظري إليه إلاَّ بنار وقعت على قصب في يوم ريـح فما أبقت ولا تركت، ثم قال: أستغفر الله من بلاء جنتـه عيناي على قلبـي، لقـد خفت ألا أنجو من معرته[٢]، ولا أتخلص من إثمه، ولـو وافيت القيامـة بعمل سبعين صِدِّيقاً، ثم بكى حتى يكاد يقضي نحبه[٣]، فسمعته يقول في بكائـه: يا طـرف لأشغلنك بالبكاء عن النظر إلى البلاء.

وفيهم من همت نفسه إلى الفاحشة فقتل نفسه.

كان ببلاد فارس صوفي كبيـر فابتلي بحـدث، فلم يملك نفسه أن دعتـه إلى فاحشة، فـراقب الله عزَّ وجـلَّ ثم ندم على هـذه الهمة، وكـان منزلـه على مكان عال، ووراء منزله بحر من الماء، فلما أخذته الندامة صعد السطـح ورمى بنفسه إلى الماء وتلا قوله تعالى: ﴿فَتُوبُوا إِلَى بـارِئِكُمْ فاقْتُلوا أنفسَكُمْ﴾[٤]، فغرق في البحر.

قـال المصنف رحمه الله: انـظر إلى إبليس كيف درج[٥] هـذا المسكين من رؤية هذا الأمرد إلى إدمان النـظر إليه، إلى أن مكن المحبـة من قلبه، إلى أن حرضه على الفـاحشة، فلمـا رأى استعصامـه حسن لـه بالجهـل قتل نفسـه فقتـل نفسه، ولعله هم بـالفاحشـة ولم يعزم، والهمـة معفو عنهـا لقـولـه عليـه السـلام: «عفي لأمتي عما حـدثت بـه نفوسهـا»[٦]، ثم إنه نـدم على همتـه،

(١) سورة الحديد: الآية ٤.
(٢) المعرة: الجناية والإثم.
(٣) قضى نحبه: مات. والنحب: المدة والوقت.
(٤) سورة البقرة: الآية ٥٤.
(٥) درجه إلى كذا: أدناه منه بالتدريـج.
(٦) أخـرجه البخـاري (٦٦٦٤) في الأيمان والنـذور: باب إذا حنث نـاسياً في الأيمـان، وأخرجه مسلم (١٢٧) في الإيمان: باب تجـاوز الله عن حديث النفس، ولفظه: «إن =

والندم توبة، فأراه إبليس أن من تمام الندم قتل نفسه كما فعل بنو إسرائيل، فأولئك أمروا بذلك بقوله تعالى: ﴿فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ﴾[1]، ونحن نهينا عنه بقوله تعالى: ﴿ولا تقتُلُوا أنفسَكُمْ﴾[2]، فلقد أتى بكبيرة عظيمة، وفي «الصحيحين» عن النبي ﷺ أنه قال: «من تردى من جبل فقتل نفسه، فهو يتردى في نار جهنم خالداً مخلداً فيها أبداً»[3].

وفيهم من فرق بينه وبين حبيبه فقتل حبيبه.

بلغني عن بعض الصوفية أنه كان في رباط عندنا ببغداد ومعه صبي في البيت الذي هو فيه، فشنعوا عليه وفرقوا بينهما، فدخل الصوفي إلى الصبي ومعه سكين فقتله وجلس عنده يبكي، فجاء أهل الرباط فرأوه فسألوه عن الحال، فأقر بقتل الصبي فرفعوه إلى صاحب الشرطة، فأقر فجاء والد الصبي يبكي فجلس الصوفي يبكي ويقول له: بالله عليك إلّا ما أقدتني[4] به، فقال: الآن قد عفوت عنك، فقام الصوفي إلى قبر الصبي فجعل يبكي عليه، ثم لم يزل يحج عن الصبي ويهدي له الثواب.

القسم السادس ــ قوم لم يقصدوا صحبة المردان، وإنما يتوب الصبي ويتزهد ويصحبهم على طريق الإرادة[5]، فيلبس إبليس عليهم ويقول: لا تمنعوه من الخير، ثم يتكرر نظرهم إليه لا عن قصد، فيثير في القلب الفتنة إلى أن ينال الشيطان منهم قدر ما يمكنه، وربما وثقوا بدينهم فاستنفرهم الشيطان فرماهم إلى أقصى المعاصي.

الله تعالى تجاوز لأمتي عما حدثت به أنفسها ما لم تعمل أو تتكلم به». =

(١) سورة البقرة: الآية ٥٤.

(٢) سورة النساء: الآية ٢٩.

(٣) أخرجه البخاري (٥٧٧٨) في الطب: باب شرب السم والدواء به. ومسلم (١٠٩) في الإيمان: باب تغليظ قتل الإنسان نفسه.

(٤) أي قتلتني به **قوداً: أي بدلاً**.

(٥) أي رغبة منه في ذلك.

وغلطهم من جهة تعرضهم للفتن، وصحبة من لا يؤمن الفتنة في صحبته.

القسم السابع ـ قوم علموا أن صحبة المردان والنظر إليهم لا يجوز غير أنهم لم يصبروا عن ذلك.

قال يوسف بن الحسين: كل ما رأيتموني أفعله فافعلوه إلاّ صحبة الأحداث، فإنها أفتن الفتن، ولقد عاهدت ربي أكثر من مئة مرة أن لا أصحب حدثاً، ففسخها عليَّ حسن الخدود وقوام القدود وغنج العيون، وما سألني الله معهم عن معصية.

قال المصنف رحمه الله: هذا الرجل قد فضح نفسه في شيء ستره الله عليه، وأخبر أنه كلما رأى فتنة نقض التوبة، فأين عزائم التصوف في حمل النفس على المشاق، ثم ظن بجهله أن المعصية هي الفاحشة فقط، ولو كان له علم لعلم أن صحبتهم والنظر إليهم معصية[1]. فانظر إلى الجهل كيف يصنع بأربابه.

وكل من فاته العلم تخبط، فإن حصل له وفاته العمل به، كان أشد تخبطاً. ومن استعمل أدب الشرع في قوله عزّ وجلّ: ﴿قُلْ للمؤمنينَ يَغُضُّوا مِنْ أبْصارِهِم﴾[2]، سلم في البداية بما صعب أمره في النهاية، وقد ورد الشرع بالنهي عن مجالسة المردان وأوصى العلماء بذلك.

عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: «لا تملؤوا أعينكم من أولاد الملوك، فإن لهم فتنة أشد من فتنة العذارى»[3].

وقال عمر بن الخطاب: ما أتى على عالم من سبع ضار أخوف عليه من غلام أمرد.

---

(١) هذا إذا كان بشهوة، أما إذا كانت صحبة المردان والنظر إليهم لتعليمهم وتربيتهم شأن أساتذة المدارس فلا يكون ذلك معصية.

(٢) سورة النور: الآية ٣٠.

(٣) قال في «اللآلي»: موضوع، وتبعه العجلوني في «كشف الخفاء».(٣٠٥٣).

وعن الحسن بن ذكوان قال: لا تجالسوا أولاد الأغنياء فإن لهم صوراً كصور النساء، وهم أشد فتنة من العذارى.

وعن عبد العزيز بن أبي السائب عن أبيه، قال: لأنا أخوف على عابد من غلام من سبعين عذراء.

وعن أبي بكر المروزي، قال: جاء حسن البزاز إلى أحمد بن حنبل ومعه غلام حسن الوجه، فتحدث معه، فلما أراد أن ينصرف، قال له أبو عبد الله: يا أبا علي لا تمش مع هذا الغلام في طريق، فقال له: إنه ابن أختي، قال: وإن كان، لا يهلك[1] الناس فيك.

وعن بشر بن الحارث قال: احذروا هؤلاء الأحداث.

وعن فتح الموصلي قال: صحبت ثلاثين شيخاً كانوا يعدون من الأبدال، كلهم أوصوني عند فراقي لهم أن أتقي معاشرة الأحداث.

وعن عبد القادر بن طاهر قال: من صحب الأحداث[2] وقع في الأحداث[3].

وقد كان السلف يبالغون في الإعراض عن المرد.

وصحبة الأحداث أقوى حبائل إبليس التي يصيد بها الصوفية.

قال يوسف بن الحسين، نظرت في آفات الخلق فعرفت من أين أتوا، ورأيت آفة الصوفية في صحبة الأحداث، ومعاشرة الأضداد، وإرفاق[3] النسوان.

---

(١) المعنى: لا تفعل ذلك كي لا يغتابك الناس فيهلكون فيك.

(٢) أي الصغار.

(٣) أي الأمور المنكرة.

(٤) يريد: مرافقة النساء، من رافقه: إذا صار رفيقه.

عقوبة النظر إلى المردان

عن أبي عبد الله بن الجلاء، قال: كنت أنظر إلى غلام نصراني حسن الوجه، فمرّ بي أبو عبد الله البلخي، فقال: إيش وقوفك؟ فقلت: يا عم أما ترى هذه الصورة كيف تعذب بالنار، فضرب بيده بين كتفي، وقال: لتجدن غبها[1] ولو بعد حين. قال: فوجدت غبها بعد أربعين سنة أن أنسيت القرآن.

وروي نحوه عن أبي عبد الله الزراد أنه رؤي في المنام، فقيل له: ما فعل الله بك؟ قال: غفر لي كل ذنب أقررت به إلاَّ واحداً، فاستحييت أن أقر به، فوقفني في العرق حتى سقط لحم وجهي. فقيل له: ما الذنب، فقال: نظرت إلى شخص جميل.

قلت: إنما مددت النفس يسيراً في هذا الباب، لأنه مما تعم به البلوى عند الأكثرين، فمن أراد الزيادة فيه، وفيما يتعلق بإطلاق البصر وجميع أسباب الهوى، فلينظر في كتابنا المسمى بـ «ذم الهوى» ففيه غاية المراد من جميع ذلك.

تلبيس إبليس على الصوفية في ادعاء التوكل وقطع الأسباب وترك الاحتراز في الأموال

قال أبو سليمان الداراني: لو توكلنا على الله تعالى ما بنينا الحيطان، ولا جعلنا لباب الدار غلقاً مخافة اللصوص.

وعن ذي النون المصري قال: سافرت سنين وما صح لي التوكل إلّا وقتاً واحداً، ركبت البحر فكسر المركب، فتعلقت بخشبة من خشب المركب فقالت لي نفسي: إن حكم الله عليك بالغرق فما تنفعك هذه الخشبة، فخليت الخشبة فطفت على الماء فوقعت على الساحل.

وذكر أبو نصر السراج في كتاب «اللمع» قال: جاء رجل إلى

(١) الغب: العاقبة.

عبد الله بن الجلاء، فسأله عن مسألة في التوكل، وعنده جماعته فلم يجبه، ودخل البيت فأخرج إليهم صرة فيها أربعة دوانق[1]، فقال: اشتروا بهذه شيئاً. ثم أجاب الرجل عن سؤاله، فقيل له في ذلك، فقال: استحييت من الله تعالى أن أتكلم في التوكل وعندي أربعة دوانق.

قال المصنف رحمه الله: قلة العلم أوجبت هذا التخليط، ولو عرفوا ماهية التوكل لعلموا أنه ليس بينه وبين الأسباب تضاد. وذلك أن التوكل اعتماد القلب على الوكيل وحده، وذلك لا يناقض حركة البدن في التعلق بالأسباب ولا ادخار المال، فقد قال تعالى: ﴿ولا تُؤتُوا السفهاءَ أموالَكُمُ الَّتي جَعلَ اللَّهُ لكمْ قِيَاماً﴾[2]، أي قواماً لأبدانكم. وقال ﷺ: «نِعْمَ المالُ الصَّالحُ مع الرَّجلِ الصَّالحِ»[3]. وقال ﷺ: «إنك أنْ تَدعَ ورثَتَكَ أغنياءَ خيرٌ مِنَ أن تَدَعهُمْ عالةً يَتكفَّفُونَ النَّاسَ»[4].

واعلم أن الذي أمر بالتوكل أمر بأخذ الحذر فقال: ﴿خُذوا حِذْرَكُمْ﴾[5]، وقال ﴿وأعدُّوا لهمْ ما استطعتمْ مِنْ قُوَّة﴾[6]، وقال: ﴿أنْ أسرِ بعبادِي ليلاً﴾[7]، وقد ظاهر رسول الله ﷺ بين درعين وشاور طبيبين واختفى في الغار. وقال: «من يحرسني الليلة». وأمر بغلق الباب. وفي الصحيحين من حديث جابر أن النبي ﷺ قال: «اغلق بابك»[8]. وقد أخبرنا أن التوكل لا ينافي الاحتراز.

---

(١) الدانق: سدس الدرهم.

(٢) سورة النساء: الآية ٥.

(٣) رواه أحمد (١٩٧/٤) بإسناد صحيح.

(٤) متفق عليه من حديث سعد بن أبي وقاص، بلفظ «إنك أن تذر ورثتك...» الحديث ومرّ تخريجه.

(٥) سورة النساء: الآية ٧١.

(٦) سورة الأنفال: الآية ٦٠.

(٧) سورة طه: الآية ٧٧.

(٨) أخرجه البخاري (٣٢٨٠): باب صفة إبليس وجنوده، وفي غيره، ومسلم (٢٠١٢) في الأشربة: باب الأمر بتغطية الإناء.

وقال أنس بن مالك رضي الله عنه: «جاء رجل إلى النبي ﷺ وترك ناقته بباب المسجد، فسأله رسول الله ﷺ عنها، فقال: أطلقتها وتوكلت على الله، قال: «اعقلها وتوكل»[1].

وقال سفيان بن عيينة: تفسير التوكل أن يرضى بما يفعل به. وقال ابن عقيل: يظن أقوام أن الاحتياط والاحتراز ينافي التوكل، وأن التوكل هو إهمال العواقب وإطراح التحفظ، وذلك عند العلماء هو العجز والتفريط الذي يقتضي من العقلاء التوبيخ والتهجين، ولم يأمر الله بالتوكل إلّا بعد التحرز واستفراغ[2] الوسع في التحفظ، فقال تعالى: ﴿وشَاوِرْهُمْ في الأَمْرِ فإذا عزمتَ فتوكلْ على الله﴾[3]، فلو كان التعلق بالاحتياط قادحاً في التوكل لما خص الله به نبيه حين قال له: ﴿وشاوِرْهُمْ في الأَمرِ﴾، وهل المشاورة إلّا استفادة الرأي الذي منه يؤخذ التحفظ والتحرز من العدو، ولم يقنع في الاحتياط بأن يكله[4] إلى رأيهم واجتهادهم، حتى نص عليه وجعله عملاً في نفس الصلاة، وهي أخص العبادات. فقال: ﴿فلتقمْ طائفةٌ منهمْ معكَ ولْيأخُذُوا أسلحَتَهُمْ﴾، وبين علة ذلك بقوله تعالى: ﴿وَدَّ الذينَ كفرُوا لو تَغفُلونَ عن أسلحتِكم وأمتعتِكُم فَيميلُونَ عليكمْ مَيْلةً واحدةً﴾[5]، ومن علم أن الاحتياط هكذا، لا يقول: إن التوكل عليه ترك ما علم. لكن التوكل التفويض فيما لا وسع فيه ولا طاقة. قال عليه الصلاة والسلام: «اعقلها وتوكل»، ولو كان التوكل ترك التحرز لخص به خير الخلق ﷺ في خير الأحوال وهي حالة الصلاة. وقد ذهب الشافعي رحمه الله إلى وجوب حمل السلاح حينئذ لقوله:

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٥١٧) في كتاب صفة القيامة. وقال حديث غريب.

(٢) استفرغ وسعه: بذل كل ما يمكنه من طاقة.

(٣) سورة آل عمران: الآية ١٥٩.

(٤) وكل الأمر إليه: فوضه وتركه له.

(٥) سورة النساء: الآية ١٠٢.

﴿وَلْيأخذُوا أَسلحتَهِمْ﴾[1]، فالتوكل لا يمنع من الاحتياط والاحتراز، فإن موسى عليه السلام لما قيل له: ﴿إنَّ الملأ يأتمرُونَ بكَ لِيقتُلوكَ»[2] خرج. ونبينا ﷺ خرج من مكة لخوفه من المتآمرين عليه، ووقاه أبو بكر رضي الله عنه بسد أثقاب الغار[3]. وأعطى القوم التحرز حقه، ثم توكلوا، وقال عزّ وجلّ في باب الاحتياط: ﴿لا تقصُصْ رُؤياك على إخوتِكَ﴾[4]، ﴿لا تدخُلوا من بابٍ واحدٍ﴾[5]، وقال: ﴿فامشُوا في مَناكِبِهَا﴾[6]، وهذا لأن الحركة للذب عن النفس استعمال لنعمة الله تعالى، وكما أن الله تعالى يريد إظهار نعمه المبداة يريد أظهار ودائعه، فلا وجه لتعطيل ما أودع اعتماداً على ما جاد به. لكن يجب استعمال ما عندك ثم اطلب ما عنده. وقد جعل الله تعالى للطير والبهائم عدة وأسلحة تدفع عنها الشرور كالمخلب والظفر والناب، وخلق للآدمي عقلاً يقوده إلى حمل الأسلحة ويهديه إلى التحصين بالأبنية والدروع، ومن عطل نعمة الله تعالى بترك الاحتراز فقد عطل حكمته، كمن يترك الأغذية والأدوية ثم يموت جوعاً أو مرضاً. ولا أبله ممن يدعي العقل والعلم ويستسلم للبلاء، إنما ينبغي أن تكون أعضاء المتوكل في الكسب، وقلبه ساكن مفوض إلى الحق منع أو أعطى، لأنه لا يرى إلاّ أن الحق سبحانه وتعالى لا يتصرف إلاّ بحكمة ومصلحة، فمنعه عطاء في المعنى. وكم زين للعجزة عجزهم،

---

(1) سورة النساء: الآية ١٠٢.

(2) يشير إلى قوله تعالى: ﴿وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى قال: يا موسى إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك فأخرج إني لك من الناصحين. فخرج منها خائفاً يترقّب قال رب نجِّني من القوم الظالمين﴾ سورة القصص: الآيتان ٢٠، ٢١).

(3) رواه البيهقي في «دلائل النبوة» من مرسل محمد بن سيرين، والبغوي من مرسل ابن أبي مليكة، وابن هشام عن الحسن البصري، ولفظ البيهقي: «فلما انتهيا إلى الغار قال أبو بكر: (مكانك يا رسول الله حتى أستبرىء لك الغار فاستبرأه) كذا في «فتح الباري» ٣٣٨/٨.

(4) سورة يوسف: الآية ٥.

(5) سورة يوسف: الآية ٦٧.

(6) سورة الملك: الآية ١٥.

وسولت لهم أنفسهم أن التفريط توكل، فصاروا في غرورهم بمثابة من اعتقد التهور شجاعة والخور[1] حزماً. ومتى وضعت أسباب فأهملت كان ذلك جهلاً بحكمة الواضع: مثل وضع الطعام سبباً للشبع، والماء للري، والدواء للمرض. فإذا ترك الإنسان ذلك هواناً[2] بالسبب ثم دعا وسأل فربما قيل له: قد جعلنا لعافيتك سبباً، فإذا لم تتناوله كان إهوانا لعطائنا، فربما لم نعافك بغير سبب لإهوانك للسبب.

قال المصنف رحمه الله: فإن قال قائل: كيف أحترز مع القدر؟ قيل له: وكيف لا تحترز مع الأوامر من المقدر. فالذي قدر هو الذي أمر. وقد قال تعالى: ﴿خُذُوا حِذرَكُمْ﴾[3]. عن أبي عثمان قال: كان عيسى عليه السلام يصلي على رأس جبل فأتاه إبليس، فقال: أنت الذي تزعم أن كل شيء بقضاء وقدر؟ قال: نعم، قال: فألق نفسك من الجبل وقل قدر عليّ، فقال: يا لعين، الله يختبر العباد، وليس للعباد أن يختبروا الله تعالى.

وفي معنى ما ذكرنا من تلبيسه عليهم في ترك الأسباب أنه قد لبس على خلق كثير منهم بأن التوكل ينافي الكسب. قال سهل بن عبد الله التستري: من طعن في التوكل فقد طعن في الإيمان، ومن طعن على الكسب فقد طعن على السنة.

وقال محمد بن عبد الله الرازي: سأل رجل أبا عبد الله بن سالم وأنا أسمع: أنحن مستعبدون بالكسب أم بالتوكل، فقال: التوكل حال رسول الله ﷺ، والكسب سنة رسول الله ﷺ، وإنما سن الكسب لمن ضعف عن التوكل، وسقط عن درجة الكمال التي هي حاله، فمن أطاق التوكل فالكسب غير مباح له بحال إلاّ كسب معاونة لا كسب اعتماد عليه، ومن

---

(١) الخور: الضعف.

(٢) يقصد استهانة، أي استخفافاً.

(٣) سورة النساء: الآية ٧١.

ضعف عن حال التوكل التي هي حال رسول الله ﷺ أبيح له طلب المعاش في الكسب لئلا يسقط عن درجة سنته حين سقط عن درجة حاله.

وقال يوسف بن الحسين: إذا رأيت المريد يشتغل بالرخص والكسب فليس يجيء منه شيء.

قال المصنف رحمه الله: هذا كلام قوم ما فهموا معنى التوكل وظنوا أنه ترك الكسب، وتعطيل الجوارح عن العمل، وقد بينا أن التوكل فعل القلب فلا ينافي حركة الجوارح، ولو كان كل كاسب ليس بمتوكل لكان الأنبياء غير متوكلين، فقد كان آدم عليه السلام حراثاً، ونوح وزكريا نجارين، وإدريس خياطاً، وإبراهيم ولوط زرّاعين، وصالح تاجراً. وكان سليمان يعمل الخوص وداود يصنع الدرع ويأكل من ثمنه، وكان موسى وشعيب ومحمد رعاة صلوات الله عليهم أجمعين، وقال نبينا ﷺ: «كنتُ أرعى غنماً لأهلِ مكة بالقراريط»(١). فلما أغناه الله عزّ وجلّ بما فرض له في الفيء لم يحتج إلى الكسب. وقد كان أبو بكر وعثمان وعبد الرحمن بن عوف وطلحة رضوان الله تعالى عليهم بزازين(٢)، وكذلك محمد بن سيرين وميمون بن مهران بزازين. وكان الزبير بن العوام وعمرو بن العاص وعامر بن كريز خزازين(٣)، وكذلك أبو حنيفة. وكان سعد بن أبي وقاص يبري النبل، وكان عثمان بن طلحة خياطاً. وما زال التابعون ومن بعدهم يكتسبون ويأمرون بالكسب.

عن عطاء بن السائب، قال: لما استخلف أبو بكر رضي الله عنه أصبح غادياً إلى السوق وعلى رقبته أثواب يتجر بها، فلقيه عمر وأبو عبيدة، فقالا:

---

(١) رواه البخاري (٢٢٦٢) في الإجارة: باب رعي الغنم على قراريط، عن أبي هريرة بلفظ «ما بعث الله نبياً إلاّ رعى الغنم، فقال أصحابه: وأنت؟ فقال: نعم كنت أرعى على قراريط لأهل مكة». والقيراط: نصف دانق وهو سدس درهم.

(٢) **البزاز**: بائع البز، وهي ثياب من قطن أو كتان.

(٣) **الخزاز**: بائع الخرز، وهو الحرير.

أين تريد؟ قال: السوق، قالا: تصنع ماذا وقد وليت أمور المسلمين؟! قال: فمن أين أطعم عيالي؟!

وعن عمرو بن ميمون عن أبيه، قال: لما استخلف أبو بكر جعلوا له ألفين، فقال: زيدوني فإن لي عيالاً، وقد شغلتموني عن التجارة، فزادوه خمس مئة.

قال المصنف رحمه الله: لو قال رجل للصوفية: من أين أطعم عيالي لقالوا: قد أشركت. ولو سئلوا عمن يخرج إلى التجارة لقالوا: ليس بمتوكل ولا موقن، وكل هذا لجهلهم بمعنى التوكل واليقين. ولو كان أحد يغلق عليه الباب ويتوكل لقرب أمر دعواهم، لكنهم بين أمرين: أما الغالب من الناس فمنهم من يسعى إلى الدنيا مستجدياً، ومنهم من يبعث غلامه فيدور بالزنبيل فيجمع له. وأما الجلوس في الرباط في هيئة المساكين، وقد علم أن الرباط لا يخلو من فتوح، كما لا تخلو الدكان من أن يقصد للبيع والشراء.

قال سعيد بن المسيب: من لزم المسجد وترك الحرفة وقبل ما يأتيه فقد ألحف[1] في السؤال.

قال المصنف رحمه الله: وقد كان السلف ينهون عن التعرض لهذه الأشياء ويأمرون بالكسب.

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: يا معشر الفقراء ارفعوا رؤوسكم فقد وضح الطريق، فاستبقوا الخيرات، ولا تكونوا عيالاً[2] على المسلمين.

وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه، إذا رأى غلاماً فأعجبه سأل عنه: هل له حرفة؟ فإن قيل: لا، قال: سقط من عيني.

وعن سعيد بن المسيب، قال: كان أصحاب رسول الله ﷺ يتجرون في

---

(١) أي ألحّ فيه.

(٢) عيال الرجل: أهل بيته الذين تجب نفقتهم عليه.

تجر(١) الشام منهم طلحة بن عبيد الله وسعيد بن زيد.

سئل أحمد بن حنبل: ما تقول في رجل جلس في بيته أو في مسجده، وقال: لا أعمل شيئاً حتى يأتيني رزقي، فقال أحمد: هذا رجل جهل العلم، أما سمعت قول رسول الله ﷺ: «جعل الله رزقي تحت ظل رمحي»(٢). وحديث الآخر في ذكر الطير «تغدو خِماصاً»(٣)، فذكر أنها تغدو في طلب الرزق. قال تعالى: ﴿وآخَرُونَ يضربُونَ في الأرضِ يَبْتغُونَ مِنْ فَضلِ اللَّهِ﴾(٤)، وقال: ﴿ليسَ عليكُمْ جُناحٌ أَنْ تَبتغُوا فضلاً من رَبِّكُمْ﴾(٥)، وكان أصحاب رسول الله ﷺ يتجرون في البر والبحر ويعملون في نخيلهم، ولنا القدوة بهم. وقد ذكرنا فيما مضى عن أحمد أن رجلاً قال له: أريد الحج على التوكل، فقال له: فاخرج في غير القافلة؛ قال: لا، قال: فعلى جراب الناس توكلت.

قال أبو بكر المروزي: قلت لأبي عبد الله هؤلاء المتوكلة يقولون: نقعد وأرزاقنا على الله عزّ وجلّ، فقال: هذا قول رديء، أليس قد قال الله تعالى: ﴿إذا نُودِيَ للصَّلاةِ من يومِ الجُمُعَةِ فاسْعَوا إلى ذِكرِ اللَّهِ وذَرُوا الْبيعَ﴾(٦)، ثم

---

(١) التجر: التجارة.

(٢) أخرجه البخاري تعليقاً في الجهاد: الباب (٨٨) ما قيل في الرماح. قال الحافظ في «الفتح» وهو طرف من حديث أخرجه أحمد (٢/٥٠، ٩٢) من طريق أبي منيب الجرشي عن ابن عمر ولفظه: «بعثت بين يدي الساعة مع السيف. وجعل رزقي تحت ظل رمحي وجعلت الذلّة والصغار على من خالف أمري، ومن تشبّه بقوم فهو منهم»، وإسناده حسن.

(٣) أخرجه الترمذي (٢٣٤٥) في الزهد: باب رقم (٣٣)، وقال: حديث حسن صحيح، ولفظه: «لو أنكم كنتم تتوكلون على الله حق توكُّله لرَزَقكم كما ترزق الطير تغدو خماصاً وتروح بطاناً»، وأخرجه أحمد وابن ماجه وغيرهم. خِماصاً: جياعاً. بطاناً: شباعاً.

(٤) سورة المزمل: الآية ٢٠.

(٥) سورة البقرة: الآية ١٩٨.

(٦) سورة الجمعة: الآية ٩.

قال: إذا قال: لا أعمل وجيء إليه بشيء قد عمل واكتسب، لأي شيء يقبله من غيره.

وقال عبد الله بن أحمد: سألت أبي عن قوم يقولون: نتوكل على الله ولا نكتسب، فقال: ينبغي للناس كلهم أن يتوكلوا على الله، ولكن يعودون على أنفسهم بالكسب. هذا قول إنسان أحمق.

وقال أحمد بن حنبل: التوكل حسن ولكن ينبغي أن يكتسب. وسئل عن قوم لا يعملون ويقولون: نحن المتوكلون فقال: هؤلاء مبتدعون.

وقال: هؤلاء قوم سوء يريدون تعطيل الدنيا.

وقال الخلال: سمعت رجلاً يقول لأحمد بن حنبل: إني في كفاية، قال: الزم السوق تصل به الرحم وتعود به على عيالك. وقال لرجل آخر: اعمل وتصدق بالفضل على قرابتك.

وقال: ما أحسن الاستغناء عن الناس.

وقال: أحب الدراهم إليّ درهم من تجارة، وأكرهها عندي الذي من صلة الإخوان.

قال المصنف رحمه الله: وكان إبراهيم بن أدهم يحصد، وسلمان الخواص يلقط[1]، وحذيفة المرعشي يضرب اللبن.

وقال ابن عقيل: التسبب لا يقدح في التوكل، لأن تعاطي رتبة ترقى على رتبة الأنبياء نقص في الدين. ولما قيل لموسى عليه السلام: ﴿إنّ الْمَلأَ يأتمرُونَ بكَ لِيقتلُوكَ﴾[2] خرج، ولما جاع واحتاج إلى عفة نفسه آجر نفسه ثمان سنين. وقال الله تعالى: ﴿فَامشُوا في مَناكِبهَا﴾[3]، وهذا لأن الحركة

---

(١) لقط السنابل: أخذها من الأرض.

(٢) يشير إلى الآية الكريمة: ﴿فخرج منها خائفاً يترقب﴾، «القصص: ٢٠».

(٣) سورة الملك: الآية ١٥.

مناكبها: جوانبها.

استعمال لنعمة الله وهي القوى، فاستعمل ما عندك ثم اطلب ما عنده. وقد يطلب الإنسان من ربه وينسى ما له عنده من الذخائر، فإذا تأخر عنه ما يطلبه يسخط. فترى بعضهم يملك عقاراً وأثاثاً، فإذا ضاق به القوت واجتمع عليه دين. فقيل له: لو بعت عقارك؟ قال: كيف أفرط في عقاري وأسقط جاهي عند الناس. وإنما يفعل هذه الحماقات العادات، وإنما قعد أقوام عن الكسب استثقالاً له، فكانوا بين أمرين قبيحين: إما تضييع العيال فتركوا الفرائض، أو التزين باسم أنه متوكل، فيحن[1] عليهم المكتسبون، فضيقوا على عيالهم لأجلهم وأعطوهم. وهذه الرذيلة لم تدخل قط إلّا على دنيء النفس الرذيلة، وإلّا فالرجل كل الرجل من لم يضيع جوهره الذي أودَعه الله إيثاراً للكسل، أو لاسم يتزين به بين الجهال، فإن الله تعالى قد يحرم الإنسان المال، ويرزقه جوهراً يتسبب به إلى تحصيل الدنيا بقبول الناس عليه.

وقد تشبث القاعدون عن التكسب بتعلالات قبيحة. منها أنهم قالوا: لا بدّ من أن يصل إلينا رزقنا، وهذا في غاية القبح، فإن الإنسان لو ترك الطاعة وقال: لا أقدر بطاعتي أن أغير ما قضى الله علي، فإن كنت من أهل الجنة فأنا إلى الجنة، أو من أهل النار فأنا من أهل النار. قلنا له: هذا يرد الأوامر كلها، ولو صح لأحد ذلك لم يخرج آدم من الجنة لأنه كان يقول: ما فعلت إلّا ما قضي علي. ومعلوم أننا مطالبون بالأمر لا بالقدر. ومنها أنهم يقولون: أين الحلال حتى نطلبه؟ وهذا قول جاهل لأن الحلال لا ينقطع أبداً لقوله ﷺ: «الحلالُ بيّنٌ والحرامُ بيِّنٌ»[2]، ومعلوم أن الحلال ما أذن الشرع في تناوله، وإنما قولهم هذا احتجاج للكسل. ومنها أنهم قالوا: إذا كسبنا أعنا الظلمة والعصاة، قال إبراهيم الخواص: طلبت الحلال في كل شيء، حتى طلبته في صيد السمك، فأخذت قصبة وجعلت فيها شعراً، وجلست على

---

(١) أي يعطفون ويشفقون.

(٢) سبق تخريج الحديث أكثر من مرة.

الماء، فألقيت الشِّص[1] فخرجت سمكة فطرحتها على الأرض، وألقيت الثانية فخرجت لي سمكة، فأنا أطرحها ثالثة إذا من ورائي لطمة لا أدري من يد من هي ولا رأيت أحداً، وسمعت قائلاً يقول: أنت لم تصب رزقاً في شيء إلّا أن تعمد إلى من يذكرنا فتقتله. قال: فقطعت الشعر وكسرت القصبة وانصرفت.

قال المصنف رحمه الله: وهذه القصة إن صحت، فإن اللاطم إبليس، وهو الذي هتف به، لأن الله تعالى أباح الصيد، فلا يعاقب على ما أباحه، وكيف يقال له: تعمد إلى من يذكرنا فتقتله، وهو الذي أباح له قتله وكسب الحلال ممدوح، ولو تركنا الصيد وذبح الأنعام لأنها تذكر الله تعالى لم يكن لنا ما يقيم قوى الأبدان، لأنه لا يقيمها إلّا اللحم، فالتحرج[2] من أخذ السمك وذبح الحيوان مذهب البراهمة، فانظر إلى الجهل ما يصنع، وإلى إبليس كيف يفعل.

تلبيس إبليس على الصوفية في ترك التداوي

قال المصنف رحمه الله: لا يختلف العلماء أن التداوي مباح، وإنما رأى بعضهم أن العزيمة تركه. وقد ذكرنا كلام الناس في هذا وبينا بما اخترناه في كتابنا «لقط المنافع في الطب». والمقصود ها هنا أنا نقول: إذا ثبت أن التداوي مباح بالإجماع مندوب إليه عند بعض العلماء، فلا يلتفت إلى قول قوم قد رأوا أن التداوي خارج من التوكل، لأن الإجماع على أنه لا يخرج من التوكل، وقد صح عن رسول الله ﷺ أنه تداوى وأمر بالتداوي[3]، ولم يخرج

---

(١) الشِّصُّ: حديدة عقفاء يُصاد بها السمك، وجمعها شُصُوص.

(٢) من الحرج: وهو الإثم أو الضيق.

(٣) أخرجه مسلم (٢٢٠٤) في السلام: باب لكل داء دواء، عن جابر، قال رسول الله ﷺ: «إن لكل داء دواءً، فإذا أصيب دواء الداء برأ بإذن الله»، وقال: «تداووا فإن الله تعالى لم يضع داء إلّا وضع له دواء، غير داء واحد وهو الهرم». أخرجه أبو داود (٣٨٥٥) في الطب: باب في الرجل يتداوى. وإسناده صحيح ورواه غيره.

بذلك من التوكل، ولا أخرج من أمره أن يتداوى من التوكل.

وفي «الصحيح»[1] من حديث عثمان بن عفان رضي الله عنه: «أن النبي ﷺ رخص إذا اشتكى المحرم عينه أن يضمدها بالصبر». قال ابن جرير الطبري: وفي هذا الحديث دليل على فساد ما يقوله ذوو الغباوة من أهل التصوف والعباد من أن التوكل لا يصح لأحد عالج علة به في جسده بدواء، إذ ذاك عندهم طلب العافية من غير من بيده العافية والضر والنفع. وفي إطلاق النبي ﷺ للمحرم علاج عينه بالصبر لدفع المكروه أدل دليل على أن معنى التوكل غير ما قاله الذين ذكرنا قولهم، وأن ذلك غير مخرج فاعله من الرضى بقضاء الله، كما أن من عرض له كلب الجوع[2] لا يخرجه فزعه إلى الغذاء من التوكل والرضى بالقضاء، لأن الله تعالى لم ينزل داء إلّا أنزل له دواء إلّا الموت، وجعل أسباباً لدفع الأدواء، كما جعل الأكل سبباً لدفع الجوع. وقد كان قادراً أن يحيى خلقه بغير هذا، ولكنه خلقهم ذوي حاجة، فلا يندفع عنهم أذى الجوع إلّا بما جعل سبباً لدفعه عنهم، فكذا الداء العارض والله الهادي.

تلبيس إبليس على الصوفية في ترك الجمعة والجماعة بالوحدة والعزلة

قال المصنف: كان خيار السلف يؤثرون الوحدة والعزلة عن الناس اشتغالاً بالعلم والتعبد، إلّا أن عزلة القوم لم تقطعهم عن جمعة ولا جماعة، ولا عيادة مريض، ولا شهود جنازة ولا قيام بحق. وإنما هي عزلة عن الشر وأهله ومخالطة البطالين[3]، وقد لبس إبليس على جماعة من المتصوفة، فمنهم من

(١) أخرجه مسلم (١٢٠٤) في الحج: باب جواز مداراة المحرم عينه. والضماد: أصل معناه: الشدّ، ويقال: للخرقة التي يشد بها العضو المصاب ضماد. والصَّبِرُ بكسر الباء: دواء مرّ.

(٢) أي شدة الجوع.

(٣) أي المتعطلين.

اعتزل في جبل كالرهبان يبيت وحده ويصبح وحده، ففاتته الجمعة وصلاة الجماعة، ومخالطة أهل العلم. وعمومهم اعتزل في الأربطة، ففاتهم السعي إلى المساجد، وتوطنوا[1] على فراش الراحة، وتركوا الكسب، وقد قال أبو حامد الغزالي في كتاب «الإحياء»: مقصود الرياضة تفريغ القلب وليس ذلك إلّا بالخلوة في مكان مظلم. وقال: فإن لم يكن مكان مظلم فيلف رأسه في جبته أو يتدثر بكساء، أو إزار. ففي مثل هذه الحالة يسمع نداء الحق، ويشاهد جلال حضرة الربوبية.

قال المصنف رحمه الله: انظر إلى هذه الترتيبات، والعجب كيف تصدر من فقيه عالم، ومن أين له أن الذي يسمعه نداء الحق، وأن الذي يشاهده جلال الربوبية، وما يؤمنه أن يكون ما يجده من الوساوس والخيالات الفاسدة، وهذا الظاهر ممن يستعمل التقلل في المطعم، فإنه يغلب عليه الماليخوليا[2]. وقد يسلم الإنسان في مثل هذه الحالة من الوساوس، إلّا أنه إذا تغشى بثوبه وغمض عينيه تخايل هذه الأشياء، لأن في الدماغ ثلاث قوى: قوة يكون بها التخيل، وقوة يكون بها الفكرة، وقوة يكون بها الذكر، وموضع التخيل البطنان المقدمان من بطون الدماغ، وموضع التفكر البطن الأوسط من بطون الدماغ، وموضع الحفظ الموضع المؤخر، فإن أطرق الإنسان وغمض عينيه جال الفكر والتخيل، فيرى خيالات فيظنها ما ذكر من حضرة جلال الربوبية إلى غير ذلك، نعوذ بالله من هذه الوساوس والخيالات الفاسدة.

كان أبو عبيد التستري إذا كان أول يوم من شهر رمضان يدخل البيت ويقول لامرأته: طيني باب البيت، والق إليّ كل ليلة من الكوة رغيفاً، فإذا كان يوم العيد دخلت فوجدت ثلاثين رغيفاً في الزاوية، ولا أكل ولا شرب ولا يتهيأ لصلاة، ويبقى على طهر واحد إلى آخر الشهر.

---

(١) توطَّن البلد: اتخذه وطناً، ووطن المكان: أقام به.

(٢) أي مرض السوداء: وهو من أمراض النفس.

قال المصنف رحمه الله: هذه الحكاية عندي بعيدة عن الصحة من وجهين: أحدها بقاء الآدمي شهراً لا يحدث بنوم ولا بول ولا غائط ولا ريح. والثاني ترك المسلم صلاة الجمعة والجماعة، وهي واجبة لا يحل تركها، فإن صحت هذه الحكاية فما أبقى إبليس لهذا في التلبيس بقية.

قال الحاكم أبو عبد الله النيسابوري: وسمعت أبا الحسن البوشنجي الصوفي غير مرة يعاتب في ترك الجمعة والجماعة والتخلف عنها فيقول: إن كانت البركة في الجماعة، فإن السلامة في العزلة.

وقد جاء النهي عن الانفراد الموجب للبعد عن العلم والجهاد للعدو.

عن أبي أمامة، قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ في سرية من سراياه، قال: فمر رجل بغار فيه شيء من ماء، قال: فحدث نفسه بأن يقيم في ذلك الغار فيقوته ما كان فيه، وفيه شيء من ماء ويصيب ما حوله من البقل، ويتخلى عن الدنيا، ثم قال: لو أني أتيت نبي الله ﷺ فذكرت ذلك له، فإن أذن لي فعلت وإلاَّ لم أفعل، فأتاه، فقال: يا نبي الله إني مررت بغار فيه ما يقوتني من الماء والبقل، فحدثتني نفسي بأن أقيم فيه وأتخلى من الدنيا. قال: فقال نبي الله ﷺ: «إني لم أبعث باليهودية ولا بالنصرانية ولكني بعثت بالحنيفية السمحة، والذي نفس محمد بيده لغدوة أو روحة في سبيل الله خير من الدنيا وما فيها، ولمقام أحدكم في الصف خير من صلاته ستين سنة»[1].

تلبيس إبليس على الصوفية في التخشع وطأطأة الرأس وإقامة الناموس

قال المصنف رحمه الله: إذا سكن الخوف القلب أوجب خشوع الظاهر ولا يملك صاحبه دفعه، فتراه مطرقاً متأدباً متذللاً، وقد كانوا يجتهدون في ستر

---

(١) أخرجه أحمد (٥/٢٦٦)، وفيه علي بن يزيد الالهاني.
قال الحافظ في «التقريب»: ضعيف.

ما يظهر منهم من ذلك، وكان محمد بن سيرين يضحك بالنهار ويبكي بالليل. ولسنا نأمر العالم بالانبساط بين العوام، فإن ذلك يؤذيهم. فقد روي عن علي رضي الله عنه: إذا ذكرتم العلم فاكظموا عليه ولا تخلطوه بضحك فتمجه القلوب. ومثل هذا لا يسمى رياء، لأن قلوب العوام تضيق عن التأويل للعالم إذا تفسح في المباح، فينبغي أن يتلقاهم بالصمت والأدب، وإنما المذموم تكلف التخشع والتباكي، وطأطأة الرأس ليرى الإنسان بعين الزهد والتهيؤ للمصافحة وتقبيل اليد، وربما قيل له: ادع لنا فيتهيأ للدعاء كأنه يستنزل الإجابة. وقد ذكرنا عن إبراهيم النخعي أنه قيل له: ادع لنا فكره ذلك واشتد عليه. وقد كان في الخائفين من حمله الخوف على شدة الذل والحياء فلم يرفع رأسه إلى السماء، وليس هذا بفضيلة، لأنه لا خشوع فوق خشوع رسول الله ﷺ.

وفي «صحيح مسلم» من حديث أبي موسى قال: «كان رسول الله ﷺ كثيراً ما يرفع رأسه إلى السماء»[1]. وفي هذا الحديث دليل على استحباب النظر إلى السماء لأجل الاعتبار بآياتها، وقد قال الله تعالى: ﴿أَوَلم يَروا إلى السَّماءِ فوقَهُم كيف بَنيناها﴾[2]، وقال: ﴿قُلْ انظُروا ماذا في السَّمواتِ والْأَرْضِ﴾[3]. وفي هذا رد على المتصوفين، فإن أحدهم يبقى سنين لا ينظر إلى السماء. وقد ضم هؤلاء إلى ابتداعهم الرمز إلى التشبيه، ولو علموا أن إطراقهم كرفعهم في باب الحياء من الله تعالى لم يفعلوا ذلك، غير أن ما شغل إبليس إلّا التلاعب بالجهلة. فأما العلماء فهو بعيد عنهم شديد الخوف منهم، لأنهم يعرفون جميع أمره ويحترزون من فنون مكره.

عن أبي سلمة بن عبد الرحمن، قال: لم يكن أصحاب رسول الله ﷺ

---

(١) أخرجه مسلم (٢٥٣١) في فضائل الصحابة: باب بيان أن بقاء النبي ﷺ أمان لأصحابه.

(٢) سورة قٓ: الآية ٦.

(٣) سورة يونس: الآية ١١.

منحرفين ولا متماوتين، وكانوا يتناشدون الشعر في مجالسهم، ويذكرون أمر جاهليتهم، فإذا أريد أحد منهم على شيء من أمر دينه دارت حماليق عينيه[1] كأنه مجنون.

ونظر عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى شاب قد نكس رأسه فقال له: يا هذا ارفع رأسك فإن الخشوع لا يزيد على ما في القلب، فمن أظهر للناس خشوعاً فوق ما في قلبه فإنما أظهر نفاقاً على نفاق.

وعن كهمس بن الحسين، أن رجلاً تنفس عند عمر بن الخطاب كأنه يتحازن فلكزه عمر أو قال: لكمه.

وكان عمر إذا مشى لشديد الوطء على الأرض جهوري الصوت.

وكان إذا تكلم أسمع، وإذا مشى أسرع، وإذا ضرب أوجع وهو الناسك حقاً[2].

قال المصنف رحمه الله: وقد كان السلف يسترون أحوالهم ويتصنعون بترك التصنع. وقد ذكرنا عن أيوب السختياني أنه كان في ثوبه بعض الطول ليستر حاله.

وكان سفيان الثوري يقول: لا أعتد بما ظهر من عملي. وقال لصاحب له ورآه يصلي: ما أجرأك تصلي والناس يرونك.

ومرّ أبو أمامة برجل ساجد، فقال: يا لها من سجدة لو كانت في بيتك.

وقال الشافعي رضي الله عنه:

ودع الذين إذا أتوك تنسّكوا   وإذا خَلَوا كانوا ذئابِ حقاف

---

(١) حَمْلَق إليه: فتح عينيه ونظر نظراً شديداً. والْحِمْلَاق: باطن الجَفْن الأحمر، والجمع: حَماليق.

(٢) الناسك: هو الذي أخلص نفسه للعبادة والطاعة لله وتزهّد. والجمع: نُسَّاك، يقال: تنسَّك الرجل: تزهَّد وتعبَّد.

تلبيس إبليس على الصوفية في ترك النكاح

قال المصنف: النكاح مع خوف العنت[1] واجب، ومن غير خوف العنت سنة مؤكدة عند جمهور الفقهاء. ومذهب أبي حنيفة وأحمد بن حنبل أنه حينئذ أفضل من جميع النوافل، لأنه سبب في وجود الولد. قال عليه الصلاة والسلام: «تناكحوا تناسلوا»[2]، وقال ﷺ: «النكاح من سنتي فمن رغب عن سنتي فليس مني»[3]. وعن سعد بن أبي وقاص، قال: لقد ردّ رسول الله ﷺ على عثمان بن مظعون التبتل، ولو أذن له في ذلك لاختصينا[4].

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: «إن خير هذه الأمة كان أكثرها نساء».

---

(١) **العنت**: الشدة والمشقة وخوف الوقوع في الإثم.

(٢) رواه عبد الرزّاق عن سعيد ابن أبي هلال مرسلاً بلفظ «تناكحوا تكاثروا فإني أباهي بكم الأمم يوم القيامة».

(٣) متفق عليه، أخرجه البخاري (٥٠٦٣) في النكاح: باب الترغيب في النكاح، ومسلم (١٠٤١) في النكاح: باب استحباب النكاح.
من حديث أنس، قال: «جاء رهط إلى بيوت أزواج النبي ﷺ يسألون عن عبادة النبي ﷺ، فلما أخبروا بها كأنهم تقالوها، فقالوا: وأين نحن من النبي ﷺ، وقد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر. قال أحدهم: أما أنا فإني أصلي الليل أبداً. وقال الآخر: وأنا أصوم الدهر ولا أفطر. وقال آخر: وأنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبداً، **فجاء رسول الله ﷺ إليهم فقال: أنتم القوم الذين قلتم كذا وكذا؟ أما والله إني لأخشاكم للّهِ وأتقاكم، ولكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنّتي فليس مني**»، وهذا لفظ البخاري، ومعنى تقالوها: عدوها قليلة.
وحديث النكاح من سنتي. أخرجه ابن ماجه (١٨٤٦) في النكاح: باب ما جاء في فضل النكاح، قال في «الزوائد»: ضعيف، لكن له شاهد صحيح.
قال الحافظ ابن حجر في «الفتح»: في الحديث دلالة على فضل النكاح والترغيب فيه، وفيه تتبُّع أحوال **الأكابر للتأسي بأفعالهم**.

(٤) أخرجه البخاري (٥٠٧٣) في النكاح: باب ما يكره من التبتل والخصاء. والتبتل: الانقطاع عن الدنيا إلى الله تعالى.

وعن أبي ذر، قال: دخل على رسول الله ﷺ رجل يقال له: عكاف بن بشر التميمي الهلالي، فقال له النبي ﷺ: «يا عِكافُ هلْ لكَ من زوجة؟ قال: لا. قال: ولا جَارية؟ قال: لا، قال: وأنتَ مُوسرٌ بخيرٍ؟ قال: وأنا مُوسرٌ، قال: أنت إذاً من إخوانِ الشَّياطين، لو كنتَ من النَّصارى لكنتَ من رهبانِهِمْ، إن سُنتَنَا النِّكاحُ، شرارُكمْ عزابُكُمْ، وأَراذلُ موتاكُمْ عزابُكُمْ أبالشياطينِ تمرسون[1] ما للشياطين من سلاح أبلغ في الصالحين من ترك النساء»[2].

قال أبو بكر المروزي: سمعت أبا عبد الله بن حنبل يقول: ليس العزوبة من أمر الإسلام في شيء، النبي عليه الصلاة والسلام تزوج أربع عشرة امرأة ومات عن تسع، ثم قال: لو كان بشر بن الحارث تزوج كان قد أتم أمره كله. لو ترك الناس النكاح لم يغزوا ولم يحجوا ولم يكن كذا ولم يكن كذا، وقد كان النبي عليه الصلاة والسلام يصبح وما عندهم شيء، وكان يختار النكاح ويحث عليه وينهى عن التبتل، فمن رغب عن فعل النبي عليه الصلاة والسلام فهو على غير الحق. ويعقوب عليه السلام في حزنه قد تزوج وولد له. والنبي عليه الصلاة والسلام قال: «حبب إليَّ النساء»[3].

وقد لبس إبليس على كثير من الصوفية، فمنعهم من النكاح فقدماؤهم تركوا ذلك تشاغلاً بالتعبد وأروا النكاح شاغلاً عن طاعة الله عزّ وجلّ، وهؤلاء وإن كانت بهم حاجة إلى النكاح أو بهم نوع تشوق إليه فقد خاطروا بأبدانهم وأديانهم، وإن لم يكن بهم حاجة إليه فاتتهم الفضيلة. وفي «الصحيحين»[4]

---

(١) **تمرس بالشيء**: احتك به، وجرَّبه وتدرَّب عليه فهو مُتمرس به.

(٢) أخرجه أحمد (١٦٣/٥)، وفي الإسناد رجل مجهول.

(٣) رواه أحمد (١٩٩/٣)، والنسائي (٦١/٧) في الأدب: باب ما جاء في الأخذ من اللحية. عن أنس مرفوعاً: «حبب إلي من الدنيا الطيب والنساء، وجعلت قرة عيني في الصلاة»، وإسناده حسن كما قال في «مشكاة المصابيح» (٦٦٩/٢).

(٤) هو في «صحيح مسلم» (١٠٠٦) في الزكاة: باب بيان أن الصدقة يقع على كل نوع من المعروف من حديث أبي ذر، وليس فيه: «أفتحتسبون الشر ولا تحتسبون الخير».

من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «وفي بُضْعِ أحدِكُمْ صَدَقَةٌ، قالوا: يأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر؟ قال: «أرأيتُمْ لو وضعَهَا في حَرامٍ أكَانَ عليه فيها وِزْر»؟! قالوا: نعم، قال: «فكذلِكَ إذا وضعَهَا في الحلالِ كانَ لَهُ أجرٌ»، ثم قال: «أفَتحتسِبُون الشرَّ، ولا تَحتسبونَ الخيرَ ومنهم من قال: النكاح يوجب النفقة والكسب صعب. وهذه حجة للترفه عن تعب الكسب. وفي «الصحيحين» من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «دينار أنفقته في سبيل الله، ودينار أنفقته في رقبة، ودينار أنفقته في الصدقة، ودينار أنفقته على عيالك أفضلها الدينار الذي أنفقته على عيالك»(١). ومنهم من قال: النكاح يوجب الميل إلى الدنيا، فروينا عن أبي سليمان الداراني أنه قال: إذا طلب الرجل الحديث أو سافر في طلب المعاش أو تزوج فقد ركن إلى الدنيا.

قال المصنف رحمه الله: وهذا كله مخالف للشرع، وكيف لا يطلب الحديث والملائكة تضع أجنحتها لطالب العلم. وكيف لا يطلب المعاش وقد قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: لأن أموت من سعي على رجلي أطلب كفاف وجهي أحب إليَّ من أن أموت غازياً في سبيل الله. وكيف لا يتزوج وصاحب الشرع يقول: «تناكحوا تناسلوا»(٢) فما أرى هذه الأوضاع إلّا على خلاف الشرع. فأما جماعة من متأخري الصوفية فإنهم تركوا النكاح ليقال زاهد، والعوام تعظم الصوفي إذا لم تكن له زوجة، فيقولون: ما عرف امرأة قط، فهذه رهبانية تخالف شرعنا. قال أبو حامد: ينبغي أن لا يشغل المريد نفسه بالتزوج، فإنه يشغله عن السلوك، ويأنس بالزوجة، ومن أنس بغير الله شغل عن الله تعالى.

---

(١) أخرجه مسلم (٩٩٥) في الزكاة: باب فضل النفقة على العيال.

(٢) رواه عبد الرزّاق عن سعيد بن أبي هلال مرسلاً. لكن أخرج أبو داود والنسائي والبيهقي وغيرهم عن معقل بن يسار مرفوعاً: «تزوجوا الولود الودود فإني مكاثر بكم الأمم يوم القيامة»، وهو حديث صحيح لطرقه راجع «آداب الزفاف» للأستاذ محمد ناصر الدين الألباني ص ٥٥ .

قال المصنف رحمه الله : وإني لأعجب من كلامه ، أتراه ما علم أن من قصد عفـاف نفسه ، ووجود ولد أو عفـاف زوجته ، فإنه لم يخـرج عن جـادة السلوك . أو يـرى الأنس الطبيعي بـالزوجـة ينافي أنس القلوب بـطاعـة الله تعـالى ، والله تعالى قد منَّ على الخلق بقوله : ﴿خَلَقَ لكمْ من أنفُسِكُمْ أزواجاً لِتسكُنُوا إليهـا وجَعَـل بينَكُمْ مَودَّةً ورحمـة﴾[1] . وفي الحديث الصحيـح عن جـابر رضي الله عنه عن النبـي ﷺ قال لـه : «هَلاَّ تزوجتَ بِكْراً تُلاعبُها وتلاعبُكَ»[2] . وما كـان بالذي ليـدله على مـا يقطـع أنسـه بالله تعـالى . أترى رسـول الله ﷺ لما كـان ينبسط إلى نسائه ويسابق عائشـة رضي الله عنها أكـان خارجـاً عن الأنس بالله . هذه كلها جهالات بالعلم .

واعلم أنه إذا دام ترك النكاح على شبان الصوفية أخرجهم إلى ثلاثة أنواع :

النوع الأول: المرض بحبس الماء، فإن المرء إذا طال احتقـانه تصـاعد إلى الدماغ منه منيه . قال أبو بكر محمد بن زكـريا الـرازي : أعرف قـوماً كـانوا كثيـري المني ، فلمـا منعـوا أنفسهم من الجمـاع لضـرب من التفلسف بـردت أبدانهم ، وعسرت حـركاتهم ، ووقعت عليهم الكـآبة بـلا سبب ، وعرضت لهم أعـراض الماليخـوليـا ، وقلت شهـواتهم وهضمهم . قـال: ورأيت رجـلاً تـرك الجماع ، ففقد شهوة الطعام ، وصار إن أكل القليل لم يستمرئه[3] وتقايأه ، فلما عاد إلى عادته من الجماع سكنت عنه هذه الأعراض سريعاً .

النوع الثاني: الفـرار إلى المتروك ، فـإن منهم خلقاً كثيـراً صابـروا على ترك الجماع ، فاجتمـع الماء فأقلقوا[4] ورجعـوا فلامسـوا النساء ، ولابسـوا من

---

(١) سورة الروم : الآية ٢١ .

(٢) **رواه البخاري (٥٠٧٩) في النكاح : باب تزوج الثيبات ، ومسلم (٧١٥) في الرضـاع : بـاب استحباب نكـاح ذات الـدين : وبـاب استحبـاب نكـاح البكـر . ورواه أبـو داود والترمذي والنسائي .**

(٣) استمرأ الطعام : استطيبه .

(٤) أي أزعجـوا .

الدنيا أضعاف ما فروا منه، فكانوا كمن أطال الجوع ثم أكل ما ترك في زمن الصبر.

النوع الثالث: الانحراف إلى صحبة الصبيان، فإن قوماً منهم أيسوا أنفسهم من النكاح، فأقلقهم ما اجتمع عندهم، فصاروا يرتاحون إلى صحبة المرد.

وقد لَبَّس على قوم منهم تزوجوا، وقالوا: إنا لا ننكح شهوة، فإن أرادوا أن الأغلب في طلب النكاح إرادة السنة جاز، وإن زعموا أنه لا شهوة لهم في نفس النكاح فمحال ظاهر.

وقد حمل الجهل أقواماً فجبوا[1] أنفسهم، وزعموا أنهم فعلوا ذلك حياء من الله تعالى، وهذه غاية الحماقة، لأن الله تعالى شرف الذكر على الأنثى بهذه الآلة، وخلقها لتكون سبباً للتناسل، والذي يَجُبُّ نفسَه يقولُ بلسان الحال: الصواب ضد هذا، ثم قطعهم الآلة لا تُزيل شهوةَ النكاح من النفس، فما حصل لهم مقصودهم.

تلبيس إبليس على الصوفية في ترك طلب الأولاد

قال أبو سليمان الداراني: الذي يريد الولد أحمق لا للدنيا ولا للآخرة، وإن أراد أن يأكل أو ينام أو يجامع نغص عليه، وإن أراد أن يتعبد شغله.

قال المصنف رحمه الله: وهذا غلط عظيم، وبيانه أنه لما كان مراد الله تعالى من إيجاد الدنيا اتصال دوامها إلى أن ينقضي أجلها، وكان الآدمي غير ممتد البقاء فيها إلاّ إلى أمد يسير؛ أخلف الله تعالى منه مثله فحثه على سببه في ذلك، تارةً من حيث الطبع بإيقاد نار الشهوة، وتارةً من باب الشرع بقوله تعالى: ﴿وأَنكِحُوا الأَيامَىٰ منكُمْ والصَّالحينَ من عبادِكُمْ﴾[2]، وقول

---

(١) جب نفسه: قطع أعضاءه التناسلية.

(٢) سورة النور: الآية ٣٢.

الرسول ﷺ: «تناكحوا تناسلوا فإني أباهي بكُمْ الأمَمَ يومَ القيامةِ ولو بالسقط»[1]، وقد طلب الأنبياء عليهم الصلاة والسلام الأولاد. فقال تعالى حكاية عنهم: ﴿ربِّ هَبْ لي من لدُنكَ ذُريَّةً طيبةً إنكَ سميعُ الدُّعاءِ﴾[2]، ﴿ربِّ اجعلْنِي مُقيمَ الصَّلاةِ ومن ذُريتي﴾[3]، إلى غير ذلك من الآيات. وتسبب الصالحون إلى وجودهم. ورُبَّ جماعٍ حدث منه ولد مثل الشافعي وأحمد بن حنبل، فكان خيراً من عبادة ألف سنة.

وقد جاءت الأخبار بإثابة المباضعة[4] والإنفاق على الأولاد والعيال، ومن يموت له ولد، ومن يخلف ولداً بعده، فمن أعرض عن طلب الأولاد والتزوج فقد خالف المسنون، والأفضل، وحرم أجراً جسيماً، ومن فعل ذلك فإنما يطلب الراحة.

قال الجنيد: الأولاد عقوبة شهوة الحلال، فما ظنكم بعقوبة شهوة الحرام.

قال المصنف رحمه الله: وهذا غلط، فإن تسمية المباح عقوبة لا يحسن، لأنه لا يباح شيء ثم يكون ما تجدد منه عقوبة، ولا يندب إلى شيء إلّا وحاصله مثوبة.

تلبيس أبليس على الصوفية في الأسفار والسياحة

قد لبس على خلق كثير منهم، فأخرجهم إلى السياحة لا إلى مكان معروف ولا إلى طلب علم، وأكثرهم يخرجهم على الوحدة، ولا يستصحب زاداً، ويدعي بذلك الفعل التوكل، فكم تفوته من فضيلة وفريضة وهو يرى أنه في ذلك على طاعة، وأنه يقرب بذلك من الولاية، وهو من العصاة المخالفين لسنّة رسول الله ﷺ. وقد نهى رسول الله ﷺ عن السياحة.

---

(١) ورد قريباً، وقلنا: إنه مرسل، وليس فيه زيادة: ولو بالسقط.

(٢) سورة آل عمران: الآية ٣٨.

(٣) سورة إبراهيم: الآية ٤٠.

(٤) يقصد النكاح.

والسياحة: مفارقة الأمصار والذهاب في الأرض. وروى أبو داود في «سننه»: من حديث أبي أمامة، أن رجلاً قال: يا رسول الله ائذن لي في السياحة، فقال النبي ﷺ: «إنَّ سِياحةَ أمتي الجهاد في سبيل الله»(١).

قال المصنف رحمه الله: وقد ذكرنا فيما تقدم من حديث ابن مظعون أنه قال: يا رسول الله، إن نفسي تحدثني بأن أسيح في الأرض، فقال النبي ﷺ له: «مهلاً يا عُثمانُ فإنَّ سياحةَ أمتي الغزوُ في سبيلِ اللَّهِ والْحجُّ والْعمرةُ»(٢).

وقد رُوي عن أحمد بن حنبل أنه سئل عن الرجل يسيح يتعبد أحب إليك أو المقيم في الأمصار، قال: ما السياحة من الإسلام في شيء، ولا من فعل النبيين ولا الصالحين.

وأما الخروج على الوحدة فقد نهى رسول الله ﷺ أن يسافر الرجل وحده.

عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده أن النبي ﷺ قال: «الرَّاكبُ شيطانٌ، والاثنانِ شَيطانانِ، والثلاثةُ رَكْبٌ»(٣).

وقد يمشون بالليل أيضاً على الوحدة. وقد نهى النبي ﷺ عن ذلك.

---

(١) أخرجه أبو داود (٢٤٨٦) في الجهاد: باب النهي عن السياحة.

(٢) رواه في «شرح السنّة» (٢/ ٢٧٠) عن عثمان بن مظعون، ولفظه قال: يا رسول الله ائذن لنا في الاختصاء، فقال رسول الله ﷺ: «ليس منا من خصى ولا اختصى إن خصاء أمتي الصيام»، فقال: ائذن لنا في السياحة، فقال: «إن سياحة أمتي الجهاد في سبيل الله»، فقال: أئذن لنا في الترهب، فقال: «أن ترهب أمتي الجلوس في المساجد انتظار الصلاة». وإسناده ضعيف.

(٣) أخرجه أبو داود (٢٦٠٧) في الجهاد: باب الرجل يسافر وحده، وأخرجه في «الموطأ» (٣٥): باب في الوحدة في السفر. وأحمد (٢/ ١٨٦، ٢١٤). والترمذي (١٦٧٤) في الجهاد: باب كراهية المسافر وحده. قال ابن حجر: وهو حديث حسن.

قال النبي ﷺ: «لو يَعْلَمُ النَّاسُ ما في الْوحدَةِ ما سار أَحدٌ وحْدَهُ بليل أبداً»(١).

قال المصنف رحمه الله: وفيهم من جعل دأبه السفر، والسفر لا يراد لنفسه، قال النبي ﷺ: «السَّفَرُ قِطعةٌ من الْعذابِ، فإذا قَضَى أحدُكُم نَهْمتهُ مِنْ سفرِهِ فلْيُعجلْ إلى أهلِهِ»(٢). فمن جعل دأبه السفر فقد جمع بين تضييع العمر، وتعذيب النفس، وكلاهما مقصود فاسد.

تلبيسه عليهم في دخول الفلاة بغير زاد

قال المصنف رحمه الله: قد لبس على خلق كثير منهم، فأوهمهم أن التوكل ترك الزاد، وقد بينا فساد هذا فيما تقدم، إلّا أنه قد شاع هذا في جهلة القوم، وجاء حمقى القصاص يحكون ذلك عنهم على سبيل المدح لهم به، فيتضمن ذلك تحريض الناس على مثل ذلك، وبأفعال أولئك ومدح هؤلاء لهؤلاء فسدت الأحوال، وخفيت على العوام طرق الصواب. والأخبار عنهم بذلك كثيرة، وأنا أذكر منها نبذة.

قال: فتح الموصلي: خرجت حاجاً، فلما توسطت البادية إذا أنا بغلام صغير، فقلت: يا عجباً بادية بيداء وأرض قفراء(٣) وغلام صغير، فأسرعت فلحقته فسلمت عليه، ثم قلت: يا بني إنك غلام صغير لم تجر عليك الأحكام، قال: يا عم قد مات من كان أصغر سناً مني، فقلت: وسع خطاك فإن الطريق بعيد حتى تلحق المنزل، فقال: يا عم عليَّ المشي، وعلى الله

---

(١) رواه البخاري (٢٩٩٧) في الجهاد: باب السير وحده، ولفظه: «لو يعلم الناس ما في الوحدة ما أعلم، ما سار راكب بليل وحده».

(٢) متفق عليه من حديث أبي هريرة، أخرجه البخاري (١٨٠٤) في كتاب «العمرة»: باب السفر قطعة من العذاب، ومسلم (١٩٢٧) في الإمارة: باب السفر قطعة من العذاب. ولفظه: «السفر قطعة من العذاب يمنع أحدكم نومه وطعامه وشرابه، فإذا قضى نهمته ــ أي: حاجته ــ من وجهه فليعجل إلى أهله».

(٣) البيداء: الفلاة. والقُفْر: الأرض الخالية.

البلاغ، أما قرأت قوله تعالى: ﴿والذينَ جَاهدُوا فينا لَنهدِينَّهُمْ سُبُلَنا﴾[1]. فقلت له: مالي لا أرى معك لا زاداً ولا راحلة؟! فقال: يا عم، زادي يقيني وراحلتي رجائي، قلت: سألتك عن الخبز والماء، قال: يا عم، أخبرني لو أن أخاً من إخوانك أو صديقاً من أصدقائك دعاك إلى منزله أكنت تستحسن أن تحمل معك طعاماً فتأكله في منزله، فقلت: أزودك، فقال: إليك عني يا بطال، هو يطعمنا ويسقينا. قال فتح: فما رأيت صغيراً أشد توكلاً منه، ولا رأيت كبيراً أشد زهداً منه.

قال المصنف رحمه الله: بمثل هذه الحكاية تفسد الأمور، ويظن أن هذا هو الصواب ويقول الكبير: إذا كان الصغير قد فعل هذا فأنا أحق بفعله منه. وليس العجب من الصبي، بل من الذي لقيه، كيف لم يعرفه أن هذا الذي يفعله منكر، وأن الذي استدعاك أمرك بالتزود ومن ماله يتزود، ولكن مضى على هذا كبار القوم فكيف الصغار.

قال محمد بن الحسن بن علي اليعيظي: حضرت أبا عبد الله بن الجلاء، وقيل له عن هؤلاء الذين يدخلون البادية بلا زاد ولا عدة: يزعمون أنهم متوكلون فيموتون في البراري، فقال: هذا فعل رجال الحق، فإن ماتوا فالدية على القاتل.

وقال رجل لأبي عبد الله بن الجلاء: ما تقول في الرجل يدخل البادية بلا زاد، قال: هذا من فعل رجال الله، قال: فإن مات؟ قال: الدية على القاتل.

قال المصنف رحمه الله: هذه فتوى جاهل بحكم الشرع، إذ لا خلاف بين فقهاء الإسلام أنه لا يجوز دخول البادية بغير زاد، وأن من فعل ذلك فمات بالجوع فإنه عاص لله تعالى مستحق لدخول النار. وكذلك إذا تعرض بما غالبه

(١) سورة العنكبوت: الآية ٩٦.

العطب، فإن الله جعل النفوس وديعة عندنا، فقال: ﴿ولا تَقتُلُوا أنفُسَكُم﴾[1]، وقد تكلمنا فيما تقدم في وجوب الاحتراز من المؤذي، ولو لم يكن المسافر بغير زاد، إلاّ أنه خالف أمر الله في قوله: ﴿وتزودوا﴾[2]. قال أبو عبد الله بن خفيف، قال: خرجت من شيراز في السفرة الثالثة فتهت في البادية وحدي وأصابني من الجوع والعطش ما أسقط من أسناني ثمانية، وانتثر شعري كله.

قال المصنف رحمه الله: هذا قد حكى عن نفسه ما ظاهره طلب المدح على ما فعل، والذم لاحق به.

قال أبو حمزة الصوفي: إني لأستحي من الله أن أدخل البادية وأنا شبعان، وقد اعتقدت التوكل، لئلا يكون شبعي زاداً تزودته.

قال المصنف رحمه الله: وقد سبق الكلام على مثل هذا، وأن هؤلاء القوم ظنوا أن التوكل ترك الأسباب، ولو كان هكذا لكان رسول الله ﷺ حين تزود لما خرج إلى الغار قد خرج من التوكل. وكذلك موسى لما طلب الخضر تزود حوتاً. وأهل الكهف حين خرجوا فاستصحبوا دراهم استخفوا ما معهم، وإنما خفي على هؤلاء معنى التوكل لجهلهم. وقد اعتذر لهم أبو حامد، فقال: لا يجوز دخول المفازة بغير زاد إلاّ بشرطين: أحدهما أن يكون الإنسان قد راض نفسه حيث يمكنه الصبر عن الطعام أسبوعاً ونحوه. والثاني أن يمكنه التقوت بالحشيش، ولا تخلو البادية من أن يلقاه آدمي بعد أسبوع أو ينتهي إلى حلة[3] أو حشيش يرجى به قوته.

قال المصنف رحمه الله: أقبح ما في هذا القول أنه صدر من فقيه، فإنه قد لا يلقى أحداً، وقد يضل وقد يمرض، فلا يصلح له الحشيش، وقد يلقى من لا يطعمه، ويتعرض بمن لا يضيفه وتفوته الجماعة قطعاً، وقد يموت

---

(١) سورة النساء: الآية ٢٩.

(٢) سورة البقرة: الآية ١٩٧.

(٣) الحلة: المحلة.

ولا يأبه لـه أحد. ثم قد ذكـرنا مـا جاء في الـوحدة، ثم مـا المخرج إلى هـذه المحن إن كـان يعتمد فيهـا على عادة أو لقـاء شخص واجتزاء بحشيش، وأي فضيلة في هذه الحال حتى يخاطر فيهـا بالنفس. وأين أمـر الإنسان أن يتقـوت بحشيش، ومن فعل هذا من السلف. وكـأن هؤلاء القوم يجـزمون[1] على الله سبحـانـه أن يـرزقهم في البـاديـة. ومن طلب الطعـام في البـريـة فقـد طلب ما لم تجـر بـه العادة، ألا ترى أن قوم موسى عليه السلام لمـا سألـوا من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها أوحى الله إلى موسى: أن اهبطوا مصراً، وذلك لأن الذي طلبوه في الأمصار، فهؤلاء القوم على غاية الخطأ في مخالفة الشرع والعقل والعمل بموافقات النفس.

عن ابن عبـاس، قال: كان أهل اليمن يحجـون ولا يتزودون، ويقولون: نحن متوكلون، فيحجون فيأتون إلى مكة فيسألون الناس، فأنزل الله عـزّ وجلّ: ﴿وتزوَّدُوا فإنَّ خيرَ الزَّادِ التَّقوى﴾[2].

سئل محمد بن كثير الصنعاني عن الـزهاد الـذين لا يتزودون، ويقولون: ولا يلبسـون الخفـاف، فقـال: سـألتني عن أولاد الشيـاطين، ولم تسـألني عن الزهاد. فقيل لـه: فأي شيء الزهد؟ قال: التمسك بالسنة، والتشبـه بأصحـاب النبـي ﷺ.

وسئل أحمد بـن حنبل عن الرجل يريد المفازة بغيـر زاد، فأنكـره إنكاراً شديداً، وقال: أف أف لا لا ــ ومد بها صوته ــ إلاّ بزاد ورفقاء قافلة.

وسئل عن رجل يريد سفراً: أيما أحب إليك يحمل معه زاداً أو يتوكل، فقال لـه: يحمل معه زاداً ويتوكل حتى لا يتشرف[3] للناس.

وسأله رجل: أيخرج الرجل إلى مكة متوكلاً لا يحمل معـه شيئاً؟ قـال:

---

(١) جزم عليه الشيء: أوجبه.

(٢) سورة البقرة: الآية ١٩٧.

(٣) تشرف للناس: تطلـع إلى ما في أيديهم.

لا يعجبني، فمن أين يأكل، قال: فيتوكل فيعطيه الناس، قال: فإذا لم يعطوه، أليس يستشرف لهم حتى يعطوه؟ لا يعجبني هذا. لم يبلغني أن أحداً من أصحاب النبي ﷺ والتابعين فعل هذا.

سياق ما جرى للصوفية في أسفارهم وسياحاتهم من الأفعال المخالفة للشرع

قال أبو حمزة: سافرت سفرة على التوكل، فبينما أنا أسير ذات ليلة والنوم في عيني إذ وقعت في بئر، فرأيتني قد حصلت فيها فلم أقدر على الخروج لبعد مرتقاها، فجلست فيها، فبينا أنا جالس إذ وقف على رأس البئر رجلان، فقال أحدهما لصاحبه: نجوز[1] ونترك هذه البئر في طريق المسلمين، السابلة والمارة[2]. فقال الآخر: فما نصنع؟ قال: فبدرت[3] نفسي أن أناديهما، فنوديت: تتوكل علينا وتشكو بلاءك إلى سوانا، فسكت فمضيا، ثم رجعا ومعهما شيء، فجعلاه على رأسها غطوها به، فقالت لي نفسي: أمنت طمها[4] ولكن حصلت فيها مسجوناً، فمكثت يومي وليلتي، فلما كان الغد ناداني شيء يهتف بي ولا أراه، تمسك بي شديداً، فمددت يدي فوقعت على شيء خشن،فتمسكت به فعلاها وطرحني فوق الأرض، فإذا هو سبع، فلما رأيته لحق نفسي من ذلك ما يلحق من مثله، فهتف بي هاتف وهو يقول: يا أبا حمزة استنقذناك من البلاء بالبلاء، وكفيناك ما تخاف بما تخاف.

وقال أبو حمزة الخراساني: حججت سنة من السنين، فبينا أنا أمشي في الطريق وقعت في بئر، فنازعتني نفسي أن أستغيث، فقلت: لا والله،

---

(١) جاز المكان: سار فيه أو تركه خلفه وقطعه.
(٢) السابلة: أبناء السبيل المختلفة في الطرقات.
(٣) بدره إلى الشيء: عاجله وسبقه.
(٤) أي طمرها وتسويتها بالأرض.

لا أستغيث، فما أتممت هذا الخاطر حتى مر برأس البئر رجلان فقال أحدهما للآخر: تعالى نسد رأس هذا البئر في هذا الطريق، فأتوا بقصب وبارية[1] فهممت، فقلت: إلى من هو أقرب إليك منهما، وسكت حتى طموا رأس البئر، فإذا بشيء قد جاء فكشف عن رأس البئر ودلى رجليه، وكان يقول في همهمة له: تعلق بي فتعلقت به، فأخرجني فنظرت فإذا هو سبع، فهتف بي هاتف وهو يقول: يا أباحمزة أليس ذا حسن نجيناك من التلف بالتلف.

قال أبو عبد الله محمد بن نعيم لما خرج أبو حمزة من البئر أنشد يقول:

نهاني حيائي منك أن أكشف الهوى   فأغنيتني بالقرب منك عن الكشف
تراءيت لي بالغيب حتى كأنني   تبشرني بالغيب أنك في الكف
أراك وبي من هيبتي لك وحشة   وتؤنسني بالعطف منك وباللطف
وتحيي محباً أنت في الحب حتفه   وذا عجب كون الحياة مع الحتف

قال المصنف رحمه الله: اختلفوا في أبي حمزة هذا الواقع في البئر، فقال أبو عبد الرحمن السلمي: هو أبو حمزة الخراساني وكان من أقران الجنيد. وقد ذكرنا في رواية أخرى أنه دمشقي. وقال أبو نعيم الحافظ: هو أبو حمزة البغدادي واسمه محمد بن إبراهيم، وذكره الخطيب في «تاريخه» وذكر له هذه الحكاية. وأيهم كان فهو مخطىء في فعله مخالف للشرع بسكوته، معين بصمته على نفسه، وقد كان يجب عليه أن يصيح ويمنع من طم البئر، كما يجب عليه أن يدفع عن نفسه من يقصد قتله. وقوله: لا أستغيث كقول القائل: لا آكل الطعام ولا أشرب الماء، وهذا جهل من فاعله، ومخالفة الحكمة في وضع الدنيا، فإن الله تعالى وضع الأشياء على حكمة، فجعل للآدمي يداً يدفع بها ولساناً ينطق به وعقلاً يهديه إلى دفع المضار واجتلاب المصالح، وجعل الأغذية والأدوية لمصلحة الآدميين، فمن أعرض عن استعمال ما خلق له، وأرشد إليه فقد رفض أمر الشرع، وعطل

---

(١) البارية: الحصير المنسوج.

حكمة الصانع. فإن قال جاهل: فكيف أحترز مع أمر القدر؟ قلنا: وكيف لا يحترز مع أمر المقدر، وقد قال الله تعالى: ﴿خُذُوا حِذْرَكُمْ﴾[1]. وقد اختفى النبي ﷺ في الغار، وقال لسراقة: «اخْفِ عنَّا»[2]، واستأجر دليلاً إلى المدينة[3]، ولم يقل: أخرج على التوكل، وما زال ببدنه مع الأسباب وبقلبه مع المسبب. وقد أحكمنا هذا الأصل فيما تقدم.

وقول أبي حمزة: فنوديت من باطني، هذا من حديث النفس الجاهلة التي قد استقر عندها بالجهل أن التوكل ترك التمسك بالأسباب، لأن الشرع لا يطلب من الإنسان ما نهاه عنه، وهلا نافره باطنه في مد يده وتعلقه بذلك المتدلي إليه وتمسكه به، فإن ذلك أيضاً نقض لما ادعاه من ترك الأسباب الذي يسميه التوكل، لأنه أي فرق بين قوله: أنا في البئر، وبين تمسكه بما تدلى عليه، لا بل هذا آكد، لأن الفعل آكد من القول، فهلا سكت حتى يحمل بلا سبب. فإن قال: هذا بعثه الله لي، قلنا: والذي جاز[4] على البئر من بعثه؟ واللسان المستغيث من خلقه، فإنه لو استغاث كان مستعملاً للأسباب التي خلقها الله تعالى لينتفع بها للدفع عنه، فلم يستعملها وإنما بسكوته عطل الأسباب التي خلقها الله تعالى له ودفع الحكمة، فصح لومه على ترك السبب. وأما تخليصه بالأسد فإن صحَّ هذا فقد يتفق مثله، ثم لا ينكر أن الله تعالى يلطف بعبده، وإنما ينكر فعله المخالف للشرع.

وقال الجنيد: قال لي محمد السمين: كنت في طريق الكوفة بقرب الصحراء التي بين قباء والصخرة التي تفريقنا[5] منها، والطريق منقطع، فرأيت

---

(١) سورة النساء: الآية ٧١.

(٢) أخرجه البخاري (٣٩٠٦) في مناقب الأنصار: باب هجرة النبي ﷺ إلى المدينة.

(٣) ذكره البخاري (٣٩٠٥) في مناقب الأنصار: باب هجرة النبي ﷺ إلى المدينة، وغيره في حديث الهجرة.

(٤) مـرّ.

(٥) يقصد مفترق طرقهم.

فرأيت على الطريق جملاً قد سقط ومات، وعليه سبعة أو ثمانية من السباع تتناهش لحمه يحمل بعضها على بعض، فلما أن رأيتهم كأن نفسي اضطربت، وكانوا على قارعة الطريق، فقالت لي نفسي: تميل يميناً أو شمالاً، فأبيت عليها إلاَّ أن آخذ على قارعة الطريق، فحملتها على أن مشيت حتى وقفت عليهم بالقرب منهم كأحدهم، ثم رجعت إلى نفسي لأنظر كيف، فإذا الروع[1] معي قائم فأبيت أن أبرح، وهذه صفتي، فقعدت بينهم ثم نظرت بعد قعودي فإذا الروع معي، فأبيت أن أبرح وهذه صفتي، فوضعت جنبي فنمت مضطجعاً، فتغشاني[2] النوم فنمت وأنا على تلك الهيئة والسباع في المكان الذي كانوا عليه، فمضى بي وقت وأنا نائم، فاستيقظت فإذا السباع قد تفرقت ولم يبق منها شيء، وإذا الذي كنت أجده قد زال. فقمت وأنا على تلك الهيئة فانصرفت.

قال المصنف رحمه الله: فهذا الرجل قد خالف الشرع في تعرضه للسباع، ولا يحل لأحد أن يتعرض لسبع أو لحية، بل يجب عليه أن يفر مما يؤذيه أو يهلكه.

وفي «الصحيحين» أن النبي ﷺ قال: «إذا وقعَ الطَّاعونُ وأنتمْ بأرضٍ فلا تَقدمُوا عليه»[3]، وقال ﷺ: «فِرَّ من الْمجذُوم فِرارَكَ من الأسدِ»[4]. ومر عليه الصلاة والسلام بحائط مائل فأسرع. وهذا الرجل قد أراد من طبعه أن لا ينزعج. وهذا شيء ما سلم منه موسى عليه السلام، فإنه لما رأى الحية خاف وولى مدبراً. فإن صح ما ذكره وهو بعيد الصحة لأن طباع الآدميين تتساوى، فمن قال: لا أخاف السبع بطبعي كذبناه، كما لو قال: أنا لا أشتهي النظر إلى المستحسن. وكأنه قهر نفسه حتى نام بينهم استسلاماً للهلاك لظنه

---

(١) الرَّوْع: الخوف.

(٢) تغشاه النوم: غطاه.

(٣) أخرجه البخاري (٥٧٢٨) في الطب: باب ما يذكر في الطاعون، ومسلم (٢٢١٩) في السلام: باب الطاعون والطيرة والكهانة ونحوها. ولفظه: «إذا سمعتم بالطاعون بأرض فلا تدخلوا عليه، وإذا وقع وأنتم بأرض فلا تخرجوا منها فراراً منه».

(٤) أخرجه البخاري (٥٧٠٧) في الطب: باب الجذام.

أن هذا هو التوكل. وهذا الظن خطأ، لأنه لو كان هـذا هو التـوكل مـا نهى عن مقاربة ما يخاف شره. ولعل السباع اشتغلت عنه وشبعت من الجمل، والسبـع إذا شبـع لا يفتـرس. ولقد كـان أبـو تـراب النخشبـي من كبـار القـوم، فلقيتـه السباع في البرية فنهشته فمات. ثم لا ينكر أن يكون الله تعالى لطف بـه ونجاه بحسن ظنه فيه، غير أنا نبين خـطأ فعله للعامي الـذي إذا سمـع هذه الحكـاية ظن أنها عزيمة عظيمة ويقين قوي، وربما فضل حالته على حـالة مـوسى عليه السلام إذ هرب من الحيـة. وعلى حالـة نبينا ﷺ إذ مـرّ بجدار مـائل فهـرول، وعلى لبسـه ﷺ الدرع في غـزواته كلهـا وقت الحرب حتى قـال عليه الصـلاة والسلام في غزوة أُحـد: «ليسَ لنبـيٍّ أن يلبسَ لأمةَ حربهِ ثم ينزعُها من غيرِ قتالٍ»[1]. وعلى حالة أبـي بكر رضي الله عنـه إذ سد خـروق الغار اتقـاء أذى الحيـات. وهيهات أن تعلو مـرتبة هـذا المخـالف للشـرع على مـرتبـة النبيين والصديقين بما يخايل[2] لـه ظنه الفاسد من أن هذا الفعل هو التوكل.

قال مؤمل المغابي: كنت أصحب محمد بن السمين فسافرت معه ما بين تكـريت والموصـل، فبينا نحن في بـريـة نسيـر إذ زأر السبـع من قـريب منـا، فجـزعت وتغيرت وظهـر ذلك على وجهي، وهممت أن أبـادر فأفـر فضبطني، وقال: يا مؤمل التوكل ها هنا ليس في المسجد الجامـع.

قال المصنف رحمه الله: لا أشك في أن التوكل يظهـر أثره في المتـوكل عند الشدائد. ولكن ليس من شروطه الاستسلام للسبـع فإنه لا يجوز.

وقيـل لعلي الرازي: مـا لنا لا نـراك مع أبـي طـالب الجرجـاني؟ قـال: خـرجنا في سيـاحة فنمنـا في موضـع فيـه سبـاع، فلمـا نـظر إليَّ رآني لم أنم طردني. وقال: لا تصحبني بعد هذا اليوم.

---

(١) أخرجه البخاري في الاعتصام بالكتاب والسنّة: الباب رقم (٢٨)، ولفظه: «ما ينبغي لنبـي إذا أخذ لامة الحرب أن يرجـع حتى يقاتل».

(٢) خايلت السحابة: كانت ترجي المطر. ويقصد كما خيل إليه وتوهم.

قال المصنف رحمه الله: لقد تعدى هذا الرجل إذا أراد من صاحبه أن يغير ما طبع عليه، وليس ذلك في قدرته ولا في وسعه. ولا يطالبه بمثله الشرع، وما قدر على هذه الحالة موسى عليه السلام حين هرب من الحية، فهذا كله مبناه على الجهل.

قال أحمد بن علي الوجدي: حج الدينوري اثنتي عشرة حجة حافياً مكشوف الرأس، وكان إذا دخل في رجله شوك يمسح رجله في الأرض ويمشي ولا يتطأطأ[1] إلى الأرض من صحة توكله.

قال المصنف رحمه الله: انظروا إلى ما يصنع الجهل بأهله، وليس من طاعة الله تعالى أن يقطع الإنسان تلك البادية حافياً، لأنه يؤذي نفسه غاية الأذى، ولا مكشوف الرأس، وأي قربة تحصل بهذا، ولولا وجوب كشف الرأس في مدة الإحرام لم يكن لكشفه معنى. فمن ذا الذي أمره ألا يخرج الشوك من رجله، وأي طاعة تقع بهذا، ولو أن رجله انتفخت بما يبقى فيها من الشوك وهلك كان قد أعان على نفسه، وهل دلّك الرجل بالأرض إلّا دفع بعض شر الشوك، فهلا دفع الباقي بالإخراج. وأين التوكل من هذه الأفعال المخالفة للعقل والشرع، لأنهما يقضيان بجلب المنافع للنفس ودفع المضار عنها. ولذلك أجاز الشرع لمن أدركه ضرر في إحرامه أن يخرق حرمة الإحرام ويلبس ويغطي رأسه ويفدي. ولقد سمعت أبا عبيد يقول: إنى لأتبين عقل الرجل بأن يدع الشمس ويمشي في الظل.

قال أبو بكر الدقاق: خرجت في وسط السنة إلى مكة وأنا حدث السن، في وسطي نصف جل وعلى كتفي نصف جل، فرمدت عيني في الطريق وكنت أمسح دموعي بالجل[2]، فأقرح[3] الجل الموضع، فكان يخرج الدم

---

(١) تطأطأ: انخفض.

(٢) الجل للدابة: كالثوب للإنسان تصان به.

(٣) أقرح: أصابه بقرح، وهي الجروح.

مع الدموع، فمن شدة الإرادة وقوة سروري بحالي لم أفرق بين الدموع والدم، وذهبت عيني في تلك الحجة، وكانت الشمس إذا أثرت في بدني قبلت يدي، ووضعتها على عيني سروراً مني بالبلاء.

قال أبو بكر الرازي: قلت لأبي بكر الدقاق: ما سبب ذهاب عينك؟ قال: كنت أدخل البادية على التوكل، فجعلت على نفسي أن لا آكل لأهل المنازل شيئاً تورعاً، فسالت إحدى عيني على خدي من الجوع.

قال المصنف رحمه الله: إذا سمع مبتدىء حالة هذا الرجل ظن أن هذه مجاهدات، وقد جمعت هذه السفرة التي افتخر فيها فنوناً من المعاصي والمخالفات، منها خروجه في تصنيف السنة على الوحدة، ومشيه بلا زاد ولا راحلة، ولباسه الجل، ومسح عينيه به، وظنه أن ذلك يقربه إلى الله تعالى، وإنما يتقرب إلى الله تعالى بما أمر به وشرعه، لا بما نهى وكف عنه. فلو أن إنساناً قال: أريد أن أضرب نفسي بعصا، لأنها عصت أتقرب بذلك إلى الله كان عاصياً. وسرور هذا الرجل بهذا خطأ قبيح لأنه إنما يفرح بالبلاء إذا كان بغير تسبب منه لنفسه. فلو أن إنساناً كسر رجل نفسه ثم فرح بهذه المصيبة كان نهاية في الحماقة، ثم تركه السؤال وقت الاضطرار، وحمله على النفس في شدة المجاعة حتى سالت عينه، ثم يسمي هذا تورعاً حماقات زهاد أكبرها الجهل والبعد عن العلم.

وعن سفيان الثوري، قال: من جاع فلم يسأل حتى مات دخل النار.

قال المصنف رحمه الله: فانظر إلى كلام الفقهاء ما أحسنه. ووجهه[١] أن الله تعالى قد جعل للجائع مكنة[٢] التسبب، فإذا عدم الأسباب الظاهرة فله قدرة السؤال التي هي كسب مثله في تلك الحال، فإذا تركه فقد فرط في حق نفسه التي هي وديعة عنده فاستحق العقاب.

---

(١) وجه الكلام: السبيل المقصود به.

(٢) المكنة: القوة.

وقد روي لنا في ذهاب عين هذا الرجل ما هو أظرف مما ذكرنا، يحكى عن أبي بكر الدقاق، قال: استضفت حياً من العرب فرأيت جارية حسناء، فنظرت إليها فقلعت عيني التي نظرت بها إليها.

قال المصنف رحمه الله: فانظروا إلى جهل هذا المسكين بالشريعة والبعد عنها، لأنه إن كان نظر إليها عن غير تعمد فلا إثم عليه، وإن تعمد فقد أتى صغيرة قد كان يكفيه منها الندم، فضم إليها كبيرة وهي قلع عينه، ولم يتب عنها لأنه اعتقد قلعها قربة إلى الله سبحانه، ومن اعتقد المحظور قربة فقد انتهى خطؤه إلى الغاية، ولعله سمع تلك الحكاية عن بعض بني إسرائيل، أنه نظر إلى امرأة فقلع عينه، وتلك مع بعد صحتها ربما جازت في شريعتهم، فأما شريعتنا فقد حرمت هذا. وكأن هؤلاء القوم ابتكروا شريعة سموها بالتصوف، وتركوا شريعة نبيهم محمد ﷺ، نعوذ بالله من تلبيس إبليس. وقد روي عن بعض عابدات الصوفية مثل هذا.

قالت شعوانة إنه كان في جيرانها امرأة صالحة، فخرجت ذات يوم إلى السوق، فرآها بعض الناس فافتتن بها وتبعها إلى باب دارها، فقالت له المرأة: أي شيء تريد مني؟ قال: فتنت بك، فقالت: ما الذي استحسنت مني؟ قال: عيناك، فدخلت إلى دارها، فقلعت عينيها، وخرجت إلى خلف الباب ورمت بها إليه، وقالت له: خذهما فلا بارك الله فيك[1].

قال المصنف رحمه الله: فانظروا إخواني كيف يتلاعب إبليس بالجهلة، فإن ذلك الرجل أتى صغيرة بالنظر وأتت هي بكبيرة، ثم ظنت أنها فعلت طاعة، وكان ينبغي أن لا تكلم رجلاً أجنبياً.

---

(١) ما أبعد مثل هذا عن الشرع، وما أراه يقبله عقل، بل إن مثل هذا يكاد لا يصدق، فمن أين لمثلها أن تقلع عينيها، ثم يبقى لها طاقة أن تتكلم، وتشتم الناس، وهل يقدر على مثل هذا أحد.

قال أبو جعفر الحداد: دخلت البادية بعض السنين على التوكل، فبقيت سبعة عشر يوماً لا آكل فيها شيئاً، وضعفت عن المشي، فبقيت أياماً أخر لم أذق فيها شيئاً، فسقطت على وجهي، وغشي عليَّ، وغلب عليَّ من القمل شيء ما رأيت مثله ولا سمعت به، فبينا أنا كذلك إذ مرّ بي ركب فرأوني على تلك الحالة، فنزل أحدهم عن راحلته فحلق رأسي ولحيتي وشق ثوبي وتركني في الرمضاء، وسار فمرّ بي ركب آخر فحملوني إلى حيهم، وأنا مغلوب، فطرحوني ناحية، فجاءتني امرأة فجلست على رأسي وصبت اللبن في حلقي، ففتحت عيني قليلاً وقلت لهم: أقرب المواضع منكم أين؟ قالوا: جبل الشراة، فحملوني إلى الشراة.

قال المصنف حمه الله: لو يحكى أن رجلاً من المجانين انحلَّ من السلسلة، فأخذ سكيناً، وجعل يشرح لحم نفسه، ويقول: أنا ما رأيت مثل هذا المجنون لصدق على هذا، وإلاَّ فانظروا إلى حال هذا المسكين، وبما فعل بنفسه، ثم يعتقد أن هذا قربة نسأل الله العافية.

قال أبو سعيد الخراز: دخلت البادية مرة بغير زاد، فأصابتين فاقة، فرأيت المرحلة[1] من بعد، فسررت بوصولي، ثم فكرت في نفسي أني شكيت وأني توكلت على غيره، فآليت أن لا أدخل المرحلة إلاّ إن حُملت إليها، فحفرت لنفسي في الرمل حفرة، وواريت جسدي فيها إلى صدري، فسمعت صوتاً في نصف الليل عالياً: يا أهل المرحلة إن لله وليّاً حبس نفسه في هذا الرمل فالحقوه، فجاء جماعة فأخرجوني وحملوني إلى المرحلة.

قال المصنف رحمه الله: لقد تنطع هذا الرجل على طبعه، فأراد منه ما لم يوضع عليه، لأن طبع ابن آدم أن يهش إلى ما يحب، ولا لوم على العطشان إذا هش إلى الماء، ولا على الجائع إذا هش إلى الطعام. فكذلك كل من هش إلى محبوب اهـ. وقد كان النبي ﷺ: إذا قدم من سفر فلاحت

---

(١) المرحلة: المسافة التي يقطعها المسافر في يومه، وهي الجهة المقصودة.

له المدينة أسرع السير، حباً للوطن[1]. ولما خرج من مكة تلفت إليها شوقاً[2]. وكان بلال يقول: لعن الله عتبة وشيبة إذ أخرجونا من مكة ويقول:

ألا ليت شعري هل أبيتن ليلة ... بواد وحولي إذخر[3] وجليل[4]

فنعوذ بالله من الإقبال على العمل بغير مقتضى العلم والعقل. ثم حبسه نفسه عن صلاة الجمعة قبيح. وأي شيء في هذا من التقرب إلى الله سبحانه، إنما هو محض جهل.

عن بكر بن محمد، قال: كنت عند أبي الخير النيسابوري، فبسطني بمحادثته لي بذكر بدايته إلى أن سألته عن سبب قطع يده، فقال: يد جنت فقطعت، ثم اجتمعت به مع جماعة فسألوه عن ذلك، فقال: سافرت حتى بلغت إسكندرية، فأقمت بها اثنتي عشرة سنة، وكنت قد بنيت بها كوخاً، فكنت أجيء إليه من ليل إلى ليل وأفطر على ما ينفضه المرابطون، وأزاحم الكلاب على قمامة السفر، وآكل من البردي[5] في الشتاء، فنوديت في سري: يا أبا الخير تزعم أنك لا تشارك الخلق في أقواتهم وتشير إلى التوكل، وأنت في وسط القوم جالس. فقلت: إلّهي وسيدي وعزتك لا مددت يدي إلى

---

(١) في صحيح مسلم (١٣٩٢) في الحج: باب أحد جبل يحبنا ونحبه عن أبي حميد قال: «خرجنا مع رسول الله ﷺ في غزوة تبوك...»، وساق الحديث، وفيه: «ثم أقبلنا حتى قدمنا وادي القرى، فقال رسول الله ﷺ: إني مسرع، فمن شاء منكم فليسرع معي، ومن شاء فليمكث، فخرجنا حتى أشرفنا على المدينة، فقال: هذه طابة، وهذا أحد، وهو جبل يحبنا ونحبه».

(٢) عن عبد الله بن عدي بن حمراء قال: رأيت رسول الله ﷺ واقفاً على الحزورة ــ اسم موضع بمكة ــ فقال: والله إنك لخير أرض الله، وأحب أرض الله إلى الله، ولولا أني أخرجت منك ما خرجت»، رواه الترمذي (٣٩٢٥) في كتاب المناقب: باب فضل مكة، وليس في الحديث: تلفت إليها شوقاً، وابن ماجه (٣١٠٨) في المناسك: باب فضل مكة.

(٣) الإذخر: نبات طيب الرائحة.

(٤) الجليل: نبات ضعيف، ويسمى الثمام.

(٥) البردي: نبات كالقصب، كان قدماء المصريين يستخدمون قشره للكتابة.

شيء مما تنبته الأرض، حتى تكون الموصل إليَّ رزقي من حيث لا أكون فيه، فأقمت اثني عشر يوماً أصلي الفرض وأتنفل ، ثم عجزت عن النافلة ، فأقمت اثني عشر يوماً أصلي الفرض والسنة ، ثم عجزت عن السنة فأقمت اثني عشر يوماً أصلي الفرض لا غير ، ثم عجزت عن القيام ، فأقمت اثني عشر يوماً أصلي جالساً لا غير، ثم عجزت عن الجلوس، فرأيت إن طرحت نفسي ذهب فرضي، فلجأت إلى الله بسري، وقلت: إلّهي وسيدي افترضت علي فرضاً تسألني عنه، وقسمت لي رزقاً وضمنته لي فتفضل علي برزقي ولا تؤاخذني بما عقدته معك، فوعزتك لأجتهدن أن لا حللت عقداً عقدته معك فإذا بين يدي قرصان بينهما شيء، فكنت أجده على الدوام من الليل إلى الليل، ثم طولبت بالمسير إلى الثغر فسرت حتى دخلت الفرما[1] فوجدت في الجامع قاصاً يذكر قصة زكريا والمنشار، وأن الله تعالى أوحى إليه حين نشر، فقال: إن صعدت إليَّ منك أنةٌ لأمحونك من ديوان النبوة، فصبر حتى قطع شطرين. فقلت: لقد كان زكريا صباراً، إلّهي وسيدي لئن ابتليتني لأصبرن. وسرت حتى دخلت أنطاكية فرآني بعض إخواني، وعلم أني أريد الثغر فدفع إلي سيفاً وترساً وحربة، فدخلت الثغر، وكنت حينئذ أحتشم من الله تعالى أن أتوارى وراء السور خيفة من العدو، فجعلت مقامي في غابة أكون فيها بالنهار، وأخرج بالليل إلى شاطىء البحر فأغرز الحربة على الساحل وأسند الترس إليها محراباً وأتقلد سيفي وأصلي إلى الغداة، فإذا صليت الصبح غدوت إلى الغابة، فكنت فيها نهاري أجمع، فغدوت في بعض الأيام فعثرت بشجرة فاستحسنت ثمرها، ونسيت عقدي مع الله وقسمي به أني لا أمد يدي إلى شيء مما تنبت الأرض، فممدت يدي فأخذت بعض الثمرة، فبينا أنا أمضغها ذكرت العقد فرميت بها من فيّ، وجلست ويدي على رأسي، فدار بي فرسان، وقالوا لي: قم، فأخرجوني إلى الساحل، فإذا أمير وحوله خيل ورجالة[2] وبين يديه جماعة سودان كانوا يقطعون الطريق وقد

---

(١) اسم موضع.

(٢) مفرده راجل: وهو الذي يمشي على رجليه.

أخذهم وافترقت الخيل في طلب من هرب منهم، فوجدوني أسود معي سيف وترس وحربة، فلما قدمت إلى الأمير، قال: إيش أنت؟ قلت: عبد من عبيد الله، فقال للسودان: تعرفونه؟ قالوا: لا، قال: بلى، هو رئيسكم وإنما تفدونه بأنفسكم لأقطعن أيديكم وأرجلكم، فقدموهم، ولم يزل يقدم رجلاً رجلاً ويقطع يده ورجله حتى انتهى إليّ فقال: تقدم مد يدك فمددتها فقطعت، ثم قال: مد رجلك فمددتها ورفعت رأسي إلى السماء، وقلت: إلٰهي وسيدي يدي جنت ورجلي إيش عملت، فإذا بفارس قد وقف على الحلقة ورمى بنفسه إلى الأرض، وصاح: إيش تعملون تريدون أن تنطبق الخضراء على الغبراء، هذا رجل صالح يعرف بأبي الخير، فرمى الأمير نفسه وأخذ يدي المقطوعة من الأرض وقبلها وتعلق بي يقبل صدري ويبكي ويقول: سألتك بالله أن تجعلني في حل، فقلت: قد جعلتك في حل من أول ما قطعتها هذه يد قد جنت فقطعت.

قال المصنف رحمه الله: فانظروا رحمكم الله إلى عدم العلم كيف صنع بهذا الرجل، وقد كان من أهل الخير، ولو كان عنده علم لعلم أن ما فعله حرام عليه. وليس لإبليس عون على العباد والزهاد أكثر من الجهل.

ومن أعجب ما بلغني عنهم أن أبا شعيب المقفع وكان قد حج سبعين حجة راجلاً أحرم في كل حجة بعمرة وحجة من عند صخرة بيت المقدس، ودخل بادية تبوك على التوكل، فلما كان في حجته الأخيرة رأى كلباً في البادية يلهث عطشاً، فقال: من يشتري سبعين حجة بشربة ماء؟ قال: فدفع إليه إنسان شربة ماء فسقى الكلب، ثم قال: هذا خير لي من حجي، لأن النبي ﷺ قال: «في كل ذات كبد حرى[1] أجر»[2].

---

(١) عطشة.

(٢) أخرجه البخاري (٣٦٣) في المساقاة: باب فضل سقي الماء، ومسلم (٢٢٤٤) في السلام: باب فضل ساقي البهائم. ولفظه: «بينما رجل يمشي بطريق اشتدّ عليه العطش، فوجد بئراً فنزل فيها فشرب، ثم خرج فإذا كلب يلهث، يأكل الثرى من العطش، فقال الرجل: لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذي كان بلغ مني، =

قلت: وإنما ذكرت مثل هذه الأشياء ليتنزه[1] العاقل في مبلغ علم هؤلاء وفهمهم للتوكل وغيره، ويرى مخالفتهم لأوامر الشرع. وليت شعري كيف يصنع من يخرج منهم ولا شيء معه بالوضوء والصلاة، وإن تخرق ثوبه ولا إبرة معه فكيف يفعل؟

تلبيس إبليس على الصوفية إذا قدموا من السفر

قال المصنف رحمه الله: من مذهب القوم أن المسافر إذا قدم فدخل الرباط وفيه جماعة لم يسلم عليهم حتى يدخل الميضأة[2]، فإذا توضأ جاء وصلى ركعتين ثم سلم على الشيخ ثم على الجماعة. وهذا ما ابتدعه متأخروهم على خلاف الشريعة، لأن فقهاء الإسلام أجمعوا على أن من دخل على قوم سن له أن يسلم عليهم سواء كان على طهارة أو لم يكن، إلّا أن يكونوا أخذوا هذا من مذهب الأطفال فإنه إذا قيل للطفل: لم لا تسلم علينا، قال: ما غسلت وجهي بعد، أو لعل الأطفال علموه من هؤلاء المبتدعين.

عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «يُسلمُ الصَّغيرُ على الْكبيرِ، والْمارُّ على الْقاعدِ، والْقليلُ على الْكثيرِ»[3].

تلبيس إبليس على الصوفية إذا مات لهم ميت

له في ذلك تلبيسان. الأول: أنهم يقولون: لا يبكى على هالك، ومن بكى على هالك خرج عن طريق أهل المعارف.

= فنزل البئر فملأ خفه ماء، ثم أمسكه بفيه حتى رقي، فسقى الكلب، فشكر الله له، فغفر له»، قالوا: يا رسول الله، إن لنا في البهائم أجراً؟ «فقال: في كل كبد رطبة أجر». يلهث: يخرج لسانه من العطش. والثرى: التراب الندي. كبد رطبة: كل ذي روح، لأن الكبد لا تكون رطبة إلّا وصاحبها حي.

(١) لعلها من التنزه عن الشيء بمعنى التباعد والتصون.

(٢) الميضأة: الموضع يتوضأ فيه.

(٣) أخرجه البخاري (٦٢٣١): باب تسليم القليل على الكثير، ومسلم (٢١٦٠) في السلام: باب تسليم الراكب على الماشي.

قال ابن عقيل: وهذه دعوى تزيد على الشرع فهي حديث خرافة، وتخرج عن العادات والطباع فهي انحراف عن المزاج المعتدل، فيبنغي أن يطالب لها بالعلاج بالأدوية المعدلة للمزاج، فإن الله تعالى أخبر عن نبي كريم، فقال: ﴿وابيضَّتْ عيناهُ من الْحُزنِ فَهوَ كَظِيمٌ﴾(١). وقال: ﴿يا أَسَفَا على يوسُفَ﴾(٢)، وبكى رسول الله ﷺ عند موت ولده، وقال: «إنَّ العينَ لَتَدمعُ»(٣)، وقالت فاطمة رضي الله عنها: واكرب أبتاه(٤)، فلم ينكر.

ثم لا تزال الإبل الغليظة الأكباد تحن إلى مألفها من الأعطان(٥) والأشخاص،وترغو(٦) للفصلان،وحمام الطير تُرجع(٧)، وكل مأخوذ من البلاء فلا بدّ أن يتضرع، ومن لم تحركه المسارُّ والمطربات وتزعجه المخزيات فهو إلى الجماد به أقرب. وقد أبان النبي عليه الصلاة والسلام عن العيب في الخروج عن سمت الطبع، فقال للذي قال: لم أقبل أحداً من ولدي ــ وكان له عشرة من الولد ــ فقال: «أَوَ أَملكُ لك أن نزعَ اللَّهُ الرَّحمةَ من قلبكَ»(٨).

---

(١) سورة يوسف: الآية ٨٤.

(٢) نفس الآية السابقة.

(٣) أخرجه البخاري (١٣٠٣) في الجنائز: باب قول النبي ﷺ: إنك بك لمحزونون، ومسلم (٢٣١٥) في الفضائل: باب رحمته ﷺ بالصبيان.

(٤) أخرجه البخاري (٤٤٦٢) في المغازي: باب مرض النبي ووفاته. ولفظه: لما ثقل النبي ﷺ، جعل يتغشاه، فقالت فاطمة عليها السلام: واكرب أباه، فقال لها: «ليس على ابيك كرب بعد اليوم»، فلما مات قالت: «يا أبتاه، أجاب رباً دعاه». . يا أبتاه، من جنة الفردوس مأواه. . يا أبتاه إلي جبريل ننعاه.

(٥) العطن: مبرك الإبل ومثله المعطن وجمعه معاطن.

(٦) رغا البعير: صوت وضج.

(٧) تردد الصوت.

(٨) روى البخاري (٥٩٩٧) في الأدب: باب رحمة الولد وتقبيله، ومسلم (٢٣١٨) في الفضائل: باب رحمته ﷺ بالصبيان. عن أبي هريرة أن الأقرع بن حابس أبصر النبي ﷺ وهو يقبل الحسن فقال: إن لي عشرة من الولد ما قبلت واحداً منهم، فقال رسول الله ﷺ: إن من لا يرحم لا يرحم».

=

فالمطالب لما يخرج عن الشرائع وينبو عن الطباع جاهل يطالب بجهل. وقد قنع الشرع منا أن لا نلطم خداً ولا نشق جيباً، **فأما دمعة** سائلة وقلب حزين فلا عيب في ذلك.

التلبيس الثاني: أنهم يعملون عند موت الميت دعوة ويسمونها عرساً، ويغنون فيها ويرقصون ويلعبون ويقولون: نفرح للميت إذ وصل إلى ربه.

والتلبيس في هذا عليهم من ثلاثة أوجه:

أحدها ـ أن المسنون أن يتخذ لأهل الميت طعام لاشتغالهم بالمصيبة عن إعداد الطعام لأنفسهم، وليس من السنّة أن يتخذه أهل الميت ويطعمونه إلى غيرهم.

والأصل في اتخاذ الطعام لأجل الميت ما أُخبرنا به عن عبد الله بن جعفر، قال: لما جاء نعي جعفر، فقال النبي ﷺ: «اصْنعُوا لآلِ جعفرٍ طعاماً فإنه قد جاءهُمْ ما يشغلهُمْ»[(1)].

والثاني ـ أنهم يفرحون للميت ويقولون: وصل إلى ربه، ولا وجه للفرح لأنا لا نتيقن أنه غفر له، وما يؤمنا أن نفرح له وهو في المعذبين. وقد قال عمر بن زر لما مات ابنه: لقد شغلني الحزن لك عن الحزن عليك.

عن أم العلاء، قالت: لما مات عثمان بن مظعون دخل علينا رسول الله ﷺ، فقلت: رحمة الله عليك أبا السائب، فشهادتي عليك لقد

= أما الحديث الذي أورده المصنف، فهو من المتفق عليه عن عائشة، قالت: جاء أعرابي إلى النبي ﷺ فقال: أتقبلون الصبيان؟ فما نقبلهم. فقال النبي ﷺ: «أو أملك لك أنه نزع الله من قلبك الرحمة» أخرجه البخاري (٥٩٩٨) في الأدب: باب رحمة الولد وتقبيله، ومسلم (٢٩١٧) في الفضائل: باب رحمته ﷺ بالصبيان. وقد خلط المصنف بين الحديثين، فليس في الحديث الثاني أن الرجل كان له عشرة من الولد.

(١) أخرجه الترمذي (٩٩٨) في الجنائز: باب ما جاء في الطعام يصنع لأهل الميت. قال: حديث حسن صحيح.

أكرمك الله، فقال النبي ﷺ: «وما يدريك أن الله أكرمه؟»[1].

والثالث ــ أنهم يرقصون ويلعبون في تلك الدعوة، فيخرجون بهذا عن الطباع السليمة التي يؤثر عندها الفراق. ثم إن كان ميتهم قد غفر له فما الرقص واللعب بشكرهم، وإن كان معذباً فأين أثر الحزن.

تلبيس إبليس على الصوفية في ترك التشاغل بالعلم

قال المصنف رحمه الله: اعلم أن أول تلبيس إبليس على الناس صدهم عن العلم، لأن العلم نور، فإذا أطفأ مصابيحهم خبطهم في الظلم كيف شاء. وقد دخل على الصوفية في هذا الفن من أبواب:

أحدها ــ أنه منع جمهورهم من العلم أصلاً وأراهم أنه يحتاج إلى تعب، فحسن عندهم الراحة، فلبسوا المراقع وجلسوا على بساط البطالة.

قال الشافعي رضي الله عنه: أسس التصوف على الكسل. وبيان ما قاله الشافعي أن مقصود النفس إما الولايات وإما استجلاب الدنيا، واستجلاب الدنيا بالعلوم يطول ويتعب البدن، وهل يحصل المقصود أو لا يحصل. والصوفية قد تعجلوا الولايات فإنهم يرون بعين الزهد، واستجلاب الدنيا فإنها إليهم سريعة.

ومن الصوفية من ذم العلماء ورأى أن الاشتغال بالعلم بطالة وقالوا: إن علومنا بلا واسطة، وإنما رأوا بعد الطريق في طلب العلم، فقصروا الثياب، ورقعوا الجباب، وحملوا الركاء[2]، وأظهروا الزهد.

والثاني ــ أنه قنع قوم منهم باليسير منه، ففاتهم الفضل الكثير في كثرته، فاقتنعوا بأطراف الأحاديث وأوهمهم أن علو الإسناد والجلوس للحديث كله رياسة ودنيا، وأن للنفس في ذلك لذة. وكشف هذا التلبيس أنه ما من مقام عال إلّا وله فضيلة وفيه مخاطرة، فإن الإمارة والقضاء والفتوى كله مخاطرة، وللنفس فيه لذة، ولكن له فضيلة عظيمة كالشوك في جوار الورد، فينبغي أن

---

(١) أخرجه البخاري (١٢٤٣) في الجنائز: باب الدخول على الميت بعد الموت.

(٢) الرِّكاء: جمع رَكْوَه، وهي إناء صغير من جلد يشرب به الماء.

تطلب الفضائل ويتقي ما في ضمنها من الآفات. فأما ما في الطبع من حب الرياسة، فإنه إنما وضع لتجتلب هذه الفضيلة كما وضع حب النكاح ليحصل الولد، وبالعلم يتقوم قصد العالم، كما قال يزيد بن هارون: طلبنا العلم لغير الله فأبى إلّا أن يكون لله[1]. ومعناه أنه دلنا على الإخلاص، ومن طالب نفسه بقطع ما في طبعه لم يمكنه.

والثالث ـ أنه أوهم قوماً منهم أن المقصود العمل، وما فهموا أن التشاغل بالعلم من أوفى الأعمال، ثم أن العالم وإن قصر سير عمله فإنه على الجادة، والعابد بغير علم على غير الطريق.

والرابع ـ أنه أرى خلقاً كثيراً منهم أن العالم ما اكتسب من البواطن حتى أن أحدهم يتخايل له وسوسة فيقول: حدثني قلبي عن ربي. وكان الشبلي يقول:

إذا طالبوني بعلم الورق ... برزت عليهم بعلم الخرق

وقد سموا علم الشريعة علم الظاهر، وسموا هواجس النفوس العلم الباطن. واحتجوا بما روي عن علي بن أبي طالب كرّم الله وجهه عن النبي ﷺ أنه، قال: «علم الباطن سر من سر الله عزّ وجلّ، وحكم من أحكام الله تعالى يقذفه الله عزّ وجلّ في قلوب من يشاء من أوليائه»[2].

قال المصنف رحمه الله: وهذا حديث لا أصل له عن النبي ﷺ. وفي إسناده مجاهيل لا يعرفون.

وقيل: كان في ناحية أبي يزيد رجل فقيه عالم تلك الناحية، فقصد أبا يزيد وقال له: قد حكى لي عنك عجائب، فقال له أبو يزيد: وما لم تسمع من عجائبي أكثر، فقال له: علمك هذا يا أبا يزيد عمن؟ ومن أين؟ فقال أبو يزيد: علمي من عطاء الله تعالى. ومن حيث قال ﷺ: «من

---

(١) وينسب أيضاً هذا القول للغزالي.

(٢) أخرجه الديلمي في «الفردوس» (٤١٠٤)، و«تنزيه الشريعة»١/ ٢٨٠، وابن الجوزي في «الواهيات».

عمـل بـمـا يعلم ورثـه الله علم مـا لم يعلم»[١]، ومن حيث قـال ﷺ: «العلم علمـان: علم ظاهـر وهو حجـة الله تعالى على خلقـه، وعلم باطن وهـو العلم النافـع»[٢] وعلمك يا شيـخ نقل من لسان عن لسان بـالتعليم، وعلمي من الله إلهـام من عنده. فقـال لـه الشيـخ: علمي من الثقـات عن رسـول الله ﷺ عن جبريل عن ربـه عزّ وجلّ، فقال لـه أبو يزيد: يا شيـخ كان للنبـي ﷺ علم عن الله، لم يطلـع عليه جبريل ولا ميكائيل، قـال: نعم، ولكن أريد أن يصـح لي علمك الذي تقـول هو من عنـد الله، قال: نعم، أبينـه لك قـدر ما يستقـر في قلبك معرفته. ثم قال: يا شيـخ علمت أن الله تعالى كلّم موسى تكليماً، وكلّم **محمداﷺ**، ورآه كفاحاً[٣]. وأن علم الأنبياء وحي، قال: نعم، قال: أما علمت أن كـلام الصـديقين والأوليـاء بـإلهـام منـه وفـوائـده من قلوبهم حتى أنـطقهم بـالحكمة ونفـع بهم الأمـة. ومما يؤكـد ما قلت: ألهم الله تعـالى أم موسى أن تلقي موسى في التابـوت فألقتـه، وألهم الخضر في السفينـة والغلام والحـائط قوله لموسى: ﴿وما فعلتُهُ عن أَمْرِي﴾[٤]، وكما قال أبـو بكر لعـائشة رضي الله

---

(١) هو حديث موضوع أورده الشيـخ ناصر الدين الألباني في «سلسلة الأحـاديث الضعيفة والموضوعة»، تحت رقم (٤٢٢)، وقد أخرجه أبو نعيم ثم قال: ذكـر أحمد بن حنبـل هذا الكلام عن بعض التابعين عن عيسى ابن مريم عليـه السلام، فـوهم بعض الرواة أنه ذكره عن النبـي ﷺ.

(٢) ليس هكذا لفظ الحديث بـل لفظه: «العلم علمـان، فعلم في القلب، فذلـك العلم النـافـع، وعلم على اللسـان فـذلـك حجـة الله على ابن آدم». رواه ابن أبـي شيبـة والحكيم الترمـذي عن الحسن البصـري مرسـلاً. قال المنـذري: إسناده صحيـح، وقـال الحافظ العـراقي: إسنـاده صحيـح. ورواه الخـطيب عن الحسن، عن جـابـر مرفوعاً. قال المنذري: إسناده صحيـح، وقال الحافظ العـراقي: سنده جيـد. (كذا في «فيض القدير» (٤/٣٩٠) رقم الحديث (٥٧١٧).

(٣) أي مواجهة وهذا على رأي من يقول: إن النبـي ﷺ رأى ربـه، وقال **فريق من العلماء** إنه لم يره، وإنما رأى نوراً. روى مسلم (١٧٨) في كتاب الإيمان عن أبـي ذر، قـال سـألت رسول الله: هـل رأيت ربك؟ قـال: «نُـور أنى أراه»، قـال النـووي: معنـاه: حجابه النور، فكيف أراه.

(٤) سورة الكهف: الآية ٨٣.

عنهما: إن ابنة خارجة حاملة ببنت. وألهم عمر رضي الله عنه فنادى يا سارية الجبل.

وقال أبو يزيد: مساكين أخذوا علمهم ميتاً عن ميت، وأخذنا علمنا عن الحي الذي لا يموت.

قال المصنف رحمه الله: هذا الفقه في الحكاية الأولى من قلة العلم إذ لو كان عالماً لعلم أن الإلهام للشيء لا ينافي العلم ولا يتسع[1] به عنه، ولا ينكر أن الله عزّ وجلّ يلهم الإنسان الشيء كما قال ﷺ: «إنَّ في الأُمم محدَّثِينَ، وإنْ يَكُنْ في أُمتي فعمرُ»[2] والمراد بالتحديث إلهام الخير، إلّا أن هذا الملهم لو ألهم ما يخالف العلم لم يجز له أن يعمل عليه. وأما الخضر فقد قيل: إنه نبي. ولا ينكر للأنبياء الاطلاع بالوحي على العواقب، وليس الإلهام من العلم في شيء، إنما هو ثمرة العلم والتقوى، فيوفق صاحبهما للخير ويلهم الرشد. فأما أن يترك العلم ويقول: إنه يعتمد على الإلهام والخواطر فليس هذا بشيء، إذ لولا العلم النقلي ما عرفنا ما يقع في النفس أمن الإلهام للخير أو الوسوسة من الشيطان. واعلم أن العلم الإلهامي الملقى في القلوب لا يكفي عن العلم المنقول، كما أن العلوم العقلية لا تكفي عن العلوم الشرعية، فإن العقلية كالأغذية، والشرعية كالأدوية، ولا ينوب هذا عن هذا.

وأما قوله: أخذوا علمهم ميتاً عن ميت، أصلح ما ينسب إليه هذا القائل أنه ما يدري ما في ضمن هذا القول، وإلّا فهذا طعن على الشريعة.

ومن الصوفية من رأى الاشتغال بالعلم بطالة، وقالوا: نحن علومنا بلا واسطة. قال: وما كان المتقدمون في التصوف إلّا رؤوساً في القرآن والفقه

---

(١) أي لا يستغني به عنه من اتسع الرجل: إذا صار ذا سعة وغنى.

(٢) أخرجه البخاري (٣٦٨٩) في فضائل الصحابة: باب مناقب عمر بن الخطاب، بلفظ: «لقد كان فيما قبلكم من الأمم محدثون، فإن يك في أمتي أحد فإنه عمر».

والحديث والتفسير، ولكن هؤلاء أحبوا البطالة. وقال أبو حامد الطوسي: اعلم أن ميل أهل التصوف إلى العلوم الإلـهية دون التعليمية، **ولذلك لم يتعلموا،** ولم يحرصوا على دراسة العلم وتحصيل ما صنفه المصنفون. بل قالوا: الطريق تقديم المجاهدات بمحو الصفات المذمومة وقطع العلائق كلها، والإقبال على الله تعالى بكنه الهمة، وذلك بأن يقطع الإنسان همه عن الأهل والمال والولد والعلم، ويخلو بنفسه في زاوية، ويقتصر على الفرائض والرواتب، ولا يقرن همّه بقراءة قرآن ولا بالتأمل في نفسه، ولا يكتب حديثاً ولا غيره، ولا يزال يقول: الله الله الله[1] إلى أن ينتهي إلى حال يترك تحريك **اللسان، ثم** يمحى عن القلب صورة اللفظ.

قال المصنف رحمه الله: عزيز عليّ أن يصدر هذا الكلام من فقيه، فإنه لا يخفى قبحه، فإنه على الحقيقة طي لبساط الشريعة التي حثت على تلاوة القرآن وطلب العلم. وعلى هذا المذهب فقد رأيت الفضلاء من علماء **الأمصار، فإنهم** ما سلكوا هذه الطريق وإنما تشاغلوا بالعلم أولاً. وعلى ما قد رتّب أبو حامد تخلو النفس بوساوسها وخيالاتها ولا يكون عندها من العلم **ما يطرد ذلك، فيلعب** بها إبليس أي ملعب، فيريها الوسوسة محادثة ومناجاة، ولا ننكر أنه إذا طهر القلب انصبت عليه أنوار الهدى فينظر بنور الله، إلاّ أنه ينبغي أن يكون تطهيره بمقتضى العلم لا بما ينافيه، فإن الجوع الشديد والسهر وتضييع الزمان في التخيلات أمور ينهى الشرع عنها، فلا يستفاد من صاحب الشرع شيء ينسب إلى ما نهى عنه، كما لا تستباح الرخص في سفر قد نهى عنه. ثم لا تنافي بين العلم والرياضة، بل العلم يعلم كيفية الرياضة ويعين على تصحيحها. وإنما تلاعب الشيطان بأقوام أبعدوا العلم وأقبلوا على

---

(١) الذكر الصحيح هو قوله: لا إله إلاّ الله، وهو أفضل الذكر كما صح عن النبي ﷺ. أما الذكر بلفظ الجلالة، فمن العلماء من لم يره مشروعاً، قال ابن كثير: عند قوله تعالى: ﴿قل اللّهُ﴾ [الأنعام ٩١] . الإتيان بكلمة مفردة لا يفيد في لغة العرب فائدة يحسن السكون عليها.

الرياضة بما ينهى عنه العلم، والعلم بعيد عنهم، فتارة يفعلون الفعل المنهي عنه، وتارة يؤثرون ما غيره أولى منه، وإنما كان يفتي في هذه الحوادث العلم، وقد عزلوه فنعوذ بالله من الخذلان.

قال أبو علي بن البنا، كان عندنا بسوق السلاح رجل كان يقول: القرآن حجاب، والرسول حجاب، ليس إلّا عبد ورب، فافتتن جماعة به، فأهملوا العبادات، واختفى مخافة القتل.

وعن ضرار بن عمرو، قال: إن قوماً تركوا العلم ومجالسة أهل العلم، واتخذوا محاريب، فصلوا وصاموا حتى يبس جلد أحدهم على عظمه، وخالفوا السنّة فهلكوا، فوالله الذي لا إله غيره ما عمل عامل قط على جهل إلّا كان ما يفسد أكثر مما يصلح.

وقد فرق كثير من الصوفية بين الشريعة والحقيقة. وهذا جهل من قائله، لأن الشريعة كلها حقائق، فإن كانوا يريدون بذلك الرخصة والعزيمة فكلاهما شريعة. وقد أنكر عليهم جماعة من قدمائهم في إعراضهم عن ظواهر الشرع. جاء رجل إلى سهل بن عبد الله وبيده محبرة وكتاب، فقال لسهل: جئت لأكتب شيئاً ينفعني الله به، فقال: اكتب: إن استطعت أن تلقى الله وبيدك المحبرة والكتاب فافعل، فقال: يا أبا محمد أفدني فائدة، فقال: الدنيا كلها جهل إلّا ما كان علماً، والعلم كله حجة إلّا ما كان عملاً، والعمل كله موقوف إلّا ما كان منه على الكتاب والسنّة، وتقوم السنّة على التقوى.

وعن سهل بن عبد الله أنه قال: احفظوا السواد على البياض، فما أحد ترك الظاهر إلّا تزندق. وعن سهل بن عبد الله أنه قال: ما من طريق إلى الله أفضل من العلم، فإن عدلت عن طريق العلم خطوة تهت في الظلمات أربعين صباحاً. وعن أبي بكر الدقاق قال: سمعت أبا سعيد الخراز يقول: كل باطن يخالف ظاهراً فهو باطل. وعن أبي بكر الدقاق أنه قال: كنت ماراً في تيه بني إسرائيل فخطر ببالي، أن علم الحقيقة مباين للشريعة، فهتف بي هاتف من تحت شجرة: كل حقيقة لا تتبعها الشريعة فهي كفر.

قال المصنف رحمه الله: وقد نبه الإمام أبو حامد الغزالي في كتاب «الإحياء» فقال: من قال: إن الحقيقة تخالف الشريعة أو الباطن يخالف الظاهر، فهو إلى الكفر أقرب منه إلى الإيمان.

وقال ابن عقيل: جعلت الصوفية الشريعة اسماً، وقالوا: المراد منها الحقيقة، قال: وهذا قبيح لأن الشريعة وضعها الحق لمصالح الخلق وتعبداتهم، فما الحقيقة بعد هذا سوى شيء واقع في النفس من إلقاء الشياطين، وكل من رام الحقيقة في غير الشريعة فمغرور مخدوع.

تلبيس إبليس على جماعة من القوم في دفنهم كتب العلم وإلقائها في الماء

قال المصنف رحمه الله: وقد كان جماعة منهم تشاغلوا بكتابة العلم ثم لبس عليهم إبليس، وقال: ما المقصود إلاّ العمل، ودفنوا كتبهم. فقد روي أن أحمد بن أبي الحواري رمى كتبه في البحر، وقال: نعم الدليل كنت، والاشتغال بالدليل بعد الوصول محال. ولقد طلب أحمد بن أبي الحواري الحديث ثلاثين سنة، فلما بلغ منه الغاية حمل كتبه إلى البحر فغرقها، وقال: يا علم لم أفعل بك هذا تهاوناً، ولا استخفافاً بحقك، ولكني كنت أطلبك لأهتدي بك إلى ربي، فلما اهتديت بك استغنيت عنك.

وكان أبو الحسين بن الخلال حسن الفهم، له صبر على الحديث، وكان يتصوف ويرمي بالحديث مدة ثم يرجع ويكتب. ولقد أخبرت أنه رمى بجملة من سماعاته القديمة في دجلة.

وكان موسى بن هارون يقرأ، فإذا فرغ من الجزء رمى بأصله في دجلة ويقول: قد أديته.

وقال الشبلي: أعرف من لم يدخل في هذا الشأن حتى أنفق جميع

ملكه، وغرق في هذه الدجلة سبعين قمطراً[1] مكتوباً بخطه، وحفظ وقرأ بكذا وكذا رواية، يعني بذلك نفسه.

قال المصنف رحمه الله: قد سبق القول بأن العلم نور، وأن إبليس يحسن للإنسان إطفاء النور، ليتمكن منه في الظلمة، ولا ظلمة كظلمة الجهل. ولما خاف إبليس أن يعاود هؤلاء مطالعة الكتب، فربما استدلوا بذلك على مكايده، حسّن لهم دفن الكتب وإتلافها، وهذا فعل قبيح محظور وجهل بالمقصود بالكتب، وبيان هذا أن أصل العلوم القرآن والسنة، فلما علم الشرع أن حفظهما يصعب أمر بكتابة المصحف وكتابة الحديث.

فأما القرآن فإن رسول الله ﷺ كان إذا نزلت عليه آية دعى بالكاتب فأثبتها، وكانوا يكتبونها في العسب[2] والحجارة وعظام الكتف، ثم جمع القرآن بعده في المصحف أبو بكر صوناً عليه، ثم نسخ من ذلك عثمان بن عفان رضي الله عنه وبقية الصحابة، وكل ذلك لحفظ القرآن لئلا يشذ[3] منه شيء.

وأما السنّة فإن النبي ﷺ قصر الناس في بداية الإسلام على القرآن، وقال: «لا تكتبُوا عنِّي سِوى الْقرآنِ»[4]، فلما كثرت الأحاديث ورأى قلة ضبطهم أذن لهم في الكتابة.

فروي عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه شكا إلى رسول الله ﷺ قلة الحفظ فقال: «ابسطْ رداءَكَ»، فبسطَ رداءَهُ وحدّثه النبي عليه الصلاة والسلام وقال: «ضُمَّهُ إليكَ»، فقال أبو هريرة: فلم أنس بعد ذلك شيئاً بما حدثنيه

(١) القمطر: ما تصان فيه الكتب.

(٢) العسيب: جريدة من النخل كشط خوصها. والجمع عسب وعسبان.

(٣) أي يضيع ويختلف فيه.

(٤) أخرجه مسلم (٣٠٠٤) في الزهد: باب التثبت في الحديث وحكم كتابة العلم، عن أبي سعيد الخدري ولفظه: «لا تكتبوا عني ومن كتب عني غير القرآن فليمحه وحدثوا عني ولا حرج، ومن كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من النار».

رسـول الله ﷺ(1). وفي رواية أنـه قال: «استعنْ على حفـظِكَ بيمينِـكَ» يعني بالكتابة(2). وروى عنه ﷺ عبد الله بن عمرو أنه قال: «قيِـدُوا العلمَ»، فقلت: يـا رسولَ اللّهِ ومـا تقيـيـدُهُ؟ قـال: «الكتـابـةُ»(3). وروى عنه ﷺ أيضاً رافع بن خديـج قال: قلنـا: يا رسول الله، إنَّا نسمـع منك أشياء أفنكتبها؟ قال: «اكتبوا ولا حَرَجَ»(4).

قـال المصنف رحـمـه الله: واعلم أن الـصحـابـة ضـبـطت ألفـاظ رسول الله ﷺ وحركاته وأفعاله، واجتمعت الشريعة من رواية هذا ورواية هذا. وقد قال رسول الله ﷺ: «بلغُوا عنِّي»(5)، وقـال: «نضَّرَ اللَّهُ امْـرأ سمـعَ مقالَتِي فَوَعاهـا فأداهَـا كما سَمعَهَـا»(6). وتأديـة الحديث كمـا يسمـع لا يكاد يحصـل

---

(1) أخرجه البخـاري (١١٩) في العلم: باب حفظ العلم، ومسلم (٢٤٦٢) في فضـائل الصحابة: باب من فضائل أبـي هريـرة، والتـرمذي (٣٨٣٥) في «المناقب»: باب منـاقب لأبـي هريـرة، وهذا لفظ التـرمذي: قلت: يـا رسول الله، أسمـع منك أشياء فـلا أحفظهـا. فقال: «ابسط رداءك»، فبسـطته، فحـدثني حديثـاً كثيراً، فما نسيت شيئاً حدثني به، وقال: حديث حسن صحيـح.

(2) رواه التـرمـذي (٢٦٦٦) في كتـاب العلم: بـاب مـا جـاء في الـرخصـة فيـه عن أبـي هـريـرة، ولفـظه: شـكـا رجـل إلى النبـي ﷺ سـوء الحفظ، فقـال: «استعن بيمينك على حفظك». قال الترمذي إسناده ليس بالقائم.

(3) رواه الحاكم (١/١٠٦) عن عبد الله بن عمرو بن العاص مرفوعاً، قال الـذهبـي: ضعيف.

(4) نقل في «المقاصد الحسنة» (١٠٠): في فضل العلم للموهبـي بسند واه من جهة محمد بن عبيد الله بن أبـي رافـع عن أبيه عن جده، قال: قلت: يـا رسول الله إنـا نسمـع منك أحاديث فاستعين بيدي على قلبـي؟ قال: «نعم».

(5) رواه البخاري (٣٤٦١) في الأنبياء: بـاب ما ذكـر عن بني إسرائيـل، ولفظه: «بلغـوا عني ولو آية وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج، ومن كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من النار».

(6) رواه التـرمـذي (٢٦٥٧) في العلم: بـاب مـا جاء في الحث على تبليـغ السمـاع، وابن ماجه (٢٣٢) في المقـدمة، عن ابن مسعـود بإسنـاد صحيـح ولفظه: «نضـر الله امرأ سمـع منا شيئاً فبلغه كما سمعه، فرب مبلـغ أوعى من سامـع».

إلّا من الكتابة لأن الحفظ خوّان. وقد كان أحمد بن حنبل رضي الله عنه، يحدث بالحديث فيقال له: أمله علينا. فيقول: لا بل من الكتاب. وقد قال علي بن المديني: أمرني سيدي أحمد بن حنبل أن لا أحدث إلّا من الكتاب، فإذا كانت الصحابة، قد روت السنّة وتلقتهاالتابعون، وسافر المحدثون وقطعوا شرق الأرض وغربها لتحصيل كلمة من هنا وكلمة من هنا، وصححوا ما صح، وزيفوا[١] ما لم يصح، وجرحوا الرواة، وعدلوا[٢] وهذبوا السنن وصنفوا، ثم من يغسل[٣] ذلك فيضيع التعب، ولا يعرف حكم الله في حادثة، فما عوندت الشريعة بمثل هذا. فهل لشريعة من الشرائع قبلنا إسناد إلى نبيهم وإنما هذه خصيصة لهذه الأمة.

قال المصنف رحمه الله: ولا تخلو هذه الكتب التي دفنوها أن يكون فيها حق أو باطل، أو قد اختلط الحق بالباطل، فإن كان فيها باطل فلا لوم على من دفنها، وإن كان قد اختلط الحق بالباطل ولم يمكن تمييزه كان عذراً في إتلافها، فإن أقواماً كتبوا عن ثقات وعن كذابين واختلط الأمر عليهم فدفنوا كتبهم. وعلى هذا يحمل ما يروى عن دفن الكتب عن سفيان الثوري. وإن كان فيها الحق والشرع فلا يحل إتلافها بوجه، لكونها ضابطة علماً وأموالاً. وليسأل من يقصد إتلافها عن مقصوده، فإن قال: تشغلني عن العبادة، قيل له: جوابك من ثلاثة أوجه:

أحدها ـ أنك لو فهمت لعلمت أن التشاغل بالعلم أوفى العبادات.

والثاني ـ أن اليقظة التي وقعت لك لا تدوم، فكأني بك وقد ندمت على ما فعلت بعد الفوات. واعلم أن القلوب لا تبقى على صفائها بل تصدأ فتحتاج إلى جلاء، وجلاؤها النظر في كتب العلم. وقد كان يوسف بن أسباط دفن كتبه، ثم لم يصبر على التحديث، فحدث من حفظه فخلط.

---

(١) أي ردوا.

(٢) وصفوهم بالعدالة.

(٣) أي يمحو.

والثالث ـ أننا نقدر تمام يقظتك ودوامها والغنى عن هذه الكتب، فهلا وهبتها لمبتدىء من الطلاب ممن لم يصل مقامك، أو وقفتها على المنتفعين بها، أو بعتها وتصدقت بثمنها، أما إتلافها فلا يحل بحال.

وقد روى المروزي عن أحمد بن حنبل أنه سئل عن رجل أوصى أن تدفن كتبه، فقال: ما يعجبني أن يدفن العلم.

وقال: لا أعرف لدفن الكتب معنى.

تلبيس إبليس على الصوفية في إنكارهم على من تشاغل بالعلم

قال المصنف رحمه الله: لما انقسم هؤلاء بين متكاسل عن طلب العلم، وبين ظان أن العلم هو ما يقع في النفوس من ثمرات التعبد، وسموا ذلك العلم: العلم الباطن نهوا عن التشاغل بالعلم الظاهر.

قال المصنف رحمه الله: بلغني عن أبي سعيد الكندي، قال: كنت أنزل رباط الصوفية، وأطلب الحديث في خفية بحيث لا يعلمون، فسقطت الدواة يوماً من كمي، فقال لي بعض الصوفية: استر عورتك.

وقال الحسين بن أحمد الصفار: كان بيدي محبرة، فقال لي الشبلي: غيب سوادك عني يكفيني سواد قلبي.

قال المصنف رحمه الله: من أكبر المعاندة لله عزّ وجلّ الصد عن سبيل الله، وأوضح سبيل الله العلم، لأنه دليل على الله، وبيان لأحكام الله وشرعه، وإيضاح لما يحبه ويكرهه، فالمنع منه معاداة لله ولشرعه، ولكن الناهين عن ذلك ما تفطنوا لما فعلوا.

قال أبو عبد الله بن خفيف: اشتغلوا بتعلم العلم ولا يغرنكم كلام الصوفية، فإني كنت أذهب خفية إلى أهل العلم، فإذا علموا بي خاصموني، وقالوا: لا تفلح، ثم احتاجوا إليّ بعد ذلك.

وقد كان الإمام أحمد بن حنبل يرى المحابر بأيدي طلبة العلم، فيقول: هذه سرج الإسلام. وكان هو يحمل المحبرة على كبر سنه، فقال له رجل: إلى متى يا أبا عبد الله؟! فقال: المحبرة إلى المقبرة، وقال في قوله عليه الصلاة والسلام: «لا تزال طائفة من أمتي منصورين لا يضرهم من خذلهم حتى تقوم الساعة»[1]، فقال أحمد: إن لم يكونوا أصحاب الحديث فلا أدري من هم. وقال أيضاً: إن لم يكن أصحاب الحديث الأبدال[2] فمن يكون؟ وقيل له: إن رجلاً قال في أصحاب الحديث: إنهم كانوا قوم سوء، فقال أحمد: هو زنديق زنديق.

وقد قال الإمام الشافعي رحمه الله: إذا رأيت رجلاً من أصحاب الحديث فكأني رأيت رجلاً من أصحاب رسول الله ﷺ.

وقال يوسف بن أسباط: بطَلَبَةِ الحديث يدفع الله البلاء عن أهل الأرض.

تلبيس إبليس على الصوفية في كلامهم في العلم

قال المصنف رحمه الله: إعلم أن هؤلاء القوم لما تركوا العلم وانفردوا بالرياضات على مقتضى آرائهم لم يصبروا عن الكلام في العلوم، فتكلموا بواقعاتهم فوقعت الأغاليط القبيحة منهم، فتارة يتكلمون في تفسير القرآن، وتارة في الحديث، وتارة في الفقه وغير ذلك، ويسوقون العلوم إلى مقتضى علمهم الذي انفردوا به، والله سبحانه لا يخلي الزمان من أقوام قوام بشرعه يردون على المتخرصين، ويبينون غلط الغالطين.

---

(١) أخرجه البخاري (٧٣١١) في الاعتصام: باب قول النبي لا تزال طائفة من أمتي، ومسلم (١٩٢١) في الإمارة: باب قوله ﷺ: لا تزال طائفة من أمتي، من حديث المغيرة، ولفظه: «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين حتى يأتيهم أمر الله وهم ظاهرون».

(٢) ولفظه: الأبدال في هذه الأمة ثلاثون مثل إبراهيم خليل الرحمن، كلما مات رجل أبدل الله تبارك وتعالى مكانه رجلاً. رواه أحمد (٥/٣٢٢) وقال: إنه منكر.

نبذة من كلامهم في القرآن

عن جعفر بن محمد الخلدي، قال: حضرت شيخنا الجنيد وقد سأله ابن كيسان عن قوله عزّ وجلّ: ﴿سَنُقْرِئُكَ فلا تَنْسَى﴾[1]، فقال الجنيد: لا تنسَى العمل به. قال: وسأله عن قوله تعالى: ﴿وَدرسُوا ما فيه﴾[2]، قال له الجنيد: تركوا العمل به، فقال: لا يفضض الله فاك[3].

قلت: أما قوله: «لا تنسى العمل به»، فتفسير لا وجه له، والغلط فيه ظاهر، لأنه فسره على أنه نهي وليس كذلك، إنما هو خبر لا نهي، وتقديره: فما تنسى، إذ لو كان نهياً كان مجزوماً، فتفسيره على خلاف إجماع العلماء. وكذلك قوله: ﴿ودرسوا ما فيه﴾. إنما هو من الدرس الذي هو التلاوة من قوله عزّ وجلّ: ﴿وبما كُنتُمْ تَدرسُونَ﴾[4]. لا من دروس الشيء الذي هو هلاكه.

وسئل العباس بن عطاء عن قوله: ﴿فَنَجَّيناكَ مِنَ الغمِّ﴾[5]، قال: نجيناك من الغم بقومك، وفتناك بنا عمن سوانا.

قال المصنف رحمه الله: وهذه جرأة عظيمة على كتاب الله عزّ وجلّ، ونسبة الكليم إلى الافتتان بمحبة الله سبحانه. وجعل محبته تفتن غاية في القباحة.

وقال ابن عطاء في قوله عزّ وجلّ: ﴿ وَأَمَّا إنْ كانَ مِنَ المُقرَّبينَ

---

(١) سورة الأعلى: الآية ٦.
(٢) سورة الأعراف: الآية ١٦٩.
(٣) فض الشيء: كسره متفرقاً، ويقال: لا فض فوك: أي لا نُثرت أسنانك ولا فُرّقت.
(٤) سورة آل عمران: الآية ٧٩.
(٥) سورة طه: الآية ٤٠.

فَرَوْحٌ وريَحْان وجنَّةُ نَعيمٍ﴾[1]، فقال: الروح: النظر إلى وجه الله عزّ وجلّ، والريحان: الاستماع لكلامه؛ وجنة نعيم: هو أن لا يحجب فيها عن الله عزّ وجلّ.

قلت: هذا كلام بالواقع على خلاف أقوال المفسرين. وقد جمع أبو عبد الرحمن السلمي في تفسير القرآن من كلامهم الذي أكثره هذيان لا يحل نحو مجلدين سماها «حقائق التفسير». فقال في فاتحة الكتاب عنهم: إنهم قالوا: إنما سميت فاتحة الكتاب، لأنها أوائل ما فاتحناك به من خطابنا، فإن تأدبت بذلك، وإلّا حُرمت لطائف ما بعد.

قال المصنف رحمه الله: وهذا قبيح، لأنه لا يختلف المفسرون أن الفاتحة ليست من أول ما نزل، وقال في قول الإنسان: آمين، أي قاصدون نحوك.

قال المصنف رحمه الله: وهذا قبيح لأنه ليس من أمَّ، لأنه لو كان كذلك لكانت الميم مشددة. وقال في قوله: ﴿وإنْ يأتُوكُم أُسارَى﴾[2]، قال: قال أبو عثمان: غرقى في الذنوب. وقال الواسطي: غرقى في رؤية أفعالهم. وقال الجنيد: أسارى في أسباب الدنيا.

قلت: وإنما الآية على وجه الإنكار، ومعناها: إذا أسرتموهم فديتموهم، وإذا حاربتموهم قتلتموهم، وهؤلاء قد فسروها على ما يوجب المدح.

وقال محمد بن علي: ﴿يُحبُّ التَّوابينَ﴾[3]، من توبتهم. وقال في قوله: ﴿ومن دَخلهُ كان آمناً﴾[4]، أي من هواجس نفسه ووساوس الشيطان.

---

(١) سورة الواقعة: الآية ٨٩.
(٢) سورة البقرة: الآية ٨٥.
(٣) سورة البقرة: الآية ٢٢٢.
(٤) سورة آل عمران: الآية ٩٧.

وهذا غاية في القبح، لأن لفظ الآية لفظ الخبر، ومعناه الأمر، وتقديرها: من دخل الحرم فأمنوه. وهؤلاء قد فسروها على الخبر، ثم لا يصح لهم، لأنه كم من داخل إلى الحرم ما أمن من الهواجس ولا الوساوس، وذكر في قوله: ﴿إِنْ تَجتنبُوا كبائرَ ما تُنهونَ عنه﴾(١). قال أبو تراب: هي الدعاوى الفاسدة، ﴿والْجارِ ذِي القُربَى﴾. قال سهل: هو القلب، ﴿والْجار الْجُنبِ﴾: النفس، ﴿وابن السَّبيل﴾(٢): الجوارح. وقال في قوله: ﴿وهَمَّ بِهَا﴾(٣). قال أبو بكر الوَراق: الهمان لها ويوسف ما هم بها.

قلت: هذا خلاف لصريح القرآن، وقوله: ﴿ما هَذَا بَشَراً﴾(٤). قال محمد بن علي: ما هذا بأهل أن يدعى إلى المباشرة. وقال الزنجاني: الرعد: صعقات الملائكة، والبرق: زفرات أفئدتهم، والمطر: بكاؤهم. وقال في قوله: ﴿ولِلَّهِ المكْرُ جميعاً﴾(٥)، قال الحسين: لا مكر أبين فيه من مكر الحق بعباده حيث أوهمهم أن لهم سبيلاً إليه بحال، أو للحدث اقتران مع القدم.

قال المصنف رحمه الله: ومن تأمل معنى هذا علم أنه كفر محض، لأنه يشير إلى أنه كالهزء واللعب. ولكن الحسين هذا هو **الحلاج**، وهذا يليق بذاك.

قلت: وجميع الكتاب من هذا الجنس، ولقد هممت أن أثبت منه ها هنا كثيراً، فرأيت أن الزمان يضيع في كتابة شيء بين الكفر والخطأ والهذيان. وهو من جنس ما حكينا عن الباطنية، فمن أراد أن يعرف جنس ما في الكتاب فهذا أنموذجه، ومن أراد الزيادة فلينظر في ذلك الكتاب.

وقد ذكر أبو حامد الطوسي في كتاب «ذم المال» في قوله عزّ وجلّ:

---

(١) سورة النساء: الآية ٣١.

(٢) سورة النساء: الآية ٣٦.

(٣) سورة يوسف: الآية ٢٤.

(٤) سورة يوسف: الآية ٣١.

(٥) سورة الرعد: الآية ٤٢.

﴿وَاجنبنِي وبنيَّ أنْ نَعبُدَ الأصنامَ﴾[1]، قال: إنما عنى الذهب والفضة، إذ رتبة النبوة أجل من أن يخشى عليها أن تعبد الآلهة والأصنام، وإنما عنى بعبادته حبه والاغترار به.

قال المصنف رحمه الله: وهذا شيء لم يقله أحد من المفسرين.

وقد قال شعيب: ﴿وَمَا يَكونُ لنا أَنْ نَعودَ فيها إلاّ أنْ يَشاءَ اللَّهُ ربُّنا﴾[2].

ومعلوم أن ميل الأنبياء إلى الشرك أمر ممتنع، لأجل العصمة لا أنه مستحيل. ثم قد ذكر مع نفسه من يتصور في حقه الإشراك والكفر فجاز أن يدخل نفسه معهم، فقال: ﴿واجْنُبني وبنيَّ﴾، ومعلوم أن العرب أولاده، وقد عبد أكثرهم الأصنام.

قال أبو حمزة الخراساني: قد يقطع بأقوام في الجنة، فيقال: ﴿كُلُوا واشربُوا هنيئاً بما أَسْلَفْتُمْ في الأَيامِ الْخاليةِ﴾[3]، فشغلهم عنه بالأكل والشرب، ولا مكر فوق هذا، ولا حسرة أعظم منه.

قال المصنف رحمه الله: انظروا وفقكم الله إلى هذه الحماقة وتسمية المنعم به مكراً، وإضافة المكر بهذا إلى الله سبحانه وتعالى، وعلى مقتضى قول هذا أن الأنبياء لا يأكلون ولا يشربون بل يكونون مشغولين بالله عزّ وجلّ، فما أجرأ هذا القائل على مثل هذه الألفاظ القباح. وهل يجوز أن يوصف الله عزّ وجلّ بالمكر على ما نعقله من معنى المكر. وإنما معنى مكره وخداعه أنه مجازي الماكرين والخادعين. وإني لأتعجب من هؤلاء وقد كانوا يتورعون من اللقمة والكلمة كيف انبسطوا في تفسير القرآن إلى ما هذا حده.

قال رسول الله ﷺ: «مَنْ قال في القرآنِ برأيِهِ فأصاب فقد أخطأ»[4].

---

(١) سورة إبراهيم: الآية ٣٥.

(٢) سورة الأعراف: الآية ٨٩.

(٣) سورة الحاقة: الآية ٢٤.

(٤) أخرجه أبو داوود (٣٦٥٢) في العلم: باب الكلام في كتاب الله بغير علم، والترمذي (٢٩٥٣) في التفسير: باب ما جاء في الذي يفسِّر القرآن برأيه، وقال: حديث غريب، إسناده ليس بالقوي.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ قَالَ في القرآنِ برأيِهِ فليتبوأْ مَقعدَهُ من النَّارِ»[1].

قال المصنف رحمه الله: وقد رويت لنا حكاية عن بعضهم فيما يتعلق بالمكر، إني لأقشعر من ذكرها، لكني أنبه بذكرها على قبح ما يتخايله هؤلاء الجهلة.

اجتمع ليلة بالشام جماعة من المشايخ، فقالوا: ما شهدنا مثل هذه الليلة وطيبها، فتعالوا نتذاكر مسألة لئلا تذهب ليلتنا، فقالوا: نتكلم في المحبة فإنها عمدة القوم. فتكلم كل واحد من حيث هو، وكان في القوم عمرو بن عثمان المكي، فوقع عليه البول ولم يكن من عادته، فقام وخرج إلى صحن الدار، فإذا ليلة مقمرة فوجد قطعة رق[2] مكتوب فأخذه وحمله إليهم، وقال: يا قوم اسكنوا فإن هذا جوابكم، انظروا ما في هذه الرسالة فإذا فيها مكتوب: مكار مكار وكلكم تدعون حبه، وأحرمَ[3] البعض وافترقوا فما جمعهم إلّا الموسم.

قال المصنف رحمه الله: هذه بعيدة الصحة، وإن صحت فإن شيطاناً ألقى ذلك الرق. وإن كانوا قد ظنوا أنها رسالة من الله بظنونهم الفاسدة. وقد بينا أن معنى المكر منه المجازاة على المكر، فإما أن يقال عنه: مكار ففوق الجهل وفوق الحماقة.

قال أبو يزيد: من عرف الله عزّ وجلّ صار للجنة بواباً، وصارت الجنة عليه وبالاً.

قلت: وهذه جرأة عظيمة في جعل الجنة التي هي المطالب وبالاً، وإذا

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٩٥١) في التفسير: باب ما جاء في الذي يفسر القرآن برأيه، وقال: حديث حسن.

(٢) الرق: جلد رقيق يكتب فيه.

(٣) أي لبسوا الإحرام.

كانت وبالاً للعارفين، فكيف تكون لغيرهم وكل هذا منبعه من قلة العلم وسوء الفهم.

وقال: أبو يزيد: العارفون في زيارة الله تعالى في الآخرة على طبقتين: طبقة تزوره متى شاءت وأنى شاءت، وطبقة تزوره مرة واحدة ثم لا تزوره بعدها أبداً، فقيل له: كيف ذلك؟ قال: إذا رآه العارفون أول مرة جعل لهم سوقاً ما فيه شراء ولا بيع إلاّ الصور من الرجال والنساء، فمن دخل منهم السوق لم يرجع إلى زيارة الله أبداً. وقال أبو يزيد: في الدنيا يخدعك بالسوق وفي الآخرة يخدعك بالسوق، فأنت أبداً عبد السوق.

قال المصنف رحمه الله: تسمية ثواب الجنة خديعة وسبباً للانقطاع عن الله عزّ وجلّ جهل قبيح، وإنما يجعل لهم السوق ثواباً لا خديعة، فإذا أذن لهم في أخذ ما في السوق ثم عوقبوا بمنع الزيارة فقد صارت المثوبة عقوبة. ومن أين له أن من اختار شيئاً من ذلك السوق لم يعد إلى زيارة الله تبارك وتعالى ولا يراه أبداً، نعوذ بالله من هذا التخليط والتحكم في العلم، والأخبار عن هذه المغيبات التي لا يعلمها إلاّ نبي، فمن أين له علمها.

ومن كلامهم في الحديث وغيره:

قال عبد الله بن أحمد ابن حنبل: جاء أبو تراب النخشبي إلى أبي، فجعل أبي يقول: فلان ضعيف وفلان ثقة، فقال أبو تراب: يا شيخ لا تغتب العلماء، فالتفت أبي إليه وقال له: ويحك هذه نصيحة ليست هذه غيبة.

وقال محمد بن الفضل العباسي: كنا عند عبد الرحمن بن أبي حاتم، وهو يقرأ علينا كتاب «الجرح والتعديل»، فقال: أظهر أحوال أهل العلم من كان منهم ثقة أو غير ثقة، فقال له يوسف بن الحسين: استحييت إليك يا أبا محمد كم من هؤلاء القوم قد حطوا رواحلهم في الجنة منذ مئة سنة، أو مئتي سنة، وأنت تذكرهم وتغتابهم على أديم الأرض. فبكى عبد الرحمن، وقال: يا أبا يعقوب لو سمعت هذه الكلمة قبل تصنيفي هذا الكتاب لم أصنفه.

قلت: عفا الله عن ابن أبي حاتم، فإنه لو كان فقيهاً لرد عليه كما ردّ الإمام أحمد على أبي تراب، ولولا الجرح والتعديل من أين كان يعرف الصحيح من الباطل. ثم كون القوم في الجنة لا يمنع أن نذكرهم بما فيهم، وتسمية ذلك غيبة حديث سوء.

وقال أبو العباس بن عطاء: من عرف الله أمسك عن رفع حوائجه إليه، لما علم أنه العالم بأحواله.

قلت: هذا سد لباب السؤال والدعاء وهو جهل بالعلم.

قال الشبلي وقد سأله شاب: يا أبا بكر لم تقول: الله، ولا تقول لا إلّه إلّا الله؟! فقال الشبلي: أستحيي أن أوجه إثباتاً بعد نفي فقال الشاب: أريد حجة أقوى من هذه، فقال: أخشى أني أؤخذ في كلمة الجحود ولا أصل إلى كلمة الإقرار.

قال المصنف رحمه الله: انظروا إلى هذا العلم الدقيق، فإن رسول الله ﷺ كان يأمر بقول: لا إلّه إلّا الله ويحث عليها[1]. وكان يقول في كل دبر صلاة: لا إلّه إلّا الله وحده لا شريك له، وكان يقول إذا قام لصلاة الليل: لا إلّه إلّا أنت. وذكر الثواب العظيم لمن يقول: لا إلّه إلّا الله، فانظروا إلى هذا التعاطي على الشريعة، واختيار ما لم يختره رسول الله ﷺ.

---

(١) من ذلك قوله ﷺ: «من قال إذا أصبح لا إله إلّا الله وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، كان له عدل رقبة من ولد إسماعيل، وكتب له عشر حسنات، وحط عنه عشر سئيات، ورفع له عشر درجات، وكان في حرز من الشيطان حتى يمسي، وإن قالها إذا أمسى كان مثل ذلك حتى يصبح»، رواه أبو داود (٥٠٧٧) في الأدب: باب ما يقول إذا أصبح، وابن ماجه (٣٨٦٧) في الدعاء: باب ما يدعو به الرجل إذا أصبح وإذا أمسى، قال الترمذي: حديث حسن صحيح غريب.

قال الشبلي: وقد سئل عن المعرفة: ويحك ما عرف الله من قال: الله، والله لو عرفوه ما قالوه.

ورأى الشبلي في الحمام غلاماً شاباً بلا مئزر، فقال له: يا غلام ألا تغطي عورتك، فقال له: اسكت يا بطال[1]، إن كنت على الحق فلا تشهد إلّا الحق، وإن كنت على الباطل فلا تشهد إلا الباطل. لأن الحق مشتغل بالحق، والباطل مشتغل بالباطل.

وقد ذكر أبو حامد في كتاب «الأحياء» أنَّ بعضهم قال: للربوبية سر لو أظهر بطلت النبوة، وللنبوة سر لو كشف لبطل العلم، وللعلماء بالله سر لو أظهروه لبطلت الأحكام.

قلت: فانظروا إخواني إلى هذا التخليط القبيح والادعاء على الشريعة أن ظاهرها يخالف باطنها.

قال أبو حامد: ضاع لبعض الصوفية ولد صغير، فقيل له: لو سألت الله أن يرده عليك، فقال: اعتراضي عليه فيما يقضي أشد عليّ من ذهاب ولدي.

قلت: لقد طال تعجبي من أبي حامد كيف يحكي هذه الأشياء في معرض الاستحسان والرضى عن قائلها، وهو يدري أن الدعاء والسؤال ليس باعتراض.

فهذه نبذة من كلام القوم وفقههم نبهت على قلة علمهم وسوء فهمهم وكثرة خطئهم.

---

(١) من البطالة والتعطل عن العمل.

تلبيس إبليس في الشطح والدعاوى

قال المصنف رحمه الله: إعلم أن العلم يورث الخوف واحتقار النفس وطول الصمت، وإذا اعتبرت علماء السلف رأيت الخوف غالباً عليهم والدعاوى بعيدة عنهم، كما قال أبو بكر: ليتني كنت شعرة في صدر مؤمن. وقال عمر عند موته: الويل لعمر إن لم يغفر له. وقال ابن مسعود: ليتني إذا مت لا أُبعث. وقالت عائشة رضي الله عنها: ليتني كنت نسياً منسياً. وقال سفيان الثوري لحماد بن سلمة عند الموت: ترجو أن يغفر لمثلي؟

وإنما صدر مثل هذا عن هؤلاء السادة لقوة علمهم بالله، وقوة العلم به تورث الخوف والخشية. قال الله عزّ وجلّ: ﴿إنَّما يَخشى اللَّهَ من عبادِهِ الْعلماءُ﴾[1]، وقال ﷺ: «أنا أعرفُكُمْ باللَّهِ وأشدُّكمْ له خَشْيةً»[2]. ولما بعد عن العلم أقوام من الصوفية لاحظوا أعمالهم[3]، واتفق لبعضهم من اللطف ما يشبه الكرامات فانبسطوا[4] بالدعاوى.

قال أبو يزيد البسطامي: وددت أن قد قامت القيامة حتى أنصب خيمتي على جهنم، فسأله رجل ولم ذاك يا أبا يزيد؟ فقال: إني أعلم أن جهنم إذا رأتني تخمد فأكون رحمة للخلق.

وقال: إذا كان يوم القيامة وأدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار، **فأسأله** أن يدخلني النار، فقيل له: لم؟ قال: حتى تعلم الخلائق أن بره ولطفه في النار مع أوليائه.

قال المصنف رحمه الله: هذا الكلام من أقبح الأقوال، لأنه يتضمن تحقير ما عظم الله عزّ وجلّ أمره من النار، فإنه عزّ وجلّ بالغ في وصفها

---

(١) سورة فاطر: الآية ٢٨.

(٢) أخرجه البخاري (٥٠٦٣) في النكاح: باب الترغيب في النكاح. ومسلم (١٤٠١) في النكاح: باب استحباب النكاح.

(٣) أي راقبوها.

(٤) توسعوا بالدعاوى، ولم يتورعوا عنها.

فقال: ﴿قُوا أَنْفُسَكُم وأَهْلِيكُم نَاراً وَقُودُها النَّاسُ والحِجارةُ﴾[1]، وقال: ﴿إِذا رأَتْهُمْ من مَكَانٍ بَعيدٍ سَمِعُوا لَها تَغَيُّظاً وزَفِيراً﴾[2]، إلى غير ذلك من الآيات.

وقال رسول الله ﷺ: «إِنَّ نارَكُمْ هَذِه مِما يُوقِدُ بَنُو آدمَ جُزءٌ من سبعينَ جُزءاً من حَرِّ جَهنمَ». قال له الصحابة: واللَّهِ إِنْ كانت لكافيةً يا رسولَ اللَّهِ!! قال: «فإِنَّها فُضِّلَتْ عليها بتسعةٍ وستينَ جُزءاً كُلُّهنَّ مثلُ حرِّها»، أخرجاه في «الصحيحين»[3]، وفي إفراد مسلم من حديث ابن مسعود عن النبي ﷺ أنه قال: «يُؤتى بجهنَّم يَومئذٍ لها سَبعُونَ ألفَ زمامٍ مَع كلِّ زِمامٍ سبعونَ ألفَ مَلكٍ يَجرُّونَها»[4].

وقال عمر بن الخطاب: يا كعب خوفنا، فقال: يا أمير المؤمنين اعمل عمل رجل لو وافيت[5] القيامة بعمل سبعين نبياً لازدرأت عملك[6] مما ترى، فأطرق عمر رضي الله عنه ملياً[7] ثم أفاق، قال: زدنا يا كعب. قلت: يا أمير المؤمنين لو فتح من جهنم قدر منخر ثور بالمشرق، ورجل بالمغرب لغلى دماغه حتى يسيل من حرها. فأطرق عمر ملياً ثم أفاق فقال: زدنا يا كعب، قلت: يا أمير المؤمنين إنَّ جهنم لتزفر[8] يوم القيامة زفرة لا يبقى ملك مقرب ولا نبي مصطفى إلاّ خر جاثياً على ركبتيه ويقول: رب نفسي نفسي لا أسألك اليوم غير نفسي.

وقال: سمعت كعب الأحبار يقول: إذا كان يوم القيامة جمع الله

---

(١) سورة التحريم: الآية ٦.

(٢) سورة الفرقان: الآية ١٢.

(٣) أخرجه البخاري (٣٢٦٥) في بدء الخلق: باب صفة النار، وأنها مخلوقة، ومسلم (٢٨٤٣) في كتاب الجنة: باب في شدة حر جهنم.

(٤) أخرجه مسلم (٢٨٤٢) في كتاب الجنة: باب في شدة حر جهنم. والزمام: المقود والرسن.

(٥) وافيت: أدركت وأتيت.

(٦) ازدرأت عملك: احتقرته واستقللته.

(٧) ملياً: زمناً طويلاً.

(٨) الزفير: إخراج النفَس بعد مدة. وزفرت النار: سمع لتوقدها صوت.

الأولين والآخرين في صعيد[1] واحد ونزلت الملائكة وصارت صفوفاً، فيقول: يا جبرائيل ائتني بجهنم، فيأتي بها جبريل فتقاد بسبعين ألف زمام، حتى إذا كانت من الخلائق على قدر مئة عام زفرت زفرة طارت لها أفئدة الخلائق[2]، ثم زفرت ثانية فلا يبقى ملك مقرب ولا نبي مرسل إلاّ جثى[3] على ركبتيه، ثم تزفر الثالثة فتبلغ القلوب الحناجر[4] وتذهل العقول، فيفزع[5] كل امرىء إلى عمله، حتى إن إبراهيم الخليل يقول: بخلتي[6] لا أسألك إلاّ نفسي. ويقول موسى: بمناجاتي لا أسألك إلاّ نفسي. وإن عيسى ليقول: بما أكرمتني لا أسألك إلاّ نفسي لا أسألك مريم التي ولدتني[7].

قلت: وقد روينا أن النبي ﷺ قال: «يا جبرائيل مالي أرى ميكائيل لا يضحك؟!» فقال: ما ضحك ميكائيل مذ خلقت النار، وما جفت لي عين مذ خلقت جهنم مخافة أن أعصي الله فيجعلني فيها[8]. وبكى عبد الله بن رواحة يوماً، فقالت امرأته: مالك تبكي؟! قال: أنبئت أني وارد ولم أنبأ أني صادر[9].

(١) الصعيد: وجه الأرض، والتراب. والمرتفع من الأرض.
(٢) الأفئدة: جمع فؤاد، وهو القلب، والعقل.
(٣) جثا، يجثو: جلس على ركبتيه، أو قام على أطراف أصابعه.
(٤) الحناجر: جمع حَنْجَرة، وهي الحلقوم. وبلغت القلوب الحناجر: كناية عن شدة الخوف.
(٥) فزع إلى عمله: لجأ إليه.
(٦) الخلة: الصداقة والمحبة.
(٧) لعل مثل هذه الأخبار إنما سمعها كعب من كتب بني إسرائيل، ونحن نسمعها، فلا نكذبها، ولا نصدقها. وإن كان لبعضها شواهد في السنّة، فهي حق.
(٨) أخرّجه أحمد (٣/٢٢٤). قال في مجمع الزوائد (١٠/٣٨٥)، رواه أحمد من رواية إسماعيل بن عياش عن المدنيين، وهي ضعيفة، وبقية رجاله ثقات.
(٩) الصادر: الراجع، ويغلب على الراجع عن الماء، ويقابله الوارد: أي الآتي إلى الماء.

قـال المصنف رحمـه الله: فـإذا كـانت هـذه حـالـة المـلائكـة والأنبيـاء والصحابة وهم المطهرون من الأدنـاس، وهذا انـزعاجهم لأجـل النار، فكيف هـانت عند هـذا المدعي؟! ثم إنـه يقطـع لنفسـه بما لا يـدري به من الـولاية والنجاة، وهل قطـع بالنجاة إلاَّ لقوم مخصوصين من الصحابـة.

وقد كان ابن عقيل يقول: حكي عن أبـي يزيد أنه قال: وما النار؟! والله لئن رأيتها لأطفأنّها بطرف مرقعتي، أو نحو هذا. قال: ومن قال هذا كائناً من كان فهو زنديق يجب قتله، فإن الاحتقـار للشيء ثمرة الجحـد، لأن من يؤمن بـالجن يقشعـر في الـظلمـة، ومن لا يؤمن لا ينـزعـج، وربمـا قـال: يـا جن خذوني. ومثل هذا القائل ينبغي أن يقرب إلى وجهه شمعة، فإذا انزعـج قيـل لـه: هذه جذوة من نار.

قـال طيفور الصغيـر: سمعت عمي خـادم أبـي يـزيـد، يقـول: سمعت أبا يزيد، يقول: سبحاني سبحاني ما أعظم شأني. ثم قال: حسبـي من نفسي حسبـي.

قلت: هذا إن صح عنه فربما يكـون الراوي لم يفهم، لأنـه يحتمل أن يكون قد ذكـر تمجيد الحق نفسـه، فقال فيـه سبحاني حكـاية عن الله، لا عن نفسه. وقد تأوله لـه الجنيد بشيء[1] إن لم يرجـع إلى ما قلته فليس بشيء.

وقيل للجنيد: إن أبـا يزيـد يقول: سبحـاني سبحاني أنـا ربـي الأعلى، فقال الجنيد: إن الـرجل مستهلك في شهـود الجلال فنـطق بـمـا استهـلكـه، أذهله الحق عن رؤيته إياه، فلم يشهد إلاّ الحق فنعته.

قلت: وهذا من الخرافات.

---

(١) أي بتأويل.

وعن عبد الله بن علي السراج، قال: سمعت أحمد بن سالم البصري بالبصرة يقول في مجلسه يوماً: فرعون لم يقل ما قال أبو يزيد، لأن فرعون قال: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى﴾[1]. والرب يسمى به المخلوق يقال: رب الدار. وقال أبو يزيد: سبحاني سبحاني، وهذا لا يجوز إلاّ لله، فقلت: قد صح عندك هذا عن أبي يزيد؟ فقال: قد قال ذلك، فقلت: يحتمل أن يكون لهذا الكلام مقدمات يحكى بأن الله يقول: سبحاني، لأنا لو سمعنا رجلاً يقول: لا إلّه إلاّ أنا علمنا أنه يقرأ.

وقد سألت جماعة من أهل بسطام من بيت أبي يزيد عن هذا، فقالوا: لا نعرف هذا.

قال أبو يزيد: كنت أطوف حول البيت أطلبه، فلما وصلت إليه رأيت البيت يطوف حولي.

وقال: حججت أول حجة فرأيت البيت، وحججت الثانية فرأيت صاحب البيت ولم أرَ البيت، وحججت الثالثة فلم أرَ البيت ولا صاحب البيت.

وسئل عن اللوح المحفوظ قال: أنا اللوح المحفوظ.

وحكي عنه أنه قال: أراد موسى عليه الصلاة والسلام أن يرى الله تعالى، وأنا ما أردت أن أرى الله تعالى، هو أراد أن يراني.

وقال: اللهم إن كان في سابق علمك أنك تعذب أحداً من خلقك بالنار فعظم خلقي حتى لاتسع معي غيري.

قال المصنف رحمه الله: أما ما تقدم من دعاويه فما يخفى قبحها. وأما هذا القول فخطأ من ثلاثة أوجه:

أحدها ـ أنه قال: إن كان في سابق علمك وقد علمنا قطعاً أنه لا بدّ من

(١) سورة النازعات: الآية ٢٤.

تعذيب خلق بالنار، وقد سمى الله عزّ وجلّ منهم خلقاً، كفرعون وأبي لهب، فكيف يجوز أن يقال بعد القطع واليقين: إن كان.

والثاني ــ قوله: فعظم خلقي، فلو قال: لأدفع عن المؤمنين، ولكنه قال: حتى لا تسع غيري، فأشفق على الكفار أيضاً، وهذا تعاط على رحمة الله عزّ وجلّ.

والثالث ــ أن يكون جاهلاً بقدر هذه النار أو واثقاً من نفسه بالصبر، وكلا الأمرين معدوم عنده.

بيان جملة مروية عن الصوفية من الأفعال المنكرة

قلت: قد سبق ذكر أفعال كثيرة لهم كلها منكرة، وإنما نذكر ها هنا من أمهات الأفعال وعجائبها.

ذكر عن ابن الكريتي ــ وكان أستاذ الجنيد ــ أنه أصابته جنابة، وكان عليه مرقعة ثَخِينة، فجاء إلى شاطىء الدجلة والبرد شديد فحرنت نفسه عن الدخول في الماء لشدة البرد، فطرح نفسه في الماء مع المرقعة ولم يزل يغوص ثم خرج، وقال: عقدت أن لا أنزعها عن بدني حتى تجف عليَّ فلم تجف عليه شهراً.

وقال: أصابتني ليلة جنابة فاحتجت أن أغتسل ــ وكانت ليلة باردة ــ فوجدت في نفسي تأخراً وتقصيراً، وحدثتني نفسي لو تركت حتى تصبح ويسخن لك الماء، أو تدخل حماماً. فقلت: واعجباً أنا أعامل الله تعالى في طول عمري، يجب له علي حق لا أجد المسارعة إليه، وأجد الوقوف والتباطؤ والتأخر، آليت لا أغتسل إلاّ في نهر، وآليت لا اغتسلت إلاّ في مرقعتي هذه، وآليت لا أعصرها، وآليت لا جففتها في شمس.

قلت: وذلك جهل محض، لأن هذا الرجل عصى الله سبحانه وتعالى بما فعل. وإنما يعجب هذا الفعل العوام الحمقى لا العلماء. ولا يجوز لأحد أن يعاقب نفسه، فقد جمع هذا المسكين لنفسه فنوناً من التعذيب: إلقاؤها

في الماء البارد، وكونه في مرقعة لا يمكنه الحركة فيها كما يريد، ولعله قد بقي من مغابنه[1] ما لم يصل إليه الماء لكثافة هذه المرقعة، وبقاءها عليه مبتلة شهراً، وذلك يمنعه لذة النوم. وكل هذا الفعل خطأ وأثم، وربما كان ذلك سبباً لمرضه أو قتله.

قال أحمد بن عبد الله الأصبهاني: كانت أم علي زوجة أحمد بن حضرويه قد أحلت زوجها أحمد من صداقها على أن يزور بها أبا يزيد البسطامي، فحملها إليه، فدخلت عليه وقعدت بين يديه مسفرة عن وجهها، فلما قال لها أحمد: رأيت منك عجباً، أسفرت عن وجهك بين يدي أبي يزيد، قالت: لأني لما نظرت إليه فقدت حظوظ نفسي، وكلما نظرت إليك رجعت إلي حظوظ نفسي، فلما أراد أحمد الخروج من عند أبي يزيد قال له: أوصني، قال: تعلم الفتوة من زوجتك.

وكان بين أحمد بن أبي الحواري وبين أبي سليمان عقد أن لا يخالفه في شيء يأمره به، فجاءه يوماً وهو يتكلم في المجلس، فقال: إن التنور قد سجرناه[2]، فما تأمرنا؟ فما أجابه، فأعاد مرة أو مرتين، فقال له في الثالثة: اذهب واقعد فيه، ففعل ذلك. فقال أبو سليمان: الحقوه فإن بيني وبينه عقداً أن لا يخالفني في شيء آمره به، فقام وقاموا معه، فجاؤوا إلى التنور فوجدوه قاعداً في وسطه، فأخذ بيده وأقامه فما أصابه خدش.

قال المصنف رحمه الله: هذه الحكاية بعيدة الصحة، ولو صحت كان دخوله النار معصية. وفي «الصحيحين» من حديث علي رضي الله عنه، قال: بعث رسول الله ﷺ سرية واستعمل عليها رجلاً من الأنصار، فلما خرجوا وجد[3] عليهم في شيء، فقال لهم: أليس قد أمركم رسول الله ﷺ أن تطيعوني؟! قالوا: بلى، قال: فاجمعوا حطباً فجمعوا، ثم دعا بنار فأضرمها،

(١) المغبن: الأبط، وكل مطوي من الجسد.
(٢) سجر التنور: ملأه وقوداً وأحماه.
(٣) وجد عليه: غضب.

ثم قال: عزمت عليكم لتدخلنها، قال: فهم القوم أن يدخلوها، فقال لهم شاب: إنما فررتم إلى رسول الله ﷺ من النار فلا تعجلوا حتى تلقوا النبي ﷺ، فإن أمركم أن تدخلوها فادخلوا، فرجعوا إلى النبي ﷺ، فأخبروه، فقال لهم رسول الله ﷺ: «لوْ دخلتُموهَا ما خرجتُمْ منها أَبداً إِنَّما الطاعةُ في الْمعروفِ»[1].

وقال أبو الخير الديلمي: كنت جالساً عند خير النساج فأتته امرأة، وقالت له: أعطني المنديل الذي دفعته إليك، قال: نعم، فدفعه إليها، قالت: كم الأجرة، قال: درهمان، قالت: ما معي الساعة شيء وأنا قد ترددت إليك مراراً فلم أرك، وأنا آتيك به غداً إن شاء الله تعالى، فقال لها خير: إن أتيتني بهما ولم تجديني فارمي بهما في دجلة، فإني إذا جئت أخذتهما، فقالت المرأة: كيف تأخذ من دجلة، فقال لها: خير هذا التفتيش[2] فضول منك، افعلي ما أمرتك، قالت: إن شاء الله، فمرت المرأة، قال أبو الحسين: فجئت من الغد وكان خير غائباً، وإذا المرأة قد جاءت ومعها خرقة فيها درهمان فلم تجده، فرمت بالخرقة في دجلة وإذا بسرطان قد تعلقت بالخرقة وغاصت، وبعد ساعة جاء خير وفتح باب حانوته، وجلس على الشط يتوضأ وإذا بالسرطان قد خرجت من الماء تسعى نحوه والخرقة على ظهرها، فلما قربت من الشيخ أخذها، فقلت له: رأيت كذا وكذا، فقال: أحب أن لا تبوح به في حياتي، فأجبته إلى ذلك.

قال المصنف رحمه الله: صحة مثل هذا تعبد، ولو صح لم يخرج هذا الفعل من مخالفة الشرع، لأن الشرع قد أمر بحفظ المال وهذا إضاعة. وفي «الصحيح» أن النبي ﷺ «نهى عن إضاعة المال»[3]، ولا تلتفت إلى قول من يزعم أن هذا كرامة، لأن الله عزّ وجلّ لا يكرم مخالفاً لشرعه.

---

(١) أخرجه البخاري (٤٣٤٠) في المغازي: باب سرية عبد الله بن حذافة، ومسلم (١٨٤٠) في الإمارة: باب وجوب طاعة الأمراء في غير معصية.

(٢) يقصد هذا السؤال والبحث.

(٣) سبق تخريج هذا الحديث أكثر من مرة.

قال علي بن عبد الرحيم: دخلت على النوري ذات يوم فرأيت رجليه منتفختين، فسألته عن أمره، فقال: طالبتني نفسي بأكل التمر، فجعلت أدافعها فتأبى علي، فخرجت فاشتريت، فلما أن أكلت قلت لها: قومي فصلّي فأبت علي، فقلت: لله علي إن[1] قعدت إلى الأرض أربعين يوماً إلاّ في التشهد، فما قعدت.

قلت: من سمع هذا من الجهال يقول: ما أحسن هذه المجاهدة، ولا يدري أن هذا الفعل لا يحل، لأنه حمل على النفس ما لا يجوز، ومنعها حقها من الراحة. وقد حكى أبو حامد الغزالي في كتاب «الإحياء» قال: كان بعض الشيوخ في بداية إرادته يكسل عن القيام فألزم نفسه القيام على رأسه طول الليل لتسمح نفسه بالقيام عن طوع.

قال: وعالج بعضهم حب المال بأن باع جميع ماله ورماه في البحر، إذ خاف من تفرقته على الناس، رعونة[2] الجود ورياء البذل. قال: وكان بعضهم يستأجر من يشتمه على ملأ من الناس ليعوِّد نفسه الحلم، قال: وكان آخر يركب البحر في الشتاء عند اضطراب الموج ليصير شجاعاً.

قال المصنف رحمه الله: أعجب من جميع هؤلاء عندي أبو حامد كيف حكى هذه الأشياء ولم ينكرها، وكيف ينكرها وقد أتى بها في معرض التعليم، وقال قبل أن يورد هذه الحكايات: ينبغي للشيخ أن ينظر إلى حالة المبتدىء فإن رأى معه مالاً فاضلاً عن قدر حاجته أخذه وصرفه في الخير، وفرغ قلبه منه حتى لا يلتفت إليه. وإن رأى الكبرياء قد غلب عليه أمره أن يخرج إلى السوق للكد ويكلفه السؤال والمواظبة على ذلك، إن رأى الغالب عليه البطالة استخدمه في بيت الماء وتنظيفه وكنس المواضع القذرة وملازمة المطبخ ومواضع الدخان. وإن رأى شره الطعام غالباً عليه ألزمه الصوم، وإن رآه عزباً

---

(١) نافية أي: لا قعدت.

(٢) الرعونة: الحمق.

ولم تنكسر شهوته بالصوم أمره أن يفطر ليلة على الماء دون الخبز، وليلة على الخبز دون الماء ويمنعه اللحم رأساً.

قلت: وإني لأتعجب من أبي حامد كيف يأمر بهذه الأشياء التي تخالف الشريعة، وكيف يحلّ القيام على الرأس طول الليل فينعكس الدم إلى وجهه ويورثه ذلك مرضاً شديداً، وكيف يحل رمي المال في البحر، وقد نهى رسول الله ﷺ عن إضاعة المال. وهل يحلّ سب مسلم بلا سبب، وهل يجوز للمسلم أن يستأجر على ذلك، وكيف يجوز ركوب البحر زمان اضطرابه وذلك زمان قد سقط فيه الخطاب بأداء الحج[1]. وكيف يحلّ السؤال لمن يقدر أن يكتسب، فما أرخص ما باع أبو حامد الغزالي الفقه بالتصوف.

وكان رجل من أهل بسطام لا ينقطع عن مجلس أبي يزيد ولا يفارقه، فقال له ذات يوم: يا أستاذ، أنا منذ ثلاثين سنة أصوم الدهر وأقوم الليل، وقد تركت الشهوات، ولست أجد في قلبي من هذا الذي تذكره شيئاً البتة، فقال له أبو يزيد: لو صمت ثلاث مئة سنة وقمت ثلاث مئة سنة وأنت على ما أراك لا تجد من هذا العلم ذرة، قال: ولم يا أستاذ؟ قال: لأنك محجوب بنفسك، فقال له: أفلهذا دواء حتى ينكشف هذا الحجاب؟ قال: نعم، ولكنك لم تقبل، قال: بلى أقبل وأعمل ما تقول، قال أبو يزيد، اذهب الساعة إلى الحجام، واحلق رأسك ولحيتك وانزع عنك هذا اللباس، وابرز بعباءة، وعلق في عنقك مخلاة واملأها جوزاً، واجمع حولك صبياناً وقل بأعلى صوتك: يا صبيان، من يصفعني صفعة أعطيته جوزة، وادخل إلى سوقك الذي تعظم فيه، فقال: يا أبا يزيد سبحان الله تقول لي مثل هذا ويحسن أن أفعل هذا، فقال أبو يزيد: قولك: سبحان الله شرك، قال: وكيف؟ قال: لأنك عظمت نفسك فسبحتها، فقال: يا أبا يزيد هذا ليس أقدر عليه ولا أفعله، ولكن دلني على غيره حتى أفعله. فقال أبو يزيد: ابتدر هذا قبل كل شيء حتى تسقط

---

(١) أي تسقط فريضة الحج عن المكلف.

جاهك وتذل نفسك، ثم بعد ذلك أعرفك ما يصلح لك، قال: لا أطيق هذا، قال: إنك لا تقبل.

قال المصنف رحمه الله: ليس في شرعنا بحمد الله من هذا شيء، بل فيه تحريم ذلك والمنع منه، وقد قال نبينا عليه الصلاة والسلام: «ليس للمؤمن أن يذل نفسه»[1]. ولقد فاتت الجمعة حذيفة فلقي الناس راجعين فاستتر لئلا يرى بعين النقص في قصد الصلاة. وهل طالب الشرع أحداً بمحو أثر النفس، وقد قال ﷺ: «من أتى شيئاً من هذه القاذورات فليستتر بستر الله»[2]. كل هذا للإبقاء على جاه النفس. ولو أمر بهلول الصبيان أن يصفعوه لكان قبيحاً، فنعوذ بالله من هذه العقول الناقصة التي تطالب المبتدىء بما لا يرضاه الشرع فينفر.

وحكى أبو حامد: أن أبا تراب النخشبي: قال لمريد له: لو رأيت أبا يزيد مرة واحدة كان أنفع لك من رؤية الله سبعين مرة.

قلت: وهذا فوق الجنون بدرجات.

وحكى أبو حامد الغزالي عن ابن الكريتي أنه قال: نزلت في محلة فعرفت فيها بالصلاح، فنشب[3] في قلبي، فدخلت الحمام وعينت على ثياب فاخرة[4] فسرقتها ولبستها، ثم لبست مرقعتي وخرجت فجعلت أمشي قليلاً

---

(١) قال في «مجمع الزوائد» (٧/٢٧٤): رواه البزار والطبراني في «الأوسط» و«الكبير»، باختصار. وإسناد الطبراني في «الكبير» جيد ورجاله رجال الصحيح، غير زكريا بن يحيى بن أيوب الضرير ذكره الخطيب. ولفظه: «لا ينبغي للمؤمن أن يذل نفسه»، قال ـ يعني ابن عمر ـ: قلت: يا رسول الله، كيف يذل نفسه؟ قال: «يتعرض من البلاء ما لا يطيق».

(٢) أخرجه الحاكم (٤/٢٤٤) في التوبة والإنابة، وقال: حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، ولفظه: «اجتنبوا هذه القاذورات التي نهى الله عنها، فمن ألمَّ فليستتر بستر الله، وليتب إلى الله، فإنه من يبد لنا صفحته نقم عليه كتاب الله».

(٣) أي وقع.

(٤) عيَّن الشيء: خصصه من جملة أشياء وأفرده.

قليلاً، فلحقوني فنزعوا مرقعتي وأخذوا الثياب وصفعوني، فصرت بعد ذلك أعرف بلص الحمام، فسكنت نفسي. قال أبو حامد: فهكذا كانوا يروضون أنفسهم حتى يخلصهم الله من النظر إلى الخلق، ثم من النظر إلى النفس. وأرباب الأحوال ربما عالجوا أنفسهم بما لا يفتي به الفقيه، مهما رأوا صلاح قلوبهم، ثم يتداركون ما فرط منهم من صورة التقصير، كما فعل هذا في الحمام.

قلت: سبحان من أخرج أبا حامد من دائرة الفقه بتصنيفه كتاب «الإحياء» فليته لم يحك فيه مثل هذا الذي لا يحل. والعجب منه أنه يحكيه ويستحسنه، ويسمى أصحابه أرباب أحوال، وأي حال أقبح وأشد من حال من يخالف الشرع، ويرى المصلحة في النهي عنه، وكيف يجوز أن يطلب صلاح القلوب بفعل المعاصي، وقد عدم في الشريعة ما يصلح به قلبه حتى يستعمل ما لا يحل فيها، وهذا من جنس ما تفعله الأمراء الجهلة من قطع من لا يجب قطعه وقتل من لا يجوز قتله، ويسمونه سياسة، ومضمون ذلك أن الشريعة ما تفي بالسياسة. وكيف يحل للمسلم أن يعرض نفسه، لأن يقال عنه: سارق، وهل يجوز أن يقصد وهن[1] دينه ومحو ذلك عند شهداء الله في الأرض، ولو أن رجلاً وقف مع امرأته في طريق يكلمها ويلمسها ليقول عنه من لا يعلم: هذا فاسق لكان عاصياً بذلك. ثم كيف يجوز التصرف في مال الغير بغير إذنه. ثم في نص مذهب أحمد والشافعي أن من سرق من الحمام ثياباً عليها حافظ[2] وجب قطع يده، ثم من أرباب الأحوال حتى يعملوا بواقعاتهم؟ كلا والله إن لنا شريعة لو رام أبو بكر الصديق أن يخرج عنها إلى العمل برأيه لم يقبل منه. فعجبي من هذا الفقيه المستلب[3] عن الفقه بالتصوف أكثر من تعجبي من هذا المستلب الثياب.

---

(١) أي إضعاف.

(٢) يحفظها من الضياع.

(٣) المصروف عن الفقه، والمنتزع منه.

كان علي بن بابويه من الصوفية فاشترى يوماً من الأيام قطعة لحم، فأحب أن يحمله إلى البيت، فاستحيا من أهل السوق، فعلق اللحم في عنقه وحمله إلى بيته.

قلت: واعجباً من قوم طالبوا أنفسهم بمحو أثر الطبع، وذلك أمر لا يمكن ولا هو مراد الشرع. وقد ركز في الطباع أن الإنسان لا يحب أن يرى إلّا متجملاً في ثيابه، وأنه يستحي من العري وكشف[1] الرأس، والشرع لا ينكر عليه هذا. وما فعله هذا الرجل من الإهانة لنفسه بين الناس أمر قبيح في الشرع والعقل، فهو إسقاط مروءة لا رياضة كما لو حمل نعليه على رأسه.

فإن الله قد أكرم الآدمي، وجعل لكثير من الناس من يخدمه، فليس من الدين إذلال الرجل نفسه بين الناس، وقد تسمى قوم من الصوفية بالملامتية فاقتحموا الذنوب، فقالوا: مقصودنا أن نسقط من أعين الناس فنسلم من آفات الجاه والمرائين. وهؤلاء مثلهم كمثل رجل زنى بامرأة فأحبلها، فقيل له: لم لا تعزل، فقال: بلغني أن العزل مكروه، فقيل له: وما بلغك أن الزنى حرام. وهؤلاء الجهلة قد أسقطوا جاههم عند الله سبحانه، ونسوا أن المسلمين شهداء الله في الأرض.

قال أبو الحسن المديني: خرجت مرة من بغداد إلى نهر الناشرية، وكان في إحدى قرى ذلك النهر رجل يميل إلى أصحابنا، فبينا أنا أمشي على شاطىء النهر رأيت مرقعة مطروحة ونعلاً وخريقة[2] فجمعتها، وقلت: هذه لفقير، ومشيت قليلاً، فسمعت همهمة وتخبيطاً في الماء، فنظرت فإذا بأبي الحسن النوري قد ألقى نفسه في الماء والطين وهو يتخبط ويعمل بنفسه كل بلاء، فلما رأيته علمت أن الثياب له فنزلت إليه فنظر إليّ، وقال: يا أبا الحسن، أما ترى ما يعمل بي!! قد أماتني موتات، وقال لي: مالك منا إلّا الذكر الذي لسائر الناس، وأخذ يبكي ويقول: ترى ما يفعل بي. فما زلت

---

(١) كان كشف الرأس مستهجناً في الماضي.

(٢) تصغير خرقة، وهي قطعة من الثوب.

أرفق بـه حتى غسلته من الطين وألبسته المرقعة، وحملته إلى دار ذلك الرجـل، فـأقمنا عنـده إلى العصر، ثم خـرجنا إلى المسجـد، فلما كـان وقت المغـرب رأيت الناس يهربون ويغلقون الأبواب ويصعدون السطوح، فسألنـاهم فقالـوا: السباع تدخل القرية بالليل، وكان حوالي القرية أجمة عظيمة، وقـد قطـع منهـا القصب وبقيت أصوله كالسكاكين، فلما سمـع النوري هذا الحديث قام فرمى بنفسه في الأجمة على أصول القصب المقطوع، وهو يصيـح ويقول: أين أنت يا سبـع. فما شككنا أن الأسد قد افترسه، أو قد هلك في أصول القصب، فلما كان قريب الصبـح جاء فطرح نفسه، وقد هلكت رجلاه، فأخذنا بـالمنقاش[1] ما قدرنا عليه، فبقي أربعين يـوماً لا يمشي على رجليـه، فسألتـه أي شيء كان ذلك الحال؟ قال: لما ذكروا السبـع وجدت في نفسي فزعاً فقلت: لأطـرحنك إلى ما تفزعين منه.

قلت: لا يخفى على عـاقل تخبيط هـذا الرجـل قبل أن يقـع في المـاء والطين. وكيف يجوز للإنسان أن يلقي نفسه في ماء وطين، وهل هذا إلّا فعـل المجانين؟ وأين الهيبة والتعـظيم من قولـه: ترى مـا يفعل بي، ومـا وجه هـذا الانبساط، وينبغي أن تجف الألسن في أفواهها هيبة، ثم مـا الذي يـريده غيـر الـذكر. ولقـد خرج عن الشـريعـة بخـروجـه إلى السبـع ومشيـه على القصب المقطوع. وهل يجـوز في الشرع أن يلقي الإنسـان نفسه إلى سبع، أترى أراد منها أن يغير ما طبعت عليه من خوف السباع، ليس هذا في طوقهـا[2]، ولا طلبه الشـرع منها. ولقـد سمـع هذا الـرجل بعض أصحـابه يقـول مثل هـذا القـول فأجابه بأجود جواب.

قـال أبو أحمـد المغـازي: رأيت النـوري وقـد جعـل نفسـه إلى أسفـل ورجليه إلى فوق وهو يقول: من الخلق أوحشتني، ومن النفس والمال والدنيـا افقـرتني، ويقـول: مـا معـك إلّا علم وذكـر، قـال: فقلت لـه: إن رضيت وإلّا فانطـح برأسك الحائط.

---

(١) ما ينقش به، أي يستخرج بواسطته الشوك من الجسم.

(٢) أي قدرتها.

وحمل أبو الحسين النوري ثلاث مئة دينار ثمن عقار بيع له، وجلس على قنطرة وجعل يرمي واحداً واحداً منها إلى الماء ويقول: جئتني تريدين أن تخدعيني منك بمثل هذا. قال السراج: فقال بعض الناس: لو أنفقها في سبيل الله كان خيراً له. فقلت: إن كانت تلك الدنانير تشغله عن الله طرفة عين كان الواجب أن يرميها في الماء دفعة واحدة حتى يكون أسرع لخلاصه من فتنتها، كما قال الله عزّ وجلّ: ﴿فَطفِقَ مسْحاً بالسُّوق والأَعناقِ﴾(1).

قلت: لقد أبان هؤلاء القوم عن جهل بالشرع وعدم عقل. وقد بينا فيما تقدم أن الشرع أمر بحفظ المال وأن لا يسلم إلاّ إلى رشيد، وجعله قواماً(2) للآدمي. والعقل يشهد بأنه إنما خلق للمصالح، فإذا رمى به الإنسان فقد أفسد ما هو سبب صلاحه، وجهل حكمة الواضع. واعتذار السراج له أقبح من فعله، لأنه إن كان خاف فتنته فينبغي أن يرميه إلى فقير ويتخلص.

ومن جهل هؤلاء حملهم تفسير القرآن على رأيهم الفاسد، لأنه يحتج بمسح السوق والأعناق، ويظن بذلك جواز الفساد، والفساد لا يجوز في شريعة، وإنما مسح بيده عليها، وقال: أنت في سبيل الله، وقد سبق بيان هذا.

وقال أبو نصر السراج في كتاب «اللمع»: قال أبو جعفر الدراج: خرج أستاذي يوماً يتطهر، فأخذت كتفه ففتشته فوجدت فيه شيئاً من الفضة مقدار أربعة دراهم، وكان ليلاً وبات لم يأكل شيئاً، فلما رجع قلت له: في كتفك كذا وكذا درهماً ونحن جياع، فقال: أخذته؟ رده، ثم قال لي بعد ذلك: خذه واشتر به شيئاً، فقلت له: بحق معبودك ما أمر هذه القطع، فقال: لم يرزقني الله من الدنيا شيئاً غيرها، فأردت أن أوصي أن تدفن معي، فإذا كان يوم القيامة رددتها إلى الله، وأقول: هذا الذي أعطيتني من الدنيا.

---

(1) سورة صٓ: الآية ٣٣.

(2) قوام الأمر: عماده وما يقوم به.

ومكث أبو جعفر الحداد عشرين سنة يعمل كل يوم بدينار وينفقه على الفقراء، ويصوم ويخرج بين العشائين فيتصدق [عليه] من الأبواب ما يفطر عليه.

قال المصنف رحمه الله: لو علم هذا الرجل أن المسألة لا تجوز لمن يقدر على الاكتساب لم يفعل، ولو قدرنا جوازها فأين أنفةُ النفس من ذل الطلب.

قال رسول الله ﷺ: «لا تَزالُ الْمسألةُ بأَحدِكُمْ حتى يَلقَى اللَّهَ عزَّ وجلَّ وما على وجهِهِ مُزْعةُ لَحْمٍ»(١).

وقال رسول الله ﷺ: «لأنْ يأخذَ الرَّجلُ حَبْلًا فيحتَطبَ، ثمَّ يجيءَ فيضعَهُ في السُّوقِ فيبيعَهُ، ثم يستغني به فينفقَهُ على نفسِهِ. خيرٌ لهُ من أنْ يسألَ الناسَ أعطوهُ أو منعُوهُ»(٢).

وفي حديث عبد الله بن عمرو عن النبي ﷺ أنه قال: «لا تحلُّ الصَّدقةُ لغنيٍّ ولا لذي مِرَّةٍ سَويٍّ»(٣) والمرة: القوة. وأصلها من شدة فتل الحبل، يقال: أمررت الحبل: إذا أحكمت فتله. فمعنى المرة في الحديث شدة أمر الخلق وصحة البدن التي يكون معها احتمال الكد والتعب. قال الشافعي رضي الله عنه: لا تحل الصدقة لمن يجد قوة يقدر بها على الكسب.

قال يونس بن أبي بكر الشبلي: قام أبي ليلة فترك فرد رجل على السطح والأخرى على الدار، فسمعته يقول: لئن أطرفتُ لأرمين بك إلى

---

(١) أخرجه البخاري (١٤٧٤) في الزكاة: باب من سأل الناس تكثراً، ومسلم (١٠٤٠) في الزكاة: باب كراهة المسألة للناس.
مزعة لحم: قطعة منه.

(٢) أخرجه البخاري (١٤٧١) في الزكاة: باب الاستعفاف عن المسألة، ولفظه: «لأن يأخذ أحدكم أحبله، ثم يأتي الجبل فيأتي بحزمة من حطب على ظهره فيبيعها خير له من أن يسأل الناس أعطوه أم منعوه».

(٣) أخرجه الترمذي (٦٥٢) في الزكاة: باب ما جاء من لا تحل له الصدقة، وأبو داود (١٦٣٤) في الزكاة: باب من يعطى من الصدقة. وهو حديث حسن. والسوي: السليم.

الـدار، فما زال على تلك الحـال حتى أصبـح ، فلما أصبـح قـال لي : يـا بني ما سمعت الليلة ذاكراً لله عزَّ وجلَّ إلاّ ديكاً يساوي دانقين[1].

قال المصنف رحمه الله : هذا الرجل قد جمـع بين شيئين لا يجوزان :

أحدهما ــ مخاطرته بنفسه، فلو غلبه النوم فوقـع كان معينـاً على نفسه، ولا شك أنه لو رمى بنفسه كان قد أتى معصية عظيمة فتعرضه للوقوع معصية .

والثـاني ــ أنه منـع عينـه حظهـا من النوم. وقـد قال ﷺ: «إنَّ لجسـدِكَ عليك حَقاً، وإنَّ لـزوجتكَ عليـك حَقاً، وإنَّ لعينِـكَ عليك حَـقـاً» وقال: «إذا نَعَس أحدُكُم فليرْقُـدْ». ومرّ بحَبْـلٍ قد مـدتهُ زينبُ، فـإذا فَتَرَتْ أمسكتْ بـه، فأمر بحله. وقال: «لِيصلِّ أحَدُكُمْ نَشاطَهُ، فإذا كَسـلَ أو فَتَرَ فَليقْعـدْ»[2]. وقد تقدمت هذه الأحاديث في كتابنا هذا .

وخـرج الشبلي يـوم عيـد، وقـد حلق أشفـار عينيـه وحـاجبيـه وتعصب بعصابة، وهو يقول :

لـلنـاس فـطـر وعـيـد   إنـي فـريـد وحـيـد

قـال أبـو الحسن علي بن محمد بن أبـي صابر الدلاّل: وقفت على الشبلي في قبة الشعراء في جامـع المنصور والنـاس مجتمعون عليـه، فوقف عليـه في الحلقـة غلام جميـل لم يكن ببغداد في ذلـك الوقت أحسن وجهـاً منه يعـرف بابن مسلم، فقال لـه: تنـح ، فلم يبرح، فقال لـه الثانية: تنـح يا شيطان عنا، فلم يبرح، فقال لـه في الثالثة: تنـح وإلاّ والله خـرقت كل مـا عليك، وكـانت عليـه ثياب في غـايـة الحسن تسـاوي جملة[3] كثيـرة، فـانصـرف الفتى فقـال الشبلي :

---

(١) الدانق: سدس الدرهم.

(٢) سبق تخريج هذه الأحاديث.

(٣) أي مبلغاً كبيراً.

طـرحــوا الـلحـم لـلبــزا[1] ة عــلى ذروتــي عــدن[2]
ثــم لامــوا الــبــزاة إذ خــلعــوا منــهــم الــرســن
لــو أرادوا صــلاحــنــا ستــروا وجـهـك الـحـسـن

قـال ابن عقيل: من قـال هذا فقـد أخـطأ طـريق الشـرع، لأنـه يقـول: ما خلق الله عزّ وجلّ هذا الإنسان إلا للافتتان بـه، وليس كذلـك، وإنما خلقـه للاعتبار والامتحان، فإن الشمس خلقت لتضيء لا لتعبد.

وكان الشبلي يلبس ثياباً مثمنة ثم ينزعها ويضعهـا فوق النـار. وذكر عنـه أنه أخذ قطعة عنبر فوضعهـا على النار يبخـر بها ذنب الحمـار. وقال بعضهم: دخلت عليه فرأيت بين يـديه اللوز والسكـر يحرقـه بالنـار، قال السـراج: إنما أحرقه بالنار لأنه كان يشغله عن ذكر الله.

قلت: اعتذار السراج عنه أعجب من فعله.

قـال السراج: وحكي عنـه أنه بـاع عقاراً ففـرق ثمنـه، وكـان لـه عيـال فلم يدفـع إليهم شيئاً، وسمـع قـارئاً يقـرأ: ﴿اخْسَئُوا فيهـا﴾[3]، فقال: ليتني كنت واحداً منهم.

قلت: وهــذا الــرجــل ظن أن الــذي يكلمهم هــو الله تعــالى، والله لا يكلمهم، ثم لو كلمهم لكلمهم كلام إهانة، فأي شيء هذا حتى يطلب.

قال السراج: وقال الشبلي يومـاً في مجلسه: إن لله عبـاداً لو بـزقوا على جهنم لأطفؤوها.

قلت: وهذا من جنس ما ذكرناه عن أبـي يزيد وكلاهما من إناء واحد.

---

(١) البزاة الصقور.
(٢) عدن: على بحر العرب غرب اليمن.
(٣) سورة المؤمنون: الآية ١٠٨.
ومعنى اخسؤوا فيها: ابعدوا في النار أذلاء.

وعن أبي علي الدقاق قال: بلغني أن الشبلي اكتحل بكذا وكذا من الملح ليعتاد السهر ولا يأخذه النوم.

قال المصنف رحمه الله: وهذا فعل قبيح لا يحل لمسلم أن يؤذي نفسه، وهو سبب للعمى، ولا تجوز إدامة السهر لأن فيه إسقاط حق النفس. والظاهر أن دوام السهر والتقلل من الطعام أخرجه إلى هذه الأحوال والأفعال.

وقد حكى أبو حامد الغزالي أن الشبلي أخذ خمسين ديناراً فرماها في دجلة، وقال: ما أعزك أحد إلّا أذله الله. وأنا أتعجب من أبي حامد أكثر من تعجبي من الشبلي، لأنه ذكر ذلك على وجه المدح لا على وجه الإنكار، فأين أثر الفقه.

وقد حكى أبو حامد الغزالي، أن شقيقاً البلخي جاء إلى أبي القاسم الزاهد وفي طرف كسائه شيء مصرور، فقال له: أي شيء معك؟ قال: لوزات دفعها إليَّ أخ لي، وقال: أحب أن تفطر عليها، فقال: يا شقيق وأنت تحدثك نفسك أن تبقى إلى الليل؟ لا كلمتك أبداً، فأغلق الباب في وجهي ودخل.

قال المصنف رحمه الله: انظروا إلى هذا الفقه الدقيق كيف هجر مسلماً على فعل جائز، بل مندوب، لأن الإنسان مأمور أن يستعد لنفسه بما يفطر عليه، واستعداد الشيء قبل مجيء وقته حزم، ولذلك قال الله عزّ وجلّ: ﴿وأعدُّوا لهُمَّ ما اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾[1]. وقد ادخر رسول الله ﷺ لأزواجه قوت سنة[2]، وجاء عمر رضي الله عنه بنصف ماله وادخر الباقي ولم ينكر عليه، فالجهل بالعلم أفسد هؤلاء الزهاد.

وعن أحمد بن إسحاق العماني، قال: رأيت بالهند شيخاً، وكان يعرف بالصابر قد أتى عليه مئة سنة قد غمض إحدى عينيه، فقلت له: يا صابر ما بلغ من صبرك؟ قال: إني هويت النظر إلى زينة الدنيا فلم أحب أن

(١) سورة الأنفال: الآية ٦٠.

(٢) رواه مسلم (١٧٥٧) في «الجهاد»: باب حكم الفيء.

أشتفي[1] منها، فغمضت عيني منذ ثمانين سنة فلم أفتحها.

وقد حكى يوسف بن أيوب الهمداني عن شيخه عبد الله الجوني أنه قال: كنت أخدم في الخلاء، فبينما أنا يوماً أكنسه وأنظفه، قالت لي نفسي: أذهبت عمرك في هذا؟ فقلت: أنت تأنفين من خدمة عباد الله، فوسعت رأس البئر ورميت نفسي فيها، وجعلت أدخل النجاسة في فمي، فجاؤوا وأخرجوني وغسلوني.

قلت: انظروا إلى هذا المسكين كيف ألقى نفسه في النجاسة وإدخالها في فيه، وهذا الذي فعله معصية توجب العقوبة. وفي الجملة لما فقد هؤلاء العلم كثر تخبيطهم.

وعن محمد بن علي الكتاني يقول: دخل الحسين بن منصور مكة في ابتداء أمره، فجهدنا حتى أخذنا مرقعته، قال السوسي: أخذنا منها قملة فوزناها، فإذا فيها نصف دانق من كثرة رياضته وشدة مجاهدته.

قلت: انظروا إلى هذا الجاهل بالنظافة التي حث عليها الشرع وأباح حلق الشعر المحظور على المحرم لأجل تأذيه من القمل، وجبر[2] الحظر بالفدية، وأجهل من هذا من اعتقد هذا رياضته.

وفي الصوفية قوم، اقتحموا الذنوب، وقالوا: مقصودنا أن نسقط من أعين الناس فنسلم من الجاه، وهؤلاء قد أسقطوا جاههم عند الله لمخالفة الشرع. وفي القوم طائفة يظهرون من أنفسهم أقبح ما فيه ويكتمون أحسن ما هم عليه، وفعلهم هذا من أقبح الأشياء، ولقد قال رسول الله ﷺ: «من أتى شيئاً من هذه القاذورات فليستتر بستر الله»[3]. وقال في حق ماعز: «هلا

---

(١) أشتفى بكذا: نال به الشفاء.

(٢) أي جعل الفدية كفارة.

(٣) أخرجه الحاكم (٤/٢٤٤) في التوبة والإنابة، وقال حديث صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه، ولفظه: «اجتنبوا هذه القاذورات التي نهى الله عنها، فمن ألمّ فليستتر بستر الله وليتب إلى الله، فإنه من يبدِ لنا صفحته نقم عليه كتاب الله».

سترته بثوبك يا هذا»[1]. واجتاز على رسول الله ﷺ بعض الصحابة وهو يتكلم مع صفية زوجته فقال له: «إنها صفية»[2]. وقد علم الناس التجافي عما يوجب سوء الظن، فإن المؤمنين شهداء الله في الأرض. وخرج حذيفة إلى الجمعة ففاتته، فرأى الناس وهم راجعون، فاستتر لئلا يسوء ظن الناس به.

وقال أبو بكر الصديق لرجلٍ قال له: إني لمست امرأة وقبلتها، فقال: تب إلى الله ولا تحدث أحداً بذلك. وجاء رجل إلى النبي ﷺ وقال: إني أتيت من أجنبية ما دون الزنى يا رسول الله، قال: «أَلَمْ تُصل معنا؟» قال: بلى، يا رسول الله، قال: «ألمْ تعلم أن الصلاتين تُكفّران ما بينَهُما»[3]، وقال رجل لبعض الصحابة: إني فعلت كذا وكذا من الذنوب، فقال: لقد ستر الله

(١) رواه أبو داود (٤٣٧٧) في الحدود: باب في الستر على أهل الحدود «أن ماعزاً أتى النبي ﷺ فأقر عنده أربع مرات فأمر برجمه، وقال لهزال: لو سترته بثوبك كان خيراً لك». قال ابن المنكدر: إن هزالا أمر ماعزاً إن يأتي النبي ﷺ فيخبره. وهَزَّال هذا أسلمي له صحبة، سكن المدينة، وكان مالك ــ أبو ماعز ــ قد أوصى هزالاً بابنه ماعز وكان في حجره يكفله.

(٢) أخرجه البخاري (٢٠٣٥) في الاعتكاف: باب هل يخرج المعتكف لحوائجه إلى باب المسجد، عن صفية قالت: كان رسول الله ﷺ معتكفاً فأتيته أزوره ليلاً فحدثته ثم قمت، فقام معي ليقلبني (أي يردني إلى بيتي)، فمر رجلان من الأنصار، فلما رأيا النبي ﷺ أسرعا فقال النبي ﷺ: «على رسلكما إنها صفية بنت حيي»، قالا: سبحان الله يا رسول الله! قال: «إن الشيطان يجري من الإنسان مجرى الدم، فخشيت أن يقذف في قلوبكما شيئاً» ــ أو قال شراً.

(٣) أخرجه أبو داود (٤٤٦٨) في الحدود: باب في الرجل يصيب من امرأة دون الجماع. ولفظه: جاء رجل إلى النبي ﷺ، فقال: «إني عالجت امرأة من أقصى المدينة، فأصبت منها ما دون أن أمسها، فأنا هذا فأقم علي ما شئت، فقال عمر: قد ستر الله عليك لو سترت على نفسك، فلم يرد عليه النبي شيئاً، فانطلق الرجل فأتبعه النبي رجلاً فدعاه. فتلا عليه ﴿وأقم الصلاة طرفي النهار وزلفاً من الليل﴾، [سورة هود: الآية ١١٤]. إلى آخر الآية، فقال رجل من القوم يا رسول الله، أله خاصة أم للناس كافة؟ فقال: «للناس كافة».

عليك لو سترت على نفسك. فهؤلاء قد خالفوا الشريعة وأرادوا قطع ما جبلت عليه النفوس.

وقد اندس في الصوفية أهل الإباحة فتشبهوا بهم حفظاً لدمائهم، وهم ينقسمون إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول ــ كفار فمنهم قوم لا يقرون بالله سبحانه وتعالى، ومنهم من يقرُّ به ولكن يجحد النبوة يرى أن ما جاء به الأنبياء محال، وهؤلاء لما أرادوا أمراج[1] أنفسهم في شهواتها لم يجدوا شيئاً يحقنون به دماءهم، ويستترون به وينالون فيه أغراض النفوس، كمذهب التصوف، فدخلوا فيه ظاهراً، وهم في الباطن كفرة، وليس لهؤلاء إلاّ السيف، لعنهم الله.

والقسم الثاني ــ قوم يقرون بالإسلام إلاَّ أنهم يقلدون في أفعالهم لشيوخهم من غير اتباع دليل ولا شبهة، فهم يفعلون ما يأمرونهم به، وما رأوهم عليه.

القسم الثالث ــ قوم عرضت لهم شبهات فعملوا بمقتضاها.

والأصل الذي نشأت منه شبهاتهم أنهم لما هموا بالنظر في مذاهب الناس لبس عليهم إبليس، فأراهم أن الشبهة تعارض الحجج، وأن التمييز يعسر، وأن المقصود أجل من أن ينال بالعلم، وإنما الظفر به رزق يساق إلى العبد لا بالطلب، فسد عليهم باب النجاة الذي هو طلب العلم، فصاروا يبغضون اسم العلم، كما يبغض الرافضي اسم أبي بكر وعمر، ويقولون: العلم حجاب، والعلماء محجوبون عن المقصود بالعلم، فإن أنكر عليهم عالم، قالوا لأتباعهم: هذا موافق لنا في الباطن، وإنما يظهر ضد ما نحن فيه للعوام الضعاف العقول، فإن جد في خلافهم قالوا: هذا أبله مقيد بقيود الشريعة محجوب عن المقصود. ثم عملوا على شبهات وقعت لهم، ولو فطنوا لعلموا أن عملهم بمقتضى شبهاتهم علم، فقد بطل إنكارهم العلم.

وأنا أذكر شبهاتهم وأكشفها إن شاء الله تعالى وهي ست شبهات:

---

(١) أي خلط.

الشبهة الأولى ـ أنهم قالوا: إذا كانت الأمور مقدرة في القدم وأن أقواماً خصوا بالسعادة، وأقواماً بالشقاوة، والسعيد لا يشقى، والشقي لا يسعد، والأعمال لا تراد لذاتها بل لاجتلاب السعادة ودفع الشقاوة، وقد سبقنا وجود الأعمال، فلا وجه لإتعاب النفس في عمل ولا نكفها عن ملذة[1]، لأن المكتوب في القدر واقع لا محالة.

والجواب عن هذه الشبهة، أن يقال لهم: هذا رد لجميع الشرائع، وإبطال لجميع أحكام الكتب، وتبكيت[2] للأنبياء كلهم فيما جاؤوا به، لأنه إذا قال في القرآن: أن ﴿أقيموا الصلاة﴾[3]، قال القائل: لماذا؟ إن كنت سعيداً فمصيري إلى السعادة، وإن كنت شقياً، فمصيري إلى الشقاوة، فما تنفعني إقامة الصلاة. وكذلك إذا قال: ﴿ولا تقربوا الزنى﴾[4] يقول القائل: لماذا أمنع نفسي ملذوذها، والسعادة والشقاوة مقضيتان قد فرغ منهما. وكان لفرعون أن يقول لموسى حين قال له: ﴿هَلْ لَكَ إلى أنْ تَزَكَّى﴾[5]، مثل هذا الكلام ثم يترقى إلى الخالق فيقول: ما فائدة إرسالك الرسل، وسيجري ما قدرته، وما يفضي إلى رد الكتب وتجهيل الرسل محال باطل، ولهذا كان رد الرسول ﷺ على أصحابه حين قالوا: ألاّ نتكل؟ فقال: «اعْملُوا فكُلّ مُيَسَّرٌ لما خُلِقَ لهُ»[6].

واعلم أن للآدمي كسباً هو اختياره، فعليه يقع الثواب والعقاب، فإذا خالف تبين لنا أن الله عزّ وجلّ قضى في السابق بأن يخالفه، وإنما يعاقبه على خلافه لا على قضائه، ولهذا يقتل القاتل ولا يعتذر له بالقدر. وإنما ردهم

(١) الملذة: الشهوة.

(٢) التبكيت: التقبيح والتعنيف.

(٣) سورة البقرة: الآية ٤٣.

(٤) سورة الإسراء: الآية ٣٢.

(٥) سورة النازعات: الآية ١٨.

(٦) أخرجه البخاري (٤٩٤٩) في التفسير: باب ﴿فسنيسِّرُهُ للعسرى﴾، ومسلم (٢٦٤٧) في القدر: باب كيفية الخلق.

الرسول عن ملاحظة القدر إلى العمل، لأن الأمر والنهي حال ظاهر، والمقدر من ذلك أمر باطن، وليس لنا أن نترك ما عرفناه من تكليف بما لا نعلمه من المقضي.

وقوله: «فكل ميسر لما خلق له» إشارة إلى أسباب القدر، فإنه من قضي له بالعلم يسّر له طلبه، وحبه وفهمه، ومن حكم له بالجهل نزع حب العلم من قلبه، وكذلك من قضي له بولد يُسِّر له النكاح، ومن لم يقض له بولد لم ييسر له.

الشبهة الثانية ـ أنهم قالوا: إن الله عزّ وجلّ مستغن عن أعمالنا غير متأثر بها معصية كانت أو طاعة، فلا ينبغي أن نتعب أنفسنا في غير فائدة.

وجواب هذه الشبهة أن نجيب أولاً بالجواب الأول ونقول: هذا رد على الشرع فيما أمر به، فكأنا قلنا للرسول وللمرسل: لا فائدة فيما أمرتنا به، ثم نتكلم عن الشبهة فنقول: من يتوهم أن الله جلّ وعلا ينتفع بطاعة أو يتضرر بمعصية أو ينال بذلك غرضاً، فما عرف الله جلّ جلاله، لأنه مقدس عن الأعراض والأغراض، ومن انتفاع أو ضرر، وإنما نفع الأعمال تعود على أنفسنا، كما قال عزّ وجلّ: ﴿ومَنْ جاهدَ فإنما يُجاهدُ لِنفسِه﴾[1]، ﴿ومَنْ تَزكَّى فإنَّما يَتزكَّى لِنفْسِهِ﴾،[2] وإنما يأمر الطبيب المريض بالحمية لمصلحة المريض لا لمصلحة الطبيب، وكما أن للبدن مصالح من الأغذية ومضار، فللنفس مصالح من العلم والجهل والاعتقاد والعمل، فالشرع كالطبيب فهو أعرف بما يأمر به من المصالح. هذا مذهب من علل، وأكثر العلماء قالوا: أفعاله لا تعلل.

وجواب آخر، وهو أنه إذا كان غنياً عن أعمالنا كان غنياً عن معرفتنا له، وقد أوجب علينا معرفته، فكذلك أوجب طاعته، فينبغي أن ننظر إلى أمره لا إلى الغرض بأمره.

---

(١) سورة العنكبوت: الآية ٦.

(٢) سورة فاطر: الآية ١٨.

الشبهة الثالثة ـ قالوا: قد ثبتت سعة رحمة الله سبحانه وتعالى وهي لا تعجز عنا، فلا وجه لحرمان نفوسنا مرادها.

فالجواب كالجواب الأول، لأن هذا القول يتضمن إطراح ما جاء به الرسل من الوعيد، وتهوين ما شددت في التحذير منه في ذلك، وبالغت في ذكر عقابه، ومما يكشف التلبيس في هذا أن الله عزّ وجلّ كما وصف نفسه بالرحمة وصفها بشديد العقاب، ونحن نرى الأولياء والأنبياء يبتلون بالأمراض والجوع ويؤاخذون بالزلل، وكيف وقد خافه من قطع له بالنجاة، فالخليل يقول يوم القيامة: نفسي نفسي، والكليم يقول: نفسي «نفسي وهذا عمر رضي الله عنه يقول: الويل لعمر إن لم يغفر له.

واعلم أن من رجا الرحمة تعرض لأسبابها، فمن أسبابها التوبة من الزلل، كما أن من رجا أن يحصد زرع، وقد قال الله عزّ وجلّ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا والَّذِينَ هَاجَرُوا وجَاهَدُوا في سبيلِ اللَّهِ أولئك يَرجُونَ رحمةَ الله﴾[1]، يعني أن الرجاء بهؤلاء يليق. وأما المصرون على الذنوب وهم يرجون الرحمة فرجاؤهم بعيد، وقد قال عليه الصلاة والسلام: «الكيِّسُ من دَانَ نفسَهُ وعملَ لما بعدَ الموْتِ، والْعاجزُ من أَتبعَ نفسَهُ هَواهَا، وتَمنَّى على اللَّهِ الأماني»[2]. وقد قال معروف الكرخي: رجاؤك لرحمة من لا تطيعه خذلان وحمق.

واعلم أنه ليس في الأفعال التي تصدر من الحق سبحانه وتعالى ما يوجب أن يؤمن عقابه، إنما في أفعاله ما يمنع اليأس من رحمته، وكما لا يحسن اليأس لما يظهر من لطفه في خلقه لا يحسن الطمع لما يبدو من أخذه

---

(١) سورة البقرة: الآية ٢١٨.

(٢) أخرجه الترمذي (٢٤٥٩) في القيامة: باب رقم (٢٥)، وقال: حديث حسن، وابن ماجه (٤٢٦٠) في الزهد: باب ذكر الموت والاستعداد له. وأحمد (٤/ ١٢٤)، وأخرجه الحاكم (٤/ ٢٥١)، وقال: صحيح الإسناد، ولم يخرجاه، وقال الذهبي. صحيح. الكيس: العاقل. دان نفسه: حاسبها. هواها: ما تهواه وتشتهيه. تمنى على الله الأماني: تشهى أن يغفر الله له، ولا يعذبه.

وانتقامه، فإن من قطع أشرف عضو بربع دينار لا يؤمن أن يكون عقابه غداً هكذا.

الشبهة الرابعة ـ أن قوماً منهم وقع لهم أن المراد رياضة النفوس لتخلص من أكدارها المرْدِية، فلما راضوها مدة ورأوا تعذر الصفاء، قالوا: ما لنا نتعب أنفسنا في أمر لا يحصل لبشر، فتركوا العمل.

وكشف هذا التلبيس أنهم ظنوا أن المراد قمع ما في البواطن من الصفات البشرية، مثل قمع الشهوة والغضب وغير ذلك، وليس هذا مراد الشرع، ولا يتصور إزالة ما في الطبع بالرياضة، وإنما خلقت الشهوات لفائدة، إذ لولا شهوة الطعام هلك الإنسان، ولولا شهوة النكاح انقطع النسل، ولولا الغضب لم يدفع الإنسان عن نفسه ما يؤذيه، وكذلك حب المال مركوز في الطباع، لأنه يوصل إلى الشهوات. وإنما المراد من الرياضة كف النفس عما يؤذي من جميع ذلك وردها إلى الاعتدال فيه. وقد مدح الله عزّ وجلّ من نهى النفس عن الهوى، وإنما تنتهي عما تطلبه، ولو كان طلبه قد زال عن طبعها ما احتاج الإنسان إلى نهيها، وقد قال الله عزّ وجلّ: ﴿والْكاظِمينَ الْغَيْظَ﴾[1]، وما قال: والفاقدين الغيظ. والكظم: رد الغيظ، يقال: كظم البعير على جرته[2] إذا ردها في حلقه، فمدح من رد النفس عن العمل بمقتضى هيجان الغيظ، فمن ادعى أن الرياضة تغير الطباع ادعى المحال، وإنما المقصود بالرياضة كسر شرة[3] شهوة النفس والغضب، لا إزالة أصلها، والمرتاض كالطبيب العاقل عند حضور الطعام يتناول ما يصلحه، ويكف عما يؤذيه، وعادم الرياضة كالصبي الجاهل يأكل ما يشتهي، ولا يبالي بما جنى.

الشبهة الخامسة ـ أن قوماً منهم داموا على الرياضة مدة، فرأوا أنهم قد

---

(١) سورة آل عمران: **الآية ١٣٤**.

(٢) الجرة: ما يخرجه البعير من بطنه ليمضغه.

(٣) شرة الشهوة: حدتها ونشاطها.

تجوهروا[1]، فقالوا: لا نبالي الآن ما عملنا، وإنما الأوامر والنواهي رسوم للعوام، ولو تجوهروا لسقطت عنهم. قالوا: وحاصل النبوة ترجع إلى الحكمة والمصلحة، والمراد منها ضبط العوام، ولسنا من العوام فندخل في حُجَرِ التكليف، لأنا قد تجوهرنا وعرفنا الحكمة. وهؤلاء قد رأوا أن من أثر جوهرهم ارتفاع الحمية عنهم، حتى إنهم قالوا: إن رتبة الكمال لا تحصل إلّا لمن رأى أهله مع أجنبي فلم يقشعر جلده، فإن اقشعر جلده فهو ملتفت إلى حظ نفسه، ولم يكمل بعد، إذ لو كمل لماتت نفسه، فسموا الغيرة نفساً، وسموا ذهاب الحمية[2] الذي هو وصف المخانيث[3] كمال الإيمان.

وكشف هذه الشبهة أنه ما دامت الأشباح[4] قائمة، فلا سبيل إلى ترك الرسوم[5] الظاهرة من التعبد، فإن هذه الرسوم وضعت لمصالح الناس، وقد يغلب صفاء القلب على كدر الطبع، إلّا أن الكدر[6] يرسب مع الدوام على الخير ويركد، فأقل شيء يحركه، كالمدرة[7] تقع في الماء الذي تحته حمأة[8]، وما مثل هذا الطبع إلّا كالماء يجري بسفينة النفس،والعقل مداد، ولو أن المداد مد عشرين فرسخاً ثم أهمل عادت السفينة تنحدر، ومن ادَّعى تغير طبعه كذب، ومن قال: إني لا أنظر إلى المستحسنات بشهوة لم يصدق. كيف وهؤلاء لو فاتتهم لقمة أو شتمهم شاتم تغيروا، فأين تأثير العقل، والهوى يقودهم، وقد رأينا أقواماً منهم يصافحون النساء، وقد كان رسول الله ﷺ

---

(١) من الجوهر. وجوهر الشيء: حقيقته وأصله وذاته.

(٢) الحمية: الأنفة والغيرة.

(٣) المخانيث: جمع مُخنث، وهو من يتشبه بالنساء بكلامه وتكسره.

(٤) الأشباح: جمع شبح، وشَبَح الشيء: ظله وخياله.

(٥) الوسوم: جمع رَسْم، والرسم هو الأثر، والمراد هنا صور العبادة وأشكالها.

(٦) الكَدَر: الشيء غير الصافي، والرسوب: النزول إلى أسفل. والركود: السكون.

(٧) المدرة: الطينة.

(٨) الحمأة: الطين الأسود.

وهـو المعصوم لا يصـافـح المرأة[1]. وبلغنـا عن جمـاعـة منهم أنهم يؤاخـون النساء ويخلون بهن، ثم يدعون السلامة، وقد رأوا أنهم يسلمون من الفاحشـة وهيهات، فأين السلامة من إثم الخلوة المحـرمة، والنـظر الممنوع منـه، وأين الخلاص من جولان الفكر الردىء. وقد قال عمر بن الخطاب رضي الله عنـه: لو خلا عظمان نخران لهمَّ أحدهما بالآخر، يشير إلى الشيـخ والعجوز.

وإن من الصـوفية قـوماً أبـاحوا الفـروج بادعـاء الأخوة، فيقـول أحـدهم للمرأة: تؤاخيني على ترك الاعتراض فيما بيننا.

قلت: وقـد روى لنا أبـو عبد الله محمـد بن علي التـرمـذي الحكيم في كتاب «رياضـة النفوس» قـال: روي لنا أن سهـل بن علي المروزي كـان يقول لامـرأة أخيه ــ وهي معـه في الدار ــ : استتـري مني زمانـاً ، ثم قـال لهـا : كـوني كيف شئت . قال التـرمذي : وكـان ذلك منـه حين وجد شهـوته قلت، أما موت الشهـوة هذا لا يتصـور مع حيـاة الآدمي، وإنما يضعف والإنسـان قد يضعف عن الجمـاع ولكنـه يشتهي اللمس والنـظر. ثم يقـدر أن جميـع ذلـك ارتفع عنه، أليس نهي الشرع عن النظر باق وهو عام؟.

وقيــل لأبـي نصـر النـصـرأبـاذي : إن بعض النـاس يجـالسـن النسـوان ويقـول: أنا معصـوم في رؤيتهن، فقال: مـا دامت الأشباح قـائمـة فـإن الأمـر والنهي بـاق، والتحليل والتحـريم مخـاطب بـه، ولن يجتـرىء على الشبهـات إلاّ من يتعرض للمحرمات. وقد قـال أبو علي الـروذبـاري وسئـل عمن يقول: وصلت إلى درجـة لا تؤثـر في اختـلاف الأحـوال، فقــال: قـد وصــل ولكن إلى سقر[2].

---

(١) رواه أحمد (٢/٢١٣) عن ابن عمرو قال: «كان رسول الله ﷺ لا يصافـح النسـاء في البيعة»، قال الهيثمي: إسنـاده حسن، وفي مسند أحمـد (٦/٣٥٧) «إني لا أصافـح النساء»، ورواه ابن ماجه (٢٨٧٤) في الجهاد: باب بيعة النساء.

(٢) أي جهنم.

وقال الجنيد لرجل ذكر المعرفة، فقال الرجل: أهل المعرفة بالله يصلون إلى ترك الحركات من باب البر والتقرب إلى الله عزّ وجلّ، فقال الجنيد: إن هذا قول قوم تكلموا بإسقاط الأعمال، وهذه عندي عظيمة، والذي يسرق ويزني أحسن حالاً من الذي يقول هذا، وإن العارفين بالله أخذوا الأعمال عن الله وإليه رجعوا فيها، ولو بقيت ألف عام لم أنقص من أعمال البر ذرة، إلاّ أن يحال بي دونها، لأنه أوكد في معرفتي به وأقوى في حالي.

وقال أبو الحسين النوري: من رأيته يدعي مع الله عزّ وجلّ حالة تخرجه عن حد علم شرعي، فلا تقربنه، ومن رأيته يدعي حالة باطنة لا يدل عليها، ويشهد لها حفظ ظاهر فاتهمه على دينه.

الشبهة السادسة ـ أن أقواماً بالغوا في الرياضة، فرأوا ما يشبه نوع كرامات أو منامات صالحة، أو فتح عليهم كلمات لطيفة أثمرها الفكر والخلوة، فاعتقدوا أنهم قد وصلوا إلى المقصود، وقد وصلنا فما يضرنا شيء، ومن وصل إلى الكعبة انقطع عن السير، فتركوا الأعمال إلاّ أنهم يزينون ظواهرهم بالمرقعة والسجادة والرقص والوجد[1]، ويتكلمون بعبارات الصوفية في المعرفة والوجد والشوق، وجوابهم هو جواب الذين قبلهم.

قال ابن عقيل: اعلم أن الناس شردوا[2] على الله عزّ وجلّ، وبعدوا عن وضع الشرع إلى أوضاعهم المخترعة. فمنهم من عبد سواه تعظيماً له عن العبادة، وجعلوا تلك وسائل على زعمهم. ومنهم من وحد إلاّ أنه أسقط العبادات، وقال: هذه أشياء نصبت للعوام لعدم المعارف، وهذا نوع شرك، لأن الله عزّ وجلّ لما علم أن معرفته ذات قعر بعيد وجو عال، وبعيد أن يتقي من لم يعرف خوف النار، لأن الخلق قد عرفوا قدر لذعها، وقال لأهل المعرفة: ﴿ويحذركم الله نفسه﴾[3]، واعلم أن المتعبدات أكثرها تقتضي الأنس

---

(١) الحب، ويقصد به هنا التمايل والطرب.

(٢) أي خرجوا عن طاعته.

(٣) سورة آل عمران: الآية ٢٨.

بالأمثال، ووضع الجهات والأمكنة والأبنية والحجارة للنسك[1] والاستقبال، فأبان عن حقائق الإيمان به فقال: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وجوهَكُمْ قِبَلَ الْمشرق والْمغرب ولكنَّ البرَّ من آمنَ باللَّهِ﴾[2]، وقال: ﴿لَنْ ينالَ اللَّهُ لحومُهَا ولا دماؤُها﴾[3]، فعلم أن المعول على المقاصد ولا يكفي مجرد المعارف من غير امتثال، كما تعول عليه الملحدة الباطنية وشطاح[4] الصوفية.

ولما قلّ علم الصوفية بالشرع، فصدر منهم من الأفعال والأقوال ما لا يحل مثل ما قد ذكرنا، ثم تشبه بهم من ليس منهم، وتسمى باسمهم وصدر عنهم مثل ما قد حكينا، وكان الصالح منهم نادراً، ذمهم خلق من العلماء وعابوهم حتى عابهم مشايخهم.

عن عبد الملك بن زياد النصيبي، قال: كنا عند مالك، فذكرت له صوفيين في بلادنا، فقلت له: يلبسون فواخر ثياب اليمن، ويفعلون كذا. قال: ويحك ومسلمون هم؟ قال: فضحك حتى استلقى، قال: فقال لي بعض جلسائه: يا هذا ما رأينا أعظم فتنة على هذا الشيخ منك، ما رأيناه ضاحكاً قط.

وعن يونس بن عبد الأعلى، قال: سمعتُ الشافعي يقول: لو أن رجلاً تصوف أول النهار لا يأتي الظهر حتى يصير أحمق. وعنه أيضاً أنه قال: ما لزم أحد الصوفية أربعين يوماً، فعاد عقله إليه أبداً، وأنشد الشافعي:

وَدَعِ الذين إذا أَتَوكَ تَنَسَّكُوا ... وإذا خَلَوا كانوا ذِئابَ حقاف[5]

وقال أبو سليمان: ما رأيت صوفياً فيه خير إلّا واحداً عبدالله بن مرزوق،

---

(١) النسك: العبادة.
(٢) سورة البقرة: الآية ١٧٧.
(٣) سورة الحج: الآية ٣٧.
(٤) شُطَاح: جمع شاطح وهو المتباعدُ المسترسل.
(٥) الحقف: ما اعوج من الرمل واستطال، والجمع أحقاف وحقوف وحقاف وحققة.

قال: وأنا أرق[1] لهم.

وعن يونس بن عبد الأعلى، قال: صحبت الصوفية ثلاثين سنة ما رأيت فيهم عاقلاً إلاّ مسلم الخواص.

وعن سفيان قال: سمعت عاصماً يقول: ما زلنا نعرف الصوفية بالحماق[2] إلاّ أنهم يستترون بالحديث.

وعن يحيى بن يحيى، قال: الخوارج أحب إليَّ من الصوفية.

وعن يحيى بن معاذ، قال: اجتنب صحبة ثلاثة أصناف من الناس: العلماء الغافلين، والفقراء المداهنين، والمتصوفة الجاهلين.

قال ابن عقيل: وأنا أذم الصوفية لوجوه يوجب الشرع ذم من فعلها. منها أنهم اتخذوا مناخ البطالة، وهي الأربطة، فانقطعوا إليها عن الجماعات في المساجد، فلا هي مساجد ولا بيوت ولا خانات، وصمدوا فيها للبطالة عن أعمال المعاش، وبدنوا[3] أنفسهم بدن البهائم للأكل والشرب والرقص والغناء، واستمالوا النسوة والمردان بتصنع الصور واللباس، فما دخلوا بيتاً فيه نسوة فخرجوا إلاّ عن فساد قلوب النسوة على أزواجهن، ثم يقبلون الطعام والنفقات من الظلمة والفجار وغاصبي الأموال، ويستصحبون المردان، ويخالطون النسوة الأجانب، ويستحلون الطرب. ويعتقدون أن الغناء بالقضبان[4] قربة.

ووضعوا أسماء، فقالوا: حقيقة وشريعة. وهذا قبيح لأن الشريعة ما وضعه الحق لمصالح الخلق. فما الحقيقة بعدها سوى ما وقع في النفوس من إلقاء الشياطين. وكل من رام الحقيقة في غير الشريعة فمغرور مخدوع.

---

(١) رق له: رحمه.

(٢) الحماق: مرض يشبه الجدري، ويقصد هنا الحمق: أي قلة العقل أو فساده.

(٣) بدن: عظم بدنه بكثرة لحمه.

(٤) آلات لهو وطرب.

وإن سمعوا أحداً يروي حديثاً قالوا: مساكين، أخذوا علمهم ميتاً عن ميت، وأخذنا علمنا عن الحي الذي لا يموت. فمن قال: حدثني أبي عن جدي، قلت: حدثني قلبي عن ربي فهلكوا وأهلكوا بهذه الخرافات قلوب الأغمار[1].

وقد أبدلوا إزالة العقل بالخمر، بشيء سموه الحشيش والمعجون، والغناء المحرم سموه: السماع والوجد، والتعرض بالوجد المزيل للعقل حرام، كفى الله الشريعة هذه الطائفة الجامعة بين دهمسة[2] في اللبس وطيبة في العيش وخداع بألفاظ معسولة ليس تحتها سوى إهمال التكليف وهجران الشرع.

قال ابن عقيل: فإن قال قائل: هم أهل نظافة ومحاريب وحسن سمت وأخلاق، قال: فقلت لهم: لو لم يضعوا طريقة يجتذبون بها قلوب أمثالكم لم يدم لهم عيش، والذي وصفتهم به رهبانية النصرانية، وهل يخدع الناس إلّا بطريقة أو لسان، فإذا لم يكن للقوم قدم في العلم ولا طريقة فبماذا يجتذبون به قلوب أرباب الأموال.

واعلم أن حمل التكليف صعب، ولا أسهل على أهل الخلاعة من مفارقة الجماعة، ولا أصعب عليهم من حجر ومنع صدر عن أوامر الشرع ونواهيه، وما على الشريعة أضر من المتكلمين والمتصوفين، فهؤلاء يفسدون عقائد الناس بتوهيمات شبهات العقول، وهؤلاء يفسدون الأعمال ويهدمون قوانين الأديان، يحبون البطالات وسماع الأصوات، وما كان السلف كذلك، بل كانوا في باب العقائد عبيد تسليم، وفي الباب الآخر أرباب جد. قال: ونصيحتي إلى إخواني أن لا يقرع أفكار قلوبهم كلام المتكلمين، ولا تصغي مسامعهم إلى خرافات المتصوفين، بل الشغل بالمعاش أولى من بطالة

---

(١) الاغمار: من لم يجربوا الأمور.

(٢) الدهمسة: السرار وأمر مدهمس: مستور.

الصوفية، والوقوف على الظواهر أحسن من توغل المنتحلة، وقد خبرت طريقة الفريقين، فغاية هؤلاء الشك، وغاية هؤلاء الشطح.

قال ابن عقيل: والمتكلمون عندي خير من الصوفية، لأن المتكلمين قد يزيلون الشك، والصوفية يوهمون التشبيه. فأكثر كلامهم يشير إلى إسقاط النبوات. فإذا قالوا عن أصحاب الحديث: قالوا: أخذوا علمهم ميتاً عن ميت. فقد طعنوا في النبوات. ومن قال: حدثني قلبي عن ربي، فقد صرح أنه غني عن الرسول، ومن صرح بذلك فقد كفر. فهذه كلمة مدسوسة في الشريعة تحتها هذه الزندقة، ومن رأيناه يزري[1] على النقل علمنا أنه قد عطل أمر الشرع. وما يؤمن هذا القائل: حدثني قلبي عن ربي أن يكون ذلك من إلقاء الشياطين، فقد قال الله عزّ وجلّ: ﴿وإنّ الشَّياطِين لَيُوحُونَ إلى أوليائِهِمْ﴾[2]، وهذا هو الظاهر، لأنه ترك الدليل المعصوم وعول على ما يلقى في قلبه الذي لم تثبت حراسته من الوساوس، وهؤلاء يسمون ما يقربهم خاطراً. قال: والخوارج على الشريعة كثير، إلاّ أن الله عزّ وجلّ يؤيدها بالنقلة الحفاظ الذابين عن الشريعة حفظاً لأصلها، وبالفقهاء حفظاً لمعانيها، وهم سلاطين العلماء لا يتركون لكذاب رأساً يرتفع.

قال ابن عقيل: والناس يقولون: إذا أحب الله خراب بيت تاجر عاشر الصوفية، قال: وأنا أقول: وخراب دينه، لأن الصوفية قد أجازوا لبس النساء الخرقة من الرجال الأجانب، فإذا حضروا السماع والطرب فربما جرى في خلال ذلك مغازلات، واستخلاء[3] بعض الأشخاص ببعض فصارت الدعوة عرساً للشخصين، فلا يخرج إلاّ وقد تعلق قلب شخص بشخص، ومال طبع إلى طبع، وتتغير المرأة على زوجها، فإن طابت نفس الزوج سمي بالديوث،

(١) أزرى: عاب.

(٢) سورة الأنعام: الآية ١٢١.

(٣) استخلاه: طلب أن يخلو به. واستخلى به خلا به.

وإن حبسها طلبت الفرقة إلى من تلبس منه المرقعة، والاختلاط بمن لا يضيق الخناق، ولا يحجر على الطباع. ويقال: تابت فلانة وألبسها الشيخ الخرقة وقد صارت من بناته. ولم يقنعوا أن يقولوا هذا لعب وخطأ، حتى قالوا: هذا من مقامات الرجال. هذا كله من كلام ابن عقيل رضي الله عنه، فلقد كان ناقداً مجيداً متلمحاً[1] فقهياً.

أنشدنا أبو بكر العنبري لنفسه في الصوفية:

تأملت اختبر المدعين ... بين الموالي وبين العبيد
فألفيت أكثرهم كالسراب ... يروقك منظره من بعيد
فناديت يا قوم من تعبدون ... فكل أشار بقدر الوجود
فبعض أشار إلى نفسه ... وأقسم ما فوقها من مزيد
وبعض إلى خرقة رقعت ... وبعض إلى ركوة[2] من جلود
وآخر يعبد أهواءه ... وما عابد للهوى بالرشيد
ومجتهد وقته زيه ... فإن فات بات بليل عنيد
وذو كلف باستماع السما ... ع بين البسيط وبين النشيد
يئن إذا أومضت رنة ... ويزأر منها زئير الأسود
يخرق خلقانه[3] عامداً ... ليعتاض منها بثوب جديد
ويرمي بهيكله في السعير[4] ... لقلع الثريد وبلع العصيد[5]
فيا للرجال ألا تعجبون ... لشيطان إخواننا ذا المزيد
يخبطهم بفنون الجنون ... وما للمجانين غير القيود
وأقسم ما عرفوا ذا الجلال ... وما عرفوه بغير الجحود

(١) من اللمح وهو البصر بالأشياء.
(٢) الركوة: إناء صغير لشرب الماء.
(٣) الثوب الخلق: البالي والجمع أخلاق وخلقان.
(٤) النار.
(٥) العصيدة: دقيق مطبوخ بالسمن.

ولـولا الـوفـاء لأهـل الـوفـاء　　سلقتهم بلســان حــديــد[1]
إذا أبصــروني بكــوا رحمــة　　ونيــران أحقـادهم في وقــود
لأني بعــدت عن المــدعـين　　ولـو صدقـوا كنت غير البعيـد

* * *

(١) قاطـع.
والحق أنـه ليس كل الصـوفيه يصـح أن يوصفوا بهـذه الأضـالين **والأباطيل**، ففيهم الصـالحون الـذين أخذوا أنفسهم بنـور الشرع، وعـالجـوا سلوكهم برفيـع التـربيـة. والمصنف قد ذكر أفراداً منهم، والتسمية وإن كـانت حادثـة، فلبابهـا عند الصـالحين منهم، ما هو إلّا روح الشرع وخلاصة الدين.

الباب الحادي عشر

في ذكر تلبيس إبليس
على المتدينين بما يشبه الكرامات

قد بينا فيما تقدم أن إبليس إنما يتمكن من الإنسان على قدر قلة العلم، فكلما قلَّ علم الإنسان كثر تمكن إبليس منه، وكلما كثر العلم قلَّ تمكنـه منه. ومن العباد من يرى ضوءاً أو نوراً في السماء، فإن كان في رمضان قـال: رأيت ليلة القدر، وإن كان في غيره، قال: قـد فتحت لي أبواب السمـاء. وقد يتفق لـه الشيء الـذي يطلبـه فيظن ذلـك كرامـة، وربما كـان اتفـاقـاً، وربمـا كـان اختبـاراً، وربما كـان من خدع إبليس. والعـاقـل لا يسـاكن[1] شيئـاً من هـذا ولوْكان كرامة.

وقد ذكرنـا في باب الـزهاد عن مـالك بن دينـار، وحبيب العجمي أنهما قالا: إن الشيطان ليلعب بالقراء كما يلعب الصبيان بالجوز.

ولقد استغوى بعض ضعفاء الزهاد، بـأن أراه ما يشبه الكرامة.

وكم اغتر قوم بمـا يشبه الكـرامات، فقـد روينا عن أبـي عمـران، قال: قال لي فرقد: يا أبا عمران، قد أصبحت اليوم وأنا مهتم بضريبتي[2] وهي ستة دراهم، وقـد أهل[3] الهـلال وليست عندي، فـدعوت، فبينمـا أنا أمشي على شط الفـرات، إذا أنا بستـة دراهم، فأخـذتها فـوزنتها، فـإذا هي ستة لا تـزيد ولا تنقص، فقال: تصدق بها فإنها ليست لك. قلت: أبو عمران، هـو إبراهيم

(١) ساكنه في دار واحدة: سكنها وإيَّاه.

(٢) ما يفرض عليه من المال.

(٣) ظهر الهلال.

النخعي فقيه أهل الكوفة. فانظروا إلى كلام الفقهاء وبعد الاغترار عنهم، وكيف أخبره أنها لُقَطَة، ولم يلتفت إلى ما يشبه الكرامة، وإنما لم يأمره بتعريفها، لأن مذهب الكوفيين أنه لا يجب التعريف لما دون الدينار، وكأنه إنما أمره بالتصدق بها، لئلا يظن أنه قد أكرم بأخذها وإنفاقها.

وعن إبراهيم الخراساني قال: احتجت يوماً إلى الوضوء، فإذا أنا بكوز من جوهر وسواك من فضة، رأسه ألين من الخز، فاستكت بالسواك، وتوضأت بالماء، وتركتهما وانصرفت.

قلت: في هذه الحكاية من لا يوثق بروايته، فإن صحت دلت على قلة علم هذا الرجل، إذ لو كان يفهم الفقه علم أن استعمال السواك الفضة لا يجوز، ولكن قلَّ علمه فاستعمله. وإن ظنّ أنه كرامة، والله تعالى لا يكرم بما يمنع من استعماله شرعاً، إلاّ إن أظهر له ذلك على سبيل الامتحان.

وذكر محمد بن أبي الفضل الهمداني المؤرخ، قال: حدثني أبي، قال: كان السرمقاني المقرىء يقرأ على ابن العلاف، وكان يأوي إلى المسجد بدرب الزعفراني، واتفق أن ابن العلاف رآه ذات يوم في وقت مجاعة، وقد نزل إلى دجلة وأخذ منه أوراق الخس مما يرمي به أصحابه، وجعل يأكله فشق ذلك عليه، وأتى إلى رئيس الرؤساء، فأخبره بحاله، فتقدم إلى غلام بالقرب إلى المسجد الذي يأوي إليه السرمقاني أن يعمل لبابه مفتاحاً من غير أن يعلمه. ففعل، وتقدم إليه أن يحمل كل يوم ثلاثة أرطال خبزاً سميداً، ومعها دجاجة وحلوى سكراً، ففعل الغلام ذلك، وكان يحمله على الدوام. فأتى السرمقاني في أول يوم فرأى ذلك مطروحاً في القبلة، ورأى الباب مغلقاً، فتعجب. وقال في نفسه: هذا من الجنة ويجب كتمانه، وأن لا أتحدث به، فإن من شرط الكرامة كتمانها وأنشدني:

من أطلعوه على سر فباح به ... لم يأمنوه على الأسرار ما عاشا

فلما استوت حالته، وأخصب[1] جسمه، سأله ابن العلاف عن سبب ذلك ـ وهو عارف به، وقصد المزاح معه ـ فأخذ يوري ولا يصرح، ويكني ولا يفصح. ولم يزل ابن العلاف يستخبره، حتى أخبره أن الذي يجده في المسجد كرامة إذ لا طريق لمخلوق عليه، فقال له ابن العلاف: يجب أن تدعو لابن المسلمة، فإنه هو الذي فعل ذلك. فنغص عيشه بإخباره، وبانت عليه شواهد الانكسار.

ولما علم العقلاء شدة تلبيس إبليس حذروا من أشياء ظاهرها الكرامة، وخافوا أن تكون من تلبيسه.

روينا عن أبي الطيب يقول: سمعت زهرون يقول: كلمني الطير، وذاك أني كنت في البادية فتهت، فرأيت طائراً أبيض، فقال لي: يا زهرون، أنت تائه، فقلت: يا شيطان، غُرَّ غيري، فقال لي: أنت تائه. فقلت: يا شيطان، غُرَّ غيري. فوثب في الثالثة وصار على كتفي، وقال: ما أنا بشيطان، أنت تائه أرسلت إليك، ثم غاب عني.

عن محمد بن عمرو قال: حدثتني زلفى، قالت: قلت لرابعة العدوية: يا عمة، لم لا تأذنين للناس يدخلون عليك؟ قالت: وما أرجو من الناس، إن أتوني حكوا عني ما لم أفعل. وقالت: يبلغني أنهم يقولون: إني أجد الدراهم تحت مصلاي، ويطبخ لي القدر بغير نار، ولو رأيت مثل هذا فزعت منه. قالت: فقلت لها: إن الناس يكثرون فيك القول، يقولون: إن رابعة تصيب في منزلها الطعام والشراب، فهل تجدين شيئاً فيه؟ قالت: يا بنت أخي، لو وجدت في منزلي شيئاً ما مسسته، ولا وضعت يدي عليه.

قال القرشي: قال محمد بن عمرو: وحدثتني زلفى عن رابعة أنها أصبحت يوماً صائمة في يوم بارد، قالت: فنازعتني نفسي إلى شيء من الطعام السخن أفطر عليه، وكان عندي شحم، فقلت: لو كان عندي بصل

---

(١) أي كثر لحمه.

أو كراث عالجته[1]، فإذا عصفور قد جاء فسقط على المثقب[2] في منقاره بصلة، فلما رأيته أضربت عما أردت، وخفت أن يكون من الشيطان.

وعن محمد بن يزيد، قال: كانوا يرون لوهيب أنه من أهل الجنة، فإذا أخبر بها اشتد بكاؤه، وقال: قد خشيت أن يكون هذا من الشيطان.

وعن أبي عثمان النيسابوري، يقول: خرجنا جماعة مع أستاذنا أبي حفص النيسابوري إلى خارج نيسابور، فجلسنا، فتكلم الشيخ علينا فطابت أنفسنا، ثم بصرنا فإذا بأيِّل[3] قد نزل من الجبل، حتى برك بين يدي الشيخ، فأبكاه ذلك بكاء شديداً. فلما سكن سألناه، فقلت: يا أستاذ، تكلمت علينا فطابت قلوبنا، فلما جاء هذا الوحش، وبرك بين يديك أزعجك وأبكاك، فقال: نعم، رأيت اجتماعكم حولي وقد طابت قلوبكم فوقع في قلبي لو أن شاة ذبحتها ودعوتكم عليها. فما تحكم[4] هذا الخاطر، حتى جاء هذا الوحش، فبرك بين يدي، فخيل لي أني مثل فرعون الذي سأل ربه أن يجري له النيل فأجراه، قلت: فما يؤمنني أن يكون الله تعالى يعطيني كل حظ لي في الدنيا، وأبقى في الآخرة فقيراً لا شيء لي. فهذا الذي أزعجني.

وقد لَبَّسَ إبليس على قوم من المتأخرين، فوضعوا الحكايات في كرامات الأولياء، ليشيدوا بزعمهم أمر القوم، والحق لا يحتاج إلى تشييد بباطل، فكشف الله تعالى أمرهم بعلماء النقل.

قال سهل بن عبد الله: صحبت رجلاً من الأولياء في طريق مكة، فنالته فاقة ثلاثة أيام، فعدل إلى مسجد في أصل جبل، وإذا فيه بئر عليها بكرة وحبل ودلو ومطهرة[5]، وعند البئر شجرة رمان ليس فيها حَمل. فأقام في

---

(١) أي مارست طبخه.

(٢) المثقب: آلة الثقب.

(٣) الأيل، بضم الهمزة وكسرها وفتحها، والياء مشددة: التيس الجبلي.

(٤) تصرف الخاطر في نفسه.

(٥) إناء يُتطهر به.

المسجد إلى المغرب، فلما دخل الوقت إذا بأربعين رجلاً عليهم المسوح[1] وفي أرجلهم نعال الخوص[2] قد دخلوا المسجد، فسلموا وأذن أحدهم وأقام الصلاة وتقدم فصلى بهم. فلما فرغ من صلاته تقدم إلى الشجرة، فإذا فيها أربعون رمانة غضة طرية، فأخذ كل واحد منهم رمانة وانصرف. قال: وبت على فاقتي[3] فلما كان في الوقت الذي أخذوا فيه الرمان أقبلوا أجمعين، فلما صلوا وأخذوا الرمان، قلت: يا قوم أنا أخوكم في الإسلام، وبي فاقة شديدة فلا كلمتموني ولا واسيتموني، فقال رئيسهم: إنا لا نكلّم محجوباً بما معه، فامض واطرح ما معك وراء هذا الجبل في الوادي وارجع إلينا حتى تنال ما ننال، قال: فرقيت الجبل فلم تسمح نفسي برمي ما معي فدفنته ورجعت، فقال لي: رميت ما معك؟ قلت: نعم، قال: فرأيت شيئاً، قلت: لا، قال: ما رميت شيئاً إذن فارجع فارم به في الوادي، فرجعت ففعلت، فإذا قد غشيني مثل الدرع نور الولاية، فرجعت، فإذا في الشجرة رمانة فأكلتها، واستقللت[4] بها من الجوع والعطش، ولم ألبث دون المضي إلى مكة، فإذا أنا بالأربعين بين زمزم والمقام، فأقبلوا إليَّ بأجمعهم يسألوني عن حالي ويسلمون عليَّ، فقلت: قد غنيت عنكم وعن كلامكم آخراً، كما أغناكم الله عن كلامي أولاً؛ فما فيّ لغير الله موضع.

قال المصنف رحمه الله: ويدل على أنها حكاية موضوعة قولهم: اطرح ما معك، لأن الأولياء لا يخالفون الشرع، والشرع قد نهى عن إضاعة المال. وقوله: غشيني نور الولاية، فهذه حكاية مصنوعة وحديث فارغ، ومثل هذه الحكاية لا يغتر بها من شم رائحة العلم، إنما يغتر بها الجهال الذين لا بصيرة لهم.

---

(١) المسح: كساء من شعر.

(٢) الخوص: ورق النخل.

(٣) الفاقة: الفقر والحاجة.

(٤) استقل بكذا: تفرد به ولم يشرك فيه غيره.

قال عبد العزيز البغدادي: كنت أنظر في حكايات الصوفية، فصعدت يوماً السطح فسمعت قائلاً يقول: ﴿وهو يتولى الصالحين﴾[1]، فالتفت فلم أر شيئاً، فطرحت نفسي من السطح فوقفت في الهواء.

قال المصنف رحمه الله: هذا كذب محال لا يشك فيه عاقل، فلو قدرنا صحته فإن طرح نفسه من السطح حرام، وظنه أن الله يتولى من فعل المنهي عنه، فقد قال تعالى: ﴿ولا تُلقُوا بأيديكُم إلى التَّهْلُكَةِ﴾[2]، فكيف يكون صالحاً وهو يخالف ربه، وعلى تقدير ذلك فمن أخبره أنه منهم.

وقد اندس في الصوفية أقوام وتشبهوا بهم، وشطحوا في الكرامات وادعائها، وأظهروا للعوام مخاريق[3] صادوا بها قلوبهم. وقد روينا عن الحلاج أنه كان يدفن شيئاً من الخبز والشواء والحلوى في موضع من البرية، ويطلع بعض أصحابه على ذلك، فإذا أصبح قال لأصحابه: إن رأيتم أن نخرج على وجه السياحة، فيقوم ويمشي والناس معه، فإذا جاؤوا إلى ذلك المكان، قال له صاحبه الذي أطلعه على ذلك: نشتهي الآن كذا وكذا، فيتركهم الحلاج وينزوي عنهم إلى ذلك المكان، فيصلي ركعتين ويأتيهم بذلك. وكان يمد يده إلى الهواء ويطرح الذهب في أيدي الناس ويمخرق[4]. وقد قال له بعض الحاضرين يوماً: هذه الدراهم معروفة ولكن أؤمن بك إذا أعطيتني درهماً عليه اسمك واسم أبيك، وما زال يمخرق إلى وقت صلبه.

قال أبو عمرو بن حيوة: لما أخرج حسين الحلاج للقتل مضيت في جملة الناس، فلم أزل أزاحم حتى رأيته، فقال لأصحابه، لا يهولنكم هذا فإني عائد إليكم بعد ثلاثين يوماً. وكان اعتقاد الحلاج اعتقاداً قبيحاً، وقد بينا

---

(١) سورة الأعراف: الآية ١٩٦.

(٢) سورة البقرة: الآية ١٩٥.

(٣) المخرقة: الكذب والاختلاق، والمخاريق: لعب الصبيان، والمخراق: صاحب الحنكة.

(٤) أي: يختلق ويلعب بعقول الناس.

في أول هذا الكتاب شيئاً عن اعتقاده وتخليطه، وبينا أنه قتل بفتوى فقهاء عصره.

قال ابن عقيل: وكان ابن الشباس وأبوه قبله لهم طيور سوابق وأصدقاء في جميع البلاد، فينزل بهم قوم فيرفع طائراً في الحال إلى قريتهم يخبر بخبر من له هناك بنزولهم، ويستعلمه من أحوالهم وما تجدد هناك بعدهم قبل أن يجتمع عليهم، ويستعلم حالهم، فيكتب ذلك إليه الجواب، ثم يجتمع بهم، فيخبرهم بتلك الحوادث، ويحدثهم بأحوالهم حديث من هو معهم ومعاشرهم في بلادهم، ثم يحدثهم بما تجدد بعدهم وفي يومه ذلك، فيقول: الساعة تجدد كذا وكذا، فيدهشون، ويرجعون إلى رستاقهم[1] فيجدون الأمر على ما قال، ويتكرر هذا منه فيصير عندهم كالقطعي على أنه يعلم الغيب.

قال ابن عقيل: وإنما أوردت مثل هذا ليعلم أنه قد ارتفع القوم إلى التلاعب بالدين، فأي بقاء للشريعة مع هذا الحال.

قلت: وابن الشباس هذا كان يكنى أبا عبد الله، والشباس هو أبوه كان يكنى أبا الحسن، واسم الشباس علي بن الحسين بن محمد البغدادي، توفي بالبصرة سنة أربع وأربعين وأربع مئة، وكان الشباس وأبوه وعمه مستقرين بالبصرة، وكانت مذاهبهم تخفى على الناس إلّا أن الأغلب أنهم كانوا من الشيعة الإمامية والغلاة الباطنية، وقد ذكرت في «التاريخ»[2] عن ابن الشباس أن بعض أصحابه انكشفت له نار بخيانته وزخارفه، وكانت تخفى على الناس إلى أن كشفها بعض أصحابه من الشيعة الإمامية الباطنية للناس، فلما كشفها للناس وبينها، فكان مما حدث به عنه أنه قال: حضرنا يوماً عنده فأخرج جدياً مشوياً، فأمرنا بأكله وأن لا نكسر عظمه ولا نهشمها، فلما فرغنا أمر بردها إلى التنور، وترك على التنور طبقاً، ثم رفعه بعد ساعة، فوجدنا جدياً حياً يرعى حشيشاً، ولم نر للنار أثراً ولا للرماد ولا للعظام خبراً، قال: فتلطفت حتى

---

(١) الرُّسْتاق: الريف والقرى، وهو لغةٌ في الرُّزداق. والجمع رَساتيق.

(٢) المنتظم ٨/١٥٢ ــ ١٥٣ .

عرفت ذلك، وذلك أن التنور يفضي إلى سرداب وبينهما طبق نحاس بلولب، فإذا أراد إزالة النار عنه فركه، فينزل عليه فيسده، وينفتح السرداب، وإذ أراد أن يظهر النار أعاد الطبق إلى فم السرداب فتُرى للناس.

قال المصنف رحمه الله: وقد رأينا في زماننا من يشير إلى الملائكة ويقول: هؤلاء ضيف مكرمون، يوهم أن الملائكة قد حضرت، ويقول لهم: تقدموا إليَّ. وأخذ رجل في زماننا إبريقاً جديداً، فترك فيه عسلاً، فتشرب في الخزف طعم العسل، واستصحب الإبريق في سفره، فكان إذا غرف به الماء من النهر وسقى أصحابه وجدوا طعم العسل، وما في هؤلاء من يعرف الله ولا يخاف الله، نعوذ بالله من الخذلان.



الباب الثاني عشر

في ذكر تلبيس إبليس على العوام

قد بينا أن إبليس إنما يقوى تلبيسه على قدر قوة الجهل، وقد افتن[1] فيما فتن به العوام، وحصر ما فتنهم ولبَّس عليهم فيه لا يمكن ذكره لكثرته، وإنما نذكر من الأمهات ما يستدل به على جنسه، والله الموفق.

فمن ذلك أنه يأتي إلى العامي فيحمله على التفكر في ذات الله عزّ وجلّ وصفاته، فيتشكك. وقد أخبر رسول الله ﷺ عن ذلك. عن عائشة، قالت: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ الشيطانَ يأتي أحدَكُمْ فيقولُ: من خلقَكَ؟ فيقولُ: اللَّهُ، فيقولُ: من خلق السَّموَاتِ والأرضَ؟ فيقولُ: اللَّهُ، فيقولُ من خلق اللَّهَ؟ فإذا وَجَد أحدُكُمْ شيئاً من ذلك فليقُلْ: آمنتُ باللَّهِ ورسولِهِ»[2]. وقال أبو هريرة: فوالله إني لجالس يوماً إذ قال لي رجل من أهل العراق: هذا الله خلقنا فمن خلق الله؟ قال أبو هريرة: فجعلت أصبعي في أذني ثم صحت: صدق رسول الله، الله الواحد الأحد الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد.

وتارة يلبس إبليس على العوام عند سماع صفات الله عزّ وجلّ، فيحملونها على مقتضى الحس، فيعتقدون التشبيه. وتارة يلبس عليهم من جهة العصبية للمذاهب، فترى العامي يلاعن ويقاتل في أمر لا يعرف حقيقته.

---

(١) افتن: تفنن واتبع أساليب مختلفة.

(٢) أخرجه البخاري (٣٢٧٦) في كتاب «بدء الخلق»: باب صفة إبليس وجنوده، ومسلم (١٣٤) في الإيمان: باب بيان الوسوسة في الإيمان.

فمنهم من يخص بعصبيته أبا بكر رضي الله عنه. ومنهم من يخص علياً. وكم قد جرى في هذا من الحروب، وقد جرى في هذا بين أهل الكرخ وأهل باب البصرة على ممر السنين من القتل، وإحراق المحال ما يطول ذكره. وترى كثيراً ممن يخاصم في هذا يلبس الحرير ويشرب الخمر، ويقتل النفس، وأبو بكر وعلي بريئان منهم.

وقد يحسّ العامي في نفسه نوع فهم، فيسول له إبليس مخاصمة ربه، فمنهم من يقول لربه كيف قضى وعاقب. ومنهم من يقول لم ضيق رزق المتقي وأوسع على العاصي؟ ومنهم طائفة تشكر على النعم، فإذا جاء البلاء اعترض وكفر. ومنهم من يقول: أي حكمة في هدم هذه الأجساد يعذبها بالفناء بعد بنائها. ومنهم من يستبعد البعث. ومن هؤلاء من يختل عليه مقصوده أو يبتلى ببلاء فيكفر. ويقول: أنا ما أريد أصلي. وربما غلب فاجر نصراني مؤمناً فقتله أو ضربه، فيقول العوام: قد غلب الصليب، ولماذا نصلي إذا كان الأمر كذلك. وكل هذه الآفات تمكن بها منهم إبليس لبعدهم عن العلم والعلماء، فلو أنهم استفهموا أهل العلم لأخبروهم أن الله عزّ وجلّ حكيم ومالك، فلا يبقى مع هذا اعتراض.

ومن العوام من يرضى عن عقل نفسه، فلا يبالي بمخالفة العلماء، فمتى خالفت فتواهم غرضه أخذ يرد عليهم ويقدح فيهم. وقد كان ابن عقيل يقول: قد عشت هذه السنين فلو أدخلت يدي في صنعة صانع لقال أفسدتها عليّ، فلو قلت: أنا رجل عالم لقال: بارك الله لك في علمك ليس هذا من شغلك. هذا، وشغله أمر حسي لو تعاطيته فهمته، والذي أنا فيه من الأمور أمر عقلي، فإذا أفتيته لم يقبل.

ومن تلبيسه عليهم تقديمهم المتزهدين على العلماء، فلو رأوا جبة صوف على أجهل الناس عظموه، خصوصاً إذا طأطأ رأسه، وتخشع لهم، ويقولون: أين هذا من فلان العالم، ذاك طالب الدنيا وهذا زاهد لا يأكل عنبة ولا رطبة ولا يتزوج قط، جهلاً منهم بفضل العالم على الزاهد، وإيثاراً

للمتزهدين على شريعة محمد بن عبد الله ﷺ، ومن نعمة الله سبحانه وتعالى على هؤلاء أنهم لم يدركوا رسول الله ﷺ، إذ لو رأوه يكثر التزويج ويصطفي السبايا[١]، ويأكل لحم الدجاج ويحب الحلوى والعسل، لم يعظم في صدورهم.

ومن تلبيسه عليهم قدحهم في العلماء بتناول المباحات، وذلك من أقبح الجهل. وأكثر ميلهم إلى الغرباء، فهم يؤثرون الغريب على أهل بلدهم ممن قد خبروا أمره وعرفوا عقيدته، فيميلون إلى الغريب ولعله من الباطنية. وإنما ينبغي تسليم النفوس إلى من خبرت معرفته، قال الله عزّ وجلّ: ﴿فإنْ آنستُمْ منهم رُشْداً فادْفعُوا إليهم أموالَهُمْ﴾[٢]. ومنَّ الله سبحانه في إرسال محمد ﷺ إلى الخلق بأنهم يعرفون حاله، فقال عزّ وجلّ: ﴿لقدْ مَنَّ اللَّهُ على المؤمنينَ إذ بعث فيهمْ رَسولاً من أَنفسِهِمْ﴾[٣]. وقال: ﴿يَعرفُونَهُ كما يَعرفُونَ أَبناءَهُمْ﴾[٤].

وقد يخرج بالعوام تعظيم المتزهدين إلى قبول دعاويهم، وإن خرقوا الشريعة وخرجوا عن حدودها. فترى المتنمس[٥] يقول للعامي: أنت فعلت بالأمس كذا، وسيجري عليك كذا فيصدقه. ويقول: هذا يتكلم على الخاطر ولا يعلم أن ادعاء الغيب كفر. ثم يرون من هؤلاء المتنمسين أموراً لا تحل، كمؤاخاة النساء والخلوة بهن، ولا ينكرون ذلك تسليماً لهم أحوالهم[٦].

ومن تلبيسه على العوام إطلاقهم أنفسهم في المعاصي، فإذا وبخوا

---

(١) السبايا: جمع سبية، وهو المرأة المأسورة في الحرب.

(٢) سورة النساء: الآية ٦.
آنستم: أبصرتم. رشداً: صلاحاً في دينهم وأموالهم.

(٣) سورة آل عمران: الآية ١٦٤.

(٤) سورة البقرة: الآية ١٤٦.

(٥) تنمس الصائد: اتخذ غرفة يمكن فيها للصيد.

(٦) يقصد أنهم يسلمون لهم نظراً لما يرون من أحوال هؤلاء.

تكلموا كلام الزنادقة. فمنهم من يقول: لا أترك نقداً لنسيئة[1]. ولو فهموا لعلموا أن هذا ليس بنقد لأنه محرم، وإنما يخير بين النقد والنسيئة المباحين، فمثلهم كمثل محموم جاهل يأكل العسل، فإذا عوتب، قال: الشهوة نقد، والعافية نسيئة. ثم لو علموا حقيقة الإيمان لعلموا أن تلك النسيئة وعد صادق لا يخلف. ولو عملوا عمل التجار الذين يخاطرون بكثير من المال لما يرجونه من الربح القليل لعلموا أن ما تركوه قليل، وما يرجونه كثير. ولو أنهم ميزوا بين ما آثروا وما أفاتوا أنفسهم لرأوا تعجيل ما تعجلوا، ـ إذ فاتهم الربح الدائم ـ أوقعهم في العذاب الذي هو الخسران المبين الذي لا يتلافى[2].

ومنهم من يقول: الرب كريم، والعفو واسع، والرجاء من الدين، فيسمون تمنيهم واغترارهم رجاء، وهذا الذي أهلك عامة المذنبين.

قال أبو عمرو بن العلاء: بلغني أن الفرزدق جلس إلى قوم يتذاكرون رحمة الله، فكان أوسعهم في الرجاء صدراً، فقالوا له: لم تقذف المحصنات!؟ فقال: أخبروني لو أذنبت إلى والديّ ما أذنبته إلى ربي عزّ وجلّ، أتراهما كانا يطيبان نفساً أن يقذفاني في تنور مملوءٍ جمراً؟ قالوا: لا إنما كانا يرحمانك، قال: فإني أوثق برحمة ربي منهما.

قلت: وهذا هو الجهل المحض، لأن رحمة الله عزّ وجلّ ليست برقة طبع، ولو كانت كذلك لما ذبح عصفور ولا أميت طفل، ولا أدخل أحد إلى جهنم.

قال الأصمعي: كنت مع أبي نواس بمكة، فإذا أنا بغلام أمرد يستلم الحجر الأسود، فقال لي أبو نواس: والله لا أبرح حتى أقبّله عند الحجر الأسود، فقلت: ويلك اتق الله عزّ وجلّ، فإنك ببلد حرام وعند بيته الحرام، فقال: ما منه بدّ، ثم دنا من الحجر فجاء الغلام يستلمه، فبادر أبو نواس

---

(١) النسيئة: التأجيل.

(٢) تلافى الأمر: تداركه.

فوضع خده على خد الغلام فقبله ـ وأنا أنظر ـ فقلت: ويلك أفي حرم الله عزّ وجلّ؟! فقال: دع ذا عنك فإن ربي رحيم، ثم أنشد يقول:

وعاشقان التف خداهما   عند استلام الحجر الأسود
فاشتفيا من غير أن يأثما   كأنما كانا على موعد

قلت: انظروا إلى هذه الجرأة التي نظر فيها إلى الرحمة، ونسي شدة العقاب بانتهاك تلك الحرمة.

ولقد دخلوا على أبي نواس في مرض موته، فقالوا له: تب إلى الله عزّ وجلّ، فقال: إياي تخوفون؟! حدثني حماد بن سلمة عن يزيد الرقاشي عن أنس، قال: قال رسول الله ﷺ: «لكل نبي شفاعة وإني اختبأت شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي»[1] أفترى لا أكون أنا منهم؟!.

قال المصنف رحمه الله: وخطّأ هذا الرجل من وجهين: أحدهما ـ أنه نظر إلى جانب الرحمة ولم ينظر إلى جانب العقاب. والثاني ـ أنه نسي أن الرحمة إنما تكون للتائب كما قال عزّ وجلّ: ﴿وإنّي لغفارٌ لمن تابَ﴾[2]، وقال: ﴿ورحمَتي وَسعتْ كلَّ شيءٍ فسأكتُبُهَا للذينَ يَتَّقونَ﴾[3]، وهذا التلبيس هو الذي يهلك عامة العوام، وقد كشفناه في ذكر أهل الإباحة.

ومن العوام من يقول: هؤلاء العلماء ما يحافظون على الحدود، فلان يفعل كذا وفلان يفعل كذا، فأمري أنا قريب. وكشف هذا التلبيس أن الجاهل والعالم في باب التكليف سواء، فغلبة الهوى للعالم لا يكون عذراً للجاهل.

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٤٣٥)و(٢٤٣٦) في صفة الجنة: باب ما جاء في الشفاعة. قال الترمذي: حديث حسن صحيح غريب، وأخرجه ابن ماجه (٤٣١٠) في كتاب الزهد: باب ذكر الشفاعة.

(٢) سورة طه: الآية ٨٢.

(٣) سورة الأعراف: الآية ١٥٦.

وبعضهم يقول: ما قدر ذنبي حتى أُعاقب ـ ومن أنا حتى أؤاخذ، وذنبي لا يضره، وطاعتي لا تنفعه، وعفوه أعظم من جرمي كما قال قائلهم:

من أنا عند الله حتى إذا أذنبت لا يغفر لي ذنبي

وهذه حماقة عظيمة، كأنهم اعتقدوا أنه لا يؤاخذ إلا ضداً أو نداً. ثم ما علموا أنه بالمخالفة قد صاروا في مقام معاند. وسمع ابن عقيل رحمه الله رجلًا يقول: من أنا حتى يعاقبني الله؟! فقال له: أنت الذي لو أمات الله جميع الخلائق وبقيت أنت لكان قوله تعالى: ﴿يا أيها الناس﴾ خطاباً لك.

ومنهم من يقول: سأتوب وأصلح، وكم من أبله ساكن[1] الأمل فاختطفه الموت قبله، وليس من الحزم تعجيل الخطأ وانتظار الصواب. وربما لم تتهيأ التوبة، وربما لم تصح، وربما لم تقبل، ثم لو قبلت بقي الحياء من الجناية أبداً. فمرارة خاطر المعصية حتى تذهب أسهل من معاناة التوبة حتى تقبل.

ومنهم من يتوب ثم ينقض[2] فيلج عليه إبليس بالمكائد لعلمه بضعف عزمه.

وعن الحسن قال: إذا نظر إليك الشيطان ورآك على غير طاعة الله تعالى ألفك، وإذا رآك مداوماً على طاعة الله ملَّك ورفضك، وإذا رآك مرة هكذا ومرة هكذا طمع فيك.

ومن تلبيسه عليهم أن يكون لأحدهم نسب معروف فيغتر بنسبه فيقول: أنا من أولاد أبي بكر، وهذا يقول: أنا من أولاد علي، وهذا يقول: أنا شريف من أولاد الحسن أو الحسين، أو يقول: أنا قريب النسب من فلان العالم أو من فلان الزاهد. وهؤلاء يبنون أمرهم على أمرين: أحدهما ـ أنهم يقولون: من أحب إنساناً أحب أولاده وأهله. والثاني ـ أن هؤلاء لهم شفاعة وأحق من شفعوا فيه أهلهم وأولادهم. وكلا الأمرين غلط.

---

(١) ساكنة: سكن وإيَّاه في دار واحدة.

(٢) أي ينقض توبته ويعود إلى الذنب.

أما المحبة فليست محبة الله عزّ وجلّ كمحبة الآدميين، وإنما يحب من أطاعه، فإن أهل الكتاب من أولاد يعقوب لم ينتفعوا بآبائهم، ولو كانت محبة الأب تسري لسرى إلى البعض أيضاً.

وأما الشفاعة فقد قال الله تعالى: ﴿ولا يَشفَعُونَ إلاَّ لمن ارْتَضى﴾[1]. ولما أراد نوح حمل ابنه في السفينة قيل له: ﴿إنَّهُ ليسَ مِنْ أَهلِكَ﴾[2]، ولم يشفع إبراهيم في أبيه ولا نبينا في أمه، وقد قال ﷺ لفاطمة رضي الله عنها: «لا أُغني عنكِ منَ اللَّهِ شيئاً»[3]، ومن ظن أنه ينجو بنجاة أبيه كان كمن ظن أنه يشبع بأكل أبيه.

ومن تلبيسه عليهم أن يعتمد أحدهم على خلة[4] خير، ولا يبالي بما فعل بعدها. فمنهم من يقول: أنا من أهل السنّة وأهل السنّة على خير، ثم لا يتحاشى عن المعاصي. وكشف هذا التلبيس أن يقال له: إن الاعتقاد فرض والكف عن المعاصي فرض آخر، فلا يكفي أحدهما عن صاحبه. وكذلك تقول الروافض: نحن يدفع عنا موالاة أهل البيت، وكذبوا فإنه إنما يدفع التقوى. ومنهم من يقول: أنا ألازم الجماعة وأفعل الخير، وهذا يدفع عني، وجوابه كجواب الأول.

ومن هذا الفن تلبيسه على العيارين[5] في أخذ أموال الناس، فإنهم يسمون بالفتيان، ويقولون: الفتى لا يزني ولا يكذب ويحفظ الحرم ولا يهتك ستر امرأة، ومع هذا لا يتحاشون من أخذ أموال الناس، وينسون

---

(١) سورة الأنبياء: الآية ٢٨.

(٢) سورة هود: الآية ٤٦.

(٣) أخرجه البخاري (٤٧٧١) في التفسير: باب وأنذر عشيرتك الأقربين، ومسلم (٢٠٦) في الإيمان: باب قوله تعالى: ﴿وأنذر عشيرتك الأقربين﴾، والترمذي (٣١٨٤)، والنسائي (٦/٢٤٨).

(٤) الخلة: الخصلة.

(٥) العيار: الكثير الذهاب والمجيء في الأرض، والذي يتردد بلا عمل يخلي نفسه، وهواها لا يردعها ولا يزجرها.

تقلي[1] الأكباد على الأموال ويسمون طريقتهم الفتوة. وربما حلف أحدهم بحق الفتوة فلم يأكل ولم يشرب، ويجعلون إلباس السراويل للداخل في مذهبهم كإلباس الصوفية للمريد المرقعة. وربما يسمع أحد هؤلاء عن ابنته أو أخته كلمة وزر لا تصح، وربما كانت من محرض فيقتلها، ويدعون أن هذه فتوة. وربما افتخر أحدهم بالصبر على الضرب.

وعن عبد الله بن أحمد بن حنبل أنه كان يقول: كنت كثيراً أسمع والدي أحمد بن حنبل يقول: رحم الله أبا الهيثم: فقلت: من أبو الهيثم؟! فقال: أبو الهيثم الحداد لما مددت يدي إلى العقاب وأخرجتُ للسياط، إذا أنا بإنسان يجذب ثوبي من ورائي ويقول لي: تعرفني؟ قلت: لا، قال: أنا أبو الهيثم العيار اللص الطرار[2] مكتوب في ديوان أمير المؤمنين أني ضُربت ثمانية عشر ألف سوط بالتفاريق، وصبرت في ذلك على طاعة الشيطان لأجل الدنيا، فاصبر أنت في طاعة الرحمن لأجل الدين.

قلت: أبو الهيثم هذا يقال له: خالد الحداد، وكان يضرب المثل بصبره. وقال له المتوكل: ما بلغ من جلدك، قال: املأ لي جراب عقارب، ثم أدخل يدي فيه، وإنه ليؤلمني ما يؤلمك وأجد لآخر سوط من الألم ما أجد لأول سوط، ولو وضعت في فمي خرقة وأنا أضرب لاحترقت من حرارة ما يخرج من جوفي، ولكنني وطنت نفسي على الصبر. فقال له الفتح: ويحك مع هذا اللسان والعقل ما يدعوك إلى ما أنت عليه من الباطل، فقال: أحب الرياسة، فقال المتوكل: نحن خليدية[3]، وقال الفتح: أنا خليدي، وقال رجل لخالد: يا خالد ما أنتم لحوم ودماء فيؤلمكم الضرب؟ فقال: بلى يؤلمنا، ولكن معنا عزيمة صبر ليست لكم. وقال داود بن علي: لما قدم بخالد اشتهيت أن أراه فمضيت إليه فوجدته جالساً غير متمكن لذهاب لحم أليتيه من

---

(١) أي تحرق.

(٢) طر الشيء: قطعه، وطر المال: سلبه.

(٣) نسبة إلى خالد على غير القياس.

الضرب، وإذا حوله فتيان فجعلوا يقولون: ضرب فلان،وفعل بفلان كذا، فقال لهم: لا تتحدثون عن غيركم افعلوا أنتم حتى يتحدث عنكم غيركم.

قال المصنف رحمه الله: فانظروا إلى الشيطان كيف يتلاعب بهؤلاء فيصبرون على شدة الألم ليحصل لهم الذكر، ولو صبروا على يسير التقوى لحصل لهم الأجر. والعجب أنهم يظنون لحالهم مرتبة وفضيلة مع ارتكاب العظائم.

ومن العوام من يعتمد على نافلة ويضيع فرائض، مثل أن يحضر المسجد قبل الأذان ويتنفل، فإذا صلى مأموماً سابق الإمام. ومنهم من لا يحضر في أوقات الفرائض ويزاحم ليلة الرغائب[1]. ومنهم من يتعبد ويبكي وهو مصر على الفواحش لا يتركها، فإن قيل له، قال: سيئة وحسنة والله غفور رحيم. وجمهورهم يتعبد برأيه فيفسد أكثر مما يصلح. ورأيت رجلاً منهم قد حفظ القرآن وتزهد ثم جب نفسه[2] وهذا من أفحش الفواحش.

وقد لبس إبليس على خلق كثير من العوام يحضرون مجالس الذكر، ويبكون ويكتفون بذلك ظناً منهم أن المقصود الحضور والبكاء، لأنهم يسمعون فضل الحضور في مجالس الذكر. ولو علموا أن المقصود إنما هو العمل، وإذا لم يعمل بما يسمع كان زيادة في الحجة عليه. وإني لأعرف خلقاً يحضرون المجلس منذ سنين ويبكون ويخشعون، ولا يتغير أحدهم عما قد اعتاده من المعاملة في الربا، والغش في البيع، والجهل بأركان الصلاة، والغيبة للمسلمين والعقوق للوالدين. وهؤلاء قد لبس عليهم إبليس، فأراهم أن حضور المجلس والبكاء يدفع عنه ما يلابس[3] من الذنوب. وأرى بعضهم

(١) أي ليلة صلاة الرغائب: ــوهي أول خميس من رجب، وهي اثنتا عشرة ركعة بين العشاءين، وقد حدثت في سنة ٤٨٨هـ في بيت المقدس، وظنها العامة أنها مشروعة وهي مبتدعة.

(٢) أي قطع عضوه التناسلي.

(٣) يزاوِل.

أن مجالسة العلماء والصالحين يدفع عنكم. وشغل آخرين بالتسويف بالتوبة، وأقام قوماً منهم للتفرج[1] فيما يسمعونه وأهملوا العمل به.

وقد لبس إبليس على أصحاب الأموال من أربعة أوجه:

أحدها ـ من جهة كسبها، فلا يبالون كيف حصلت، وقد فشا الربا في أكثر معاملاتهم، حتى أن جمهور[2] معاملاتهم خارجة عن الإجماع. وقد روى أبو هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «ليأتين على الناس زمان لا يبالي المرء من أين أخذ المال من حلال أو حرام»[3].

والثاني ـ من جهة البخل بها، فمنهم من لا يخرج الزكاة أصلاً اتكالاً عل العفو، ومنهم من يخرج بعضها ثم يغلبه البخل فينظر أن المخرج يدفع عنه. ومنهم من يحتال لإسقاطها مثل أن يهب المال قبل الحلول ثم يسترده. ومنهم من يحتال بإعطاء الفقير ثوباً يقومه عليه بعشرة دنانير، وهو يساوي دينارين، ويظن ذلك الجاهل أنه قد تخلص. ومنهم من يخرج الرديء مكان الجيد. ومنهم من يعطي الزكاة من يستخدمه[4] طول السنة، فهي على الحقيقة أجرة. ومنهم من يخرج الزكاة كما ينبغي، فيقول له إبليس: ما بقى عليك، فيمنعه أن يتنفل بصدقة حباً للمال، فيفوته أجر المتصدقين، ويكون المال رزق[5] غيره.

---

(١) أي للتلهي والتنفيس عن الغم.

(٢) أي معظم.

(٣) أخرجه البخاري (٢٠٥٩) في البيوع: باب من لم يبالِ من حيث كسب المال. ولفظه: «يأتي على الناس زمان لا يبالي المرء ما أخذ منه أمن الحلال أم الحرام». وروى أبو داود (٣٣٣١) في البيوع، والنسائي (٢٤٣/٧) في البيوع: أن رسول الله ﷺ قال: **«ليأتين على الناس زمان لا يبقىٰ أحد إلاَّ أكل الربا، فمن لم يأكله أصابه من بخاره»**. قال المنذري: فيه انقطاع، لأنه من رواية الحسن عن أبي هريرة، والحسن لم يسمع منه.

(٤) أي يعطيها لشخص مستخدم عنده.

(٥) أي يبقى للورثة.

عن ابن عباس قال: أول ما ضرب الدرهم أخذه إبليس فقبله ووضعه على عينه وسرته، وقال: بك أطغي وبك أكفر، رضيت من ابن آدم بحبه الدينار من أن يعبدني.

والثالث ـ من حيث التكثير بالأموال، فإن الغني يرى نفسه خيراً من الفقير، وهذا جهل لأن الفضل بفضائل النفس اللازمة لها، لا بجمع حجارة خارجة عنها كما قال الشاعر:

غنى النفس لمن يعقـ ـل خير من غنى المال
وفضل النفس في الأنفـ ـس ليس الفضل في المال

والرابع ـ في إنفاقها، فمنهم من ينفقها على وجه التبذير والإسراف، تارة في البنيان الزائد على مقدار الحاجة وتزويق الحيطان وزخرفة البيوت وعمل الصور. وتارة في اللباس الخارج بصاحبه إلى الكبر والخيلاء، وتارة في المطاعم الخارجة إلى السرف. وهذه الأفعال لا يسلم صاحبها من فعل محرم أو مكروه، وهو مسؤول عن جميع ذلك.

وعن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «يا ابن آدم لا تزول قدماك يوم القيامة بين يدي الله عزّ وجلّ حتى تسأل عن أربع: عمرك فيما أفنيته، وجسدك فيما أبليته، ومالك من أين اكتسبته وأين **أنفقته**»[1].

ومنهم من ينفق في بناء المساجد القناطير، إلّا أنه يقصد الرياء والسمعة

---

(١) الحديث من رواية ابن مسعود، ولفظه: «لا تزول قدما ابن آدم يوم القيامة من عند ربّه حتى يسأل عن خمس: عن عمره فيما أفناه، وعن شبابه فيما أبلاه، وماله من أين اكتسبه، وفيما أنفقه، وماذا عمل فيما علم». أخرجه الترمذي (٢٤١٦) في صفة القيامة: باب في القيامة.
قال الترمذي: حديث غريب لا نعرفه من حديث ابن مسعود عن النبي إلّا من حديث الحسين بن قيس وهو يضعف في الحديث من قبل **حفظه**. وروى مثله الترمذي =

وبقاء الذكر، فيكتب اسمه على ما بنى، ولو كان عمله لله عزَّ وجلَّ لاكتفى بعلمه سبحانه **وتعالى**،ولو كلف أن يبني حائطاً من غير أن يكتب اسمه عليه لم يفعل.

ومن هذا الجنس إخراجهم الشمع في رمضان في الأنوار طلباً للسمعة، ومساجدهم طول السنة مظلمة، لأن إخراجهم قليلاً من دهن كل ليلة لا يؤثر في المدح ما يؤثر في إخراج شمعة في رمضان، ولقد كان إغناء الفقراء بثمن الشمع أولى، ولربما جرت الأضواء الكثيرة إلى السرف الممنوع منه، غير أن الرياء يعمل عمله. وقد كان أحمد بن حنبل يخرج إلى المسجد وفي يده سراج فيضعه ويصلي.

ومنهم من إذا تصدّق أعطى الفقير والناس يرونه، فيجمع بين قصده مدحهم وبين إذلال الفقير.

وفيهم من يجعل الدنانير الخفاف، فيكون في الدينار قيراطان ونحو ذلك، وربما كانت رديئة فيتصدّق بها بين الجمع مكشوفة، ليقال: قد أعطى فلان فلاناً ديناراً. وبالعكس من هذا كان جماعة الصالحين المتقدمين يجعلون في القرطاس الصغير ديناراً ثقيلاً يزيد وزنه على دينار ونصف، ويسلمونه إلى الفقير في سر، فإذا رأى قرطاساً صغيراً ظنه قطعة، فإذا لمسه وجد تدوير دينار ففرح، فإذا فتحه ظنه قليل الوزن، فإذا رآه ثقيلاً ظنه يقارب الدينار، فإذا وزنه فرآه زائداً على الدينار اشتد فرحه، فالثواب يتضاعف للمعطى عند كل مرتبة.

ومنهم من يتصدّق على الأجانب ويترك بر الأقارب وهم أولى.

عن سلمان بن عامر، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الصَّدقةُ على

= (٢٤١٧) في نفس المصدر عن أبي برزة الأسلمي، ولفظه: «لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن عمره فيما أفناه، وعن علمه فيم فعل، وعن ماله من أين اكتسبه، وفيم أنفقه، وعن جسمه فيم أبلاه». قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

الْمسكينِ صدقةٌ، والصَّدقةُ على ذوي الرَّحمِ اثنتانِ صَدقةٌ وصِلةٌ»[1].

ومنهم من يعلم فضيلة التصدق على القرابة إلاّ أنه يكون بينهما عداوة دنيوية فيمتنع من مواساته مع علمه بفقره، ولو واساه كان له أجر الصدقة والقرابة ومجاهدة الهوى.

وقد روى عن أبي أيوب الأنصاري، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أفضل الصدقة، الصدقة على ذي الرحم الكاشح»[2].

قال المصنف رحمه الله: وإنما قبلت هذه الصدقة وفضلت لمخالفة الهوى، فإن من تصدق على ذي قرابة يحبُّه أنفق على هواه.

ومنهم من يتصدق ويضيق على أهله في النفقة.

وقد روي عن جابر بن عبد الله، قال: قال رسول الله ﷺ: «أفضلُ الصَّدقةِ ما كان عَنْ ظَهْرِ غِنًى، وابْدأْ بمن تَعولُ»[3]، وعن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «تَصَدَّقُوا»، فقال رجل: عندي دينار، فقال: «تَصَدَّقْ به

---

(١) أخرجه الترمذي (٦٥٨) في الزكاة: باب ما جاء في الصدقة على ذي القرابة. وهو حديث صحيح.

(٢) رواه أحمد (٤٠٢/٣)، وأخرجه الحاكم (٤٠٦/١) عن أم كلثوم بنت عقبة، وقال الحاكم: على شرط مسلم، وأقرَّه الذهبي. والكاشح: القاطع، والعدو المبغض. والكشح: ما بين الخاصرة والضلوع. والجمع: كشوح. يقال: طوى كشحه على الأمر: أضمره وستره. وطوى كشحه على ضغن: أخفاه، وطوى كشحه عنه: أعرض عنه.

(٣) أخرجه مسلم (١٠٣٣) في الزكاة: باب بيان أفضل الصدقة. عن حكيم بن حزام، ولفظه: «أفضل الصدقة ما كان عن ظهر غنى، واليد العليا خير من اليد السفلى، وابدأ بمن تعول»، وأخرجه البخاري (١٤٢٦) في الزكاة: باب لا صدقة إلاَّ عن ظهر غنى. عن أبي هريرة. ولفظه: «خير الصدقة»، ومعنى لا صدقة إلاَّ عن ظهر غنى: أن أفضل الصدقة ما بقي صاحبها بعدها مستغنياً. بما بقي معه. وهذا ترغيب في أن لا ينفق الإنسان كل ما معه.

على نفسكَ». قال: عندي دينار آخر، قال: «تَصَدَّقْ بـه على زوجتِكَ»، قال: عنـدي دينار آخـر، قال: «تصـدَّقْ بـه على ولدِكَ»، قـال: عندي دينـار آخـر، قال: «تصدَّقْ بـه على خادمِكَ»، قال: عندي آخر، قال: «أنتَ أبصرُ بـهِ»[1].

ومنهم من ينفق في الحـج ويلبس عليه إبليس بأن الحـج قـربة، وإنـمـا مراده الرياء والفرجة[2] ومدح النـاس. قال رجـل لبشر الحـافي: أعددت ألفي درهم للحـج، فقـال: أحججت؟ قال: نعم، قـال: اقض دين مـدين، قـال: مـا تميل نفسي إلاّ إلى الحـج، قـال: مـرادك أن تـركب وتجيء ويقـال فـلان حاجي.

ومنهم من ينفق على الأوقـات والـرقص ويـرمي الثيـاب على المغني. ويلبس عليـه إبليس بأنـك تجمـع الفقراء وتـطعمهم، وقـد بينـا أن ذلـك ممـا يوجب فساد القلوب.

ومنهم من إذا جهز ابنته صاغ لها دست الفضة[3]، ويرى الأمـر في ذلك قربة، وربما كانت لـه ختمـة فتقدم مجـامر[4] الفضـة، ويحضر هنـاك قوم من العلماء، فلا هو يستعظم ما فعل ولا هم ينكرون اتباعاً للعادة[5].

ومنهم من يجور في وصيته ويحرم الوارث، ويرى أنه مـاله يتصـرف فيه كيف شاء، وينسى أنه بالمرض قد تعلقت حقوق الوارثين بـه.

وقـد لبس إبليس على الفقراء، فمنهم من يـظهر الفقـر وهـو غني، فـإن أضاف إلى هذا السؤال،والأخذ من الناس فإنما يستكثر من نار جهنم.

---

(١) رواه أبو داود (١٦٩١) في الزكاة: باب صلة الرحم، والنسائي (٦٢/٥) في الـزكاة: باب تفسير الصدقة عن ظهر غنى. بنحوه، وإسناده صحيـح.

(٢) الفرجة: الخلوص من الهم، ومشاهدة ما يتسلى به.

(٣) أي لباس الفضة.

(٤) المجمرة: ما يوضـع فيه الجمر.

(٥) ومعلوم أن استعمال أواني الذهب والفضة حرام.

عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «مَنْ سألَ النّاسَ تَكَثُّراً، فإنَّما يسألُ جَمْراً، فَلْيستقلَّ منهُ أَوْ لِيستكْثِرْ»[1]. وإن لم يقبل هذا الرجل من الناس شيئاً وكان مقصوده بإظهار الفقر أن يقال: رجل زاهد فقد راءى، وإن كتم نعمة الله عنده ليظهر عليه الفقر، لئلا ينفق، ففي ضمن بخله الشكوى من الله.

وإن كان فقيراً محقاً، فالمحتسب له كتمان الفقر وإظهار التجمل، فقد كان في السلف من يحمل مفتاحاً يوهم أن له داراً، ولا يبيت إلاّ في المساجد.

ومن تلبيس إبليس على الفقراء أنه يرى نفسه خيراً من الغني إذ قد زهد فيما رغب ذلك الغني فيه، وهذا غلط، وإن الخيرية ليست بالوجود والعدم، وإنما هي بأمر وراء ذلك.

وقد لبس إبليس على جمهور العوام بالجريان مع العادات، وذلك من أكثر أسباب هلاكهم: فمن ذلك أنهم يقلدون الآباء والأسلاف في اعتقادهم على ما نشؤوا عليه من العادة، فترى الرجل منهم يعيش خمسين سنة على ما كان عليه أبوه، ولا ينظر أكان على صواب أم على خطأ. ومن هذا تقليد اليهود والنصارى والجاهلية أسلافهم، وكذلك المسلمون يجرون في صلاتهم وعباداتهم مع العادة، فترى الرجل يعيش سنين يصلي على صورة ما رأى الناس يصلون، ولعله لا يقيم الفاتحة، ولا يدري ما الواجبات، ولا يسهل عليه أن يعرف ذلك هواناً بالدين، ولو أنه أراد تجارة لسأل قبل سفره عما ينفق في ذلك البلد. ثم ترى أحدهم يركع قبل الإمام، ويسجد قبل الإمام، ولا يعلم أنه إذا ركع قبله فقد خالفه في ركن، فإذا رفع قبله فقد خالفه في ركنين فبطلت صلاته. وقد رأيت جماعة يسلمون عند تسليم الإمام وقد بقي عليهم من التشهد الواجب شيء، وذاك أمر لا يحمله الإمام، فتكون صلاته باطلة.

---

(١) أخرجه مسلم (١٠٤١) في الزكاة: باب كراهية المسألة للناس.

وربما ترك أحدهم فريضة وزاد في نافلة. وربما أهمل غسل بعض العضو كالعقب، وربما كان في يده خاتم قد حصر الإصبع فلا يديره وقت الوضوء، ولا يصل الماء إلى ما تحته، فلا يصح وضوؤه.

وأما بيعهم وشراؤهم فأكثر عقودهم فاسدة، ولا يتعرفون حكم الشرع فيها، وقلّ أن يبيعوا شيئاً إلّا وفيه غش ويغطيه عيب. والجلاء[1] يغطي عيوب الذهب الرديء، حتى إن المرأة تضع الغزل في الأنداء وتنديه[2] ليثقل وزنه.

ومن جريانهم مع العادة أن أحدهم يتوانى في صلاته المفروضة في رمضان، ويفطر على الحرام، ويغتاب الناس، وربما لو ضرب بالخشب لم يفطر في العادة، لأن في العادة استبشاع الفطر.

ومنهم من يدخل في الربا بالاستئجار فيقول: معي عشرون ديناراً لا أملك غيرها، فإن أنفقتها ذهبت، وأنا أستأجر[3] بها داراً وآكل أجرة الدار ظناً منه أن هذا الأمر قريب.

ومنهم من يرهن الدار على شيء ويؤدي الربا، ويقول: هذا موضع ضرورة، وربما كانت له دار أخرى وفي بيته آلات لو باعها لاستغنى عن الرهن والاستئجار، ولكنه يخاف على جاهه أن يقال: قد باع داره أو أنه يستعمل الخزف مكان الصفر[4]. ومما جروا فيه على العادات اعتمادهم على قول الكاهن والمنجم والعراف[5] وقد شاع ذلك بين الناس واستمرت به عادات

---

(١) جلا السيف: صقله.

(٢) ندى الشيء: بلله. والأنداء: جمع ندى. وهو المطر. أو قطرات ماء كالمطر، تُرى عند الصباح على النبات وغيره.

(٣) أي يأخذ الدار رهناً ثم يستثمرها.

(٤) النحاس الأصفر. والخزف: ما عمل من الطين وشوي بالنار فصار فخاراً. واحدته: خَزَفَةٌ.

(٥) الكاهن: من يدعي معرفة الغيب، ويخبر بالحوادث المستقبلة والماضية. والمنجم: من ينظر في النجوم ويستطلع من ذلك أحوال الكون. والعراف: المنجم والكاهن، وقيل: الساحر.

الأكـابر، فقـلّ أن ترى أحـداً منهم يسافـر أو يفصـل ثـوبـاً أو يحتجم إلاّ سـأل المنجم وعمل بقوله.

ولا تخلو دورهم من تقويم(١)، وكم من دار لهم ليس فيها مصحف.

وفي «الصحيـح» عن النبـي ﷺ أنـه سئل عن الكهـان، فقـال: «ليسُـوا بشَيءٍ». فقالوا: يا رسول الله إنهم يحـدثون أحيـاناً بـالشيء يكون حقـاً، فقال رسول الله ﷺ: «تِلكَ الْكلمةُ من الحقِّ يَخطَفُها الجنيُّ فَيُقـرُّ في أُذِنَ وَلِيِّـهِ قَرَّ الدُّجاجةِ. فيَخلِطُونَ فيها أكثرَ من مـئةِ كذبة»(٢).

وفي «صحيـح مسلم» عن النبـي ﷺ أنه قال: «مَنْ أتى عَرَّافاً فسـأَلَهُ عن شيءٍ لم تُقبلْ لـه صلاةٌ أربعينَ ليلةً»(٣).

وروى أبو داود من حديث أبـي هـريرة رضي الله عنـه عن النبـي ﷺ أنه قـال: «مَنْ أتى كـاهنــاً فصـدَّقــهُ بمـا يقــولُ فقـد بَـرىء ممــا أنــزلَ على محمدٍ ﷺ»(٤).

ومن جريانهم مع العادات كثرة الأيمان الحانثة التي أكثرها ظهار(٥) وهم لا يعلمون، فأكثر قولهم في الأيمان: حرام عليّ إن بعت. ومن عـاداتهم لبس الحرير والتختم بـالذهب، وربمـا تورع أحـدهم عن لبس الحريـر ثم لبسه في وقت: كالخطيب يوم الجمعة.

---

(١) لعـل في هذا التقـويم أشياء غيبيـة عن الأيام والليـالي والأعمال المـطلوبـة في ذلـك اليوم.

(٢) أخرجه البخاري (٥٧٦٢) فـي الطب: باب الكهانـة، ومسلم (٢٢٢٨) في السلام: باب تحريم الكهانة. وقرّ الدجـاجة: صـوتها إذا قـطعته. والمعنى أن الجني يقـذف بتلك الكلمة إلى وليه الكاهن.

(٣) أخرجه مسلم (٢٢٣٠) في السلام: باب تحريم الكهانة.

(٤) أخرجه أبو داود (٣٩٠٤) في الطب: بـاب في الكهانـة. وإسناده صحيـح، ولفـظه: «من أتى كاهناً فصدقه بما يقول، أو أتى امرأته حـائضاً في دبرها فقـد برىء مما أنزل على محمد ﷺ».

(٥) الظهار: أن يقول الشخص لامرأته: أنت عليَّ كظهر أمي.

ومن عاداتهم إهمال إنكار المنكر، حتى إن الرجل يرى أخاه أو قريبه يشرب الخمر ويلبس الحرير، فلا ينكر عليه ولا يتغير، بل يخالطه مخالطة حبيب.

ومن عاداتهم أن يبني الرجل على باب داره مصطبة يضيق بها طريق المارة، وقد يجتمع على باب داره ماء مطر ويكثر فيجب عليه إزالته، وقد أثم بكونه كان سبباً لأذى المسلمين.

ومن عاداتهم دخول الحمام بلا مئزر، وفيهم من إذا دخل بمئزر رمى به على فخذيه فيرى جوانب أليتيه، ويسلم نفسه إلى المدلك فيرى بعض عورته، ويمسها بيده، لأن العورة من السرّة إلى الركبة، ثم ينظر هؤلاء إلى عورات الناس، ولا يكاد يغض ولا ينكر.

ومن عاداتهم ترك القيام بحق الزوجة، وربما اضطروها إلى أن تسقط مهرها، ويظن الزوج أنه قد تخلص بما قد أسقطته عنه.

وقد يميل الرجل إلى إحدى زوجتيه دون الأخرى، فيجور في القسم(١) متهاوناً بذلك، ظناً أن الأمر فيه قريب. فقد روى أبو هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه قال: «مَنْ كَانتْ له امرأتانِ يميلُ إلى إحداهُما على الأخرى جاء يوم القيامة يجرُّ إحدى شقيهِ ساقطاً أو مائلاً»(٢).

ومن عاداتهم إثبات الْفَلَس(٣) عند الحاكم ويعتقد الذي قد حُكم له بالفلس أنه قد سقطت عنه بذلك الحقوق، وقد يوسر ولا يؤدي حقاً. وفيهم من لا يقوم من دكانه بحجة الفلس إلّا وقد جمع مالاً من أموال المعاملين،

---

(١) أي يفضل زوجة على أخرى، فيقسم لها أكثر من زميلتها.

(٢) أخرجه أبو داود (٣١٣٣) في النكاح: باب في القسم بين النساء. والترمذي (١١٤١) في النكاح: باب ما جاء في التسوية بين الضرائر. ولفظ الترمذي: «فلم يعدل بينهما، جاء يوم القيامة وشقه ساقط». وهو حديث صحيح.

(٣) فلس القاضي فلاناً: حكم بإفلاسه وهو ذهاب ماله.

فأضر بـه[1] بنفقة في مدة استتاره، وعنده أن الأمر في ذلك قريب.

ومما جروا فيه على العادات أن الرجل يستأجر ليعمل طول النهار فيضيع كثيراً من الزمان، إما بالتثبط في العمل، أو بالبطالة أو بإصلاح آلات العمل، مثل أن يحدّ النجار الفأس والشقاق المنشار ومثل هذا خيانة إلّا أن يكون ذلك يسيراً قد جرت العادة بمثله.

وقد يفوت أكثرهم الصلاة، ويقول: أنا في إجار رجل، ولا يدري أن أوقات الصلاة لا تدخل في عقد الإجارة.

وقلة نصحهم في أعمالهم كثيرة.

ومما جروا فيه على العادة دفن الميت في التابوت وهذا فعل مكروه، وأما الكفن فلا يتباهى فيه بالمغالاة، ينبغي أن يكون وسطاً. ويدفنون معه جملة من الثياب، وهذا حرام، لأنه إضاعة للمال، ويقيمون النوح على الميت، وفي «صحيح مسلم»: أن النبي ﷺ قال: «إنَّ النائحةَ إذا لم تتبْ قبلَ موتِها تُقام يومَ القيامةِ وعليها سِرْبالٌ من قَطِرانٍ ودِرْعٌ منْ جَرَبٍ»[2].

ومن عاداتهم اللطم وتمزيق الثياب وخصوصاً النساء.

وفي «الصحيحين» أن النبي ﷺ قال: «ليسَ منَّا منْ شقَّ الجُيوبَ، ولَطَمَ الخُدودَ، ودَعا بدعْوى الْجاهليةِ»[3]. وربما رأوا المصاب قد شق ثوبه فلم ينكروا عليه، بل ربما أنكروا ترك شق الثوب، وقالوا: ما أثرت عنده المصيبة.

---

(1) من الإضرار.

(2) أخرجه مسلم (٩٣٤) في الجنائز: باب التشديد في النياحة.
والسربال: ما يلبس من قميص أو درع. والقطران: مادة سائلة لزجة تستخرج من الخشب والفحم. والجرب: مرض جلدي يحدث بُثوراً في الجلد وحكّاً شديداً..
ومعنى الحديث أنه يسلط على أعضائها الجرب والحكة بحيث يغطي بدنها تغطية الدرع، وهو القميص.

(3) أخرجه البخاري (١٢٩٤) في الجنائز: باب ليس منا من شقَّ الجيوب، ومسلم (١٠٤) في الإيمان: باب تحريم ضرب الخدود.

ومن عاداتهم يلبسون بعد الميت الدون من الثياب[1]، ويبقون على ذلك شهراً أو سنة، وربما لم يناموا هذه المدة في سطح.

ومن عاداتهم زيارة المقابر في ليلة النصف من شعبان، وإيقاد النار عندها، وأخذ تراب القبر المعظم.

وقال ابن عقيل: لما صعبت التكاليف على الجهّال والطغام[2] عدلوا عن أوضاع الشرع إلى تعظيم أوضاع وضعوها لأنفسهم فسهلت عليهم، إذ لم يدخلوا بها تحت أمر غيرهم. قال: وهم كفار عندي بهذه الأوضاع[3]. مثل تعظيم القبور وإكرامها بما نهى الشرع عنه من إيقاد النيران، وتقبيلها، وخطاب الموتى بالألواح، وكتب الرقاع فيها: يا مولاي افعل بي كذا وكذا، وأخذ التراب تبركاً، وإفاضة الطيب على القبور، وشد الرحال إليها وإلقاء الخرق على الشجر اقتداء بمن عبد اللات والعزى، ولا تجد في هؤلاء من يحقق مسألة في زكاة، فيسأل عن حكم يلزمه، والويل عندهم لمن لم يقبل مشهد[4] الكهف، ولم يتمسح بآجرة مسجد المأمونية يوم الأربعاء، ولم يقل الحمالون على جنازته أبو بكر الصديق أو محمد وعلي، ولم يكن معها نياحة، ولم يعقد على أبيه أزجاً[5] بالجص والآجر، ولم يشق ثوبه إلى ذيله، ولم يرق ماء الورد على القبر، ويدفن معه ثيابه.

وأما تلبيس إبليس على النساء فكثير جداً، وقد أفردت كتاباً للنساء ذكرت فيه ما يتعلق بهن من جميع العبادات وغيرها، وأنا أذكر ها هنا كلمات من تلبيس إبليس عليهن. فمن ذلك أن المرأة تطهر من الحيض بعد الزوال،

---

(١) الدون: الخسيس الحقير.

(٢) أوغاد الناس وأوباشهم.

(٣) وذلك إذا فعلوا هذا مستحلين له، وهم يعلمون حرمته. أما إذا كانوا جهالاً لا يعرفون حكمه، أو ليسوا بمستحلين ذلك، فهم عصاة، وليسوا كفاراً. والله أعلم.

(٤) مكان، أو محضر للناس، ويقصد هنا ضريح أصحاب الكهف أو مقامهم.

(٥) الأزج: البيت يبنى طولاً، ويقصد هنا المرتفع.

فتغتسل بعد العصر فتصلي العصر وحدها، وقد وجبت عليها الظهر وهي لا تعلم، وفيهن من تؤخر الغسل يومين وتحتج بغسل ثيابها ودخول الحمام. وقد تؤخر غسل الجنابة في الليل إلى أن تطلع الشمس. فإذا دخلت الحمام لم تتزر بمئزر[1]، وتقول: ما تدخل إليَّ إلاّ القيِّمة[2]. وربما قالت: أنا وأختي وأمي وجاريتي وهن نساء مثلي فممن أستتر؟ وهذا كله حرام. فإن تأخير الغسل من غير عذر لا يجوز، ولا يحل للمرأة أن تنظر من المرأة ما بين سرتها وركبتها، ولو كانت ابنتها وأمها إلاّ أن تكون البنت صغيرة، فإذا بلغت سبع سنين استترت واستتر منها. وقد تصلي المرأة قاعدة وهي تقدر على القيام، فالصلاة حينئذ باطلة. وقد تحتج بنجاسة في ثوبها من بول طفلها وهي تقدر على غسله، ولو أرادت الخروج إلى الطريق لتهيأت واستعارت، وإنما هان عندها أمر الصلاة، وقد لا تعرف من واجبات الصلاة شيئاً ولا تسأل. وقد ينكشف من الحرة ما يبطل صلاتها وتستهين به.

وقد تستهين المرأة بإسقاط الحبل، ولا تدري أنها إذا أسقطت ما قد نفخ فيه الروح فقد قتلت مسلماً. وقد تستهين بالكفارة الواجبة عليها عند ذلك الفعل، فإنه يجب عليها أن تتوب وتؤدي ديته إلى ورثته، وهي غرة عبد أو أمة قيمتها نصف عشر دية أبيه أو عشر دية الأم، ولا ترث الأم من ذلك شيئاً ثم تعتق رقبة، فإن لم تجد صامت شهرين متتابعين.

وقد تسيء الزوجة عشرتها مع الزوج، وربما كلمته بالمكروه، وتقول: ما خرجت في معصية، ولا تعلم أن خروجها بغير إذنه معصية. ثم نفس خروجها لا يؤمن منه فتنة.

وفيهن من تلازم القبور وتحد لا على الزوج، وقد صح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لا يحلُّ لامرأةٍ تؤمنُ باللّهِ ورسوله أنْ تُحدَّ على ميتٍ

---

(١) المئزر: الإزار. وهو الثوب الذي يستر من السرة إلى أسفل الجسم.

(٢) القيمة: المتولية شؤون الحمام.

إلّا على زوجٍ أربعةَ أشهرٍ وعشراً»[1].

ومنهن من يدعوها زوجها إلى فراشه فتأبى، وتظن هذا الخلاف ليس بمعصية، وهي منهية عنه لما روى أبو هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا دَعا الرجلُ امرأتَهُ إلى فراشه فأبتْ فباتَتْ وهو عليْها ساخطٌ لعنتْها الملائكةُ حتَّى تُصبحَ»، أخرجاه في «الصحيحين»[2].

وقد تفرط المرأة في مال زوجها، ولا يحل لها أن تخرج من بيته شيئاً إلّا أن يأذن لها أو تعلم رضاه. وقد تعطي من ينجم لها بالحصى ويسحر، ومن تعمل لها نسخة محبة وعقد لسان وكل هذا حرام. وقد تستجيز ثقب آذان الأطفال وهو حرام، فإن أفلحت وحضرت مجلس الواعظ فربما لبست خرقة من يد الشيخ الصوفي وتصافحه، فصارت من بنات المنبر، فخرجت إلى عجائب. وينبغي أن نكف عنان[3] العلم اقتصاراً على هذه النُّبْذَة[4] فإن هذا الأمر يطول، ولو بسطنا النبذ المذكورة في هذا الكتاب أو شيدنا[5] ردَّنا على من رددنا عليه بالأحاديث والآثار لاجتمعت مجلدات، وإنما ذكرنا اليسير ليدل على الكثير، وقد اقتنعنا في ذكر فاحش القبيح من أفعال الغالطين بنفس حكايته دون تعاطي رده، لأن الأمر فيه ظاهر، والله يعصمنا من الزلل ويوفقنا لصالح القول والعمل بمنه وكرمه.

* * *

(١) أخرجه البخاري (١٢٨١) و (١٢٨٢) في الجنائز: باب إحداد المرأة على غير زوجها، ومسلم (١٤٨٦) في الطلاق: باب وجوب الإحداد في عدة الوفاة. والإحداد: الحزن وترك الزينة، ولفظه: «لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تحد على ميت فوق ثلاث ليال، إلّا على زوج أربعة أشهر وعشراً».

(٢) أخرجه البخاري (٥١٩٣) في النكاح: باب إذا باتت المرأة مهاجرة فراش زوجها، ومسلم (١٤٣٦) في النكاح: باب تحريم امتناعها من فراش زوجها.

(٣) العِنَان: سير اللجام الذي تُمسك به الدابة، وجمعه أَعِنَّة.

(٤) النُّبْذَة: العطقة من الشيء: وجمعها: نُبَذٌ.

(٥) شاد البناء: أعلاه ورفعه، فهو مَشِيد. والشِّيد: كل ما طُلِيَ به الحائط من جص ونحوه. وشيده: شاده وأحكم بناءه، فهو مُشَيَّد.

الباب الثالث عشر

في ذكر تلبيس إبليس على جميع الناس بطول الأمل

قال المصنف رحمه الله: كم قد خطر على قلب يهودي ونصراني حب الإسلام، فلا يزال إبليس يثبطه ويقول: لا تعجل وتمهل في النظر، فيسوفه حتى يموت على كفره، وكذلك يسوف[1] العاصي بالتوبة فيعجل له غرضه من الشهوات، ويمنيه الإنابة كما قال الشاعر:

لا تعجل الذنب لما تشتهي   وتأمل التوبة من قابل

وكم من عازم على الجد سوفه، وكم ساع إلى مقام فضيلة ثبطه. فلربما عزم الفقيه على إعادة درسه، فقال: استرح ساعة، أو انتبه العابد في الليل يصلي، فقال له: عليك وقت. ولا يزال يحبب الكسل ويسوف العمل ويسند الأمر إلى طول الأمل، فينبغي للحازم أن يعمل على الحزم، والحزم تدارك الوقت وترك التسويف والإعراض عن الأمل، فإن المخوف[2] لا يؤمن، والفوات لا يبعث[3]، وسبب كل تقصير في خير، أو ميل إلى شر طول الأمل، فإن الإنسان لا يزال يحدث نفسه بالنزوع عن الشر والإقبال على الخير، إلاّ أنه يعد نفسه بذلك، ولا ريب أنه من أمل أن يمشي بالنهار سار سيراً فاتراً. ومن أمل أن يصبح عمل في الليل عملاً ضعيفاً، ومن صور الموت عاجلاً جدّ،

---

(١) يماطل.

(٢) المخوف: ما يخاف منه.

(٣) أي لا يرجع ما ذهب.

وقد قال ﷺ: «صَلِّ صلاةَ مُودِعٍ»[1]. وقال بعض السلف: أنذركم «سوف» فإنها أكبر جنود إبليس. ومثل العامل على الحزم والساكن لطول الأمل، كمثل قوم في سفر فدخلوا قرية، فمضى الحازم فاشترى ما يصلح لتمام سفره وجلس متأهباً للرحيل، وقال المفرط: سأتأهب، فربما أقمنا شهراً. فضرب بوق الرحيل في الحال فاغتبط[2] المحترز[3] واغتبط الآسف[4] المفرِّط[5]، فهذا مثل الناس في الدنيا منهم المستعد المستيقظ، فإذا جاء ملك الموت لم يندم. ومنهم المغرور المسوف يتجرع مرير الندم وقت الرحلة، فإذا كان في الطبع حب التواني[6] وطول الأمل، ثم جاء إبليس يحث على العمل بمقتضى ما في الطبع صعبت المجاهدة، إلّا أنه من انتبه لنفسه علم أنه في صف حرب، وأن عدوه لا يفتر عنه. فإن فتر في الظاهر بطن له مكيدة وأقام له كميناً.

ونحن نسأل الله عزّ وجلّ السلامة من كيد العدو، وفتن الشيطان، وشر الدنيا، إنه قريب مجيب، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً إلى يوم الدين، وحسبنا الله ونعم الوكيل، ولا حول ولا قوَّة إلَّا بالله العليّ العظيم.

تمَّ مختصر الكتاب بحمد الله وعونه وحسن توفيقه.

* * *

---

(١) رواه الطبراني في «الأوسط» عن ابن عمر، قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٣٠ / ٢٢٩): وفيه من لم أعرفهم.

(٢) اغتبط الرجل: حسنت حاله وفرح بالنعمة.

(٣) والمحترز: المتوقي من الشيء.

(٤) الأسف: أشد الحزن، وأسف وتأسَّف: حزن وتلهَّف، فهو أسف، وأسفان، وأسيف. واعتبط الأسف: تحير.

(٥) فرَّط في الشيء: قصَّر فيه، فهو مفرِّط.

(٦) التواني: التقصير، وعدم الاهتمام.

فهرس مختصر كتاب تلبيس إبليس

الموضوع	الصفحة

* * *